الإسلام والثقافة العربية

في مواجهة تحديات الاستعمار وشبهات التغريب

أنور الجندي

بسم الله الرحمن الرحيم

منذ سنة ١٩٦٠ وسعت أبعاد دراستى فلم تعد قاصرة على الأدب العربى المعاصر والصحافة العربية :(تاريخهما وتطورهما وأعلامهما)

وأوغلت فى مجال أوسع أفقا وأرحب ، ذلك هو مجال الفكر العربى المعاصر فى لقائه مع الفكر الغربى بشقيه ، ومن هنا أصبحت دراساتى تضم الاجتماع والدين والفلسفة والحضارة والتراث ، بدأ ذلك بكتابى « الفكر العربى المعاصر فى معركة التغريب والتبعية الثقافية » ثم توسع بدراسة فى جزأين « معالم الفكر العربى المعاصر + الثقافة العربية فى معركة التغريب والشعوبية » .

ثم قدمت دراستين متكاملتين :

(١) أضواء على الفكر العربى الإسلامى .

(٢) صفحات من أمجادنا .

ثم كان لابد من استقصاء كامل لما وجه للفكر العربى الإسلامى من شبهات واتهامات ، يتمثل ذلك فى هذا الكتاب .

الترتيب

أولا : الفكر العربي المعاصر في معركة التغريب والتبعية

ثانيا : معالم الفكر العربي المعاصر + الثقافة العربية

ثالثا : الإسلام والثقافة العربية

مطبعة الرسالة
٣ شارع حمودة الفاعل - عابدين

مدخــــل

والحق أننى أحس بأن الفكر العربى المعاصر يعيش « اليوم » فى ضوء التاريخ ، وأننا فى خلال هذه المرحلة من اليقظة الفكرية العربية الباهرة نستطيع أن ننطلق بحرية لتقييم المرحلة الماضية من حياتنا الفكرية ، حيث بدأ بوضوح « الخط الفاصل » بين عصر وعصر ..

بين عصر الاحتلال والنفوذ الاستعمارى والمقاومة والدفاع . وبين عصر الحرية والبناء والنهضة والعدل الاجتماعى وامتلاك الارادة وبروز الشخصية العربية ، والتقدم نحو الصناعة والاله والقوة الحربية والتكنيك والعلم والصاروخ ، فقد امتلكت الأمة العربية إرادتها وبرزت فى التاريخ المعاصر كقوة فعالة قادرة فى مواجهة بقايا النفوذ الاستعمارى ، وبقايا الاستعمار الفكرى والاقتصادى التى تحاول أن تستبقى من نفوذها ما ليس باقيا . ونحن اليوم فى ظل النهضة العربية المصرية التى تنشر جناحيها مظفرة ، نستطيع أن نقيم بحرية كاملة وعلى أساس علمى شامل ، مرحلة تكاملت وانفصلت وأصبحت خاضعة لتقف أمام التاريخ موقف المراجعة . هذه الفترة التى بدأت فى العالم العربى منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين .

فى هذه الفترة ، وفى ظل التيارات الضخمة المتعددة التى إنطلقت من كل مكان ، سواء منها ما ارتبط بالفكر العربى أو بدعوات الشعوبية والتغريب ، أو ما قذفت به أوربا العالم العربى من دعوات ومذاهب مادية أو روحية ، أقليمية ضيقة ، أو قومية أو شرقية أو اسلامية أو طائفية سواء منها ما يرمى إلى التحلل من الدين أو التحلل من قيد اللغة العربية الفصحى ، أو بناء التصور العربى بعيداً عن الإسلام أو عن الدين جملة ، أو فصل الاسلام عن القومية ، هذا الصراع بين المدارس المختلفة فى الفكر العربى وما ألقى إليه من ثقافات فرنسية وانجليزية وأمريكية ، أو إسلامية عربية صادرة عن فهم فقهى أو تصوفى ، أو متصل بمدارس المرسلين ، أو الجامعات ، أو الأزهر ، أو دار العلوم ، أو ما يتصل بالدعوات إلى الفرعونية أو البربرية أو الفينيقية أو الخلاف بين الأديان ، كل

هذه الدعوات التي عاشتها الفترة السالفة « فترة الفعل ورد الفعل ، بالاستجابة أو التحدي بين الاستعمار والتغريب وبين الأمة وفكرها في مقاومة تحديات الاستعمار وشبهات التغريب » كانت في أغلبها رداً مرحلياً لهجوم مركز مقصود من النفوذ الغربي الاستعماري الذي بعث الخلافات القديمة ، وأحيا الشبهات المدفونة ، وأعاد إذاعتها وألهب النفوس بالاتصال بها أو معارضتها .

ولقد كان على هذه الأمة أن تنظر في يقظة وحرص إلى كل هذه الدعوات وتفهم بواعثها وغاياتها ومصادرها ، فإلى جوار كتابات المئات من المؤمنين بأمتهم وفكرها ، فإن هناك عشرات من كتابات الكتاب قد انطلقت لتعبر عن غرض ذاتي من حقد أو خصومة أو كراهية أو ولاء ، دون أن تعتمد أساسا على مفهوم علمي .

كل هذا كان في حاجة إلى دراسة ونظر ومراجعة ، كان علينا أن نكشف للمثقفين بعد أن انتهت هذه المرحلة أن النفوذ الإستعماري لم يكن يهدف من هذه المعركة الضخمة إلا خلق البلبلة والتفرقة والتمزيق الفكري والروحي للأمة العربية عن طريق الفكر والثقافة ، ذلك أن الوحدة كانت ولا تزال هي الخطر الأساسي الذي يواجهه الاستعمار ، ووحدة الأمة لا تتم إلا في ضوء « وحدة فكر » . وما دامت الأمة العربية ممزقة إلى عشرات المذاهب والدعوات والعقائد فإنها ستظل ممزقة لا تتجمع على وحدة حقيقية .

ولقد كان علينا أن نعيش هذه المرحلة من عالمنا العربي ، وفكرنا العربي من خلال دراسة « الإسلام والثقافة العربية في مواجهة تحديات الاستعمار وشبهات التغريب » .

* * *

وقد استطارت الشبهات في مختلف مجالات الثقافة العربية الاسلامية فشملت الإسلام ورسول الاسلام والقرآن والفكر العربي والحضارة العربية الاسلامية وقيم الفكر العربي والسنة واللغة العربية والتشريع الاسلامي والأدب العربي والتاريخ . استطارت هذه الشبهات منذ بدأ الاحتلال والنفوذ الغربي يسيطر على العالم الاسلامي والأمة العربية كوسيلة من وسائل الحرب النفسية ، والقضاء على المقومات الأساسية التي كان مصدرها الفكر العربي الاسلامي ، والتي كانت ولا تزال تحمل طابع المقاومة لكل دخيل وغاز ، مع الجرى في نفس الوقت على سنة الاسلام والفكر الاسلامي الأساسية في التفتح على الثقافات المختلفة مع الحركة والإيجابية والنمو . ولم تكن سيطرة الاستعمار الأوربي على العالم الاسلامي إلا حلقة

عن معركة طويلة ممتدة بدأت فى القرن الخامس الهجرى (القرن ١١م) بالحروب الصليبية ، حيث إستطاع الفرنجة إقامة مملكة على الشريط الساحلى للشام إستمرت حوالى قرنين من الزمان ، وقد قاومها العرب والمسلمون مقاومة فعالة مستمرة حتى قضى عليها . وكان لهذه المعركة دوافع مختلفة أبرزها ذلك الصراع بين فكر الشرق وفكر الغرب ، بالإضافة إلى دوافع الاقتصاد وما التمسته هذه الحروب من شعار لها وهو الدفاع عن بيت المقدس وتخليصه من أيدى المسلمين والعرب .

وانتهت الحروب الصليبية بهزيمة الغرب ولكنها أمدته بقوة جديدة ، فقد أولع المغلوب بتقليد الغالب فنقل حضارته وثقافته ونظمه وتقاليده ، وبدأ فى ترجمة ذلك التراث الضخم والانتفاع به على النحو الذى هيأ لعصر النهضة الأدبية بجزءه الذى استطاع أن يسيطر من بعد على العالم الإسلامى الذى كان قد أصيب بالجمود والضعف وأقفل أبوابه متخلياً عن أبرز مقوماته الفكرية وهى القدرة على الحركة واليقظة والقوة وحماية الثغور والتجدد ، حتى بدأت يقظة العالم الإسلامى منذ داخله ، ومن أعماق الأمة العربية بالدعوة إلى التوحيد كوسيلة لتحرير الفكر الإسلامى من شبهات الجمود والتقليد .

ولعل أبرز الإتهامات التى توجه إلينا أن يقظة العالم الإسلامى والأمة العربية إنما جاءت نتيجة للبعثات التبشيرية والحملة الفرنسية ، ونحن نرى ومعنا كل الأدلة على أن اليقظة الفكرية قد سبقت هذا الغزو الغربى بأمد طويل ، بدعوة التوحيد التى كانت تستهدف التحرر من زيف التقليد وأن هذه الدعوة بدأت قبل وصول الحملة الفرنسية والبعثات التبشرية الأوربية بمائة عام على الأقل .

وقد كانت يقظة الفكر العربى منصبه على تأكيد الحقائق الأساسية للفكر العربى الإســلامى وهو ما قامت عليه الحضارة العربية الإسلامية التى عم ضياءها العالم كله واستمرت تؤثر فيه إلى اليوم ، وهى فى خلاصتها تتمثل فى مبادىء محددة صريحة : أبرزها كرامة الإنسان وحريته ، وامتزاج الروحية بالمادية ، وسيادة العقل (قل هاتوا برهانكم) مع تجدد الفكر بالغربلة وإقصاء القشور والاجتهاد والموائمة مع التطور والزمن والبيئة ، وحمل لواء الحضارة والزيادة فيها . وحماية الوطن والحضارة والتسلح واليقظة للعدو ، والمقاومة

واعتبار الدفاع عن الوطن دفاعاً عن العرض وتغليب السلام والأخوة والمحبة والدعوة إلى العدل الإجتماعى ومساواة الأجناس والمفاضلة بالعمل والتضامن والشورى .

وقد غاضت هذه الأسس فى ظل إمتداد الحكم العثمانى وجموده فى مراحله الأخيرة ، وفى خلال فترة الجمود التى حلت بالعالم العربى الإسلامى ، وكان أبرز ما سيطر على فكر الأمة العربية فى هذه المرحلة فقدان الثقة بالنفس والأحساس بالهوان وكانت الدعوة إلى « التوحيد » علامة على اليقظة ، ومعنى هذا أن يقظة الفكر العربى الإسلامى قد انبعثت من أعماقه وصدرت عن فهم صادق لضرورة استعادته دوره فى الصدارة ، وكانت تلك سنة الفكر العربى الإسلامى منذ فجره ، ينهض ويتحرك ثم تدخل إليه عوامل الانحراف ثم يستعيد كيانه ويجدد مفاهيمه ، ويعاود الحركة .

* * *

ومن هنا كانت محاولة الغرب فى السيطرة على العالم الاسلامى والأمة العربية ، مرة أخرى ، مزودا هذه المرة بسلاح جديد ، هو سلاح القضاء مقومات الفكر العربى الاسلامى أساساً بوصفها القوة التى هزمته فى الحروب الصليبية وردته على أعقابه ، ومن هنا كانت معركة الاسلام والثقافة العربية « أساس » فى تأكيد سيطرته على العالم الإسلامى والأمة العربية وتثبيت قوائم سلطانه وامتداده .

وهدف «التغريب» فى تقدير دعاية هو « وحدة الثقافة العالمية » وهى عبارة خلابة المظهر ، براقة الصورة ، ولكنها تخفى فى أعماقها التعصب ضد الثقافات الإنسانية وشجبها ومحاولة صهرها فى بوتقة الثقافة الغربية ، وقد كانت « الثقافة العربية الإسلامية » التى تتميز بطابعها الواضح البارز المعالم أهم الثقافات التى حرص التغريب على تذويبها والقضاء عليها ، وقد يسمى التغريب بالدعوة إلى التمدين والتحضير للأمم المختلفة ، أو رسالة الرجل الأبيض إلى العالم الملون ، ولكن الهدف الكامن فى أعماق الدعوة هو سوق الناس جميعاً إلى الولاء والعبودية لسيادة الفكر الغربى وإحلال قيمه ومفاهيمه محل القيم الفكرية الثقافية التى يدين بها الشرق والعالم الإسلامى والعرب وأفريقيا ، وهى قيم ومفاهيم تختلف فى جوهرها عن قيم الفكر الغربى ومفاهيمه ، وهناك عشرات من الإيماءات الواضحة الدلالة سواء من الثقافة الفرنسية أو الإنجليزية أو غيرهما من ثقافات الفكر الغربى بشقيه .

والهدف من التغريب كما صوره دعاة الاستعمار والنفوذ الغربى يتمثل فى إنشاء عقلية عامة تحتقر كل مقومات الحياة الإسلامية بل الشرقية ، وإبعاد العناصر التى تمثل الثقافة الإسلامية عن مراكز التوجيه وبذلك يستغنى عن مواجهة الشعور الدينى بالعداوة السافرة» ومن هنا كانت محاولة إثارة قضايا التشكيك وبث اليأس وإذاعة روح القصور والحيرة والقلق فى محاولة لدفع الفكر العربى المعاصر مجال التبعية والانقياد للروح الغربية ، والقضاء على المثل الأعلى للشخصية العربية الإسلامية ، وخلق جو من فقدان الثقة بقيم القرآن والإسلام واللغة العربية والتاريخ والتراث ، واحتقارها وإثارة الشبهات حولها .

وقد حرص التغريب على القضاء أساساً على « الوحدة » : وحدة الفكر ووحدة الأمة وتمزيق الشعوب والأمم من خلال إثارة الدعوات القديمة المدفونة ، وإثارة الخلافات المذهبية والدينية والسياسية والفكرية والقبلية ، هذه الخلافات التى قضى عليها الفكر الإسلامى العربى فى (توحيد) المفاهيم والأذواق والمشاعر والعقليات . وكانت عبارات كل السياسيين الغربيين المعنيين ببقاء النفوذ الأجنبى تشير إلى ضرورة إبقاء العرب والمسلمين بلا وزن ولا تأثير ، وذلك عن طريق القضاء على كل عوامل الوحدة أو الالتقاء ، ومن هنا قول القس سيمون « أن الوحدة تجمع آمال الشعوب السمر ، وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوربية ، ولذلك كان التبشير عاملا مهماً فى كسر شوكة هذه الحركة ، ذلك لأن التبشير يعمل على سلب حركة الوحدة من عنصرى القوة والتمركز اللذين هما فيها » .

ومن هنا كانت الدعوة الدائبة على خلق الفوارق بين أجزاء الوطن العربى بمغايرة مناهج التعليم والثقافة ، وبالابقاء على الفوارق بين البدو والحضر ، وتعزيز اللهجات ، وإثارة النزعات القبليه والمذهبية ، وقد أشار إلى هذا المعنى (موريس برنو) حين قال : «ظهر لى أن معظم الضعف فى الشرق منبعث من تخلفه فى مضمار تنظيم نفسه وتوحيد كلمته » .

وقد أشار الدكتور كرتسيان سنوك هرجرنج الهولندى الذى أمضى سبعة عشر عاماً فى الهند الشرقية الهولندية مستشاراً لحكومة هولندا ، واستطاع أن يدرس قضايا الإسلام وأن يواجه مشاكل النفوذ الهولندى مع ٣٥ مليونا من المسلمين فى (أندونيسيا) . وساح فى البلاد الإسلامية خلال ربع قرن يراقب الحركات الإسلامية . قال : إن المبشرون لا يزالون يتوقعون انضمام كل الأديان إليهم ، أما بالنسبة للاسلام فلا تتحقق أحلامهم ،

لأن الدين الإسلامي سيظل ديناً قوياً نشيطا ، ذلك أن للاسلام شرائع تتعلق بالحياة فى كل أطوارها ، شخصية عمومية ، وفردية اجتماعية ، ومن الحق أن الإسلام فى القرن الماضى تعرى من استقلاله السياسى باعتداء الدول الأوربية عليه ، ونتج عن ذلك أن الإسلام إضطر أن يعدل آرائه وأعماله ، وقد استنتج الباحثون أن القضايا المادية فى الإسلام ، قد تؤدى إلى سقوط الإسلام نفسه ، ولكنى لا أوافقهم على هذا الرأى ، وإذا كان الإسلام قادراً على احتمال ذلك التغيير ، يقدر أن يطبق نفسه على قضايا الحياة الحديثة بطريقة يستطيع بها تابعوه أن يكونوا فى مقدمة الصفوف فى ارتقاء العالم ومدنيته ، والمسلمون لا يقصدون أن يغيروا دينهم وقد احتاطوا أعظم الاحتياط لهذا الأمر الذى أدركه كل المبشرين المتنورين فى أرض الإسلام ، ولا اعتقد أن الدين الإسلامى يسقط أمام الأديان الأخرى ، لأن المسلم محتاط أشد الاحتياط لمقاومة النفوذ الغريب ، وقد يرى أن تدينه بدين سابق ، خطوة إلى الوراء ، وقد تغلغلت الأفكار الأوربية فى كل جهة من الأراضى الاسلامية ولكن لم يجد فيها الشعور الغربى مركزاً ، ولهذا أجرأ على القول بأن المسلمين سيستمرون فى دينهم مهما اتخذوا من التهذيب والمدنية الغربيين ولا يمكن أن يقع انحطاط تدريجى فى الإسلام لأنه توجد بواعث خارجة تعمه فالاسلام قوى لم يضعف ، وقد قتلت فيه الانشقاقات الداخلية ، وزد على ذلك فإن الإسلام يربح أكثر من غيره تابعين له من الوثنية »

ومع هذا الرأى الذى يبديه أحد أقطاب حركة التغريب فان هذه الحركة لم تتوقف .

وقد استغلت حركة التغريب قوى التبشير والاستشراق والتغريب والشعوبية الاستعمار لقتل المقومات التى تحاول أن تجاهد نفوذه أو تحطم قوائمه ، وقد اصطنعت فى هذه المعركة أساليب غاية فى المرونة والذكاء والمكر والدهاء والبراعة ، وكان لابد للقوى اليقظة أن تكشف هذه الأساليب وما أدت إليه من مؤامرت فى مجال تشكيك العرب والمسلمين فى دينهم وفكرهم ومعتقداتهم وتاريخهم ولغتهم ، وإثارة الشبهات حولها جميعا ، وهى شبهات تتجدد مع الزمن ولا تنتهى ، وتصطبغ كل ساعة بلون جديد ، ولكنها فى صميمها تتمثل فى الشبهات الأساسية التى أثارها كرومر فى مصر وليوتى فى المغرب والتى رددها دائماً زويمر وريفان ودنلوب وغيرهم .

وقد عنى عشرات من أعلام الباحثين بدراسة هذه القضايا منفصلة خلال مراحل إثارتها ، ودراسة أخطاء المستشرقين وكتاب الغرب فى هذه المسألة أو تلك ، غير أن هذه الشبهات والرد عليها لم تقدم كوحدة كاملة قبل هذه الدراسة .

ولقد كان النفوذ الأجنبي يفهم أنه يستطيع حين يطبق فى العالم الإسلامى والأمة العربية منهج التغريب أن يجد فى ذلك وسيلة للقضاء على مقومات الفكر العربى الإسلامى ، غير أن الذى حدث كان عكس ذلك تماماً ، فقد أفاد من ذلك الإحتكاك قوة ، وجدد نفسه واصطنع المناهج الحديثة فى إبراز معالمه ، واستطاع أن يبعث من أعماقه قوة قادرة على الحركة ، ومن خلال النفوذ الاستعمارى المسيطر عسكرياً وثقافياً لم يتوقف الفكر العربى عن التجدد والحركة ، وكانت قضيته الكبرى هى الدفاع عن مقوماته ، إزاء تلك الحملة الضخمة التى وجهت إليه ، واستطاع فى نفس الوقت أن ينفتح على الفكر الإنسانى فيهضم ويسيغ منه ما يزيده قوة وحياة . ولقد كان من أبرز عوامل الغبن والعقوق فى الفكر الغربى أن أصر على أنه ليس متصلا بالفكر العربى وأن الحضارة الغربية الحديثة التى برزت فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى إنما كانت إمتداداً للحضارة الرومانية التى هوت فى القرن الرابع الميلادى وأن المرحلة بين الحضارتين قد أطلق عليها فترة القرون الوسطى المظلمة .

والحق أن فترة القرون الوسطى كانت فترة ظلام وانحطاط بالنسبة للغرب وحده أما بالنسبة للعالم الإسلامى فقد كانت مرحلة هامة فى التاريخ الإنسانى كله ، بظهور الإسلام وتوسعه فى خلال قرن واحد من الزمان من حدود الصين شرقاً إلى حدود فرنسا غرباً . وزحفه على أوربا نفسها حتى كاد يطوقها لولا توقف هذا التمدد بمعركة بلاط الشهداء عام ٧٣٢ م .

فقد قام المسلمون والعرب فى ظلمات بربرية القرون الوسطى (الأوربية) بإشمال مصباح الحضارة والمدنية ومن ثم برزت نهضة فكرية وحضارية امتدت ألف عام . فقد كانت أوربا عبارة عن أبراج يسكنها سادة نصف متوحشين ، يفاخرون بأنهم أميون لا يقرأون ولا يكتبون ، وطال عهد الجهالة فى أوربا ولم يبن منها بعض الميل للعلم إلا فى القرن الحادى عشر ، وبعبارة أصح فى القرن الثانى عشر ، ثم طرقوا أبواب العرب يستهدونهم ما يحتاجون إليه (وهذه عبارة جوستاف لوبون) ، ولم يدخل العلم أوربا فى الحروب الصليبية بل دخل بواسطة الأندلس وصقلية وإيطاليا وفى سنة ١١٣٠ م (القرن الخامس الهجرى) أنشئت مدرسة للترجمة فى طليطلة أخذت تترجم إلى اللاتينية أشهر مؤلفات العرب وعظم نجاح هذه الترجمات وعرف الغرب عالما جديداً ، والحق أنه « ما عرفت القرون الوسطى المدنية إلا بعد أن مرت على لسان أتباع محمد » كما قال لوبون .

ومن القضايا التى بدا فيها الغبن والعقوق واضحاً لمكانة الفكر العربى فى الحضارة الحديثة ، إنكار فضل العرب والمسلمين على المنهج العلمى فى البحث الذى يقوم عليه الفكر الإنسانى اليوم ، والادعاء بأن هذا المنهج من إبتداع الفكر الغربى وحده ، والحقيقة المؤكدة أن العرب والمسلمين عرفوا المنهج العلمى وقدموه ووضعوا قواعده وأسسه وطبقوها تطبيقاً منصفاً فى كل ما اتصل بهم من قضايا الفكر ، وأن الفكر العربى الاسلامى قد استمد هذا المنهج أساسا من القرآن الذى أمر على تقديم البرهان « قل هاتوا برهانكم » ومن ثم نشأ فى مجال الفكر العربى ما يسمى بالبحث عن الدليل والنهى عن التقليد وعدم الثقة بالنص إلا بعد مطابقته للعقل وإقرار مصدره ، وقد وصل الفكر العربى الإسلامى فى ذلك إلى غاية النضج والقوة ، وعندما ترجمت آثار اليونان والإغريق — تفتحاً من الفكر الإسلامى وقدرة على الإستيعاب والإنتفاع بآثار الفكر الانسانى — لم يأخذها المفكرون المسلمون قضايا مسلماً بها ولكن ناقشوها وراجعوها وقبلوا منها ورفضوا ، ثم أضافوا إليها إضافات حية مهدت لفنون التطور التى بلغتها من بعد . ومن وثائق أعلام الفكر العربى الإسلامى : إبن الهيثم والبيرونى والقاضى عياض وجابر بن حيان والجاحظ وابن حزم ، يتكشف هذا المعنى واضحاً فى اكتمال منهج البحث العلمى على أساس : قصر البحث العلمى على المشاهدة والتجربة وجمع المشاهدات ونتائج التجربة وربطها وتبويبها ، وتمحيص هذه النتائج وربط تلك الحقائق على النحو الذى يجعلها تصبح قانونا طبيعيا أو نظرية علمية واستنباط النتائج التى تفضى إليها وبحث صحة تلك النتائج وتأكد مطابقتها للواقع .

* * *

وقد استطاع الفكر العربى الاسلامى الحديث فى مجال الدفاع عن مقوماته أن يؤكد هذه الحقائق ومن ثم فقد التزم بها بعض العلماء الغربيين المنصفين . ونبع تيار جديد من النظرة المحايدة والمنصفة للفكر العربى الإسلامى ، غير أن هذا التيار مازال مجراه ضعيفا ، أزاء القوى الغازية الضخمة المتسلطة على الفكر العربى ، مؤيدة بسلطان النفوذ الاستعمارى الذى كان يحاول أن يحقق هدفين :

(١) الأول : انتزاع مقومات الفكر العربى الإسلامى من العالم الإسلامى والأمة العربية وذلك بالتشكيك فيه وإثارة الشبهات حوله كوسيلة لفرض منطق فكره ومقومات ثقافته

وبذلك تسيطر الثقافة الغربية وتصهر فى بوتقتها مختلف الثقافات ، وفى مقدمتها الثقافة العربية الإسلامية التى تختلف أساسا فى جذورها ومقوماتها عن الثقافة الغربية المستمدة من الوثنية اليونانية والشريعة الرومانية والمسيحية الغربية .

(٢) محاولة إسقاط نفوذ الفكر العربى الإسلامى المستمد من القرآن والإسلام وحياة النبى محمد ، هذا النفوذ الذى إستطاع فى خلال قرن من الزمان بدافع من مقوماته أن يسيطر على عالم ضخم واسع ، وإن هذا الفكر قادر على الانبعاث مرة أخرى فى جولة جديدة إذا عاد إلى تمثيل مفاهيمه الانسانية وقيمه الأصيلة وإلى التماس القوة العسكرية والصناعية وتمكينه من الحصول على مقومات التكنيك .

ومن هنا كان الخطر الذى يواجه الغرب والحضارة الغربية ، الذى توسع بالاستعمار وسيطر على أغلب مناطق العالم الاسلامى والأمة العربية وامتص مقدراتها الاقتصادية ، وحاول أن يذيبها فى بوتقة النفوذ الغربى الفكرى والاجتماعى ، هذا الخطر يتمثل فى قدرة الأمة العربية التى هى القوة الصامدة للدفاع عن مقومات الفكر العربى الاسلامى وحمايته والكشف عنه ، كمقدمة لمرحلة تالية هى التعريف بهذا الفكر وهذه الثقافة كقوة دافعة للانسانية وتحريرها من الاستعباد والتفرقة العنصرية وبناء الكيان الانسانى بناءاً يجعله قادراً على حمل أمانة الحضارة وانتزاعها من براثن الاباحة والتحلل ، وتحرير العقل الانسانى من الالحاد والوثنية .

فى ظل المفاهيم يبدو أهمية مواجهة تحديات الاستعمار وشبهات التغريب فى مجال الاسلام والثقافة الغربية كوسيلة إلى تحرير الفكر العربى الاسلامى ودفعه إلى الأمام ليكون قادراً على حمل أمانة اليقظة والنهضة الثورية العربية التى تزدهر اليوم فى قلب الأمة العربية ، وتمتد إلى مختلف أجزاءه بل وتتعداه إلى أطراف العالم الاسلامى ، هذه النهضة التى تحمل لواء أمانة الفكر العربى الاسلامى ومقوماته مع السيطرة على عوامل القوة العسكرية والصناعية والتكنيك ، لاقامة مجتمع جديد قادر على العمل لاعادة هذه الأمة وهذه الثقافة إلى مكانها الحق ؛ مكان الصدارة والتفاعل وتقديم جوهر الفكر العربى الإسلامى إلى الإنسانية .

موضوعات البحث

صفحة

مدخل ٣
الكتاب الأول : « تحديات الاستعمار » ١٤
مقاومة الاستعمار ٢٣
معركة الفكر ٢٩
التجديد والبعث وفتح باب الاجتهاد ٣٦
تياران في الفكر الإسلامي : الثورة السياسية والتربية ٤١
خطان متوازيان : السلفية والصوفية ٤٦
الاجتهاد والتقليد ٥٢
الإسلام بين المقاومة والتمدد ٥٧
تحديات في وجه الفكر الإسلامي ٦٢
الدفاع ورد الفعل ٦٨
الكتاب الثاني : « من الاستعمار إلى التغريب » ٧٨
الاستعمار والتغريب ٧٩
(١) حركة التبشير ٨٣
(٢) حركة الإستشراق ٩٩
(٣) حملة الغرب على الإسلام والعرب ١١١
(٤) مقاومة التغريب ١١٧
الكتاب الثالث : « حركة التغريب » : مخططها ودعاتها ١٣٣
(١) فولتير : تمثيلية محمد ١٣٨
(٢) كرومر : تغريب الفكر العربي ١٤١
(٣) المارشال ليوتي : مهاجمة اللغة العرب والإسلام ١٥٤
(٤) الكردينال لافيجري ١٥٧
(٥) دنلوب : تغريب التعليم والتربية ١٦١
(٦) إرنست رينان : الإسلام والتقدم ١٦٦
(٧) دوق داركور : مصر والمصريون ١٧٨
(٨) جبرائيل هانانو ١٨١
(٩) صمويل زويمر ١٨٣
(١٠) مرجليوث ١٩٠
(١١) لورانس : الأعمدة السبعة ١٩٦
(١٢) هنري لامنس ١٩٩

صفحة

(١٣) لويس شيخو ٢١٣
(١٤) لويس برتران ٢١٥
(١٥) وليم ويلكوكس : الدعوة إلى العامية ٢١٦
(١٦) فنسنك . دائرة المعارف ٢١٨
(١٧) جلوب : الفتوحات العربية الكبرى ٢٢٤
(١٨) جولد تسيهر ٢٢٦

الكتاب الرابع : « شبهات التغريب » ٢٢٦

(١) شبهات حول نبي الإسلام ٢٣٣

(٢) شبهات حول الإسلام والفكر العربي الإسلامي ٢٤١

(١) الإسلام والمدنية ٢٤٢
(٢) هل الإسلام عائق عن الثقافة ٢٤٤
(٣) الإسلام والتقدم ٢٤٦
(٤) الإسلام وحرية الفكر ٢٤٨
(٥) الإسلام والعالم ٢٤٩
(٦) الإسلام والعلم ٢٥٠
(٧) عقائد الإسلام ٢٥٣
(٨) الإسلام والفكر العربي القديم ٢٥٤
(٩) اضطهاد الفكر ٢٥٥
(١٠) الإسلام والفروسية ٢٥٧
(١١) الإسلام والتصوير والرسم ٢٦٠
(١٢) الإسلام ونفسيات الشباب ٢٦١٠
(١٣) النفسية العربية ٢٦٣
(١٤) الفكر العربي الإسلامي فكر تجديدي ٢٦٦
(١٥) مدنية الإسلام والعناصر غير العربية ٢٦٦
(١٦) جوهر الفكر العربي الإسلامي ٢٦٨
(١٧) شبهة التعصب ٢٧١

(٣) شبهات حول السنة ٢٧٩

(٢) المستشرقون والسنة ٢٨٥
(٣) شبهات حول الشريعة الإسلامية والفكر الروماني ٢٨٨
(٤) بين الشريعة والفكر الروماني ٢٨٩
(٥) شهادات للشريعة الإسلامية ٢٩٥

صفحة

(٤) شبهات التمدن وما قبل الإسلام ومفهوم الشرق ٣٠٠
(٣) شبهات حول القرآن الكريم ٣٥٤
(٤) شبهات حول اللغة العربية ٣١٦

(٥) شبهات حول الأدب العربي ٣٢٢
(٢) ألف ليلة ، الأغاني ، الرباعيات ٣٢٨
(٣) القصة ٣٣٢
(٤) الفلسفة الإسلامية ٣٢٦

(٦) شبهات حول « التاريخ العربي الإسلامي » ٢٤٠
(١) « مرحلة الضعف والتخلف » ٣٤٧
(٢) التاريخ بين منهجين « الرد على توءبي » ٣٥٤
(٣) تحامل الغرب على تاريخ العرب والإسلام ٣٥٨
(٤) التاريخ والحضارات ٣٦٠
(٥) معركة بلاط الشهداء ٣٦٢
(٦) حريق مكتبة الاسكندرية ٣٦٤
(٧ و ٨) مناقشة الكتب والمؤلفات (آثار جرجي زيدان) ٣٧١
× تاريخ العرب قبل الإسلام ٣٧١
× تاريخ التمدن الإسلامي ٣٧٢
× تاريخ العرب « فيليب حتي » ٣٧٨

(٧) وجهة نظر تغريبية في قضايا الفكر العربي ٣٨١
(١) الدين والضمير ٣٨٢
(٢) مفهوم الجهاد ٣٨٤
(٣) تجزئة مفهوم الإسلام ٣٨٦
(٤) تحرير البحث الادبي من الدين والقومية ٣٨٩
(٥) الخلاف بين التاريخ والقصة في القرآن ٣٩٣
(٦) جذور الشعوبية ٣٩٤
(٧) دور الشعوبية في التاريخ ٣٩٦
(٨) فلسفة التاريخ ٣٩٧

الكتاب الأول

تحـــديات الاستعمار

(هذا الفصل كتب عام ١٩٦٢ ونشر في أول مقال لي في مجلة منبر الإسلام في بداية عهدي به)

واجه « العالم الاسلامى » المعركة مع الغرب منذ تسعة قرون فى ثلاث مَراحل :

المرحلة الأولى : عن طريق الحروب الصليبية فى حملات متصلة ، فقد خرجت جحافل الفرسان الأوربيين فى تسع حملات اتجهت إلى العالم الاسلامى ميممة شواطىء تركيا والشام وفلسطين ومصر والمغرب منذ عام ١٠٩٨ حتى عام ١٢٥١ ثم كانت حملة المغرب عام ١٢٧١ .

المرحلة الثانية : على أثر قيام الدولة العثمانية فى تركيا ، واستهدفت القضاء على الاسلام فى الأندلس واجلاء العرب المسلمين منه منذ عام ١٤٩٠ حتى عام ١٦١٠ حيث حققت اجلاء العرب المسلمين عن أسبانيا بصفة نهائية .

المرحلة الثالثة : بالقضاء على الدولة العثمانية وقد بدأت المعركة على أثر هزيمة الأتراك فى معركة (سان جوتارد) فى حصار فينا عام ١٦٦٨ وهى المعركة الكبرى التى امتدت حتى قضت على الامبراطورية العثمانية عام ١٩١٧ .

وقد كانت المراحل الثلاث للمعركة الكبرى بين العالم الاسلامى والغرب تمثل العمل الكبير الذى استهدف السيطرة على العالم الاسلامى والقضاء عليه كقوة فعالة لها وزنها فى المجال العالمى .

هذا بينما كان للعالم الاسلامى دوره الفعال فى القضاء على حملة التتار التى امتدت فى مدى مائة وثلاث وسبعين عاما (١٢١٤ — ١٣٨٧) وكادت أن تزحف إلى أوربا لولا مقاومة المسلمين وهزيمتهم لها على حدود مصر وفى خلال هذه المرحلة الأخيرة كانت أوربا قد زحفت فى صورة الكشف والتجارة إلى شواطىء العالم الاسلامى .

وسبقت البرتغال دول أوربا إلى المحيط الهندى . وأرست مراكبها على شواطىء الهند فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ، وتلتها هولندا فاستقرت فى الخليج الفارسى ومصائد اللؤلؤ . ثم اقتحمت فرنسا هذه الشواطىء بعد لأى فاستقرت فى الهند إلى أن زاحمتها انجلترا واستطاعت بعد قليل اجلاءها . وبدأت بريطانيا الحرب مع الهند سنة ١٧٥٦ وفى عام ١٨٥٨ تحولت شركة الهند الشرقية التى أسستها انجلترا فى الهند إلى حكومة . وقبل هذا بقليل فى عام ١٧٩٨ تحرك نابليون من شواطىء فرنسا إلى حوض البحر الأبيض ميمما « الاسكندرية » تملأ نفسه مطامع ضخمة وآمال واسعة فى أن يقيم امبراطورية فى الشرق . وظهر الانجليز عسكريا وسياسيا فى البحر الأحمر عام ١٧٩٢ وفى عام ١٨٢٦ احتلوا عدن ، وفى عام ١٨٣٠ وضعت فرنسا يدها على الجزائر .

وتوالت الأحداث عام ١٨٧٠ : فتحت قناة السويس للملاحة الدولية وبدأ الصراع بين فرنسا وبريطانيا يأخذ صورة جديدة . وفى نفس العام وقف « غلادستون » فى البرلمان الانجليزى وهاجم المسلمين ووصف كتابهم بأنه الحائل دون سيطرة النفوذ البريطانى .

وكانت «الدولة العثمانية» هى النقطة التى ركز عليها الاستعمار الغربى ، باعتبارها القوة المسيطرة فى العالم الاسلامى . فقد ظلت تركيا تتوسع فى أوربا إلى عام ١٦٦٨ فى عهد السلطان محمد الرابع عندما هزمت أمام أوربا فى معركة (سان جوتارد) بعد حصار (فينا) وارتداد المسلمين عنها . ثم توالى انتزاع الغرب لأقطاره التابعة للامبراطورية ، فسقطت المجر وسلمت بلغراد ، وإلى عام ١٦٨٥ استعاد البنادقة كريت والمورة . وأخذت روسيا أندروف . وسيطرت على الملاحة فى البحر الأسود بعد سنوات فى أوائل القرن التاسع عشر .

وكان التوسع التركى فى أوربا قد بدأ عام ١٣٦١ م وامتد حتى عام ١٥٢٢ عندما بلغ (بلغراد) فى نفس الوقت الذى كانت أسبانيا تشن حملتها على المسلمين والعرب فى الأندلس . وقد بدأت دعاية واسعة ضد الأتراك العثمانيين فى أوربا ، أخذت مسحة دينية . . فلما بلغت القوات التركية أبواب فينا ، زاد الفزع وبلغ مداه وأرسل لويس الرابع عشر ملك فرنسا ستة آلاف جندى لمقاومة الزحف العثمانى ، وبدأت فرنسا فى نفس الوقت ضرب تونس والجزائر بالمدافع .

•

ومضت الدول الأوربية فى زحفها نحو مركز القيادة فى العالم الاسلامى . تطلعت روسيا إلى السيطرة على البسفور ، وزحفت انجلترا وهولندا وغيرهما لبسط نفوذها عن طريق قناصلها بواسطة الامتيازات ، وأثارت الدول الأوربية فتنا وقلاقل متواصلة فى البلقان والمجر وبولندة واضطرد النفوذ الأجنبى واتصل ، حتى بلغ أقصى مداه حتى كانت تركيا العثمانية فى سنواتها الأخيرة منطقة نفوذ لكل دولة .

أما فرنسا فقد أججت الفتن فى شرق البحر الأبيض وتفاقمت الثورة حتى أدت إلى المجازر العنيفة التى انتهت بتوقيع المعاهدة الفرنسية العثمانية عام ١٥٣٥ ، التى اعترفت تركيا فيها بحق فرنسا فى حماية النصارى اللاتينيين وحماية المنشئات الكاثوليكية والأماكن المقدسة كذلك وتشمل حماية الروم واليونان والكلدان والأرمن والموارنة .

ولم يلبث قيصر روسيا إلا قليلا حتى استطاع عقد معاهدة (تيتازجة) عام ١٧٤٠ بحق حماية النصارى الأرثوذكس أى الروم غير الكاثوليك والأرمن ، ونالت روسيا بهذه المعاهدة أراضى واسعة فى شمال القدس وعملت على معارضة البابوية فى مساعيها المتواصلة لتوحيد الكنيسة الشرقية .

وتضمن مؤتمر برلين اعترافا بحقوق فرنسا التقليدية فى الشرق ، واعتبر الامبراطور غليوم نفسه بعد زيارته للقدس عام ١٨٩٧ حاميا للكاثوليك الألمان .

ومضت فرنسا وانجلترا تؤججان الصراع الطائفى عملا على إيجاد ثلمات واسعة فى جسد الدولة العثمانية ، فقد ساعدت فرنسا الموارنة وساعدت بريطانيا الدروز على النحو الذى أدى إلى فتنة ١٨٦٠ رغبة فى زيادة التدخل وفرض السيطرة ثم توالت ثورات البلقان واليونان والهرسك ثم وقعت ثورة الأرمن وحوادث كريد .

وكانت هزيمة الأتراك العثمانيين عند أبواب فينا على يد سوبيسكى ملك بولندة علامة على تحطم خط المقاومة ، وتقدم الغرب فى زحفه نحو الاستيلاء على العالم الاسلامى .

٢ — وفى الهند أخذ الزحف الأوربى طابع الكشف الجغرافى والتجارة فقد بدأ باقامة مراكز تجارية فى الموانى أصبحت من بعد شركات . وقد احتاجت هذه الشركات إلى قوات تحمى تجارتها ، وبدأ احتلال الهند بالفرنسيين أولا فى النصف الثانى من القرن السابع عشر

ثم تطورت البعثات التجارية إلى بعثات حربية وسارع الانجليز فاحتلوا مراكز هامة فى مدراس وبومباى وكلكتا واضطرت فرنسا تحت ضغط ظروف حروب أوربا إلى التخلى لبريطانيا عن مراكزها هناك .

وبدأ الانجليز الحرب فى الهند عام ١٧٥٦ مع امبراطور دلهى المسلم . ومن ثم عمل الانجليز على اضعاف سلطان المسلمين الذين قاوموهم مقاومة ضخمة حتى قال لورد النبرو : أن العنصر الاسلامى عدو أصيل العداوة لنا وأن سياستنا الحقة يجب أن تتجه إلى تقريب الهندوك .

٣ — وفى فارس ظل الصراع قائما بين النفوذين الروسى والبريطانى . وفى أوائل القرن التاسع عشر تحالفت إيران مع بريطانيا حيث عقد الشاه محالفة سياسية مع مندوب شركة الهند الشرقية تعهدت فيها الشركة بامداد فارس بالأسلحة والمال فى حالة الاعتداء عليها من جانب الأفغان أو فرنسا وذلك على ألا يعقد الشاه صلحا مع الأفغان ما لم تنزل عن مطامعها فى الهند .

وفى عام ١٨٥٦ عقدت إيران محالفة عامة مع بريطانيا تعهدت فيها بالغاء جميع الاتفاقات مع الدول المعادية لبريطانيا ثم تحول الموقف عندما شهرت انجلترا الحرب على فارس عام ١٨٥٦ بعد مهاجمتها هرات (الأفغانية) والاستيلاء عليها ثم بدأ السباق بين انجلترا وروسيا على كسب الامتيازات فى إيران وأمدت الحكومة الروسية بالقروض كما أمدتها بريطانيا فى مقابل حصول كل منهما على بعض الامتيازات كالدخان ورهن المكوس والبترول .

وقد ظل هذا الصراع قائما حتى حسم بالاتفاق الودى الذى عقد بين بريطانيا وروسيا عام ١٩٠٧ حيث اعترفت روسيا بمصالح الانجليز فى الخليج الفارسى واعترفت بريطانيا باعتبار الجزء الشمالى من إيران منطقة نفوذ لروسيا .

٤ — وزحف البرتغال فالهولنديون والفرنسيون والانجليز إلى «الجزر الأندونيسية» ، وكانت هذه المنطقة أول ما اتجه إليه الزحف الغربى على آسيا والعالم الاسلامى ، ففى نهاية القرن الخامس عشر وصل البرتغاليون إلى هناك ثم تبعهم الهولنديون ثم الانجليز فالفرنسيون .

وقد هزمت هولندا فى أوائل القرن التاسع عشر وانسحبت من المنطقة ، غير أنها عادت بعد هزيمة نابليون فى «واترلو» فاستعادت مستعمراتها وتم الاتفاق عام ١٨٢٤ على تسوية مع بريطانيا اقتسمتا بها النفوذ .

٥ — وفى العالم العربى بدأت بريطانيا سيطرتها عليه بحجة أنه طريق الهند . وأخذت تنفذ خطتها بعد الحملة الفرنسية مباشرة بمحاولة الاستيلاء على مصر عام ١٨٠٧ (حملة فريزر) فلما تم حفر قناة السويس سنة ١٨٦٩ تأكد العمل لدعم النفوذ بالاستيلاء على أسهمها سرا بواسطة صفقة دزرائيلى المشهورة التى حققت لبريطانيا نفوذا واضحا فى هذا المجرى النهرى ثم كان احتلال بريطانيا لمصر عام ١٨٨٢ والاستيلاء على السودان عام ١٨٩٩ .

وقد أولت بريطانيا اهتمامها للخليج الفارسى والبحر الأحمر واستولت على سلطناته وإماراته وربطتها بمعاهدات وأقامت حراسة بحرية على هذه المشيخات والامارات .

وبدأ صراع تقليدى بين فرنسا وبريطانيا على مناطق النفوذ فى العالم العربى وقاومت بريطانيا بالاشتراك مع الغرب أية قوة جديدة ناهضة ، وبالرغم من أن فرنسا وقفت فى صف محمد على وخاصمته بريطانيا ، فإن أوربا كلها تجمعت للقضاء على أسطول مصر فى « نافارين » ثم قضت الدولتان على محمد على نفسه بتآمرهما عليه فى الشام .

ولم تلبث بريطانيا أن زادت شقة الخلاف بين الأتراك والعرب لمصلحتها ثم مزقت وحدة العرب ثم عقدت مع فرنسا واتفاقا وديا اعترفت فيه كل منهما للأخرى بنفوذها ، بريطانيا فى مصر وفرنسا فى تونس . وبعد الحرب العالمية الأولى وضعت بريطانيا يدها على العراق وفلسطين والأردن .

٦ — أما فرنسا فقد بدأت جولتها فى العالم الاسلامى بحملة نابليون ثم ركزت عملها فى منطقة المغرب العربى وبدأت باحتلال الجزائر عام ١٨٣٠ وتوسعت فى تونس والجزائر . واستطاعت بعد الحرب العالمية الأولى أن تستولى على سوريا ولبنان .

وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى دخلتها تركيا فى صف ألمانيا ، فى نفس الوقت الذى آزر العرب بريطانيا وفرنسا . وكانت هزيمة ألمانيا هزيمة لتركيا ونهاية للامبراطورية

العثمانية . وتقسيما لمناطق نفوذها . فلم يلبث العالم العربى كله أن سقط تحت النفوذ البريطانى والفرنسى ما عدا ليبيا التى احتلتها إيطاليا وجزءا من المغرب الأقصى احتلته أسبانيا . وبقيت الحجاز ونجد واليمن غير محتلة .

وهكذا أوفت مرحلة الغزو الغربى للعالم الاسلامى على أعلى درجة من درجات السيطرة . ولم يكن صدور « وعد بلفور » بجعل فلسطين وطنا لليهود إلا خاتمة هذه الخطة الخطيرة .

وبعد ، فماذا كان موقف العالم الاسلامى من الغزو الاستعمارى الغربى الذى استمر أكثر من قرن ونصف قرن حتى أخذ صورته الكاملة بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ باجراء التقسيم له عن طريق الاحتلال والانتداب والمعاهدات العسكرية وتوزيع النفوذ فى مناطقه المختلفة .

هل استسلم العالم الاسلامى لمعركة الغزو والتوسع الغربى ؟ أم واجهها بكفاح ونضال بالغ الاصرار والعزيمة فى سبيل المقاومة وهو الأعزل ، مقدما دمه وروحه فى معركة غير متكافئة .

مقاومة الاستعمار

هاجم الغرب العالم الإسلامى وألح عليه بالفتح والاستعمار وبسط النفوذ باسم التجارة مرة وباسم المعاهدات مرات ، فى معركة طويلة الأمد ، بدأت فى شواطىء الهند وخليج العرب وسواحل الإسكندرية والجزائر ثم امتدت حتى استقرت فى أواخر الحرب العالمية الأولى على تقسيم كامل للعالم الإسلامى بين قوى الاستعمار .

ولكن هل استسلم العالمُ الإسلامى لمعركة الغزو والتوسع الغربى ؟

الواقع أن العالم الإسلامى لم يستسلم مطلقا ، ولم يذعن ، بل واجه المعركة بقوة ، ورد على التحدى بالمقاومة ، لم تكن المعركة متكافئة ، كان الغرب فيها يحارب بالأسلحة الحديثة والعلم والحملات التبشيرية وأساليب المكر ومخطط كامل مدروس من الوعود والأكاذيب والإغراء بالمال والمرأة ، بينما كان الجانب المعتدى عليه لا يملك غير الأجساد المتراصة ، يقدمها فداء لوطنه ، والدماء الزكية يسكبها مضحيا بها على مذبح الحرية .

وكان الغرب قد أستيقظ ونهض من غفوة القرون الوسطى ، مسلحا بالعلم الذى حفظه العرب وزادوا فيه فى مختلف مجالات الكيمياء والطب والفلك وزيادة البحار ، بينما كان العالم الاسلامى قد غرق فى ظلمات الجمود والتأخر وانفصل عن العالم ، وضعفت قوته العسكرية ، وتسلط عليه الملوك والأمراء ، وتحول العلماء إلى خدام للحكام الظالمين .

ومع ذلك فإن « ناقوس اليقظة » فى العالم الاسلامى لم يدقه الغرب كما ردد كتاب الغرب حين أدعوا أن هذه اليقظة إنما جاءت على أثر الحملة الفرنسية على مصر .

ذلك أن أول صيحة لليقظة والحرية إنما كانت هى دعوة (محمد بن عبد الوهاب) إلى تجديد الاسلام والعودة إلى منابعه الأولى حوالى عام ١٧٤٠ وبذلك سبقت حملة نابليون بأكثر من ستين عاما .

أما الحملة الفرنسية (١٧٩٨) فقد نبهت العالم الاسلامى إلى مدى الخطر الذى بدأ يتعرض له ، والذى توالى فيما بعد فى صور مختلفة من الاحتلال للأجزاء الحساسة فى البحرين الأبيض والأحمر وخليج العرب .

هنا هبت المقاومة تواجه النفوذ الغربي قوية جارفة ، وكانت راية الجهاد تحمل طابع الاسلام من أجل حماية الأوطان . ويمكن أن توصف هذه الفترة حتى أواخر الحرب العالمية الأولى بأنها « الجهاد الوطني ذو الطابع الديني » فإن كل الحركات التي قامت كان قادتها من العلماء المؤمنين بحق وطنهم في الجهاد ،الفاهمين لمهمة الحاكم ، وحق الشعب : أمثال عمر مكرم في مصر ، ومن هذه الدعوات السنوسية في ليبيا والمهدية في السودان ، وحركة الشيخ شامل في القوقاز . فقد امتزج في هذه الحركات الطابع الديني بالكفاح الوطني وكان الباعث الاسلامي بعيد المدى في انجاح هذه الحركات ودفعها بقوة ،وفي ظل بطولة الأبطال واندفاع المئات إلى الاستشهاد نجحت حركة المقاومة نجاحا هز المستعمرين ، واستطاعت هذه القوى المجردة من الأسلحة الحديثة أن تقاوم في عنف وصرامة ، وأن تنال من القوات المحاربة المغيرة وفي هذه الفترة تبدو عشرات من صور المقاومة الرائعة :

* * *

ففي مصر صعد عمر مكرم إلى القلعة ، عندما علم بقدوم الفرنسيين إلى سواحل الاسكندرية — حيث أنزل ما اسمته العامة « البيرق النبوى » وسار به حتى بلغ بولاق شاقا قلب القاهرة وقد تجمع حوله الألوف من الشباب حيث بدأت معركة لم تتوقف ثلاث سنوات كاملة ومضى يستنفر الناس في قوة لمقاومة القوة الغازية ، فاندفع الناس تاركين أعمالهم وبيوتهم ، وقد عمدوا إلى إقامة المتاريس ونصب المدافع ، وحفر الخنادق ، وتحصين المدينة ، وكان مكرم في خلال المعركة ينتقل بين أبواب الحارات ومراكز التشكلات يشجع المحاصرين ويرفع من روحهم المعنوية .

وفي خلال هذه السنوات الثلاث للحملة لم يذعن الشعب يوما . أقام لهم نابليون المهرجانات فقاطعوها ، ووضع على أكتاف العلماء الأوشحة فرفضوها ، وألقوا بها إلى الأرض وداسوها ،ومضوا في الثورة والمقاومة .

وفي الاسكندرية كان « محمد كريم » يقاوم ويغذى القوى المختلفة للتدرب على السلاح ويسبق الحملة الفرنسية إلى كل قرية يحرض أهلها على المقاومة ويمنعهم من تموين الجيش الفرنسي بالماء أو الدواب أو الانفار . وكان محمد كريم قد رفض أن يسلم المدينة دون دفاع ،

وأراد نابليون أن يكسبه إلى صفه فأعاد له سيفه ، ولكنه لم ينجح فى اغرائه ، لم يلبث أن واصل العمل يثير الأهلين فى شمال الدلتا ونظم من عربان البحيرة فرقا للمقاومة والاغارة على الجيش الفرنسى أثناء تحركاته .

وصمد الشعب صمودا عجيبا فى ثورات القاهرة الثلاث . وقدم ضحاياه بالألوف . الألوف الذين فتكت بهم القنابل الفرنسية ، ومضى يقاوم فى ثبات . ولم يستسلم : كانت صرخة عمر مكرم تدوى فى أنحاء البلاد : «أن السلاسل شر من الحراب» وفى إحدى الثورات زحفت الجموع صوب مخازن الفرنسيين على ساحل النيل فى امبابة فاشتبكوا فى معركة خاطفة انتهت بانتصار الثوار واستيلائهم على المخازن . ومضى الأهالى إلى غزو الفرنسيين فى قلاعهم .

وبدأت المعركة فى عنف . وتوالت القنابل على الثوار . وجرت الدماء وتهدمت المنازل ، ولم يكف الشعب عن المقاومة . وقضت القاهرة يومين فى جحيم ، وهاجم الثوار منزل المحافظ مصطفى أغا لأنه تواطأ مع الفرنسيين وقتلوه .

لقد صنع سكان القاهرة القنابل من حديد المساجد ، وفعلوا ما لا يمكن تصديقه وهم العزل من السلاح . وعندما أرسل كليبر للتفاهم مع العلماء لانهاء الثورة هاج الأهالى وسبوا العلماء وشتموهم وضربوا الشرقاوى والسرى ورموا عمائمهم — على حد تعبير الجبرتى .

وتوالت الثورات فى كل مكان : الشرقية والدقهلية وميت غمر . وكانت الثورة لا تخمد فى مكان إلا لتندلع فى مكان آخر . ولم يلبث نابليون أن فر ، ولم يلبث كليبر أن قتل بيد سليمان الحلبى ، وبدأت الثورة من جديد .

وفى بولاق ، اندلعت الثورة بقيادة الحاج مصطفى البشتيلى الذى هيج العامة فخرجوا يحملون السيوف والبنادق والرماح والعصى . واتجهوا صوب قلعة قنطرة الليمون لاقتحامها فردوا هجومهم بنيران المدافع ، وقتل ثلاثمائة من الثوار . وعمت الثورة أنحاء المدينة . واتجه الثوار نحو معسكر الفرنسيين بالأزبكية — وكان عددهم عشرة آلاف ثائر — فردتهم المدافع على أعقابهم . ولكنهم لم يستسلموا فقد ذهبوا يحرضون جموعا أخرى حتى بلغوا

خمسين ألف ثائر ، وعاودوا الهجوم ، وعادت مدافع القلاع ضربها للمدينة بعنف . فلما حاول الناس الهرب من المدينة إلى خارجها ، أغلق الثوار باب النصر .

وهناك على ضفاف بحيرة المنزلة كانت قصة أخرى من قصص المقاومة تكتب ! كان «حسن طوبار» يتزعم أربعين رئيسا وخمسة آلاف من مراكب الصيد فى منطقة المنزلة ليناصب الفرنسيين العداء وليعد أسطولا من ماله الخاص يرابط به فى المطرية ويتأهب لمهاجمة دمياط وانتزاعها من أيدى الفرنسيين الذين احتلوها .

* * *

هذه هى صورة المقاومة فى هذه الفترة . وهناك صورة أخرى فوق جبال الأطلس أشد روعة ، امتدت خمسة عشر عاما . هى صورة شعب الجزائر وعلى رأسه المجاهد عبد القادر الجزائرى . مقاومة لا تهدأ ولا تتوقف . تقدم الصف بعد الصف . بدأت المقاومة إثر الاحتلال الفرنسى للجزائر ، وامتدت . جمع عبد القادر الأمير ذو الخمسة والعشرين ربيعا القبائل حوله ، ومضى يقاتل ، يصنع الأسلحة ويصب المدافع والبارود . ويحاصر الجيوش الفرنسية ، وينال منها سنوات . ثم تتآمر فرنسا مع سلطان مراكش ليظاهرها ، ويظل عبد القادر والشعب الجزائرى فى المعركة مقاتلا . لا يتوقف ولا يتراجع خمس سنوات أخرى يضع الخطط وينفذها ، لا يبالى إغراء فرنسا للقبائل بالذهب . وينتصر فى عديد من الواقع بجيشه القليل العدد وأسلحته المصنوعة فى الجزائر . ويصطنع عبد القادر أساليب القتال فى فجر الاسلام فيذهل العدو ، وكان يخرج بنفسه ليقاتل قادة الجيوش ، وفى خلال هذه السنوات الخمس عشرة ، كانت الجزائر كلها تحارب فى عنف وإصرار يدفعها إيمان عميق بأن الوطن والعقيدة تجمعهما وحدة واحدة .

* * *

وفى كل جزء من أجزاء العالم الاسلامى كانت المقاومة على هذه الصورة ، شباب يتقدم ليحمل السلاح ، ويجاهد ، وأبطال يتصدرون الحرب ويقدمون أرواحهم ودماءهم .

وفى ليبيا صورة أخرى ضخمة عاتية امتدت سنوات طويلة تقاوم الاحتلال الإيطالى فى عنف ، كانت الدعوة السنوسية ، مصدرا أساسيا من مصادر الكفاح بصلابته وصموده منذ بدأ الاحتلال ١٩١١ حين ضرب الطليان بمدافعهم موانىء برقة فاحتلوا طبرق . ثم نزلوا درنة ثم بنغازى . وعمل مجاهدو السنوسية فى مقاومة العدوان شبرا بشبر يلتحمون

فى معارك كبيرة فينتصرون وهم قلة . وعندما انهزمت تركيا وسقطت ليبيا فى يد إيطاليا فى ١٢ يوليو ١٩١٢ ازداد جهاد السنوسيين فى سبيل الدفاع عن الوطن . كان أحمد السنوسى وعمر المختار يعملون فى عناد وإصرار ، وظل الكفاح متصلا حتى نشبت الحرب العالمية الأولى ، ثم تجدد من بعد واستمر .

وفى العراق وفى سوريا وفى فلسطين وفى مراكش وفى مصر وفى السودان كانت الثورات تتوالى بعد الحرب العالمية الأولى ، تؤمن بالحق الأسمى فى الحرية ، وتطالب به ، لا تقبل المساومات ولا المعاهدات ولا الاستقلال المكتوب على الأوراق دون أن تجلو الجيوش .

ولم تقم الثورات فى العالم العربى وحده ولكن فى كل أجزاء العالم الاسلامى : كانت روح السخط على النفوذ الأجنبى واضحة فى الهند وإيران وأندونيسيا وتركيا .

وكانت هذه الثورات المختلفة فى الوطن الاسلامى دافعا قويا لأن يغير الغرب أساليبه وإن بدأ عسيرا أن يتنازل عن أطماعه فى القضاء على الكيان ، فإن ذلك لم يكن ممكنا بالمواجهة . هنالك مال الاستعمار إلى الخديعة فغير الألفاظ ، وألغى الاحتلال والحماية والانتداب وقال : الحكم الذاتى . وسمى صكوك الاحتلال : معاهدات صداقة . واختفت كلمة « الجلاء » وحلت محلها كلمة خداعة هى « الاستقلال » . وكان معنى هذا أن تقوم برلمانات ودساتير وأنظمة نيابية مقلدة فى ظل جيوش الاحتلال القائمة المسيطرة على الأوطان والتى تفرض كلمتها باسم « نصائح المندوب السامى » .

وفى خلال سنوات ما بين الحربين لم يكف الشعب عن المقاومة : كانت فرنسا وانجلترا تتقاسمان العالم الاسلامى ما عدا هولندا فى أندونيسيا وإيطاليا فى ليبيا وأسبانيا فى جزء من مراكش . كانت عوامل القوة والمقاومة وإعداد الثورات تتجمع فى الخفاء ثم تهب فجأة لتزلزل كالرعد والصواعق ، ثم يتقدم الاستعمار لسحقها فى عنف فتسيل الدماء الغالية ، وتذهب الأرواح الطاهرة ثم تظهر صفوف أخرى تتقدم لتقاتل وتقاوم .

كان أخطر ماحدث فى هذه الفترة ظهور استعمار جديد هو «الصهيونية» فى فلسطين . لقد زحف هذا الاستعمار ليستولى على أعرق بقعة مقدسة فى العالم الاسلامى ، فى ظل سلطان الاستعمار البريطانى الذى كان يحميه ويمهد له ليركز أقدامه ، كانت فلول اليهود

ترد من أنحاء العالم مهربة إلى المنطقة متأهبة لاقامة الوطن القومى الذى وعد به بلفور اليهود ثمنا لخدمة أداها له (وايزمان) فى الحرب العالمية الأولى ، ولم يتوقف العرب فى فلسطين عن النضال والكفاح والاستشهاد . لقد توالت الثورات وأعمال المقاومة حتى أشرفت على صورة رائعة فى ثورة ١٩٣٦ التى استمرت ستة شهور كاملة ، حتى هزت الصهيونية وأفقدتها الأمل فى البقاء لولا الخيانة ، خيانة ملوك العرب لثورة فلسطين ودعوتهم إلى القاء السلاح وفك الحصار وفض الأحزاب .

ولا شك كانت الخيانة عاملا من عوامل الهزيمة فى معارك المقاومة : هزم عرابى ١٨٨٣ بالخيانة . وهزم عبد القادر الجزائرى بالخيانة . وهزم عبد الكريم الخطابى بالخيانة . وهزم عمر المختار بالخيانة . وهزم يوسف العظمة بالخيانة . وهزم ثوار فلسطين بالخيانة . ولولا الخيانة لما استطاع الاستعمار أن يوطد نفوذه وأن يثبت اقدامه .

وقدم العالم الاسلامى شهداءه ، بالملايين . وكانت هناك صور غاية فى القسوة . وصورة الاستعمار الإيطالى وما صنعه بأهالى برقة وطرابلس لا يمكن أن توصف لبشاعتها ، كانوا يلقون بالأطفال والشيوخ من الطائرات . وكانوا يبقرون بطون الحبالى . وفرنسا فعلت أشد من ذلك فى الجزائر فى معركة سطيف عام ١٩٤٥ حيث قتلت ٤٥ ألفا وسجنت ٦٠ ألفا وأحرقت ٤٥ قرية ودكتها بالطائرات . ومذبحة الدار البيضاء فى مراكش عام ١٩٤٧ قتل فيها ٦٠٠ مراكشى . أما حرب التحرير الجزائرية فقد قدمت مليونا من الشهداء .

وليس من شك فى أن هذه المقاومة التى حرصنا على رسم صورة موجزة لها فى بحث يتصل بالثقافة ، وإنما كانت تستمد قوتها من منابع الثقافة العربية الاسلامية التى تحمل لواء الحرية والمقاومة ورد العدوان وعدم الاستسلام للظلم الاستبداد . وهذه المنابع التى كانت عاملا أساسيا فى مقاومة الاستعمار هى التى دفعته إلى القضاء عليها والتشكيك فيها واثارة الشبهات حولها من هنا كانت حملة التغريب تسير جنبا إلى جنب مع الاحتلال ، إذ لم تكن المعركة فى ميدان القتال وحده ، بل كانت هناك فى ميدان الفكر والثقافة معركة أشد خطراً ، لأنها المعركة التى أوجدت بديلا للاستعمار يستطيع أن يعمل بعد أن تجلو قوات الإحتلال .

معركة الفكر

تألق الفكر العربي الإسلامي في خلال القرون الخمسة الأولى للدعوة المحمدية وبلغ مدى بالغ الأهمية والخطر ، فقد استوعب الثقافات المعاصرة له من فارسية ويونانية ورومانية ، واستطاع أن يصهرها في بوتقته ويحولها إلى كيانه فزاد بها قوته الذاتية وساير بها الزمن ، وقد أعانه على ذلك « منهج الإسلام » نفسه ، وهو منهج متطور متجدد قابل للتفاعل والالتقاء مع كل حضارة وثقافة ، مرن نابض بالحياة يساير كل بيئة وزمن ، ولقد ترجم الفكر الإسلامي علوم اليونان وثقافتهم ثم أضاف إليها وطورها في خلال القرون الوسطى — التي وصفت بالقرون المظلمة — لأنها كانت فعلا مظلمة بالنسبة لمن أطلق عليها هذه التسمية وهو الغرب .

ففي خلال هذه القرون حيث كانت أوربا تعاني صراعا بربريا قاسيا ، وتعيش في أجواء غارقة في الجهل باعتراف مفكريها ومؤرخيها ، كانت الحضارة والثقافة العربية الإسلامية قد انتقلت من دمشق وبغداد والقاهرة إلى الأندلس حيث برزت معالم النهضة الفكرية والثقافية في جامعات قرطبة وأشبيلية وغرناطة ، ولن يستطيع منصف أن يتجاهل الدور الضخم البعيد المدى الذي قطعته هذه الثقافة العربية الإسلامية في سبيل النمو والتطور ، وما حققت في مجالات العلم المختلفة من نهضة بعيدة المدى ، كانت هي الأساس الذي قامت عليه الحضارة الأوربية المعاصرة ، والخيط الوحيد الذي بدأ به «عصر النهضة» في القرن الخامس عشر ، وقد ظل هذا الأثر ممتدا خلال قرنين من الزمان . وتلك حقيقة اعترف بها كثير من كتاب الغرب .

وعن طريق « الحروب الصليبية » وعن طريق « الأندلس » وعن طريق « تركيا العثمانية » استطاعت أوربا أن تحصل على أكبر قدر من آثار الفكر العربي الإسلامي حيث أسرعت بترجمته وتحصيله لتحقق من بعد هذه الخطوات الجبارة التي أطلق عليها « حضارة الغرب الحديثة » .

وليس غريبا أن يقع « العالم العربى الإسلامى » تحت سلطان الظلام والتخلف فى أواخر حكم الدولة العثمانية التى تجمدت وانعزلت عن العالم تماما .

ولا شك أن نقطة البداية فى « سقوط » الدولة العثمانية هى هزيمتها عند أسوار فينا عام ١٦٨٣ ، هزيمة كانت مقدمة لهزائم متوالية بدأ الغرب يسيطر بعدها على أجزاء العالم الإسلامى بالنفوذ والقناصل والامتيازات كمقدمة لعمليات الاحتلال والسيطرة التى تمت فى الهند والخليج العربى والجزائر ومصر .

وقد حمل الغرب معه فى غزوه للعالم الإسلامى العربى ثقافته ، وكان أبرز ما فى ثقافته التى حملها إلينا عوامل التشكيك فى قيمنا وتاريخنا وتراثنا ومقومات شخصيتنا ومجتمعنا .

وتبدأ مرحلة الغزو العسكرية بحملة نابليون عام ١٧٩٨ وليس أدل على هدف الغرب فى القضاء على الثقافة الإسلامية العربية من أن أول معالم النفوذ الفكر الأجنبى فى العالم الإسلامى إنما كانت البعثات التبشيرية والجميات والإرساليات ذات الطابع العلمى والتعليمى .

بدأت هذه البعثات عملها فى عام ١٨٣٠ وهو تاريخ له دلالة ، ففى هذا العام احتلت الجزائر وسقطت فى يد فرنسا ، وكان سقوطها يعنى بالنسبة لفرنسا رد اعتبار انتقامى لمقتل القديس لويس فى حملته الصليبية التاسعة على الجزائر بعد حملته الثامنة على مصر التى أسر فيها . وبذلك حملت المعركة طابع « التعصب » وامتد هذا الطابع ليصبغ كل صور الفكر والثقافة والعلاقات بين الغرب والعالم الإسلامى .

أما البعثات التبشيرية فقد وصلت إلى المركز الأساسى لها فى الشرق العربى — وهو لبنان — عام ١٨٤٧ حيث وصلت البعثات الفرنسية وفى عام ١٨٦٨ وصلت البعثات الأمريكية وحملت هذه البعثات لواء مناهج التغريب وفرضتها على أبناء العالم الإسلامى جميعا .

وقد حاول بعض كتاب الغرب أن يعزو «اليقظه الفكرية والثقافية» فى العالم الإسلامى إلى قدوم حملة نابليون ثم إلى البعثات والإرساليات الفرنسية والأمريكية ، ولا شك أن هذا الرأى مردود بدليل واحد يؤكده السبق التاريخى فإن دعوة محمد بن عبد الوهاب المولود عام ١٧٠٣ والتى ظهرت حوالى عام ١٧٣٠ موقظة العالم الإسلامى ، إنما تكشف هذا الرأى ، وتصور

كيف أن العالم الإسلامي استفاق وبدأ يفكر فى أمره ويعيد تنظيم ثقافته قبل نابليون بأكثر من ستين عاما وقبل البعثات التبشيرية بمائة عام على الأقل .

وقد كانت فكرة « عبد الوهاب » ممثلة لكل عناصر اليقظة والتجديد والحركة ، فقد انصبت على العودة بالإسلام إلى منابعه الأولى فى بساطته ويسره وكانت فى صميمها معارضة حقيقية للجمود العثمانى والضعف الذى ساد المجتمع الإسلامى وحربا على الحكم الاستبدادى ذاته .

وكان قيام هذه الدعوة من قلب الجزيرة بالذات عاملا ضخما فى هذه الفترة الدقيقة ، أما إذا كانت هذه « الدعوة » قد اضطربت حين تحولت إلى « حركة » فذلك جانب آخر لا ينفى عن الدعوة نفسها أثرها العميق الذى امتد بعد ذلك إلى العالم الإسلامى كله ، وكان « قاعدة الأساس » فى معالم اليقظة الفكرية ، فجمال الدين الأفغانى وهو أكبر قوة موقظة فى الفكر الإسلامى المعاصر كان متأثرا إلى حد كبير بهذه الدعوة وما اتصلت به من عصارة طيبة سبقتها عن أحمد بن حنبل وابن تيميه وابن القيم ، وكذلك امتدت بعدها حركات والسنوسى والمهدى ومحمدعبده ومختلف الحركات الفكرية الإسلاميةالتى عمت العالم الإسلامى والتى حملت لواء الجهاد من أجل الحرية فى الوطن ، كما حملت لواءالتجديد فى الفكر .

وكان مضمون هذه الحركة كله منصبا على ضرورة فتح باب الاجتهاد أمام الإسلام بحيث يستطيع تقبل الحضارة الحديثة ومواجهتها على النحو الذى واجه به الاسلام الحضارات السابقة التى اتصل بها إبان فخره وخلال تاريخه كله .

ولما كان الإسلام فى جوهره يحمل بذور القدرة على تقبل الحضارات والجرى فى أفق التطور ، ومن دعائمه الحرية والقوة والوحدة والمثل العليا ، فقد حملت اليقظة الفكرية الإسلامية هذه العناصر مؤكدة إياها على أنها حقائق أساسية .

وتتمثل هذه الثقافة الإسلامية العربية فى : كرامة الانسان وحريته ، وامتزاج الروحية بالمادية والعمل لليوم والغد معا ، وتقديم البرهان فى كل قضيته ، وسيادة مبدأ العقل وحفظ التراث وزيادته ، وتجديد الفكر بالغربلة وإقصاء القشور والاجتهادوالموائمة مع الزمن والبيئة .

وحمل أمانة الحضارة والزيادة فيها وتكريم الطوائف والأديان المختلفة ورعايتها ، وإقامة عملية الصهر والوحدة من أجل بناء الكيان الموحد وحماية الوطن . والحضارة والتسلح واليقظة للعدو ، والمقاومة واعتبار الدفاع عن الوطن دفاع عن العرض وتغليب السلام والمحبة والاخوة وعدم العدوان والدعوة إلى « العدل الاجتماعي » ومساواة الأجناس والمفاضلة بالعمل . والتضامن الاجتماعي والشورى .

وكان بروز هذه الثقافة الاسلامية العربية ويقظتها من جديد يعنى إعلان الحرب على الاستعمار نفسه وعلى أعوانه من الملوك والأمراء والحكام ، ولذلك كان الاستعمار حفيا بأن يناقض هذه الأسس ويشكك فيها ما استطاع وأن يخلق تيارات أخرى ذات كيان إقليمي يظاهرها النفوذ والصحف والمال من أجل القضاء على مقومات الفكر العربي الاسلامي والقضاء على ملامح الشخصية العربية والاسلامية .

ومن هنا قامت دعوات مختلفة : التبشير والتغريب والالحاد والتشكيك في التاريخ والقيم ومحاربة اللغة والدين بصفة عامة وكانت هدف كل هذه الأفكار التى كانت تسمى بالاقليمية أو الفرعونية أو العامية أو الشيوعية أو البهائية ، القضاء على الثقافة الاسلامية العربية ، ذلك لأن الاستعمار كان يفهم جيدا أن يقظة الفكر الاسلامي العربي واحياء مقوماته الفكرية وبعثها من جديد وجلاء الزيوف والقشور عنها إنما تعنى مقاومته أساساً ، لأن المعنى الأكبر لهذه الثقافة هو الحرية والكرامة وكان يفهم تماما أن « القرآن » والفكر الاسلامي كله ممثل في الحديث والسنة والتشريع والأدب والشعر وكلها ذخائر كبرى تموج بالحياة والحركة والتطور لها من قدرتها على التجاوب والتأقلم والتأثير ما يحقق لها البقاء والتفاعل .

وقد فهم هذا فهما صحيحا مستر « غلادستون » رئيس وزراء بريطانيا ابان احتلال الانجليز لمصر ووقف في البرلمان الانجليزى يعلن أنه طالما بظل « القرآن » باقيا في الأرض فإنه لن يمكن أن يستعبد المسلمون .

ومن هذه النقطة انطلقت الحملة الضخمة على الاسلام واللغة العربية والتاريخ العربي والتراث العربي على نحو بالغ التعصب والاثارة . وحمل لواء هذه الحملة ثلاثة عناصر : المبشرون وكتاب الغرب وكتاب التغريب ممن تعلموا في أوربا أو تابعوا كتاب الغرب في آرائهم .

ظلت الدعوة الفكرية الإسلامية التى بدأت فى « نجد » بصيحة محمد عبد الوهاب تمتد وتتطاول حتى بلغت قمتها السياسة فى أعمال « جمال الدين الأفغانى » ووصلت ذروتها الفكرية فى المخطط الذى رسمه « محمد عبده » . وفى أعمال المغرب العربى كانت آراء محمد عبده فى تحرير الفكر الإسلامى من قيود التقليد ومن زيوف جماعات الطرق التى كانت عونا للاستعمار وعاملا فعالا فى حرية الحرية السياسية . وفى العالم العربى كانت دعوة الشوكانى والألوسى والإدريسى ذات أثر فكرى بعيد المدى . ولذلك يمكن القول بأن أبرز ملامح الفكر الإسلامى العربى المعاصر هى : المقاومة أو الرد على التحدى . وقد برز هذا واضحا فى موقف « عمر مكرم » فى مقاومة نابليون ثم فى مقاومة الوالى التركى خورشيد وعزله ، وإعلانه بأن من حق الشعب أن يعزل الحاكم إذا ظلم ، وفى مقاومة محمد على بعد طغيانه والنفى من أجل هذه المقاومة . ولا شك كان « للأزهر » دوره المزدوج الكبير .

١ — « دوره الثقافى » فقد كان معقل الإسلام واللغة العربية ؛ فى خلال فترة الظلام التى مرت بالعالم الإسلامى منذ عام ١٥١٧ حين أستولى العثمانيون على مصر وسوريا حتى خرج منه أمثال حسن العطار وحسن الطويل ورفاعه الطهطاوى ومحمد عبده والمراغى .

٢ — « دوره الوطنى » فقد كان معقل كل حركات المقاومة السياسية والثقافية . وحماية الشعب من ظلم الأمراء ، وباسمه وقع الأمراء المماليك أخطر وثيقة فى التاريخ المعاصر تنص على حق الشعب ومنه خرجت فيالق مقاومة نابليون وثورة ١٩١٩ .

وإذا ذكر الأزهر فى مجال الثقافة الإسلامية العربية فإننا نذكر جامعات إسلامية متعددة منها القرويين فى المغرب والزيتونة فى تونس ومعاهد النجف الاشرف وجامعة أحمد خان فى الهند والخلاوى فى السودان والزوايا فى ليبيا وعشرات من المساجد فى العالم الإسلامى كانت مقراً للغة العربية والقرآن والثقافة الإسلامية وكانت فى نفس الوقت معسكرات المقاومة للاستعمار ، ولا شك كان للبعثات التى صدرت من العالم الإسلامى العربى بعد سقوطه فى يد الاحتلال الغربى بالإضافة إلى الإرساليات التى وردت إليه من فرنسا وأمريكا وانجلترا وغيرها أثرها فى التطور الذى تحول به العالم الاسلامى عن « الثقافة الإسلامية العربية » إلى الثقافات

الغربية حيث جرت محاولة تغليب هذه الثقافات بحكم اتساع التعليم المدنى وظهور الجامعات الحديثة وتجميد التعليم القديم .

غير أن عشرات من الأعلام الذين ذهبوا إلى أوربا أو تعلموا فى مدارس الجزويت والبروتستانت والأمريكان أستطاعوا أن يتحرروا من قيود المدرسة الغربية ونفوذ الفكر الأوربى ، وأمكن أن تكشف لهم الأحداث والظروف فى ظل التحرر العقلى والثقافى عن حقائق الأمور .

وكان ما وصلوا إليه هو أن « الفكر الغربى » الذى شرّع المذهب الحديث فى التفكير والبحث وهو المذهب الذى يدعو صاحبه أن يجرد نفسه من كل هوى أو تعصب أو غرض وأن يدرس الحقائق التى تقع بين يديه دون أن يربطها بما يعرفه فى الماضى . ثم يصدر حكمه صادقاً؛ هذا المذهب الذى أدعاه الغرب لنفسه منذ أوائل النهضة والذى هو فى الأصل مذهب الفكر الإسلامى الذى التزمه[1] عباقرة الفكر العربى أمثال ابن تيمية والغزالى وابن حزم وغيرهم — وقد تبين بالدلائل القاطعة أن الفكر الغربى لم يلتزم هذا المذهب فيما يتصل بالإسلام واللغة العربية والشرق . وأن كبار المفكرين الغربيين قد وقعوا تحت سيطرة التعصب والحقد ، ودفعتهم عوامل من مخطط الاستعمار أو من الخصومة المذهبية الكنسية إلى تجاهل الحقائق والخضوع للاهواء فى كثير مما كتبوا عن الإسلام والنبى والعرب وماعرفوا له من تاريخهم أو تشريعهم أو ثقافتهم .

هذا فضلا عما كشف عنه الغرب — الذى أدعى أنه يحمل مبادىء الإخاء والمساواة والحرية — من خصومة حاقدة لطلاب الحرية فى العالم الإسلامى ومقاومته لأبرز مبادىء الإسلام : للحرية والوحدة والقوة .

وقد بدأ هذا واضحاً عندما تحول هؤلاء المفكرون عن آرائهم القديمة وكشفوا زيف الغرب فى تفكيره ومنطقه ، وقد فعل ذلك كثيرون فى الشرق أمثال ، شكيب أرسلان وأحمد زكى باشا ومحمد حسنين هيكل وزكى مبارك ومنصور فهمى ومحمد فريد وجدى ومحب الدين الخطيب وساطع الحصرى وعبد الرحمن عزام وعبد الوهاب عزام وقاسم أمين .

(١) راجع كتابنا أضواء على الفكر العربى الإسلامى .

وقد عنيت أن أذكر هنا أسماء الكتاب الذين ساقروا إلى الغرب أو تثقفوا ثقافته على مستوى عال ، ولم أذكر غيرهم من أمثال مصطفى صادق الرافعى وعبد العزيز الثعالبى وعبد الحميد بن باريس ورشيد رضا مخافة أن يتهم هؤلاء بأنهم متعصبون للفكرة الإسلامية بحكم دراستهم أصلا .

ومعنى هذا كله أن « الفكر العربى الإسلامى » استطاع أن يشق طريقه مجدداً حياته وفكره منذ بدأت صيحة محمد عبد الوهاب فى الجزيرة العربية قبل أول حملة عربية حربية أو فكرية على العالم الإسلامى بأكثر من سبعين عاما ، وأن هذا الطريق قد تعمق فعلا فى خلال هذه السنوات الطويلة واستطاع أن يقاوم «المدرسة الأوربية التغريبية» التى حمل لواءها دعاة التبشير والاستشراق ثم جرى فى ركبهم مجموعة من كتابنا العرب والمسلمين مخدوعين مضللين أو مدفوعين برغبة الظهور أو الشهرة أو التعصب .

وقد غمت هذه الغمة على العالم الإسلامى فترة من الزمن ثم انكشفت الحقيقة عندما ارتد عن الدعوة التغريبية بعض أساطينها ورجعوا إلى المعسكر الإسلامى العربى يحملون أقلامهم بنفس الحماسة أو أشد .

وقد أمكن كشف كثير من المغالطات التى دعا إليها الغرب من أجل القضاء على الفكر العربى الإسلامى » وظهر عدد كبير من أعلام التجديد الدينى ، فمن هم هؤلاء الأعلام وما هى الدعوات التى حملوها .

التجديد والبعث وفتح باب الاجتهاد

أخمدت جذوة الفكر العربى الإسلامى خلال أربعمائة عام تقريبا .. وذلك عندما غلب الأتراك العثمانيون على العالم الإسلامى وسيطروا عليه وجمدوه فى حدود الحياة السياسية الضيقة القائمة على سلطان الخلافة ، وجرى بعض علماء المسلمين فى ركب الولاة والحكام من أجل دعم مراكزهم وإجبار الشعوب على الولاء لهم . هنالك وقفت دعوة الإسلام إلى التجديد وأغلق باب الاجتهاد ، وانحسر الإسلام عن مجاله الطبيعى ، وضعفت مفاهيمه عن مواجهة الحياة وأصابه ذلك الركود العجيب .. فقد تخلى المسلمون فعلا فى هذه الفترة عن العمل الإيجابى بالإسلام ولم يبق إلا رمزاً وشعاراً لا يحمل من ورائه حقيقة واضحة .

فالشورى وحق الأمة فى اختيار الحاكم قد اختفت تماما حين غلب الحكام المستبدون ، وتوقفت قدرة الإسلام على التجاوب مع التطور حينما أغلقت الأبواب أمام الحضارة والتقدم ، أمامفهوم الإسلام فى الجهاد فقد تجمد حين توقفت الدولة عن تجديد جيشها وحماية ثغورها فهزمت مرة ومرة بفضل تقدم الغرب وتوقفها هى عن التطور ، وهكذا غلب الجمود كل مظاهر الحياة وانحسرت إيجابية الإسلام ودارت المجادلات الكلامية حول المسائل الشكلية والفقهية الفرعية . وتوقفت اللغة العربية عن النمو فغلبت العجمة ولم يعد القرآن هو كتاب المسلمين الحيوى بقدر ما أصبح الكتاب الذى يقرأ على القبور ويكتب بحروف جميلة على ورق صقيل بماء الذهب ، وهو ما اشتهر به الاتراك .

غير أن الصيحات لتجديد الدين وعودته إلى متابعة الأولى وتأهيله مرة أخرى لكى يحمل رسالته القادرة على التجاوب مع الحضارة والتطور وتلقى كل مظاهر الحياة ونهضات الأمم من حوله ، بدأت تعمل عملها على نحو واضح قبل نهاية القرن الثامن عشر حيث أخذت ظواهر اليقظة تدب فى عدد من رجال الفكر الذين أحسو بمدى الجمود الذى بلغه الفكر الإسلامى والتخلف الذى وقع فيه .

وقد كانت نقطة البداية هي « تصحيح العقيدة » والاتجاه إلى إله واحد ، وإنكار التوسل والتعبد للأولياء أو الأمراء ، وكان ذلك طبيعياً إذ ذاك حيث كانت العودة إلى « التوحيد » فى الفكر الإسلامى هى نقطة القوة ، فإن التعبد للأموات والأولياء كان أشبه بالخضوع للولاة والحكام والملوك المستبدين الظلمة ، والتحرر من هذا هو تحرر من ذلك على التأكيد . وقد توالت هذه الصيحات وترددت فى جوانب العالم الإسلامى ، ولم تتوقف عند ظهورها فى وطن واحد . ففى عام ١٧١١ م على ما يروى الجبرتى قام رجل فى القاهرة أمام مسجد المؤيد يدعو إلى الإصلاح على النحو الذى دعا إليه « ابن تيمية » فأنكر ما كان يفعله أهل مصر من تقبيل أعتاب القباب من الأموات وقصدهم لقضاء الحاجات ، ثم أنكر بناء القباب على من الأموات وقصدهم لقضاء الحاجات وحكم بوجوب هدمها . وقد اتخذ مسجد « المؤيد » مقراً لدعوته ، وتبعه خلق كثيرا من الناس وتعصبوا له ، ووقف ضده بعض علماء الأزهر . وفى نفس القرن ظهر « ابن عبد الوهاب » فى الدرعية فى قلب الجزيرة العربية ، وقد قام بدعوته حوالى عام ١٧٥٨ تقريباً ، وهو تاريخ يسبق الثورة الفرنسية بحوالى عشرين عاما — التى قامت عام ١٧٨٩ — ولذلك فإن الدعوى التى يحملها بعض دعاة التغريب من أن اليقظة فى العالم العربى انبعثت صدى للثورة الفرنسية إنما تتجاهل هذه الحقيقة التاريخية الواضحة . وفى نفس القرن ظهر « صالح بن محمد بن نوح الفلانى » — نزيل المدينة — صاحب كتاب (إيقاظ همم أولى الأبصار) . ثم ظهر السيد مرتضى الزبيدى صاحب التاج فى شرح القاموس . وقد حمل هؤلاء الدعاة لواء الدعوة إلى فكرة واضحة صريحة ، هى :

أولا — العودة إلى التوحيد والمنابع الأولى للاسلام ، فالتوحيد هو أساس الإسلام .. وقد دخله كثير من الفساد فى خلال فترة الركود التى أصابت العالم العربى الإسلامى تحت حكم العثمانيين ، مما أثر فى نقاء التوحيد ، وذلك عندما توسع المسلمون فى البدع التى تتصل بالتقرب إلى الأولياء والنذر لهم ، وبناء الأضرحة وزيارتها ، وقد حملت هذه الدعوة لواء عبادة الله وحده ورد البدع وابطال التوسل والشفاعة .

ثانياً — فتح باب الاجتهاد . وقد كان إقفال باب الاجتهاد بعيد الأثر فى الجمود الذى أصاب الفكر العربى الإسلامى . وقد أقام محمد بن عبد الوهاب دعوته على أساس أن مسألة « التوحيد » هى عماد الإسلام ، وأن الانحراف فى العقيدة هو سبب ضعف المسلمين وسقوط همتهم ، ولم يلبث عبد الوهاب أن حول دعوته إلى برنامج سياسى ودعا لمقاومة استبداد الحاكم والتحرر من سلطان الدولة (العثمانية) التى انحرفت عن المبادىء الأساسية للاسلام ، كما هاجم رجال الدين الرسميين الجامدين ، واستطاع أن يحول الدعوة إلى حركة لها كيانها الذى هز الإمبراطورية العثمانية ، غير أن ما يؤخذ على الوهابية هو ضآلة الإصلاح وعدم القدرة على الأخذ بأسباب القوة والحضارة . وفى اليمن ظهرت اليقظة فى دعوة محمد عبد الله الشوكانى ، الداعية الإسلامى الذى فتح باب الاجتهاد وحارب التقليد ، وذهب إلى تحريمه .. وله كتابه الذى صور فيه دعوته (القول المفيد فى حكم التقليد) . .

هذه صورة المرحلة الأولى من تجديد الفكر الدينى ، وهى مرحلة (اليقظة) ، ربما تكون محدودة بالدعوة إلى تنقية العقيدة كأساس ، غير أن المرحلة التى تلتها كانت أكثر إيجابية ووضوحا من ناحية الدعوة إلى تطبيق الإسلام فى مجال مقاومة الاستعمار والاستبداد ، وفى هذه المرحلة حملت الدعوة السنوسية لواء الجهاد فى أكثر من أربعين عاما فى مواجهة الاستعمار الإيطالى ، وكان المفهوم الإسلامى أساساً لها فى الصمود المقاومة وكان الأمير عبد القادر الجزائرى فى الجزائر يتخذ من التجميع الكتائبى الإسلامى وسيلة إلى مقاومة الغزو الفرنسى مدى سبعة عشر عاما .

ثم برز التجديد فى المجال الفكرى على نحو أشد وضوحا بظهور : خير الدين التونسى (تونس) ، وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده (مصر) ، ومحمود شكرى الألوسى (العراق) . وولى الله الدهلوى فى الهند . وكان من رأى « خير الدين التونسى » فى كتابه (أقوم المسالك إلى معرفة أحوال الممالك) الذى صدر عام ١٨٦٧ م أن تمسك المسلمين بالدين لا يمنع من النظر فيما عند الأمم الأخرى والأخذ بأحسنه فيما يتعلق بالمصالح الدنيوية وعنده

أن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها . ويقول : أن على المسلمين الاستعداد لمقاتلة العدو بمثل سلاحه وأن الأخذ بالعلم هو من أسباب العمران . وعنده أن الأمة التى لا تجارى جاراتها فى معداتها الحربية ونظمها العسكرية توشك أن تقع غنيمة فى أيديهم . وإن الإسلام لا يمنع من نقل حضارة الغرب ولا يمانع من الأخذ بنظم إدارتهم مع مراعاة الظروف ، وإن لهم أن ينقلوا ما يستطيعون هضمه . ثم يوسع هذا شيئا فشيئا ينمو أسباب التمدن ، كما دعا إلى الأخذ بنظام الشورى الذى يقيد الحاكم وقال : إن عوائق التقدم تنحصر فى رجال الدين ورجال السياسة : أما رجال الدين فإنهم يعرفون الشريعة ولا علم لهم بأمور الدنيا . أما رجال السياسة فيعرفون الدنيا ولا يعلمون الدين وهم يريدون أن يطبقوا النظم الأوروبية بحذافيرها من غير رجوع إلى الدين « نقول للأولين أعرفوا الدنيا ، وتقول للاخرين أعرفو الدين » .. ودعا إلى امتزاج الطائفتين وتعاونهما . وقال : أن الأمة العربية لا يزال حكامها يكرهون الحكم النيابى وإن الرأى العام جاهل خاضع .

ولا شك أن دعوة خير الدين التونسى هى أول نظرة عميقة لمفاهيم الإسلام فى ضوء الحضارة والتطور وهى المرحلة الثالثة من التجديد ، بعد الدعوة إلى تصحيح العقيدة ومقاومة الاستعمار . وقد وسع هذه النظرة وأشاعها فى العالم الإسلامى « جمال الدين الأفغانى » الذى يعد بحق الرائد الحقيق للنهضة . ولعل المجال الجديد الذى فتح أبوابه جمال الدين هو التحرر من الاستبداد وحكم الفرد ، ومن ذلك قوله : « أنكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد ، وربيتم فى حجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم ، وانتم تحملون عبء نير الفاتحين ، وتمنون لوطأة الغزاة الظالمين ، تسومكم حكوماتكم الحيف والجور وتنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم صابرون ، بل راضون تستنزف قوام — حياتكم — التى تجمعت بما يتحلب عرق جباهكم ، بالعصا والمقرعة والسوط ، وأنتم صامتون ، انظروا أهرام مصر ومشاهد سيوه وحصون دمياط ، فهى ، شاهدة بمنعة أبائكم وعزة أجدادكم . هبوا من غفلتكم . أصحوا من سكرتكم ، عيشوا كباقى الأمم أحراراً سعداء .

أما الشيخ محمد عبده فإنه يتجه إلى جانب آخر من جوانب التجديد والبعث ، وفتح باب الاجتهاد وفى أحكام الشريعة وفى ضوء تطور الزمن . ويرى أن أحكام الشريعة ليست شيئاً جامداً لا يتحول بتحول الزمن والمصلحة ، بل هى مطاوعة لذلك ، دائرة فى منفعة الناس وجوداً وعدما ، وأنه — أى الإسلام — يبيح لنا أن نتحول عنه بأحكام الشريعة ونسيرها وفق مصالحنا فنمنع المباح — بحكم الحاكم — إذا وجدنا فى إباحته ضرراً .
وعنده : أن الشريعة الإسلامية مطاوعة لكل زمان « لتطور الأحوال ودورانها على مصالح الناس » وأنه لا يقصر ذلك على زمن معين يقفل بعده باب الاجتهاد . بل يظل مفتوحا إلى نهاية الدهر ..

كان العمل من أجل مقاومة استبداد الأمراء وإيقاف النفوذ الأجنبى هو أبرز ما اتجهت إليه الحركات الإسلامية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر وأول القرن العشرين . وذلك إلى جوار العمل لتنقية العقيدة ، وقد التمست لذلك عديداً من الوسائل والخطط . وكانت التجمعات تحت ألوية الدعاة والمصلحين والقادة من العوامل الفعالة فى خلق جبهات قوية يحسب لها حسابها . وقد ظهرت هذه التجمعات فى صورتين : إحداها التشكيلات الدينية والصوفية فى نطاق الوهابية والمهدوية والسنوسية . ثم فى نطاق التيجانية والقادرية وغيرها — وذلك على اختلاف ما بينها جميعا من الوسائل ، ثم ظهرت هذه التجمعات فى صورة أخرى أكثر تحرراً من قيود الجماعات الدينية وتقاليدها وذلك على النحو الذى عرف فى مجالس جمال الدين الأفغانى التى اشتهرت بها قهوة متاتيا والتى ضمت عدداً منوع الثقافة من الأزهريين والمحامين والصحفيين والموظفين . أما فى التشكيلات الدينية فقد غلبت فيها الدعوة إلى تصحيح العقيدة وتحرير الفرد من قيود مصارعات البيئة وتحديات المجتمع . أما تجمعات جمال الدين الأفغانى التى عرفت فى كل مكان ذهب إليه وخاصة فى القاهرة خلال السنوات السبع التى قضاها بها ، فقد كان قوامها بث روح اليقظة وإثارة الوعى والدعوة إلى التحرر من الموالاة غير الواعية للحكام المستبدين والموالين للاستعمار أو النفوذ الأجنبى . وتوجيه النظر إلى حق الشعوب فى حكم الشورى على النظام الحديث وذلك بانشاء المجالس النيابية ووضع الدساتير التى تحد من سلطة الأمراء . وكان هذا هو الجانب الغالب على دعوة جمال الدين الأفغانى التى حمل لواءها وطوف من أجلها بأطراف العالم الاسلامى فى إيران وأفغانستان والهند وتركيا ومصر .

وكان جمال الدين يرى ضرورة العمل على تحقيق هذا الهدف فى أسرع وقت وبكل وسيلة ممكنة ، وأبرز ما يمكن الوصول إليه هو خلق رأى عام واع من المثقفين دون التقيد بأية

قيود من ناحية التمسك بالعبادات أو الوسائل التربوية الأخرى التى تجعلها الدعوات الدينية أساساً للعمل . وعنده أن هذه ضرورة عاجلة للقضاء على الحكم الاستبدادى وإيقاف النفوذ الأجنبى .

وهذا العمل هو ما أطلق عليه الهاب النفوس وإثارة المشاعر إزاء مظالم الأمراء المستبدين ، والعمل على خلعهم كوسيلة سريعة لإقامة حكم أكثر ديمقراطية عن طريق اختيار حكام من الشعب .وقد اتخذ جمال الدين وسيلته إلى ذلك إنشاء الصحف والكتابة وإثارة الرأى العام وتأليف المحافل الماسونية من أصدقائه فى الوزارات والمصالح ، واتخاذ هذه المحافل أداة للسيطرة على الحكومة ، مع الحملة المستمرة على النفوذ الأجنبى والأمراء المستبدين ، وهو فى سبيل عمله هذا يتحدث مع كل من يتصل به ، لا يتخير دعاة بالذات ، ويثير القضايا حول الحرية والشورى ، ويتحدث عن حقوق الأمم ومسئولية الحاكم . . ثم ينشيء جماعة مصر الفتاة .

ومن الناحية الأخرى يجتمع بالأمراء والحكام فى كل بلد يزوره ويطالبهم بالدستور والحكم النيابى . . بل أنه يصل إلى أبعد من هذا فيضع الدستور فعلا فى إيران ويرسم فيه حقوق الشعب فينقم عليه الشاه الذى يرى نفسه وقد تجرد من كل سلطاته .

وفى مصر يلتقى بتوفيق الذى يعتب عليه ما أطلق عليه « التهييج السياسى » ويقول له الخديو : ان هذا الشعب خامل جاهل ولا يصلح أن يلقى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة فتلقون انفسكم والبلاد فى تهلكة . . ويرد جمال الدين فى حماس وإيمان : ان الشعب المصرى كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل ، فبالنظر الذى تنظرون به إلى الشعب المصرى ينظر إليكم . وإن قبلتم نصح هذا المخلص وأسرعتم فى إشراك الأمة فى حكم البلاد عن طريق الشورى فتأمرون باجراء انتخابات نواب الأمة لسن القوانين وتنفيذها يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم » . .

ويرى الأمير محمد على الهندى فى كتابه عن « الإسلام » أن لكل عصر ما يلائمه من الطباع والعوائد وما يصلح لزمن من الأزمان قد لا يصلح لغيره ، ولا ينبغى أن نحكم

على الماضى بمقياس ما نراه فى الحاضر ، وأن الأحكام تعدل وتطبق حسب المقتضيات التى تدعو إليها مصالح الناس وتقدم الزمن . وهكذا نجد أن مظاهر التجديد فى التفكير الإسلامى قد وضحت فى دراسات المجددين خلال المراحل المختلفة فى ميادين خمسة : (١) تنقية العقيدة وفتح باب الاجتهاد . (٢) مقاومة المستعمر . (٣) مقاومة الحاكم المستبد وإعلان الشورى . (٤) قدرة الشريعة الإسلامية على مسايرة كل زمان ومكان . (٥) النقل من الحضارة مع المحافظة على مقومات الأمة . غير أن هؤلاء المجددين قد اختلفوا فى أسلوب تحقيق النهضة ووسائل الإصلاح » فهناك فريق يرى أن يتم الإصلاح بالثورة والقضاء على المستبدين الموالين للاستعمار . وعلى رأس هذه المدرسة « جمال الدين الأفغانى » . وهناك فريق يرى أن يتم الإصلاح بالتربية والعلم ، فإذا تحقق إنشاء جيل قوى أمكنه أن يحرر الأمة ويقيم حياة جديدة على أساس ثابت وعلى رأس هذه المدرسة الشيخ محمد عبده .

ويقف جمال الدين فى ميدان باب الخلق ويرى الفلاحين فى طريقهم إلى الحقول فيصيح فيهم : أيها الفلاح ، يا من تشق قلب الأرض بفأسك ، لماذا لا تشق به قلب ظالمك . ويقول للهنود : والله لو كنتم ضفادع وتجمعتم حول الجزيرة البريطانية بملايينكم الكثيرة لأغرقتموها فى المحيط . وكان يردد قوله فى كل مكان : هبوا من غفلتكم ، اصحوا من سكرتكم ، انفضوا عنكم غبار الغباوة والخمول ، وعيشوا كباقى الأمم أحراراً سعداء أو موتوا مأجورين شهداء . . ويمضى جمال الدين فى سبيل غايته يرى من كل وسيلة وسيلة إلى هدفه . .

يقول تشارلس أدمس فى كتابه « الإسلام والتجديد » . « إن الوسائل التى تخيرها جمال الدين لتحقيق غاياته كانت وسائل الثورة السياسية ، فقد خيل إليه أنها أسرع الطرق وأكثرها فى تحرير الشعوب الإسلامية وتغذيتها بالحرية الضرورية لتنظيم شعوبها . أما وسائل الإصلاح التدريجى والتعليم فكان يرى أنها بطيئة جداً غير محققة الغاية ، كان يريد أن يرى قبل موته تحقيق النتائج فكافح لقلب النظام القائم ، وكان يرى جواز خلع وقتل أمراء المسلمين الذين يشجعون الاعتداء الأوربى أو يرضون عنه فيقيمون بذلك الحوائل

بين الناس وبين خلاصهم على ما يرجون . . ويضيف « أدمس » قوله : ان جمال الدين قال مرة فى حديث له مع الأستاذ براون ، أنه لا أمل فى الإصلاح قبل قطع ستة أو سبعة رءوس وسمى بالاسم شاه العجم وكبير وزرائه وكلاهما قتل بعد ذلك . . وأشار « بلنت » فى تاريخه السرى لمصر أنه فى ربيع عام ١٨٧٩ كثرت المناقشة بين أنصار جمال الدين فى الوسائل التى يمكن بها خلع الخديوى اسماعيل أو اغتياله إذا استعصى خلعه . ويروى عن كرومر فى كتابه « مصر الحديثة » « ج ٢ » إن محمد عبده قال إن الكلام دار عن خطة معينه لاغتياله لم تنفذ لعدم وجود الشخص الذى يتكفل بذلك .

ويضيف أدمس قوله : ومع هذا فقد كان لجميع غاياته المتطرفة والوسائل التى يصطنعها وجه إنشائى يبدو واضحا جليا فى أعماله وينبغى ألا يغفل حسابه » . .

وهكذا أثار جمال الدين ثورة الفكر وربطها بالشورى ومقاومة النفوذ الأجنبى ضمن خطة واسعة للوحدة الإسلامية تقوم على أساس التخلص من الأمراء المستبدين وقيام حكام من الشعب والتقاء هؤلاء الحكام فى حلف أو جامعة أو كيان من نوع ما . وقال « سليم عنحورى » وهو أحد الذين عملوا معه أنه « ممن يدعون إلى إبدال الحكومة المقيدة بحكومة شورية تحدثه نفسه بتولى زعامتها ، وأنه كان آية من آيات القرن التاسع عشر ، وأنه لو لم يكن ينظر إلى المعالى بإفراط وأعجال مع عجزه عن كتمان مبدأه وغايته لرحب به التاريخ . وقال عنه صديقه وتلميذه محمد عبده : أنه كان حاد الطبع فطنا ولطالما هدمت الحدة فيه ما بنته الفطنة . هذه صورة التيار الذى حمله جمال الدين : تيار العمل السياسى ، وقد جرى معه الشيخ محمد عبده شوطا ثم تحول عنه بعد أن أحس عدم جدوى هذا الاتجاه وغلبة النفوذ الأجنبى وامتداد سلطانه وحماية أعوانه من الأمراء ، وضعف قدرة الشعوب على تفهم حقيقة هذا الاتجاه أو الاستجابة له أو مؤازرته نظراً للجهل الفاشى والعجز عن توصيل دعوة اليقظة إلى الناس على الصعيد العام ، وقد رأى محمد عبده أن وسيلة أخرى هى التى تحقق اليقظة وتكتب النجاح لدعوة التحرر من الاستعمار والاستبداد معا . وبناء حركة اليقظة الجديدة على أساس راسخ وهى « التربية » والإصلاح التدريجى ، وقد اقتنع الشيخ عبده بفشل اتجاه جمال الدين عندما لم يحقق شيئا فى مصر أو تركيا أو إيران .

وأشار على السيد أن يذهبا إلى مكان بعيد غير خاضع لسلطان يعرقل سيرهما ثم ينشئان مدرسة للزعماء يختاران لها التلاميذ ممن يتوسمان فيهم الخير ، ويربيانهم على منهج قويم يختارانه ويعدانهم للزعامة والإصلاح .

وقال الشيخ عبده لجمال الدين : أنه لا تمضى عشر سنين حتى يكون عندنا كذا وكذا من التلاميذ الذين يتبعونا فى ترك أوطانهم والسير فى الأرض لنشر الإصلاح المطلوب فينتشر أحسن انتشار . وقد تلقى جمال الدين هذا الرأى بغضب وثورة : وقال إنما أنت مثبط . وكان هذا معقد الخلاف بينهما ، وهو خلاف جذرى له عوامله المختلفة من نفسية واجتماعية عند كل منهما ، فالشيخ محمد عبده الذى كان يتصل بالبيئات الصوفية فى صدر شبابه يرى أن وسيلة التربية أصدق الوسائل فى تكوين الدعاة ، وأن القدرة القائمة على أساس من المعانى الروحية هى أنفذ عملا من التهييج والإثارة للجماعات المنوعة الفكر والرأى والذوق ، والتى لا تلتقى أساساً على معان روحية أو فكرية واضحة .

وقد حمل الشيخ عبده هذه الدعوة فى مصر وفى كل مكان ذهب إليه : فى سوريا ولبنان وتونس والجزائر . والطريق الوحيد عنده للنهضة والموصل إلى جمع كلمة الأمة والقضاء على استبداد الساسة هو: التعليم والتربية والاصلاح التدريجى . ومن ذلك قوله : أننى أدعو إلى التربية لأننى عرفت أية ثمرة تجنيها الأمم من غراس تغرسه وتقوم على تنميته السنين الطوال . وقد سار فى الطريق الذى دعا إليه محمد عبده المسلمون فى المغرب العربى وكان عمل السيد عبد الحميد بن باديس فى هذا الاتجاه باهرا ، فقد استطاع أن ينشىء ثلاثمائة مدرسة حفظت اللغة العربية والاسلام فى مختلف أنحاء الجزائر ، وكذلك كان عمل أحمد خان بإنشاء كلية عليكرة فى الهند ، وشبلى النعمانى فى إنشاء ندوة العلماء فى لكنو بالهند . وعمل محمد عبده فى مصر وفق هذه الخطة فآثر نظام التدرج والمراحل ، وذلك بالتوسع فى سلطة مجالس المديريات وتعديل نظم التعليم فى الأزهر وفى المدارس وأنشأ دار العلوم لاعتقاده أن تلاميذها أرضى لقبول الاصلاح من الأزهريين .. وفسر القرآن الكريم تفسيراً حديثاً يتناسب مع الناس وتطور الزمن .

خطان متوازيان : السلفية والصوفية

عندما ينظر الباحث فى تطور الفكر العربى الإسلامى واتساعه فى العصر الحديث يجد أن هناك حركتين غاية فى الضخامة والقوة هما مصدر هذه القوة الجديدة التى جددت شباب الفكر العربى الإسلامى ، واستطاعات بغير شك أن تقاوم الحملات العنيفة التى وجهت إليه عن طريق الغزو السياسى والعسكرى والثقافى الذى قام به الغرب للعالم الاسلامى منذ أوائل القرن التاسع عشر مستهدفا القضاء عليه ، وقد كانت حملات الاستشراق والتبشير جزءاً هاماً من هذا الغزو التغريبى فقد ارتبطت هذه الحركة إلى حد كبير بالتربية والتعليم والصحافة والكتابة ومختلف وجوه الإعلام ، واستطاعت بمؤازة النفوذ الغربى والقوى المادية أن تنطلق فى مناطق كبيرة من العالم العربى الاسلامى .

غير أن حركتى (السلفية) و (الصوفية) معا على الرغم من اختلاف الرأى بينهما ، قد جددتا شباب الاسلام وامدتاه بالقوة والحيوية وقاومتا كثيرا من هذه الاندفاعة التبشيرية التغريبية فى مراميها البعيدة ، واستطاعت الحركة الصوفية بالذات أن تكسب للاسلام مناطق نفوذ جديدة بقوة شخصية التاجر المسلم المتنقل من مكان إلى مكان يحمل مع بضاعته ، صورة رائعة ومثلا فريدا من الخلق والمعاملة والسماحة يجمع إليه الناس ويدفعهم إلى اعتناق دينه . ويمكن القول بأن « السلفية » قد جددت الاسلام تجديداً أفقياً ، من ناحية تصحيح مفاهيم الاسلام بعد أن سيطر عليها كثير من الزيف والخرافات ، وأن « الصوفية » قد جددت الاسلام عرضيا بتوسيع نطاق الدعوة إليه فى المنطقتين الجديدتين : وسط وغرب افريقيا وجنوب شرق آسيا . أما « السلفية » فقد بدأت بالحركة الوهابية فى قلب الجزيرة العربية ثم اتسع نطاقها وتطور مفهومها وتطور بحركات متعددة قام بها الشوكانى فى اليمن والألوسى فى العراق وجمال الدين فى إيران وتركيا ومصر ومحمد عبده فى مصر والمغرب وندوة العلماء فى الهند والمنار فى تونس وشمال

افريقيا . وكانت دعوات الخلدونية فى تونس وجمعية العلماء بزعامة عبد الحميد بن باديس فى شمال الجزائر وبيوض إبراهيم فى جنوبها وأبى شعيب الدكالى فى المغرب . كلها لا تعدو فى الحقيقة أن تكون فروعا لدعوة واحدة هى (السلفية) التى تدعو إلى عودة الإسلام إلى بساطته الأولى وفتح باب الاجتهاد وتصحيح المفاهيم الخاصة والتوحيد . وكانت كل هذه المؤسسات تؤمن بالحقيقة الكبرى ، وهى أن الإسلام قابل لمواجهة الحضارات والثقافات المختلفة وأنه لا ينافى المدنية ولا يعترضها ولكنه يتقبلها ويسيغها ويلتقى بها . ويحولها إلى وجهه الواضح وملامحه الصريحة ، دون أن يضيع فيها أو ينصهر فى بوتقتها ، وقد كانت الصحافة جزءاً هاما من أركان هذه الدعوة ويمكن القول بأن « المنار » الذى أصدره الشيخ رشيد رضا (٣٤ عاما) منذ عام ١٨٩٨ كان مدرسة ضخمة تأثر بها مسلمو تونس والمغرب والهند ، وحمل بصدق آراء الشيخ محمد عبده وتفسيره العصرى للقرآن وأن الحركة السلفية التى ظهرت فى المغرب كانت منبثقة من هذه المدرسة ، وقد أطلق أصحابها على أنفسهم أسم المدرسة العبدية — نسبة إلى الشيخ عبده — وكان أبرز أعمالها مقاومة الاستعمار الفرنسى والقضاء على المنحرفين من أصحاب الطرق : دعاة الخوارق والكرامات الذين استغلهم الاستعمار واتخذهم وسيلة للسيطرة على الناس وقتل روح الجهاد فيهم . وقد عملت المدرسة السلفية فى ميدانين كبيرين (١) أحياء الدين وتصحيح مفاهيمه واجلاء روحه الناصر النابض والكشف عن حقائقه (٢) وتجديد اللغة العربية وحمايتها باعتبارها أداة هذا الدين ووعائه . وكانت « الشهاب » التى أصدرها « عبد الحميد ابن باديس » فى « الجزائر » عملا هاما نشأت فى ظله جماعة العلماء التى كان لها الفضل فى حفظ اللغة العربية فى الجزائر بإنشاء ثلاثمائة مدرسة فى المساجد .

وكانت دعوة « ابن باديس » إنطلاقا مع التيار السلفى المستنير فى تحرير المفاهيم وتصحيح الأصول . وكان لجماعته أثر فعال فى تنوير الرأى العام ، ونشر الثقافة العربية ، وتطهير العقيدة الإسلامية من الخرافات وإحياء اللغة العربية وتقوية الشعور بالشخصية العربية فى الجزائر فى الوقت الذى كان الاستعمار الفرنسى جادا فى القضاء على (١) اللغة العربية (٢) والإسلام (٣) والشخصية الجزائرية ، ومن ذلك قول ابن باديس : أننا نرى

الأمة الجزائرية موجودة ومتكونة على مثال ما تكونت به سائر أمم الأرض ، وهى لاتزال حية ولم تزل ، ولهذه الأمة تاريخها اللامع ووحدتها الدينية واللغوية ، ولها ثقافتها وتقاليدها، هذه الأمة الجزائرية ليست هى فرنسا ولا تريد أن تصبح هى فرنسا ومن المستحيل أن تصبح فرنسا » . وقد أنبثت هذه الدعوة فى مختلف أنحاء الجزائر وكان لها مدارسها وصحفها بالعربية والفرنسية وقد قاومت دعاة الطرق الذين استغل الاستعمار الفرنسى بعض رجالها ضد الحركة التحررية ، وخاصة حرب الريف سنة ١٩٢٧ .

وفى مراكش انبعثت الصيحة السلفية على يد « أبى شعيب الدكالى » الذى تلقى هذه الدعوة فى المشرق — كما تلقاها من قبل ابن باديس ، وقد جمع حوله عددا من الشباب النابغ ووزع عليهم الكتب التى كان يطبعها السلفيون فى مصر . ثم ظهر على نفس الخط « محمد[1] بن العربى العلوى » وواجهت الحركة فى المغرب — كما واجهت فى المشرق أيضاً عندما حمل لواءها جمال الدين والشيخ عبده — حربا من الرجعيين ، كما أحست الحماية الفرنسية أنها موجهة للقضاء على نفوذها ، وقد أثرت هذه المرحلة فى تطور العقلية المغربية وامتزجت الدعوة السلفية بالدعوة الوطنية ، وكان لها من جراء هذا الامتزاج من النجاح ما لم يصل إلية جمال الدين ومحمد عبده .

وفى المغرب — كما يورد ذلك علال الفاسى فى كتابه « الحركات الاستقلالية » حملت السلفية لواءالدعوة إلى (١) الإصلاح الشامل ومقاومة الجمود فى كل فروع الحياة (٢) تطهير الدين من الخرافات والعودة إلى روح السنة المطهرة (٣) إحياء الشخصية الإسلامية على أساس المبادىء التى جاء بها الإسلام ، كما تناولت المجهود الفردى لصالح المجتمع ، وفتح الذهن البشرى لقبول ما يلقى إليه من جديد وقياسه بمقياس المصلحة العامة لإرجاع المجد العظيم الذى كان للسلف الصالح . ومن أهم آثارها : الإعداد الفردى لتقوية التضامن بين الجماعة الإسلامية على أساس الإخاء الإسلامى والانسانية ، والعمل على أن تتوافق أساليب الثقافة فى وسط المسلمين وحمل اللغة العربية صالحة لأن تكون لسان العالم الاسلامى .

---

(١) اقرأ دراسة عنه فى كتابنا : أعلام وأصحاب أقلام .

وفى الهند : اتخذت « ندوة الاسلام » نفس الطريق واتجهت إلى إنشاء مدرسة كبرى للعلوم فى مدينة (لكنو) أمها المسلمون من كل مكان وكان عملها أساسا هو « نشر المعارف وإعادة مجد اللغة العربية فى بلاد الهند ، ومحو البدع التى يجرى عليها العامة باسم الدين . وكان السيد أحمد خان مؤسس كلية عليكرة وسيد أمير على ، وشبلى النعمانى ومحمد إقبال فى مقدمة هؤلاء الدعاة الذين آمنوا بأن التربية والتعليم والثقافة هى الوسائل الأساسية لإزالة كل داء إعترى الأمة وحجزها عن سبيل الرقى ، وعندهم أن أمر التربية أعظم خطرا من التعليم . وقد لقى هؤلاء الدعاة من رجال الدين التقليديين عنتا شديداً .

وهكذا برزت موجة « الحركة السلفية » فى المشرق والمغرب والهند وكانت ذا أثر واضح فى تنقية مفاهيم الإسلام ودفعه إلى الأمام لمواجهة الحضارة والتطور والكشف عن جوهر الثقافة العربية الإسلامية الأصيلة القادرة على الحياة فى كل جيل وفى كل بيئة .

* * *

أما « الحركة[1] الصوفية » فقد كانت ذات أثر بعيد فى نشر الإسلام فمنذ عام ١٧٥٠م تقريباً بدأت النهضة الجديدة للاسلام على أيدى مشايخ الطرق ، وكان التصوف يعنى تطهير النفس من الماديات والارتفاع فوق المطامع الخاصة وبذل الروح فى سبيل الفكرة والتسامى عن الأهواء . وقد كانت هذه النهضه مقابلة للغزو الذى قامت به حركة التبشير فى إفريقيا والعالم الاسلامى كله ، كان للقادرية والشاذلية والتيجانية أثر كبير فى شمال افريقيا . ثم كانت للحركة المهدية فى السودان ١٨٨١ حين تمكن « محمد أحمد » من حشد خمسين ألف مقاتل من المؤمنين المتحمسين لهزيمة النفوذ العثمانى الممثل فى الجيش المصرى — إذ ذاك — والاستيلاء على قاعدة كردفان وبربر مفتاح بلاد النوبة ومحاصرة الخرطوم التى أستولى عليها ١٨٨٥ . وقد امتدت الحركة بعد وفاة المهدى (١٨٨٥) حتى أغسطس ١٨٩٩ عندما تغلبت القوات التى يقودها كتشنر وقضت على حكم الدراويش .

وكانت « الحركة[2] السنوسية » أشد قوة وأكثر سماحة واتصالا بتعاليم الاسلام بقيادة محمد على السنوسى ١٨٥٦ ، ولما كان السيد السنوسى جزائريا أصلا وقد عاش تجربة احتلال

(١) و (٢) اقرأ دراسة عنهما فى كتابنا « الفكر والثقافة المعاصرة فى الشمال الإفريقى » .

الفرنسيين للجزائر فقد انصبت دعوته على مقاومة التوسع الغربي في شمال افريقيا أيا كان نوعه . ولذلك جعل قاعدة الجهاد وجمع كلمة المسلمين على مقاومة العدو الغاصب أساساً لعمله . ولم تكن طريقته صوفية محضة ، بل كانت مفاهيمة قريبة من السلفية ، وفى برقة بنى الزاوية البيضاء ، وكثر اتباعه فى واحة الفرافرة وفى طرابلس وفى توات وفى السودان .وتعددت الزوايا فى الصحراء وأنبثت واتسع نطاق الحركة التى أمتدت إلى شرق وجنوب افريقيا ، ومن جغبوب جعل مركز القيادة حيث أصبحت أعظم مدرسة لدعاة الاسلام فى أواسط افريقيا ومنها امتدوا حتى بلغوا النيجر الأدنى ، وكان لهم أبعد الأثر فى هداية عشرات القبائل الاسلام إلى مما جعل بحيرة « تشاد » مركزاً عاما للاسلام فى أواسط افريقيا ، وبلغ عدد دعاتهم أكثر من أربعة ملايين ، حيث كانوا يسرحون كل من يتوسمون فيه الخير إلى جغبوب ليستطيع بعد دراسات مستفيضة للاسلام أن ينضم إلى مئات المبشرين المنبثين فى كل مكان من نواحى افريقيا حتى سواحل الصومال شرقا وسواحل السنغال غربا . وقد استطاعت هذه الحركة أن تضم إلى الإسلام أكثر من ٥٠ مليونا .

ويؤكد الباحثون المنصفون أن مريدى الطرق هم الذين سموا فى نشر الإسلام ووفقوا إليه فى افريقية تارة بهيئة تجار وطورا بهيئة دعاة . وقد أسسو سلطنات رابح وأحمد وسامورى . وقد واجهت «السنوسية » كبرى الحركات الصوفية النقية خصومة عنيفة من الاستعمار الفرنسى الذى خصص مبالغ طائلة لمقاومة سلطانها .

وجعلت السنوسية أساس عملها : الاجتهاد فى فهم الدين ، وفهم الأحكام من الكتاب والسنه ، وتشييد الحصون فى الصحراء ، وصنع البارود وادخار الأسلحة المجلوبة من أوربا . وكان هذا العمل الذى يمزج بين الثقافة الإسلاميه وإعداد أدوات الحرب وإنشاء أول مصنع أسلحة فى العالم العربى الإسلامى فى العصر الحديث للقتال عملا مجيدا . وكان إيمان السنوسية يقوم على أساس أن الدفاع عن الوطن جزء من الدفاع عن الدين . وقد كان محمد على السنوسى غاية فى الذكاء والنبوغ ، فقد اجتهد فى الدين ولم يتقيد بمذهب من المذاهب وعمل وفق أسلوب يناسب الصحراء وجمع بين الدين والسياسة بالإضافة إلى دراسة أصول حركة احياء الأرض وغرس الأشجار واقتناء السلاح والاستعداد

للمدافعة والمقارعة عند الحاجة . وقد أخذ من السلفية والصوفية معاً ومزج بينهما ولم يستطع أحد أن يتهم هذه الحركة بأنها والت المستعمر ، فقد ناهضته دوما وكان دورها فى العمل بعد ذلك شاقا عندما هاجمت إيطاليا سواحل طرابلس عام ١٩١١ وهب السنوسيون للقتال المنيف وأدالوا من الغزاه وهزموهم فى عشرات المواقع .

وإذا كان هذا هو الدور الضخم الذى قامت به الحركات الصوفية فى نشر الإسلام فإن بعضا من « رؤساء » هذه الطرق قد انحرف بها تحت ضغط الإغراء لموالاة الاستعمار . وقد كان ذلك فى مصر والمغرب وتركيا . وقد كانت الدعوة السلفية عنصر مقاومة لهذه الانحرافات ، وإذا وجه الاتهام إلى بعض رؤساء الطرق فإن ذلك لا يشمل الحركة الصوفية النقية وإنما ينصب على الانحراف الذى أدخله بعض هـؤلاء بالمغالاة فى الخوارق والكرامات من ناحية والتسليم للاستعمار باسم إطاعة ولى الأمر من ناحيـة أخرى . أما الصوفية الحقة الخالصة فقد كانت تعاليا فوق المطامع والأهواء ، وحربا على الحكام الظالمين ومقاومة للاستعمار والاستبداد معا والدعوة للاسلام ونشره فى كل مكان .

هذا كانت السلفية عملا للتحرر من القيود التى وضعت فى عصور الاضطراب والظلام وعودا بالإسلام الى منابعه الأولى وفتح باب الاجتهاد . ومن هنا كانت كلتا الحركتين أساسا هاما للعمل الإيجابى ، احداهما على مستوى الانساع والأخرى على مستوى العمق . وكما كان بعض الصوفية حلفاء للاستعمار فقد كان بعض العلماء حلفاء للاستعمار والاستبداد وكان أخطر ما دعوا اليه هو إغلاق باب الاجتهاد .

الاجتهاد والتقليد

منذ بدأت (اليقظة) فى مجال «الفكر العربى الإسلامى» المعاصر كان أبرز معالمها : تحرير الفكر من قيد « التقليد » وفتح باب الاجتهاد وكان التفسير العملى لهذا الاتجاه هو إبراز صلاحية « الإسلام » وإيجابيته للتطور الزمنى والالتقاء بالحضارات والكشف عن قدرة (الإسلام) للبقاء والحياة والملاءمة مع كل زمان وفى كل مكان .

فقد كانت القضية الكبرى التى حاول التفكير الغربى إثارتها وترديدها ، وحملها اتباعه وتلامذته ، هو أن الإسلام غير قادر على مسايرة التطور ومتخلف عن التجاوب مع الحضارة والنهضة ، ولعل مصدر هذه الدعوى هو أن (الصورة) التى يحيا عليها المسلمون خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلادى كانت بعيدة كل البعد عن الإسلام ولذلك لم تكن هى الإسلام نفسه وبذلك كان الحكم عليها بالعجز عن مواجهة التطور أو الالتقاء بالحضارة ، إنما هو من باب القصور عن التفريق بين الصورة الواقعة وبين التعاليم والقيم ، أى بين المسلمين والإسلام نفسه . والحق أن الأساس الحقيقى لعجز المسلمين عن تطبيق روح الإسلام فى الحياة هو توقف العلماء عن الاجتهاد ، وتجميد المعاملات والانظمة والأحكام والأخذ بالتقليد ، والدعوى بأن باب الاجتهاد قد قفل بعد ظهور المذاهب الأربعة . وكان هذا التوقف معناه جمود الإسلام على صورة معينة وعدم القدرة على القابلية لمواجهة التطور وإيجاد حلول المشكلات التى تعترض طريقها بحيث يمكن الملاءمة الدائمة بينه وبين المجتمع .

ويرجع السر فى هذا التوقف بغلق باب الاجتهاد إلى دخول العالم الإسلامى فى مرحلة الضعف التى زادته الحياة السياسية فى القرون الأربعة من حكم الأتراك العثمانيين تعثراً وذلك حينما هوى العالم الإسلامى فى الظلام الدامس ، وتوقف عن التطور والحياة ، والأخذ بأسباب القوة العسكرية ، حين توالت عليه حكومات مستبدة ، وقف العلماء التقليديون إلى جانبها ووالوها وأيدوا الأمراء والسلاطين وبذلك تجمدت صورة المجتمع الإسلامى .

ويرى رشيد رضا أن العلماء الذين افتوا بغلق باب الاجتهاد كانوا من المقلدين الذين ضعفت ثقتهم بأنفسهم ، وساء ظنهم بالناس وغلوا فى تعظيم السابقين وادعوا أن العقل دائماً فى انحطاط ، وعنده أن ضياع المعتزلة (وهى الفرقة العقلية فى الإسلام) وانتصار أهل الحديث عليهم ، بالإضافة إلى مهاجمة أهل التصوف للفقهاء ، وسقوط بغداد وكانت مركز الحضارة والثقافة الإسلامية ، كل هذا غلب التشاؤم ورد الفقهاء إلى القديم بغية المحافظة عليه .

وكان إقفال باب الاجتهاد يعنى بأنه لم يبق فى الناس من تتوفر فيه شروط المجتهد ولا يرجى أن يكون ذلك فى المستقبل . وقد سار « التقليد » خطوات واسعة بعد وضع كتب المذاهب ، فترك المقلدون أصول الشريعة ، وذهبوا مع التقليد البحت وأنزلوا كلام الأئمة منزلة الشريعة ، ودعوا إلى العمل بأقوالهم دون معرفة دليله من أصول الشريعة . وقد حرموا الاجتهاد ولو فى المسائل التى تدعو إليها الضرورة ، وكان نتيجة ذلك أن لجأت الحكومات الاسلامية إلى العمل بالقوانين الغربية . كما عملوا فى نفس الوقت على التوسع فى المسائل الفرعية وبحث المستحيلات والفروض .

ولما كان السلاطين والأمراء المستبدون يخشون حرية العلم ، هذه الحرية التى لاتتحقق إلا بالاجتهاد فقد شجعوا هذا التجميد . وقد حرصت الحكومة العثمانية على مقاومة كل اتجاه . ففى عام ١٩٠٤ علمت أن بعض علماء الشام يحملون تلاميذهم على ترك التقليد ، والعمل بالدليل ، فقاومتهم . وكانت مجلة المنار وهى تحمل آراء الشيخ محمد عبده منذ ١٨٩٨ ممنوعة فى مختلف البلاد التابعة للدولة العثمانية .

ومن نتائج التقليد وترك الاجتهاد (١) إهمال العقل وقطع طريق العلم والحرمان من استقلال الفكر (٢) ظهور حصيلة ضخمة من الخرافات والبدع التى ليست من جوهر الاسلام .وقد قامت يقظة الفكر الاسلامى على فتح باب الاجتهاد والدعوة إلى (الاصلاح) وتجديد الدين بكشف قدراته على مواجهة الحياة فى ظل التطور والحضارة وحل مشاكلها .

وقد كشف « جمال الدين الأفغانى » عن هذا الرأى فى مقاله الشهير « الأمور التى تتم بها سعادة الأمم » حين دعا إلى أن تكون عقائد الأمة — وهى أول رقم ينقش

على ألواح نفوسها — مبنية على البراهين القويمة والأدلة الصحيحة ، وأن تتحامى عقولهم مطالعة الظنون فى عقائدها وتترفع عن الاكتفاء بتقليد الآباء فيها ، فإن معتقدا لاحت العقيدة فى مخيلته بلا دليل ولا حجة قد لا يكون موقنا فلا يكون مؤمنا ، هذا والآخذ على عقائده بالظن ينصب عقله على متابعة الظنون ، والقانع أن آباءه كانوا مثل عقيدته فأولى به أن يكون عليها يلتقى مع سابقيه فى مصاب الوهم وفجاج الظن ، أولئك المتبعون للظن القائمون بالتقليد ، تقف بهم عقولهم عندما تعددت اداركه فلا يذهبون مذاهب الفكر ويسلكون طرائق النظر ، وإذا استمر بهم ذلك تغشتهم الغباوة بالتدريج ثم تكاثفت عليهم البلادة حتى تعطل عقولهم عن أداء وظائفها العقلية بالمرة فيدركها العجز.

وتابع الشيخ محمد عبده الدعوة إلى فتح باب الاجتهاد وتجميد التقليد بخطوة أوسع مدى ، فدعا الى تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الاختلاف . والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى ، واعتباره ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه وتقلل من خلطه وخبطه ، وأنه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم باعثا على البحث فى أسرار الكون داعيا إلى احترام الحقائق الثابتة مطالبا بالتعويل عليها فى أدب النفس واصلاح العمل » وكشف الشيخ محمد عبده عن الفرق بين حقيقة الاسلام وبين تطبيقه وما دخل إليه من زيوف وقشور ليست منه .

فقال : أنه عند النظر فى أى دين للحكم له أو عليه فى قضية من القضايا يجب أن يأخذ — أى الدين — ممحصا مما عرض عليه من بعض أهله ، أو محدثاتهم التى ربما تكون جاءتهم من دين آخر ، فإذا أريد أن يحتج بقول أو عمل لاتباع هذا الدين فى بيان أصوله فليؤخذ فى ذلك بقول أو عمل أقرب الناس إلى منشأ الدين أو على أصوله التى ورد بها من صاحب الدين نفسه . ويرى الشيخ محمد عبده أن أحكام الشريعة ليست شيئاً جامدا لا يتحول بتحول الزمن والمصلحة بل هى مطاوعة ذلك دائرة فى منفعة الناس وجوداً وعدما . وأنه — أى الدين — يبيح لنا أن نسير الشريعة وفق مصالحنا ، فتمنع المباح — بحكم الحاكم — إذا وجدنا فى إباحته ضررا .

وقال أن أبرز سمة للاسلام هو مطاوعة أحكامه ومسايرتها لكل زمان ومكان . وذلك لتطور الأحوال ودورانها على مصالح الناس وأنه لا يقصر ذلك على زمن معين يقفل بعده باب الاجتهاد بل يستمر إلى نهاية الدهر . ويقول « أمير على » : أن لكل عصر ما يلائمه من الطباع والعوائد وما يصلح لزمن من الأزمان قد لا يصلح لغيره . ولا ينبغى أن نحكم على الماضى بمقياس ما نراه فى الحاضر ، وأن الأحكام تعدل وتطبق على حسب المقتضيات التى تدعو إليها مصالح الناس وتقدم الزمن . ويرى فريد وجدى أن للاسلام أصولا كلية ثابتة لا تتغير بتغير الأحوال ، وأن هناك أشكالا شرعية وضعت للجزئيات ، وقصد بها التوفيق بين مصالح الناس وحسم النزاع الذى يقوم بينهم من أجلها . ولما كانت هذه المصالح تتغير وتتنوع على حسب الحاجات ، ووجوه النزاع تتباين إلى غير حد يقف عنده ، بل ولما كانت وسائل التوفيق بين مصالح الناس ووجوه حسم منازعاتهم من الأمور التى تترقى إلى مالا نهاية ، لذلك لا يمكن أن توجد رسوم قانونية مقررة دائمة .

وقال : أن ظاهرة الاجتهاد فى الإسلام إنما تهدف إلى إيجاد رسوم قانونية تحقق أصول الإسلام على حسب الحاجات بما تضمه من روح المكان والزمان . وذلك عامل من عوامل ترقية الأمم الإسلامية وأنهاضها . وقال : أننا إذا أردنا أن يعود إلى شريعتنا شبابها وأن تكون كما كانت ، دستور الأمم الاسلامية فى معاملتها الدنيوية وجب علينا أن نعترف بدوام انفتاح باب الاجتهاد . وقد كشفت فتاوى الشيخ محمد عبده عن قدرة الاسلام على حل مشاكل العصر ومواجهة التطور الحضارى دون تخلف وملاءمة الاسلام لكل العصور وكل درجات الثقافة ، ومن ذلك حكمة بجواز التزيى بزى غير المسلمين أو أكل ذبائحهم .

وقد وصف العلماء والباحثون « الاجتهاد » بأنه القدرة على استنباط أحكام تسد الحاجات الاجتماعية المتجددة . على أساس أن (الاسلام) جاء بأصول كلية صالحة لأن يستنبط منها ما يلائم كل عصر ومكان ، وهى فى اصطلاح الأصوليين ما يطلق عليه استفراغ الفقية الوسع فى تحصيل ظن بحكم شرعى .

والمجتهد شرطان (١) معرفة الله تعالى وصفاته وتصديقه النبى بمعجزاته وسائر مايتوقف عليه علم الايمان . كل ذلك بأدلة اجتماعية . (٢) أن يكون عالما بمدارك الاحكام وأقسامها وطرق إثباتها ووجوه دلالتها وتفاصيل شرائطها ومراتبها وجهات ترجيحها عند تعارضها والتقصى عن الاعتراضات الواردة عليها ، فيحتاج إلى معرفة حال الرواة وطرق الجرح والتعديل وأقسام النصوص المتعلقة بالأحكام وأنواع العلوم الأدبية من اللغة والصرف والنحو ، وأن يكون صاحب قريحة يعرف بها عادات الناس لأن من الأحكام ما يبنى عليها.

وجملة القول أن اليقظة الاسلامية الحديثة قد كشفت عن هذا الجانب الايجابى للاسلام وبذلك ردت على الادعاءات التى حملها متعصبو الفكر الغربى وتابعهم عليها الباحثون العرب والمسلمون ، وأوضحت الحقائق الآتية :

إن الإسلام دين متطور بطبعه قابل للملاءمة بينه وبين الحياة والحضارات وانه لا يجمد عند ظاهر النصوص . قابل لمطالب المدنية الحديثة . باب الاجتهاد فيه مفتوح . متجدد دائماً وقادر على الأخذ من محاسن كل حضارة . غير معزول عن تيارات التطور والحياة . ليس به انفصال فى التفكير بين الدين والدنيا أو بين الدين والعلم . والقدرة على الصلة بين الدين والعقل واضحة فيه مع تقديم العقل على النقل عند التعارض هذا بالاضافة إلى واقعية الشريعة الإسلامية فى تناولها شئون الحياة اليومية ، وعدم اقتصارها على مسائل العقائد والأخلاق . لم يكن الإسلام عاملا من عوامل الضعف والقصور أو عدواً للرق يوماً . الضعف الذى أصاب الأمة الإسلامية فليس مصدره الإسلام وإنما مصدره الجمود وإقفال باب الاجتهاد وغلبة البدع وخطأ فهم عقيدة القضاة والقدر وقيام السلبية والفردية ، والتخلف عن الزمن .

ولقد أثار الفكر الغربى فى مواجهة الفكر الإسلامى كثيراً من الشكوك والقضايا محاولا بها إثارة الشبهات حول الإسلام ، نرجو أن تكون موضع هذه الدراسة .

بدأت اليقظة الفكرية فى العالم الإسلامى قبيل منتصف القرن الثامن عشر سنة ١٧٥٠ على وجه التحقيق ، وترتبط مظاهر هذه اليقظة بالدعوات التى ظهرت فى مصر والجزيرة العربية إلى العودة بالإسلام إلى منابعه الأولى وتحريره فى الزيوف التى دخلت عليه خلال الفترة التى مر بها . وقد كان ذلك سابقا للاحتكاك الغربى بالعالم الإسلامى ممثلا فى الحملة الفرنسية (١٨٩٨) التى جاءت بعد ذلك بأكثر من ثمان وأربعين عاما (حوالى نصف القرن) وقد كشف هذا الاحتكاك بين الغرب المسيحى والشرق الإسلامى عن خطة جرى تنفيذها فى الغزو والسيطرة حققت استيلاء فرنسا على الجزائر عام ١٨٣٠ ، وهو العام الذى يرتبط فى نظر المفكرين بانبعاث الدعوة التبشيرية إلى المسيحية فى العالم الإسلامى وهناك إجماع على أن التبشير بدأ عمله عام ١٨٣٠ بعد أن أقره الباباوات ورسموا خطته ، ووضعت الدول الأوروبية الاعتمادات المخصصة له .

وقد بدأ فى أكثر من صورة ، كان أبرزها وصول المرسلين الأمريكيين والفرنسيين والانجليكيين إلى بيروت فى الأربعينات من القرن التاسع عشر فى إلى القاهرة فى الخمسينات من نفس القرن . ثم ظهور المرسلين فى البحرين والهند وشمال افريقيا وانبعاثهم جنوبا وشرقا وغربا . وكانت هذه بداية (الحملة على الإسلام) كفكرة ودين ونظام اجتماعى وسياسى للقضاء عليه بمختلف الوسائل :

(١) القوة العسكرية : حيث توسع الاحتلال وامتد إلى الساحل العربى والمحميات وتوغل فى الهند ثم احتلال مصر وتونس والسودان .

(٢) العمل التربوى والفكرى بالسيطرة على وسائل التعليم والصحافة ومحاولة خلق جيل جديد يتبع فى مفاهيمه وأفكاره الفلسفات الغربية القائمة على أساس التشكيك فى القيم العربية والإسلامية والتاريخ واللغة وخلق روح من التعاطف والالتقاء مع الغرب

صاحب الحضارة والمدن للشرق الخامل (!) وطبع الشباب على تمجيد العرب واكباره واحتقار العرب والاسلام واللغة العربية والتاريخ الاسلامى .

(٣) العمل التبشيرى القائم على غزو الجماعات عن طريق الكنائس والمستشفيات والمدارس وتقديم الخدمات والاغراء واتخاذ أساليب العنف فى التنصير والخطف واقتحام الأزهر مثلا . وبذلك وضع العالم الاسلامى كله تحت سيطرة مخطط عنيف يقوده جيش مدرب من المثقفين الغربيين تسندهم القوى الاستعمارية والنفوذ والاعتمادات المالية الضخمة التى تمكنهم من الحياة فى الصحراء سنوات طويلة ، ويسندهم هدف واضح هو تركيز نفوذهم فى العالم الاسلامى أبدا .

ومن هنا انبعثت التحديات الكبرى فظهرت معركة المقاومة[1] ورد العمل التى استغرقت جهود المفكرين المسلمين وحياتهم . وقد واجه هذه المعركة رعيل من علماء المسلمين ومفكريهم وزعمائهم بعد سنوات قليلة من بدء المعركة وفى مقدمتهم جمال الدين الأفغانى (مصر) ومدحت (تركيا) وأحمد خان (الهند) وخير الدين التونسى (تونس) فكان هؤلاء هم طلائع المعركة ، ثم ظهر من بعدهم صف ثان من تلاميذهم ربما كان أعمق فكراً وأعظم أثراً من أمثال محمد عبدة (وقد تأثر به المغرب العربى كما تأثر به مسلمو اندونيسيا) والكواكبى والسنوسى وشهاب الدين الألوسى وشبلى النعمانى (الهند) ورشيد رضا ثم توالى ظهور باحثين مجددين من أمثال فريد وجدى وشكيب أرسلان وتوفيق البكرى ورفيق العظم . وطاهر الجزائرى . وطنطاوى جوهرى . وعبد العزيز شاويش وعبد العزيز الثعالبى . وعبد الحميد بن باديس وعلال الفاسى ومحمود أبو العيون ومصطفى الغلايينى ومحب الدين الخطيب والبشير الابراهيمى ومصطفى المراغى .

وعندما راجع العمل الكبير الذى قام به هؤلاء الباحثون فى سبيل مقاومة (الغارة على الاسلام) ورد الحملة التغريبية التى قام بها الغرب ضده فى مجال السياسة والفكر والدين نجد محصولا ضخما من البحث الذى هدى ووجه هذه الأجيال المتعاقبة وقدم لها الاجابات الواضحة عن الاستفسارات المتوالية . وكشف عن جوهر الاسلام فى مواجهة الحضارة . وقدرته على الملائمة بين الدين والحياة . وحل المعضلات المختلفة .

---

(١) راجع هذه المعركة فى كتابنا : (الفكر العربى فى معركة التغريب والتبعية الثقافية) .

ويكشف هذا التراث — الذى نرجو أن يتاح لنا استعراضه وتقديمه — عن خطين واضحين .

(١) الخط الأول : هو الرد على كل ما وجه إلى الاسلام من اتهامات وما كتبه المتصدرون من مفكرى الغرب بدافع التعصب أو الجهل أو عدم الفهم للقيم الاسلامية أو التاريخ العربى الاسلامى أو اللغة العربية .

(٢) الخط الثانى : الكشف عن جوهر الاسلام وحقيقته مع تصفيته من الزيوف والأوهام والبدع التى لصقت به فى سنوات الضعف والاضطراب . وقد سار هذان الخطان متجاورين بل ممتزجين تقريبا فى أعمال فكرية ضخمة تتمثل فى ٣٤ مجلدا فى المنار (رشيد رضا) و ٣٠ مجلدا من الفتح (محب الدين الخطيب) وعشرات من مجلات إسلامية أخرى ظهرت فى العالم العربى والاسلامى كالأزهر والعرفان والشهاب والبصائر والتمدن الاسلامى ومئات من الكتب المختلفة التى تناولت بالبحث تفاصيل هذه القضايا وعرضها عرضا سهلا مبسطا . وتتسم هذه الأبحاث بأنها تحررت من الطابع التقليدى فى الكتابة ذات السجع والزخرف .

وقد بدأت هذه المعركة — على حد ما وصل إلى علمنا — بكتاب جمال الدين الأفغانى (الرد على الدهريين) للرد على أولى الحملات على الاسلام فى الهند وذلك قبل أن يتخذ من مصر مقرا لدعوته سنة ١٨٧١ ، ثم توالت الحملات وقد كان أبرزها حملة دوق داركور التى تصدى لها قاسم أمين (١٨٩٢) ثم حملة هانوتو التى واجهها بالرد الشيخ محمد عبده فى أواخر القرن التاسع عشر تقريباً وغير ذلك حملات لافيجرى وكرومر وقد تنوعت هذه الحملات فاتجهت إلى العقائدوالقيم ونظم المجتمع والتراث العربى الإسلامى وحاولت فرض نظريات مختلفة كالنظرية اليونانية وتتبيع الثقافة والفلسفة الإسلامية لليونان ، أو إنكار فضل العرب على الحضارة أو نظريات الجنس وتفضيل الآرية على السامية أو اتهام العرب والملونين بالنقص والتخلف وأبرز الدعاة لهذه النظرية جوبنيو الفرنسى ، وكان هدف الغرب من وراء هذه الدعوات تحطيم القوة المعنوية للعرب والمسلمين وللعقيدة واللغة

بالذات باعتبارها المقدمات الحقيقية للنهوض . والعاملين الكبيرين اللذين لا يمكن السيطرة والتسلط دون القضاء عليهما ثم ظهرت حملات (التجزئة) والشعوبية فى الدعوة إلى الفرعونية فى مصر والفينيقية فى لبنان والأشورية فى العرق والبربرية فى المغرب ثم التجزئة بالدين والتجزئة بالقوميات الضيقة والتجزئة بالأحزاب والقبليات والمذاهب ثم الدعوة إلى حضارة البحر الأبيض المتوسط وقد قاوم الفكر العربى الإسلامى المعاصر هذه الدعوات وبذل من أجل ذلك جهداً ضخماً وفى نفس الوقت الذى كان الفكر الاسلامى فيه يعمل من أجل المقاومة . كان (الإسلام) ينطلق ويتمدد فى هذا الكوكب ليزداد نفوذه ويكثر اتباعه فى مناطق مختلفة أغلبها فى افريقيا وشمال شرق آسيا ومن العجيب أن يحدث هذا ويتسع نطاقه فى ظل هذه المرحلة الحرجة من تاريخه وفى خلال نفس الفترة التى تمدد فيها الغزو الاستعمارى الغربى .

وبمراجعة يسيرة لتعداد المسلمين بين أوائل القرن الثامن عشر وبين النصف الأول من القرن العشرين نجد أن هناك زيادة ضخمة فى العدد . مع انفساح فى الرقعة ووصول الاسلام إلى مناطق جديدة . ولم يحدث هذا النمو والتمدد الضخم عن طريق قوة حاكمة أو سلطة سياسية بقدر ما تحقق عن طريق التاجر المسلم والطرق الصوفية ، وقد تحقق فى ظروف دقيقة ، فإن الحملات التبشيرية التى صدرت للعمل فى العالم الاسلامى كانت تعمل فى هذه الفترة ولا تزال ، بإمكانيات ضخمة ومواد هائلة ، ونفوذ ممتد من سلطان الحكومات المستعمرة والمحتلة ، بينما لم يجد الاسلام مثل هذه القوى المساعدة ، وإن وجد القوى التى تهاجمه وتحصره ، وقد أزعجت هذه الظاهرة المراقبين المتتبعين لمعركة نقل عشرات الملايين من الوثنيين فى افريقيا وجنوب شرق آسيا إلى المسيحية أو الاسلام ، كيف استطاع الاسلام وهو مجرد من كل القوى والامكانيات أن يسبق فى هذا المجال سبقاً واضحاً وأن يحقق انتصارات ضخمة .

ويرجع هذا فى الأغلب إلى بساطة الإسلام وسلامة جوهره ، إلى القدوة ذات النموذج الواضح المتمثل فى صورة التاجر المسلم البسيط السمح ، الصادق فى المعاملة وإلى اقتراب الاسلام من الفطرة الانسانية وسهولة تقبلها له . وفى الوقت الذى يواجه الاسلام فيه معركتين معاً : معركته مع الوثنية والديانات الأصلية كالبوذية والهندوكية ، بالاضافة

إلى معركته مع التبشير الغربى ، فإنه يحقق انتصارات جديدة بكسب عدد كبير من الوثنيين إلى حظيرته . وقد سجل هذه الظاهرة عدد كبير من الباحثين أمثال توماس أرنولد فى كتابه الدعوة إلى الإسلام وك . ك برج فى كتاب (وجهة الاسلام) وهوبرديشان فى كتابه (الدعوة إلى الاسلام) وجان بول رو فى كتابه (الاسلام فى الغرب) وهذه عبارته : (إذا نظرنا إلى التقدم الاسلامى المسيحى ليس من ناحية الأرقام المجردة بل من ناحية النسب المئوية نرى أنفسنا ملزمين بأن نقول بأن الاسلام يسجل انتصارات مذهلة) .

* * *

وهكذا مضى الفكر العربى الإسلامى منذ فجر النهضة فى خطين متلازمين : هما (١) المقاومة للغارة الفكرية والسياسية التى يشنها الغرب عليه بالأكاذيب والاتهامات و (٢) التمدد والانبساط والتوسع فى أفريقيا وجنوب شرق آسيا .

وهو فى معركته الأولى قد حقق انتصارات متعددة وحول كثيرا من المفكرين الغربيين أنفسهم إلى صفة، فاعترفوا له بقوته الذاتية وأثره الإيجابى . كما حول كثيرا من دعاة التغريب الذين بدأوا حياتهم يعملون فى صف خصومه . واستطاع الإسلام فى نفس الوقت تنقية ملامحه من الزيوف التى ألمت به فترة الضعف . وأن يعود إلى المنابع الأولى فيتصل بها ويحقق بذلك عملا تجديديا صالحا يواجه به تطور الحضارة ويكشف عن أصالته وقدرته على الحياة مع كل تطور وعصر ومكان .

وهو فى معركته الثانية يحقق انتصارات توسعية بفضل بساطته ونقاء جوهره فينفذ إلى قلوب الملايين ويحررهم من الوثنية ، ذلك بالرغم من مقاومة والقوى التبشيرية ونفوذ الحكومات الاستعمارية .

ولا شك أننا نستطيع أن نفصل جوانب هذه الصورة التى عرضناها سريعة موجزة حين نتحدث من بعد عن حركة المقاومة بالتفصيل كاشفين جوانب هذا العمل الضخم فى سبيل حماية الإسلام ودعوته وتاريخه ولغته من المؤامرة التغريبية الكبرى التى وجهت إليه .

تحديات فى وجه الفكر العربى الإسلامى

عندما واجه الغرب « العالم الاسلامى » بحملته الاستعمارية للسيطرة عليه كان يحمل فى أعماقه ومفاهيمه عدة عوامل شكلت خطته فى هذه الحملة : (١) إن القرآن هو مصدر القوة الإسلامية وأنه لا أمل فى استعباد المسلمين ما دام هذا الكتاب باقيا فى الأرض . (٢) أن الإسلام دين العزة والقوة والجهاد فلن يستسلم المسلمون ما دامو على هذا الفهم له . (٣) أن اللغة العربية هى رابطة الأمة العربية وقوام الإسلام ومفتاحه فى العالم الإسلامى .

وكان الغرب فى طريقه إلى الغزو العسكرى يحمل فى أعماقه هذه المفاهيم : (١) تعصبا كاملا ضد الشرق والسلام والعرب رضع لبانه مع مفاهيمه الأولى وتطلعاته إلى الحياة . (٢) إيمانا بسيادة الرجل الأبيض على الرجل الملون . (٣) الايمان بالحضارة الأوربية والمادية وتنحية الدين عن مجال الاقتصاد والسياسة والحكم والفكر باعتباره عاملا معوقا . (٤) الايمان بمذهب الغاية تبرر الواسطة . واستخدام الوسائل ، كل الوسائل فى سبيل الوصول إلى الهدف .

ولذلك اتخذ الغرب خطة استطلاعية شاملة تمهد الطريق أمامه إلى الغزو الاستعمارى مجالها الفكر ، وعدتها الصحافة والكتاب والمدرسة والبعثة بالاضافة إلى السينما ومجالات اللهو والمراقص .

ومن هنا دخلت إلى العالم الاسلامى : (١) الإرساليات الأجنبية بمدارسها ومستشفياتها وأقطارها ومفاهيمها . (٢) حانات للخمر فى كل قرية يديرها (خواجه) يقوم هو نفسه بإقراض الأهالى بالربا . (٣) مجالات اللهو فى العواصم ترتبط بكل معانى الترف والانفاق المادى (٤) صحف (قوية ذائعة) تخضع خضوعا تاما للنفوذ الاستعمارى وتحمل لواء الدفاع عن آرائه وتوجيه الرأى العام إلى المفاهيم التى يفرضها . (٥) جيل جديد من الشباب يبعث إلى أوربا ويربى تربية خاصة . ثم بدأت قوى كبيرة تعمل فى مجالات مختلفة منها : الاستشراق ، والتبشير ، الالحاد ، التغريب ، الشعوبية ، الاباحة والكشف .

وشملت هذه المجالات التعليم والكتابة ، والأدب والعلم والمدرسة والبيت .

وقد اتصلت هذه التحديات فى مجالها الأكبر (بالدين) عامة وبالاسلام خاصة ، فبدأ الهجوم على أصول الإسلام ، وقيمه وآثاره . واتهم بأنه عقبة فى سبيل التقدم ، وجرت زحزحته عن مجال الحكم ، ثم مجال القضاء ، ثم مجال المجتمع ثم جرت محاولات لزحزحته عن الحياة العامة ، وخلق روح الاستخفاف بقيمه . وتشجع دعوات منحرفة ترتبط به وتحمل اسمه : كالبابية والبهائية ، وظهرت دعوات ترى أن أساس الأديان واحد فلا بد أن يظهر دين واحد بدلا من الاسلام والمسيحية واليهودية ، وظهرت دعوات لتوحيد الأديان نفسها ، واتصل هذا بمواجهة القرآن والحديث النبوى والتشكيك فيهما ، وامتد مجال هذا من الصحف إلى الجامعات ففرضت مؤلفات منحرفة ، وما تزال بعض هذه المؤلفات فى عديد من جامعات بلاد الشرق تفرض نفسها إلى اليوم . وبدأت حملة ضخمة من التبشير ، كانت أوائل القرن عنيفة قاسية ، تفرض الإخراج من الاسلام فرضا ، واتسع نطاقها إلى حد كبير ، وذهب ضحيتها الكثيرون ، ووقفت الحكومات التابعة للاستعمار منها موقفا غير كريم ، وساند الحملة كتاب من العرب والمسلمين أعلنوا استخفافهم باخراج اثنين أو ثلاثة ، وتطور التبشير بعد أن عجز عن هدفه الأول فى صورة متعددة من صور التشكيك فى الفكر والمقومات ، وأعلن دعاته وأقوامه بأنه إذا لم يصل التبشير إلى نقل المسلم من دينه فلا أقل من أن يشككه فى دينه ويعزله عنه فلا يكون شيئاً . وجرت الدعوة إلى الدهرية . وبدت أفكار متلاطمة تقول أن الأديان قيود وأغلال التزمها الناس بدعوى أنها منزله ، ووقف كاتب كبير فقال أن الدين نبع من الأرض ولم ينزل من السماء وأنه ظاهرة من الظواهر الاجتماعية لم يهبط به وحى ، وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها . ومضت المحاولة فى خلق جو للصراع بين العلم والدين ، فقد أنكر العلم فى مرحلة من مراحله ، فلسفات ما وراء الطبيعة فنقلوا لنا هذا . وفى الناحية الأخرى أبعد الدين عن مجالات التربية والتعليم إيمانا بنظرية (ديوى) وألغى من برامج المدارس وجرت الدعوة إلى انكار التوحيد بالدعوة إلى التعطيل ونسبة الانسان إلى المادة والقضاء على بلاغة القرآن بتغليب العامية والأساليب الركيكة وتحطيم عمود الشعر . ثم جرت محاولة تمزيق المسلمين إلى فرق ، ونحل ، وإعادتهم إلى النزعات القديمة والمذاهب البائدة وتأكيدها بقوة القانون . كما فعل الاستعمار الفرنسى فى المغرب باعلانه (الظهير

البربرى) . واتهم الاسلام بأنه دين غير متطور ، والدليل هو أن المسيحيين واليهود أكثر تقدما ، وكان الاحتجاج فى ضعف العالم الاسلامى بالمسلمين لا بجوهر الاسلام نفسه الذى أنشأ حضارة وأقام أمة وعاش قويا مئات السنين . وانبعثت دعوات تقول بأن التشريع الاسلامى مستق من التشريع الرومانى ، بينما أكد كل علماء الغرب المنصفين بأنه لم يقم دليل واحد على ذلك ، وإذا كانت هناك علاقة فإن الفقه الرومانى هو المقتبس من الفكر الإسلامى (ولذلك تفصيل) . واهتم كتاب الغرب بزوايا مليئة بالشك ، ومضى المشتسرقون يفرضون الفروض ويحاولون الوصول إلى أسانيد لها من آيات تبتر عن أصولها ، أو وقائع تحرف ، واهتم المستشرقون بدراسات الصوفية وبالفئات الخارجة الضالة قصداً لاثارة الشكوك . ثم جرى اتهام الاسلام بأنه دين القوة والسيف ، والادعاء بأن المسلمين لا يتسنى لهم التقدم والارتقاء ماداموا مقيدين بنصوص القرآن . ثم كان اتهام الاسلام بالتعصب . وكل نظرية من هذه النظريات سهلة النقض إذا رجعنا إلى التاريخ فتسامح الاسلام وتعصب غيره واضح من دراسة وقائع التاريخ ، واقصاء الدين عن الفكر والمجتمع والدولة فى الغرب له سبب واضح ، فقد حال الدين دون النهضة ووقف فى وجه العلماء والمفكرين . أما الاسلام فقد كان حادى النهضة دائما وعاملا هاما فى توسيع نطاق العلم ودافعا للحضارة إلى مداها . ولم يكن فى الاسلام أنظمة كهنوتية كتلك التى حاربها الأوروبيون . أما فى مجال المرأة فقد جرت محاولة اتهام الإسلام فى مجال تعدد الزوجات والطلاق وحقوق الزوج ، بينما كان الاسلام أسبق وأعمق فى تحرير المرأة من التشريعات الغربية ، وبعد هذا الزمن الطويل ما تزال الحقوق التى أعطاها الاسلام للمرأة لما تصل بعد المرأة الغربية إليها . أما قيود العفة والطهر فتلك عوامل هى لتكريم المرأة ووضعها موضع الانسان ذى الكرامة وليس موضع الرقيق والحريم .

* * *

وفى مجال اللغة مضت التحديات فى مهاجمة (اللغة العربية) للقضاء عليها وإشاعة اللهجات العامية . ومحاولة ادخال الفصحى إلى المتحف تشبيها لها باللاتينية الميتة ومحاولة تغليب اللهجات المحلية على الكتابة وتحويلها إلى لغات قومية اقليمية . ثم جرى اتهام

الفكر العربي بأنه فكر تجريدى يفيض بالفروض النظرية والمباحث الجدلية ، كما اتهم بأنه فكر غيبي . كما جرى إنكار فضل العرب على المدنية ، ومحاولة رد التراث العربي إلى أصول بعيدة عن العرب كاليونان والفرس ، فطالما أعلن كتابهم أن تراث الاسلام تراث يوناني فارسي وأن الثقافة الاسلامية أساسها ثقافة يونانية ، وكانت دائما الكفة الهابطة في تقديرهم هي كفة العرب والمسلمين ، فإذا قيل أن المعرى كان سابقا في كتابه (الغفران) كل ما كتب عن الجنة والنار ، جرى التشكيك في ذلك بأن هناك كتابا فارسيا قديما قرأه المعرى أو راهباً لقيه ، وإذا قيل أن (دانتي) قلد (المعرى) في رسالته (رحلة إلى الجحيم) حاولوا تبرئته من تقليد العرب والمسلمين وقالوا أنه قطعا لم يقرأ (الغفران) والأدلة أكيدة على أنها ترجمت قبل دانتي بأكثر من مائة عام . وفي هذا الاتجاه تبرز النظريات التى تريد أن تتحدى ثقافة الاسلام وفكره ، فتجرى المحاولات لجعل الثقافة اليونانية مصدر الثقافات الإنسانية ، مع انكار فضل المصريين الأولين على اليونان ، وقد انكر الغربيون وقائع التاريخ في هذا ، وقال المستشرق (جويدى) في محاضرات ألقاها في القاهرة عام ١٩٢٨ (أن سفر أعلام اليونان إلى الشرق للاستفادة من علومه قول منتحل ، وأن مصر وسائر بلاد الشرق لم يكن لها فضل على العلوم والآداب والثقافات التى تنسب إلى اليونان) . وذلك لا شك أية التعصب . وظلت نظرة المفكرين العربيين إلى الشرق على أنه بلد السحر والنجوم والبخور والحريم ولذلك فإن أكثر اهتمامهم كان موجها إلى ترجمة ألف ليلة ونظريات الحلاج والباطنية والمجسمة وغيرها . واتهم أصحاب الحملة المتصلة المنظمة على الإسلام ، اتهموا العرب بحرق مكتبة الاسكندرية . وعملوا دائما على تغيير وقائع التاريخ ، والتشكيك في إعداد الجيوش الإسلامية في الغزوات ، وجعل السبق لفئة دون فئة ، على طريقة التفرقة والتمزيق ومحاولة القضاء على وحدة المسلمين . وكذلك إنقاص عدد المسلمين الأحياء فقد ظلوا إلى سنوات قريبة لا يريدون أن يعترفوا بعدد المسلمين الحقيقي في العالم ، ولا بمساحة الأرض ، وجرى ادعاؤهم بالتفصيل لايقاع الخلاف ، فالبربر هم أصحاب المدنية في شمال أفريقيا ، وأعلام الثقافة الإسلامية كانوا فرسا

أو موالى ولم يكونوا عربا ، وهكذا . واتصل بهذا الدعوة إلى الشعوبية وتأكيدها ، ببعث الحضارات القديمة ففى مصر جرى بعث الفرعونية وفى الشام الفينيقية وفى العراق الأشورية والبابلية وفى المغرب البربرية . ثم جرت التفرقة بين الوطنية المحلية والوحدة العربية والجامعة الإسلامية والروابط الشرقية ، وقيام كيانات لكل دعوة من هذه الدعوات تحارب الأخرى ، وجرى فى هذا الصدد فرض اتجاهات العزلة والقومية والضيقة وانكار العامل الروحى والدينى فى أسس القومية . ثم أغرق العالم الإسلامى بالنظريات الجديدة المتضاربة بين مادية وشيوعيةوجنسوتشكيك وجرت المحاولة لتطبيقها فى مجال التعليم والتربيةوالحياة العامة . فنظرية (فرويد) تقول أن الدوافع الإنسانية جميعها دوافع جنسية مادية ، ونظرية (جون‌ديوى) تؤكد ضرورة فصل الدين عن التربية ، ونظرية (لورنس) تدعو إلى العرى والاباحةوالكشف فى الأدب . ونظريتاريفان وجيينو تفرقان بين الأجناس وتتهمان العرب والمسلمين بكل نقيصة فى الخلق والتكوين العقلى والفكرى . وقدأشار (البروتوكول الثانى) من بروتوكولات صهيون إلى هذا المعنى فقال : ان نجاح دارون وماركس ونيتشة قد دبرناه من قبل وسيكون واضحا على تأكيد الأثر الأخلاقىلاتجاهات العلوم فى الفكر الأممى . دارون هو صاحب النظرية التى تقول أن الإنسان والقرد من فصيلة واحدة ، وماركس هو داعية التفسير المادى للتاريخ ، ونيتشه هو صاحب مذهب القضاء على الفقير والضعيف ومنعهما من التناسل وتعقيمهما لينقرضا ولا يبقى إلا القوى وهو الإنسان الأعلى . وجرت الدعوةإلى ثقافة البحر الأبيض المتوسط ، كوسيلة لربط العالم الإسلامى بفرنسا وأسبانيا والغرب . وتابع التغريب خطوه فى مجالات أخرى متعددة ؛ فى مجال ترجمة القصص الداعرة ، والأدب الماجن ،وبمنطق القوة وسلطان الاستعمار فرضت اللغات الأوربية لايقاف اللغة العربية عن النمو والقضاء عليها ، فرضت الفرنسية فى شمال أفريقيا والشام ، والإنجليزية فى مصر والسودان والعراق وفلسطين . وكان هدف فرض اللغات الأجنبية القضاء النهائى على اللغة العربية وقد تم هذا إلى نحو كبير فى الجزائر . وجرت محاولات اعطاء التعليم المصرى طابع العلمانية وانكار القيم الروحية والدين ، تم ذلك

فى ظل الاحتلال وفى ظل الحكومات التى فرضها الاستعمار ، وعاونت على ذلك قوى الجيش المحتل وسلطات الاتباع والعملاء الذين يتولون السلطان والحكم ، وقوة الصحافة والمدرسة عن طريق الدعاة التابعين لركب التغريب .وجرى الصراع بين الثقافتين الفرنسية والإنجليزية ، غير أن هذا الصراع لم يحل دون الهدف الأساسى لها جميعا ، وهو القضاء على مقومات الفكر الاسلامى العربى وتدمير قيمه واحلال قيم مادية جديدة قوامها القضاء على القيم الأساسية والتبعية الكاملة للدول الغربية القائمة على الحضارة . ولم تقف هذه المحاولات عند هذا الحد بل امتدت . . ولم يقف المسلمون إزاء هذه التحديات مكتوفى الأيدى ولكنهم قاوموا وكشفوا الزيف وأعلنوا الحقائق وجددوا الفكر الإسلامى وكان لهذه التحديات رد فعل كبير .

الدفاع ورد الفعل

واجه الفكر العربي الإسلامي هجوماً عنيفاً مركزاً ، لم يقف هذا الهجوم عند حدود الإسلام نفسه ، بل امتد إلى عقلية العرب والمسلمين والشرقيين من ناحية العقلية واتصل بالأجناس والتاريخ واللغة وأساليب الفكر ومناهج البحث . ولم يتخذ هذا الهجوم أسلوب المنهج العلمي بل سلك سبيل التعصب الخالص والهوى الخاص ، ولا ننسى في هذا المجال كلمة الباحث الغربي الصريح الذي قال : إن الغربيين ربوا في عاطفة التعصب ضد العرب والإسلام والشرق وأنهم رضعوا هذه العاطفة مع لبن الأم فهي ليست منحسرة عن أنفسهم ومشاعرهم مهما بلغ بهم الإنصاف أو قدمت لهم الأسانيد الدامغة والحقائق الأكيدة وفي الوقت الذي يدعونا الغرب إلى الأخذ بمنهجه العلمي في البحث القائم على نسيان العوامل الخاصة والأهواء الذاتية ، وإفراغ النفس من كل ما سوى الوثائق والأسانيد وما تؤدي إليه ، يذهب كتابه وباحثوه إلى أبعد الحدود في الاستسلام للهوى ، والانسياق وراء الرغبة الجامحة التي تصدر عن التنكر لكل ما هو ليس غربيا أو أوربياً ، مع صلف عاصف قوامه الإيمان بالسيطرة والسيادة ، وفق فلسفة الرجل الأبيض ، وسلطان الرجل المتحضر ، ومع أهواء الخامات الرخيصة والأسواق المفتوحة وضرورة تدمير كل المقومات التي يمكن أن تؤدي بالعرب والمسلمين إلى النهضة واليقظة والمقاومة والتحرر من نفوذ الغرب . هذه هي العوامل التي تسيطر في الواقع على نفوس المتصدرين للحملات المختلفة التي وجهت من كتاب الغرب إلى المسلمين والعرب والشرق بوجه عام والتي تمثلت في كتابات دوق داركور في كتابه « المصريون » وهانوتو في حملاته على الإسلام والمسلمين وفي عبارات كرومر التي طالما أدمجها تقاريره وأوردها في كتابه « مصر الحديثة » ، إلى حملات الكردينال لافيجرى على الرقيق في الإسلام وحملات رينان على العقلية العربية ، ومطاعن توربان وباسكان وجيتزار وجابنيه ، وكازانوفا من كتاب الفرنسيين على الإسلام والعرب ، يضاف إلى هذا حملات الأب لامنس اليسوعي في كتابه « الإسلام عقائده ونظمه » ومفتريات المبشر زويمر

فى كتابه « الإسلام ماضيه وحاضره ومستقبله » ، وحملات « ليوتى » فى المغرب وهو صنو كروم فى مصر ، وآراء لويس برتران فى كتابه « امام الإسلام » وصرخات تيودور موريس فى « مجلة القرن التاسع عشر » وكلمات دكتور واطسون مدير الجامعة الأمريكية . فإذا أضيف إلى هذا حملات مرجليوث عن مستقبل الإسلام وتريتون فى كتابه « الإسلام عقيدته وعباداته » وحملات جريدة التيمس ، وروم لاندو فى كتابه « البحث عن الغد » ومستر سكوت . . إلى عشرات الكتب التى توالى صدورها أمكن تصور جو المعركة المحمل بالظلم والحقد ، منذ السبعينات فى القرن الماضى وحتى اليوم وكلها مؤلفات تتسم بطابع التعصب والعجز عن فهم الحقائق وتقوم على قاعدتى : التحامل والهوى . أضف إلى هذا دوائر المعارف وما تحويه من عبارات عن الإسلام والعرب وما أوردته دائرة المعارف الإسلامية التى يرأس تحريرها مستشرق مبشر متعصب هو « فنسنك » الذى طرد من المجمع اللغوى المصرى عام ١٩٣٢ من مغالطات ، ومن مثال ذلك ما أوردته دائرة معارف أكسفورد مثلا عن العربى جاء على هذا النحو .

Arab native or Arabia A norse homeless

ومعناها أن العربى أو العرب : هو الطفل المطرود ، أوالطفل المنبوذ الذى لامأوى له .

أما عبارات مرجليوث وريفان ولامنس وزويمر فإن طابع الحقد والتعصب فيها يجعلها ليست أهلا للعرض والنظر . لبعدها كل البعد عن الطابع العملى الذى يحتمل صاحبه أمانة الكلمة بحيث يحتاج إلى المراجعة والنقد .

ولقد واجه كتاب الإسلام والعرب هذه الحملات مواجهة قوية وكشفوا زيفها ونقضوها على أساس علمى صحيح ، ولم يكونوا متعصبين أو مندفعين بالهوى والحماس المنيف الذى يفسد الرأى ويضع بينه وبين الحقيقة حجاباً كثيفاً . وقد حمل لواء الدفاع عن الإسلام فى هذه الفترة : محمد عبده وقاسم أمين ومصطفى الغلايينى وفريد وجدى وأحمد شفيق باشا ورشيد رضا ومحب الدين الخطيب وشكيب أرسلان وعبد العزيز الثعالبى ومولاى محمد على وأبو الكلام ازاد وسليمان الندوى وطاهر الجزائرى وعلى يوسف واسماعيل عصبرنسكى والدكتور هيكل وعباس العقاد والدكتور الهراوى وأحمد زكى باشا ولطفى جمعه وعلال الفاسى وعبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمى وغيرهم كثيرون . وحملت

لواء الدفاع عن الإسلام صحف متعددة كان أبرزها العروة الوثقى والمؤيد واللواء والمنار والفتح والزهراء والإسلام والأزهر ومنبر الإسلام والعرفان والتمـدن الإسلامى ، وتـكونت فى ظل الدفاع عن الإسلام هيئات كثيرة كان أبرزها جماعة المنار والشبان المسلمين فى مصر والندوة فى شبه القارة الهندية وجماعات أخرى فى شمال أفريقيا وأندونيسيا ووسط أفريقيا وجنوب شرق آسيا . وقد ظلت الصحف الإسلامية إلى الأربعينات تقريبا وهى لا تدع كتاباً من كتب الغربيين يظهر فى أوروبا إلا وتنقل نصوصه وترد عليه وتبين زيف ما حمله من آراء منحرفة ، ولقد عاش مثلا شكيب أرسلان فى أوربا أكثر من ربع قرن (١٩٢٢—١٩٤٠) وهو يوالى الصحف فى العالم العربى بأبحاثه وكتاباته عن كل ما يصدر فى أوربا عن العالم الإسلامى ، ولطالما نقد فى جريدتى الفتح والمنار هذه المؤلفات وواجه كتابها ، بل إنه نشر مجلة فى سويسرا باسم « الآمة العربية » أنفق عليها ألوف الجنيهات من أجل كشف هذه الأباطيل وإبلاغ الحقائق إلى الغربيين فى ديارهم ، وبلغاتهم . وكذلك عاش محمد فريد وجدى حياته كلها من أجل الدفاع عن روحانية الأديان ضد مادية الغرب ، حتى لقد تخصص فى ذلك تخصصا كاملا وألف عديدا من الكتب فى هذا المجال .

وكذلك فعل محب الدين الخطيب فى مجلتيه « الفتح والزهراء » التى اتخذتا نفس الخط الذى بدأه جمال الدين ومحمد عبده فى « العروة الوثقى » وكانت مجالا خصبا لمقاومة الشبهات التى وجهت إلى الاسلام والعرب والرد على آراء الغربيين وقد عاشت صحفة أكثر من ربع قرن ولا تزال مجموعاتها مرجعا هاما فى هذا المجال . ويمكن القول بأن أكثر من ألف مقال للأمير شكيب أرسلان وعجاج نويهض وعشرات من كتاب المغرب العربى والمشرق العربى والهند وأندونيسيا ومختلف أنحاء العالم الإسلامى قد ضمتها هذه المجموعات ، ومنها يكتب تاريخ الدفاع عن الإسلام فعلا . فقد كانت فكرة الثلاثينات هى « عقدة الحز » كما يقولون بالنسبة لحملة الهجوم التى قامت على قاعدتين هامتين : (١) أبحاث المستشرقين . وأغلبهم يعملون فى مجال خدمة الاستعمار ، ويتبعون وزارات الخارجية والمستعمرات فى بلادهم . (٢) حملات التبشير ، وكانت تمر فى هذه الفترة بمرحلة مسعورة فى البحرين والقاهرة والهند واندونيسيا ومختلف أنحاء العالم العربى ، فإذا

ذهبنا نؤرخ لمعرفة خط « الدفاع عن الإسلام » ورد حملات خصومه ، فلا نستطيع أن نبدأ البحث قبل أن نذكر كتاب « الرد على الدهريين » للسيد جمال الدين الأفغانى عام ١٨٦٩ تقريباً حيث حمل على الماديين وفند آراءهم ، ومهما تكن قيمة الكتاب من الوجهة العلمية فإنه علامة على الطريق الذى سلكه من بعده « الشيخ محمد عبده » فى رده على (١) هانوتو (٢) فرح أنطون فى كتابه « الإسلام والرد على منتقديه » و « الإسلام النصرانية وموقفهما من العلم والمدنية . » وقد ظلت كتابات محمد عبده التى تناولت الأصول الشاملة للحرية والعلم أساساً لكل المباحث التى توالت من بعد من أجل الرد على كتابات الغربيين الذين هاجموا الإسلام والعرب والدين والعقلية العربية والجنس . وقد حاولت هذه الحملات فى مجموعها إتهام الإسلام بأنه مصدر التخلف ومهاجمة العرب واتهامهم بضعف الخلق القومى .

ومن نموذج صغير لكتابات واحد منهم هو « كيمون » يظهر معنى التعصب والبعد عن الأسلوب العلمى وتغليب عامل الإثارة والهوى ، فهو يصف الإسلام مثلا بأنه « جذام فشا بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعاً . بل هو مرض مريع ، وشلل عام ، وجنون ذهولى ، يبعث الإنسان على الخمود والكسل ، والمسلمون وحوش ضارية ومن الواجب إبادة خمسهم والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة وتدمير الكعبة ، ووضع ضريح « محمد » فى متحف « اللوفر » ومن هذه العبارات القليلة تبدو حقيقة الهدف الدافع ، وأسلوب الغرض البعيد كل البعد عن النقد البناء ، أو الجدل الشريف ، أن مناقشة المذاهب والأسس والنظريات . وفى عشرات من كتابات هؤلاء الغربيين تبدو هذه الصورة من صور التعصب . ولعل من أبرز الأخطاء التى وقع فيها كتاب الغرب نتيجة لتعصبهم ، هو محاولة فهم الإسلام بصورة المسلمين الذين كانوا يعيشون فى هذه المنطقة خلال فترة احتلالهم للعالم العربى والإسلامى ، وهى فكرة خاطئة أشد الخطأ ، فليس هناك من سبيل لاتخاذ « صورة المسلمين » فى هذه الفترة حجة على الإسلام أو محاولة لفهم الإسلام من خلال حياتهم وتصرفاتهم . ذلك أن المسلمين كانوا قد بعدوا طويلا عن « روح الاسلام ومقوماته » فى مختلف تصرفاتهم وأعمالهم ، وقد غلب عليهم الوهن وتحطمت قواهم المعنوية

فى ظل الصراع القبلى والمذهبى ، وتوقف كفاحهم من أجل حماية حدودهم ، وتجديد جيوشهم ، وغلب سلطان المستبدين من السلاطين والأمراء ، وتطرق الترف إلى المجتمعات ، وجرى العلماء الرسميون فى ركب ذوى الجاه ، وأغلق باب الاجتهاد ، وعزلت الطبقة الشعبية ، وأغلقت أبوابها خوفا من ظلم الولاة ، وانصرفت عن الكفاح إلى السلبية ممثلة فى الصوفية والزهد ، وعلا صوت نزعات التواكل والضعف واختفت من المجتمع صورة الاسلام التى طبقها فى العصر الأول اختفاء تاما . تلك الصورة التى تتمثل فى محاورات الشعب مع عمر وأبى بكر « إذا أحسنت فأعينونى وإذا أخطأت فقومونى » أو فى عدالة القضاة فى مواجهة الحكام والولاة ، أو فى مسور عمر بن الخطاب بالليل أو مواقف عمر ابن عبد العزيز ، أو فتوح خالد وسعد أو استشهاد المسلمين فى المعارك ، أو فى الايثار ممثلا فى المجاهدين والانصار بالمدينة ، أو الحياة العلمية الحية فى عصرى الرشيد والمأمون ، أو جامعات قرطبة أو انكار الذات فى صورة صاحب النقب أو غير ذلك من الصور التى تعطى معالم الاسلام الحقيقية فى تجربته من المجتمع . من أجل هذا فان التعلل بصورة المسلمين التى عرفها هؤلاء الكتاب على أنها هى الاسلام ليست من الحق فى شىء ، ولا يقبلها باحث نزيه .

٢ — ولكن الحملة أيضا لم تقف عند حد هذه المغالطة ، بل ذهبت إلى تحريف الصورة الأولى ، صورة الاسلام فى نقائه وسماحته فجرت المحاولات للتشكيك فى كثير من المواقف والمواقع والأحداث المتصلة بالرسول والمسلمين وصور البطولات والتصرفات التى برز فيها السمو النفسى ، وكان مصدر ذلك أمران : « أولها » قياس هؤلاء الكتاب والباحثين الأمور بالعقلية الغربية المادية التى لا تعرف القضايا إلا متصلة بالغاية والمصلحة والمنفعة ولا تفهمها أبدا مجردة خالصة لوجه الله أو الحق أو القيم الانسانية العليا « ثانيهما » انكار ما قد يكون مقبولا فعلا من هذه الصور تحت تأثير التعصب أو الغاية المقصودة من الكتابة نفسها . ويمكن القول بأن جميع الدراسات التى كتبت عن الاسلام والمسلمين والعرب كانت من مفكرين أو باحثين لهم صلة بالسياسة الأوربية أو الغربية فى مواجهة العالم الاسلامى ، وكان ذلك مرتبطا عندهم بموقف الاستعمار ومن وجهة نظره ، فضلا عن أن أمثال هانوتو ودوق داركور وغيرهم كانوا أعضاء فى المجالس النيابية فى بلادهم

ويمثلون وجهات نظر أصحاب المصالح والمصانع وشركات الاستيراد والتصدير ، ولذلك فان زياراتهم للشرق والعالم العربي كانت مشوبة بروح الاستعلاء ، ولم تكن هذه الرحلات للبحث والدراسة والمراجعة الشاملة للأمور ، أو الاتصال بذوى الاختصاص من أجل استيضاح الأمور ، وإنما كانت زيارات سريعة طارئة ، ومن هنا كانت انطباعاتها ضحلة سطحية مشوبة بروح التعصب وهادفة فى نفس الوقت إلى خدمة الامبريالية الاستعمارية المتطلعة إلى السلطة ، وإبانة عظمة الغرب وفضل الرجل الأبيض ، وتبرير الاستعمار والنفوذ الأجنبي وضرورة السيطرة على هذه الأقطار من أجل تمدينها وتحريرها من قيود الجهالة والظلام . هكذا كانت دوافع أغلب كتابات هؤلاء الذين كتبوا عن الاسلام والمسلمين منذ أوائل هذا القرن ، والتى عنى محمد عبده وفريد وجدى وقاسم أمين وشكيب أرسلان ومحب الدين الخطيب بالرد عليها وكشف دخائلها . فقد كانت السيطرة على الامبراطورية العثمانية وتمزيقها وتوزيع أسلابها هى الهدف الأساسى لكل هذه الكتابات . فلما تحقق ذلك ، وتمزق العالم الاسلامى بعد سقوط دولة الخلافة ، تغيرت الأهداف ودخلتها غايات أخرى وحلت فى مجال السياسة كلمات العروبة والقومية وبدأ صراع جديد بينها وبين الاقليم ، كما بدأت معارك اللهجات العامية وتحريف التاريخ .

وفى نفس الوقت تعددت الجهات التى تهاجم الاسلام . فلم تعد هى أوربا المسيحية صاحبة رسالة تمدين آسيا وأفريقيا ، وإنما برزت قوى جديدة تصارع فى مقدمتها الصهيونية والماركسية والاستعمار الجديد فى مجال الاقتصاد والفكر على السواء . وقد كان عمل هذه الجبهات جميعا يسير فى نطاق واحد وهدف متحد ، أما النطاق فهو طريق المؤسسات والمنظمات الاستشراقية والتبشيرية ممثلة فى المدارس والارساليات والصحف والمؤلفات وأفلام السينما ، وقد اعتمدت الدول المختلفة لهذه المؤسسات مبالغ ضخمة ، وأولتها نفوذا كبيرا يحميها ويعينها ممثلا فى الحكومات التابعة والحكام العملاء . ولم يقف الهجوم عند حد اتهام الاسلام بالضعف والقصور ، والاساءة إلى مؤسسه وقادته وتزييف تاريخه ووقائعه ، وإنما امتد إلى انكار فضل العرب والمسلمين على الحضارة الغربية التى قامت فعلا على الأسس التى بدأها العرب والمسلمون ممثلة فيما ترجموه من ثقافات

اليونان والرومان ، وما أضافوه فى جامعاتهم وعن طريق علمائهم من بحوث وكشوف فى مجال الفلسفة والفلك والجراحة والموسيقى والعلوم والآداب .

ولقد بلغ من ظلم الغرب وبعده عن الانصاف أن أنكر فضل هذا العمل الكبير الذى قامت عليه النهضة ، والذى ظل أكثر من نصف قرن هو قاعدة البحث العلمى وأساسه الأصيل فى تطور الحضارة ولا شك أن ما بلغته من ثمار إنما يرجع أساسا إلى هذه الحصيلة العربية الاسلامية .

ولقد عمدت « الصهيونية » منذ بدأت نشأتها ١٨٩٧ إلى عمل كبير فى مجال ثقافى واسع شمل كل موسوعات التاريخ والعلم والثقافة الغربية ، استهدف هذا العمل تزييف حقائق الفكر الاسلامى والحضارة العربية والثقافة التى ظهرت فى هذا الجزء من العالم ، ووضع عناصر التشكيك لكل القيم والمقومات وفق أسلوب دقيق ملىء بالمكر والخداع ، يحمل فى مظهره طابع العلم والانصاف ولكنه ما يكاد يمضى بالباحث لامعه حتى يسلمه إلى الشكوك والأكاذيب والمداخلات مع التجاهل لفضل العرب والمسلمين وغبن حقهم ، وإثارة الاتهامات حولهم إلى الحد الذى يصور الفكر الاسلامى على نحو مضطرب قلق ناقص ، هذا بالاضافة إلى استغلال النظريات الجديدة حول الجنس والأجناس وأصل الأنواع وغيرها .

أما « الماركسية » فهى تلتقى مع المذاهب الغربية فى النزعة المادية ، وتبرز مذهب التفسير المادى للتاريخ فتقضى به على الجوانب الروحية والانسانية ، وتنظر إليها فى سخرية واحتقار . وتجتمع إلى هذه المذاهب والنزعات فى مقاومة الاسلام ومهاجمته ، مذاهب أخرى تتصل بالأديان الوضعية ، فالبوذية وغيرها فى شرق آسيا تقاوم الاسلام أيضا وتحاربه بأسلحة لا تقل عن أسلحة الصهيونية والماركسية والفكر الغربى المادى . وقد يرى بعض هؤلاء الكتاب فى « الاسلام » رأيا لا يتفق مع الحقيقة ، فهم قد يطبقون عليه ما طبقه الغرب على الكنيسة حين رأوها تقف أمامهم فى أوائل النهضة لتحول بينهم وبين آفاق العلم ، ومن هنا جاء فصل الدين عن الدولة هناك كوسيلة للتحرر من الجمود الذى كان يفرضه الكهنة وهم حين ينظرون إلى العالم الاسلامى والأمة العربية لا يلبثون أن يخلطوا بين الاسلام هنا

والمسيحية الغربية هناك ، وذلك خطأ لاحد له فى العجز عن فهم الحقائق ، ذلك أن الاسلام يختلف كثيرا فى هذا المجال ويكشف عن طابع واضح فى الحرية والقدرة على مواجهة الحضارة وفتح الآفاق لها دون الاصطدام بها ، ولقد كان كذلك منذ بدأت النهضة العلمية فيه ، فقد واجه حركة الترجمة والكشف والعلم فى مجال الطب والفلك بمزيد من التقدير والرعاية ، ولم يصطدم يوما بهذه الاتجاهات ولم يقف أمامها ، ولذلك فإن كل محاولة للمقارنة فى هذا المجال ، هى مقارنة باطلة لأنها تقوم على غير أساس .

ولقد جرى اتهام الاسلام بالتعصب إزاء العلم والعلماء ، ولكن الذين حملوا لواء هذا الاتهام لم يقدموا دليلا واحدا من التاريخ على صدق ما يدعونه ، وفى هذا المجال كانت كتابات الشيخ محمد عبده الذى كشف عن موقف الاسلام إزاء المدنية والعلماء كتابات رائدة. وقد استطاعت الاقلام العربية أن تصل إلى مستوى هذه المعركة وأن تواجهها فى قوة وأن تكشف زيفها . وقد عملت من أجل ذلك فى ميدانين : فى ميدان الغرب نفسه فقد ألفت عشرات الكتب فى دحض هذه الاتهامات واستطاعت هذه الكتب أن تروج فى الغرب وأن تجد من يقرأها وأن تترجم معانى كثير من آيات القرآن الكريم ، ولعل أقوى قوة فى هذا المجال هى قوة كتابات المسلمين الهنود من أمثال شبلى النعمانى والندويين (اتباع ندوة العلماء) وغيرهم فقد استطاعوا أن ينقلوا إلى الغرب صورة عن الاسلام لا شك فى نصاعتها وفق الأسلوب العلمى الحديث وكتابات محمد اقبال فى مقدمة هذه الكتابات ، وهناك عديد من مؤلفات الكتاب العرب بالانجليزية والفرنسية تذكر فى هذا المجال مؤلفات مثل الدكتور غلوش وترجمه محمد حسن الموجى للبخارى .

أما الميدان الثانى فهو ميدان المسلمين أنفسهم فى العالم الاسلامى وقد تحقق العمل فعلا فى هذا المجال بعشرات الأبحاث وألوف المقالات وكان للصحافة الاسلامية دور كبير فى تصحيح الكثير من المفاهيم . ولا شك أن هناك تراثا ضخما فى هذا المجال ، يمكن أن يطلق عليه « أدب الدفاع عن الاسلام » يمكن تقويمه والنظر فيه وكتابة دراسات مطولة عنه ، ولم يكن هذا الأدب دينيا خالصا وإنما كان فكرا إسلاميا متكاملا فيه دراسات عن قضايا الاسلام مع الاستعمار فى المجال السياسى ، وفيه مواجهات للفكر الغربى ولاتهاماته

للاسلام ، وفيه أحاديث متعددة فى القرآن والسنة النبوية ، والفقه والتشريع إلى جوار ابراز حقائق اللغة العربية والأدب العربى والتاريخ العربى الاسلامى ، ويبدو ذلك جليا فى الصحافة الاسلامية كالمنار والفتح وفى كتابات رشيد رضا ومحب الدين الخطيب وشكيب أرسلان .

وخلاصة هذا الرأى أن الفكر الإسلامى العربى لم ينفصل عن واقع العالم الاسلامى والأمة العربية وإنما ظل يكافح فى ميادين أربعة .

١ — العالم الاسلامى السياسى فى خصومته مع الاستعمار .

٢ — الفكر الاسلامى ومقوماته من فقه وتشريع ولغة وتاريخ .

٣ — ميدان التحديات والرد على خصوم الاسلام والعرب .

٤ — بعث الصورة الأصيلة للاسلام فى بساطته ونقائه وتجليتها والكشف عن الزيوف التى اتصلت بها وتخليصها من الانحرافات .

ويتسم هذا الفكر الاسلامى فى مجال الدفاع عن الاسلام بسمات واضحة أبرزها :

١ — الانصاف والتجرد الخالص من الهوى ، وفق الأسلوب العلمى العربى الذى كان أساسا مسبقا لما أسماه الغرب الأسلوب العلمى الحديث ولم يطبقه تطبيقا صحيحا فى مجال نظرته إلى الاسلام والعرب ، وأفسده بتغليب الهوى والتعصب وعدم التحقق لإبلاغه الكامل مرتبة اليقين بالأسانيد والأدلة .

٢ — اتخاذ الأسلوب العربى الدقيق القائم على المنطق والدليل ، البعيد عن العاطفة والصناعة اللفظية أو الكتابة الانشائية العاطفية أو الخطابية .

٣ — عدم التعرض لجوانب القصور أو الاتهام للفكر الغربى أو العقائد الغربية فى مجال الانتقاص ، أو التشكيك أو التعصب ، وقامت المقارنة فى مجال الانصاف استنادا على النصوص الفعلية والوثائق الأكيدة . وقد حققت هذه الحملة فى الرد على الاتهامات والتحديات أثرا واضحا فى العقل العربى والاسلامى المعاصرين ، بلغ حد « عدم الثقة » بهذه الأبحاث التغريبية واتهامها بالقصور والهوى . ومن أجل هذا لا بد من دراسة المنظمات الغربية التى حملت لواء الحملة على الاسلام والعرب على نحو أوسع ممثلة فى الاستشراق والتبشير وكتابات الغربيين ممثلة جميعاً فى إطار حركة التغريب باعتبارها القوة المحركة والدافعة للاستعمار .

الكتاب الثاني

من الاستعمار إلى التغريب

أن المراجعة الفاحصة لكل الدراسات التى تتصل بالتبشير والاستشراق والشعوبية والطائفية والغزو الفكرى والاستعمار الثقافى والدعوات الهدامة كالالحاد والاباحة تكشف عن أنها ليست فى الواقع الأمر إلا شعبا مختلفة لمخطط أساسى هو : « الابقاء على نفوذ الاستعمار فى العالم الاسلامى » ولما كان الفكر العربى الاسلامى يحمل قيما ومفاهيم لا تقبل الاستسلام والخضوع والانطواء فى قيم أخرى ولا لقوى مسيطرة ، فإن العمل الأساسى للنفوذ الاستعمارى هو القضاء على هذه المقومات أو إثارة الشبهات حولها وإفسادها عن « طريق البحث » الذى يحمل طابع العلم والصحافة والتعليم فى المدرسة والجامعة . ومن هنا يمكن أن يطلق على هذه الحركات كلها اسما واحداً هو « التغريب » ومن هنا تتكشف الرابطة الأساسية الأكيدة بين الاستعمار والتغريب . ومن هنا يفهم كيف تدرج الاستعمار فى هذه المحاولة فكانت أول أمرها « حملة تبشيرية » قوامها المرسلون والمدارس تحمل الدعوة إلى إخراج المسلمين من دينهم بالقوة أو بالاغراء ، وقد وقعت خلال تلك الفترة أحداث ضخمة ، وقد اجتاحت هذه الموجة العالم الاسلامى منذ ١٨٣٠ إلى ١٩٣٠ تقريباً (خلال قرن كامل) فى صورة حركة تبشيرية سجلتها دراسات وأبحاث ومؤتمرات وجرت من حولها مساجلات وحوار ومعارك فكرية وكانت مصر أبرز حلقة من هذه الحلقات غير أن هذه المرحلة لم تلبث أن انتهت إلى عمل أشد تعقيداً وأكثر عمقا وأقل مصادمة وذلك عن طريق نفوذ دعاة التغريب ، هؤلاء الذين استطاع الاستعمار أن يصطفيهم ، وذلك بتخريجهم من معاهده وجامعاته فى العالم العربى أو من بعثاته فى أوربا وأمريكا ، وقد أتيح لهؤلاء أن يلو من بعد عودتهم مناصب رئيسية فى وزارات التربية والتعليم والمعارف فاستطاعوا أن يؤثروا فى المناهج والمؤلفات والصحف وأن يقودوا حركة تحويل خطيرة عن طريق تغيير المناهج وحذف كل ما يتصل بالقيم العربية الإسلامية الحافزة على النقطة أو القوة أو الروحية أو الخلق وفرض مفاهيم غريبة قوامها الإعجاب بالغرب وقتل روح المقاومة والإيمان وتمييع الملامح الأساسية العربية الإسلامية هذه المفاهيم التى تدس من خلال الدراسات التاريخية واللغوية والإسلامية . ثم تنمو مع الزمن ويتسع نطاقها

فى الجامعات . وبذلك يمكن أن يقال أن دعاة التغريب فى المرحلة الثانية فى الثلاثينات كانوا بديلا إيجابيا شديد الأثر خفى الغرض للتبشير .

وهذه هى المرحلة الأخطر ، وفى هذه المرحلة استقدمت الجامعات المستشرقين كما استقدمتهم مجامع اللغة وأضفى على أبحاثهم كثير من التقدير والإجلال ، وتحول الموقف بالنسبة لنقد هذه الاتجاهات ، فقد أصبحت مختلف الصحف القوية ذات الصوت الجهير فى أيدى هذه القوى التغريبية ، وبذلك أمكن ضرب كل صوت يرتفع بمراجعة هذه المواقف أوالتشكيك فى اتجاهها وفى ظل حملة التبشير الضخمة التى مرت بالعالم العربى ومصر عام ١٩٣٢ تحول الموقف كثيراً وأمكن أن تظهر أصوات قد تنبهت فى أعماقها إلى حركة التغريب فأفسحت صحيفتى البلاغ والسياسة اليومية صفحاتها لمواجهة هذه الحملة التى عرف رجل مثل الدكتور هيكل بواعثها وكان قد صدر فى نفس الوقت كتاب « وجهة الإسلام » لمستر جب وزملائه ... الذى كشف عن محاولة لتقييم حركة التغريب فى العالم الإسلامى وفى نفس الوقت كان العمل لبقاء النفوذ الأجنبى قد أنهى مخطط التبشير وبدأ مخططا أقل حدة فى المظهر وأكثر عمقا فى المضمون هو : « التغريب والشعوبية » يتمثل ذلك فى قول . الدكتور صمويل زويمر قطب التبشير فى العالم الإسلامى منذ أوائل القرن . « إن التبشير قد وصل إلى اسمى غاياته فى مهاجمة العالم الإسلامى فأدى المهمة على أكملها وانتهى إلى نتائج لم يكن أحد يحلم بها منذ الحروب الصليبية ، ليس غرض التبشير المسيحى وسياسته إزاء الإسلام هو إخراج المسلمين من دينهم ليكونوا مسيحيين ، أن المسلم لا يمكن أن يكون مسيحيا مطلقا ، والتجارب دلتنا ودلت رجال السياسة على استحالة ذلك ، ولكن الغاية التى نرمى إليها إنما هى إخراج المسلم من الإسلام فقط ، ليكون ملحداً أو مضطربا فى دينه ، وعندها لا يكون مسلما ، لا تكون له عقيدة يدين بها ، عندها يكون المسلم ليس له من الإسلام ليس له إلا اسم أحمد ، والملحد هو أول من يحتقر الإسلام والمسلمين .. » .

٢ — لا شك أن الاستعمار يفهم جيداً أن (العالم الإسلامى) له قيم أساسية ومفاهيم واضحة تكون فلسفته فى الحياة ورسالته فى العالم . هذه القيم والمفاهيم مستمدة أساساً من « الفكر العربى الإسلامى » وهى فى جوهرها تدعو إلى مقاومة النفوذ الأجنبى ،

والناصب والمتسلط والغازى ، وكل من يطمع فى فرض سلطانه أيا كان نوع هذا السلطان .
ومن شأن يقظة هذا الفكر ووضوحه ، ووصوله إلى دوائر التربية والتعليم والثقافة والصحافة أن يفرض مقاومة ضخمة لنفوذ الاستعمار وبالتالى يؤدى إلى زعزعة مكانه واضطراب مصالحه . لذلك فالاستعمار حريص على زلزلة ومفاهيم هذه القيم والقضاء عليها .
وذلك بإثارة الشبهات حولها ، ومنع وصولها ، وحجب بعضها ، وملأ الجو بمفاهيم جديدة مستوردة ، ليست أصيلة ولا نابعة من البيئة الأصيلة ، وهى مفاهيم معاكسة تماما لتلك القيم ، قوامها المتعة واللذة الحسية ، والترف .

هدف هذه المفاهيم الجديدة ، خلق روح من التحلل ، والاستسلام والإعجاب بالقوى الغازى ، والتسامح معه ، والولاء له ، والصداقة معه ، وقتل عوامل الغيرة ، والمقاومة ، والخصومة معه ، واندحار مفهوم الكيان الذاتى الخاص ، وبذلك تصل الطلائع الجديدة إلى التميع والانحلال الضعف والخور والاستسلام . غير أن هذه الخطة لا تنفذ بهذه البساطة واليسر وإنما تنفذ فى دقة متناهية ، وقد استبطن الاستعمار فى دهاء جم مظاهر العنف فيها ، وغلف مظاهرها بطابع العصرية والمدينة والدعوة إلى التسامح وتقبل الرأى المعارض وتغليب روح المتعة والترف على روح الكفاح والجد وجعل دخائل أهدافه دقيقة ماكرة ، ووضع لهدفه سمة من الزمن وفسحة من الوقت لا يستعجلها ولا يكشف عنها .
ولقد بدأ الاستعمار عمله لمقاومة مفاهيم الفكر العربى الإسلامى والقضاء عليها بالتحريف وإثارة الشبهات أول الأمر ظاهراً مسفراً باسم «التبشير» فلما لم يتحقق عن هذه المواجهة ألا تزايد الخصومة والمقاومة والتحدى كرد فعل ، غيّر أساليبه ومفاهيمه فاختفى وراء منظمات غير مشوهة الظاهر ووراء أساليب غير متهمة ، وقد استبطنت هذه المنظمات دعوته ، واستطاعت عن هذا الطريق الغامض أن تكسب كثيراً وأن تجند القوى للعمل .
وقد اتخذت من المدرسة والصحافة وبرامج التعليم والقصة والمسرح والفن والسينما أدوات لها واستعان فى هذه الأعمال : بالاستشراق وكتاب الغرب المتعصبين ، وإذا كان لنا أن نكون أبعد عن التعصب وأقرب إلى الإنصاف فلسنا نحاكم أعمال الاستشراق

والمستشرقين وكتاب الغرب إلا بقدر ما تحمل من انحراف وبقدر ما تتخذها دوائر الغرب الاستعمارية وسيلة للقضاء على مقومات الفكر العربى الإسلامى . ومن هنا نرى أن هدف الاستعمار والنفوذ الأجنبى بالسيطرة على العالم الإسلامى لا يتحقق إلا بالسيطرة على فكره ، هذه الغاية التى تحولت من عمل التبشير « التبشير » المكشوف فى الثلاثينات إلى مجال جديد هو التغريب والشعوبية وأصبحت أبرز وسائله هى إذاعة الشبهات المختلفة على ألسنة كتاب جدد لهم أسماء عربية بعد أن كانت هذه الشبهات تذاع باسم رينان وهانوتو ودراكور وكرومر وليوتى ولافيجرى ودنلوب كما أصبحت تذاع فى صحف العالم العربى باللغة العربية باعتبارها منبعثة من دراسات علمية قوامها إعادة النظر فى التراث . وهنا أصبح دور النفوذ الأجنبى دقيقاً خفياً أشد خطراً ، فإنه مضى يسير هذه الحركة من وراء ستار عن طريق مواصلة إثارة الشبهات حول القيم الإسلامية للفكر العربى الإسلامى ، وقد كانت دائرة المعارف الإسلامية وكتابات مرجليوث ولويس شيخو ولامنس ورينان وفنسنك وجولدتسيهر هى المرجع الأول لأغلب الباحثين .

ولا سبيل إلى الشك فى أن النفوذ الاستعمارى له أدواته وله قواه الضخمة التى يسير بها الأمور فى سبيل تثبيت قواعده وذلك عن طريق إثارة الشبهات حول القيم الأساسية للفكر العربى الإسلامى بوصف أن هذه القيم من العوامل الفعالة فى معارضته وما تزال الآراء المنصفة الجادة البعيدة عن التعصب والتحامل تؤكد شبهة الهوى أو الخطأ لأبحاث جانب كبير من كتاب الغرب الذين نسلكهم فى صفوف المبشرين أو المستشرقين أو الباحثين ولا يخلو من الاتهام إلا فئة قليلة من الباحثين ، وحتى هؤلاء الذين خلت بواعثهم من الاتصال بدوائر الاستعمار لا يستطيع أكثرهم أن يسلم من العجز الذاتى فى استيعاب مفاهيم البلاغة العربية أو العجز النفسى عن استيعاب مفاهيم الفكر الإسلامى على النحو الذى يجعله متقبلا لدى أهل هذه الثقافة ، وذلك نتيجة اختلاف القيم الأساسية بين الفكرين الاسلامى والغربى . ويمكن تقسيم صراع هذه المرحلة إلى ثلاث مراحل .

(١) حركة التبشير . (٢) حركة الاستشراق . (٣) حركة التغريب .

- ١ -

حركة التبشير

لا شك أن الحرب الذى شنها «الاستعمار والنفوذ الأجنبى» كانت تهدف إلى تغيير العقائد العربية الإسلامية أساسا أو التأثير فيها ، على أساس أن الحضارة الغربية المسيطرة لها عقائدها ومفاهيمها ، وهى العقائد والقيم التى أفترض أنها يجب أن تسود فى المناطق التى تحتلها وهى لو استطاعت أن تحقق ذلك لاستمرت تبعية هذه الأمم لها دون متاعب ، واستمر النفوذ الاستعمارى مسيطراً ولتحول من الخصومة إلى الولاء . وقد فلسف الاستعمار هذا المعنى حين أدعى أنه قادر على تمدين الملونين وأن الأمم البيضاء هى الأمم التى تسود ، كما حرص فى مخطط تأكيد نفوذه . على أن يعمل وأمامه قاعدة أصلية : هى أن بقاء مفاهيم الفكر العربى الاسلامى وقيمه من شأنه أن تحول دون استمرار هذا النفوذ ، ويؤدى إلى مقاومته الدائمة .

ومن هنا كانت حملات التبشير تعاونها الشبهات التى يثيرها الاستشراق حين تتجمع فى مخطط تغريبى يحمل لواء الشعوبية من أجل هدم هذه المقاومة وإضعافها وإحلال مفاهيم غربية بديلا عنها ، ويرى تقى الدين النبهانى أن الذى حمل الأروبيين إلى إنشاء الجمعيات التبشيرية فى الشرق هو ما عانوه فى الحروب الصليبية من صلابة المسلمين وجلدهم على الجهاد ووحدتهم فى المقاومة وقد بحثو عن السر فى ذلك فوجدوه فى « الإسلام » لأن عقيدته هى منشأ هذه القوة العظيمة عند المسلمين . ومن هنا كان مفهوم التغريب هو تشكيك المسلمين فى تاريخهم ودينهم وزعزعة عقائدهم . ويمكن أن يقال أنه بعد فشل الحروب الصليبية ، التى كانت أساساً حركة استعمارية ، كانت الخطة هى تحويل العالم الاسلامى عن مقومات فكره باعتبارها القوة الأساسية التى هى مصدر المقاومة والانتصار ، فإذا لم يكن إخضاع العالم الاسلامى كله للمسيحية الغربية وهى غير المسيحية الشرقية السمحة فإخضاعه للثقافة الغربية كسبيل وحيد أكيد لبقاء النفوذ الغربى . وقد تحقق أن إخضاع العالم الاسلامى لا يتم إلا عن طريق الثقافة ، ومن هنا وضعت الخطة على مستويين : مستوى التبشير حتى ١٩٣٠ ثم مستوى التغريب بعد ذلك .

وقد أثار كثير من المؤرخين أن هدف النفوذ الاستعماري عندما اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح ، كان هو الوصول إلى الهند عن طريق الالتفاف حول العالم الاسلامي وتطويقه ، حيث أن الطريق عبر مصر يجعل التجارة الأوربية بيد المسلمين ، فلما اكتشف طريق رأس الرجاء وجد البرتغاليون أنفسهم أمام الأبواب الخلفية للعالم الاسلامي وهي منافذ ضعيفة التحصين ومن ثم عملت البرتغال على ضرب العالم الإسلامي من جناحه المهيض ، وكان البرتغاليون يأملون من وراء ذلك إلى اضعاف المسلمين واستعمار بلادهم ، هذه الخطة ما كانت تتم بالسيف من أجل التفوق الاقتصادي فقط بل للقضاء على الاسلام كعقيدة دينية سماوية ، لهذا جاء التاجر الأوربي إلى الشرق تحرسه المدافع وتشق له السيوف الطريق ، ومن وراء التاجر جاء المبشر[1] .

وقد أيد الاستعمار أعمال التبشير وحماها ، بل أن اللورد كرومر في مصر كان يسجل في تقاريره السنوية خطوات التبشير وأعماله واقتراحاته لتوسيع نطاقه ، كما أعلن بلفور وزير خارجية بريطانيا تأييده لحركات التبشير في تصريح واضح له جاء فيه : أن المبشرين هم ساعد جميع الحكومات المستعمرة وعضدها في كثير من الأمور الهامة ولولاهم لتعذر على تلك الحكومات أن تذلل كثيرا من العقبات . وقد أشار الدكتور مصطفى الحفناوي في دراساته عن قناة السويس كيف كان لرجال التبشير من مساع وخطوات في سبيل حض المستعمرين على إنشاء قناة تصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر تكون تحت نفوذ فرنسا وبريطانيا وذلك للقضاء على وحدة العالم العربي وتمزيق كيان العالم الاسلامي .

وفي هذه المرحلة عمل الاستعمار على رصد أموال طائلة في ميزانيات الدول المستعمرة كما قدمت الكنيسة الرومانية مبالغ لا حد لها ، فقد تم الصلح بين الحكومة الإيطالية وبين الفاتيكان في الثلاثينات وأبرمت معاهدة (لاتران) التي ردت إلى الفاتيكان الأموال التي كانت الحكومة الإيطالية قد حجزتها منذ عام ١٧٨٠ وقد بلغ ما استولى عليه الفاتيكان ٧٥٠ مليون ليرة إيطالية . وكان أول ما عمله الفاتيكان أن أرصد

---

(١) ك — الأمة الاسلامية : النبهاني .

عدة ملايين للتبشير فى الشرق الأدنى ، كما قدمت دوائر وزارات الاستعمار فى الحكومات الغربية فى أوربا وأمريكا حشوداضخمة من المبشرين الذين يلبسون أثواب العلماء والأطباء ، وقد أعان على توسيع نطاق التبشير فى البلاد العربية والاسلامية وجود نفوذ الاحتلال الذى كان لسان هذه البعثات وحامى هذه الارساليات وغيرها بالاعتمادات ويرد عنها مقاومة القوى الوطنية لها فى ظل نظام الامتيازات الأجنبية الذى يجعل من الصعب على السلطات الحاكمة أن تراقب حركات المبشرين او تواجه تصرفاتهم .

كما حمل لواء التبشير زعماء الاستعمار فى العالم العربى والاسلامى : الكردينال لا فيجرى فى تونس والمارشال ليوتى فى المغرب واللورد كرومر فى مصر والقائد وغردون فى السودان .وقد عمدت هذه الارساليات والمدارس الأجنبية على وضع التوراة بين أيدى الطلاب المسلمين على أنها كتاب تدريس أساسى ، وفى مادة الترجمة استعملت نصوص التوراة فى الترجمة من اللغة العربية إلى الانجليزية ، وقد اثيرت فى أكثر من مناسبة شبهة أن بعض الكتب التى توضع فى أيدى الطلاب تحمل اتهامات وشبهات للاسلام والعرب والتاريخ ، وأن أغلب كتب الطلاب لا تختلف عن الكتب الطائفية .

ولما كانت معظم الحكومات فى العالم العربى خاضعة لنفوذ الاستعمار — إذ ذاك — ونظراً لأن هؤلاء الساسة فى الأغلب كانوا على ولاء مع الاستعمار ، فإن هذه الحكومات لم تجد عندها القدرة على مواجهة مناهج هذه الارساليات . ومع أن الاستعمار قد خرج اليوم من معظم هذه الأقطار فإن نفوذه الثقافى لا يزال قائماً هو فى بيروت والمغرب وتونس . وقد أشارت المبشرة « آن ميلن » إلى ذلك فى الماضى حين قالت سنة ١٩٢٦ أنه فى كلية البنات فى القاهرة بنات آباؤهن باشوات وبكوات وليس ثم مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ التبشيرى ، ولن يوجد ثمة طريق إلى حصن الاسلام أقصر مسافة من هذه المدرسة » .

وقد عاش هذا المعنى دافعا للعمل حتى يطلب لويس ماسنيون بالنسبة للطلاب الشرقيين الذين يأتون إلى فرنسا « وجوب » أن يلونوا بالمدنية المسيحية الغربية ، وقد تعددت هذه الكليات فى بيروت واستانبول والقاهرة وأسيوط ولاهور عاصمة البنجاب وفى المغرب كله وفى السودان .

٥ — وقد حمل التبشير لواء الدعوة عن طريق المدرسة والمستشفى معاً . وتوسع التبشير عن طريق أعمال البر والاحسان وفى محيط الطبقات الفقيرة والمريضة ، ففى المستشفيات كانت تقام الصلاة المسيحية فى كافة عنابر المرضى فى الصباح والمساء وتلقى المحاضرات بالفانوس السحرى ، ويقوم موظفون اخصائيون فى التبشير بزيارة كل مريض فى مكانه وتتوالى الزيارات بعد الشفاء فى المنازل .

أما فى مجال المدرسة فكان ذلك عن طريقين : (١) التأثير فى برامج المدارس الحكومية وتوجيهها عن طريق النفوذ الاستعمارى المسيطر على الحكومات . (٢) برامج المدارس والمعاهد والجامعات التابعة للمرسلين أنفسهم ، وقد أشار إلى هذا « ليوبولد فايس » فى كتابه « الاسلام فى مفترق الطرق » فقال : أن هدف المبشرين هو اضعاف القيم الاسلامية عن طريق شرح تعاليم الاسلام ومبادئه شرحا يضعف المسلم فى تمسكه بالاسلام ويقوى فى نفسه الشك فيه كدين أو كمنهج سلوكى ، ولا شك أن ارساليات التبشير تعجز عن أن تزحزح العقيدة الاسلامية فى نفوس أصحابها ،وان ذلك لايتم إلا ببث الأفكار التى تتسرب مع اللغات الأوربية » .

وهكذا عن طريق التعليم اتخذ التبشير وسيلة إلى تغيير المفاهيم الأساسية والقيم وقد أولى التبشير مدارس رياض الأطفال ومدارس البنات أهمية أكبر للتأثير على عقول الناشئة وعلى المرأة التى ستكون الأسرة فيما بعد ، وكذلك فى ميدان التعليم العالى باعتبار أن رجاله هم قادة الفكر وولاة المناصب الكبرى فى بلادهم .

٦ — وقد رسم التبشير أهدافه فى نقاط ثمانية :

(١) توهين قيم الفكر العربى الإسلامى والغض من اللغة العربية الفصحى (٢) إضعاف التماسك الداخلى (٣) خلق تخاذل روحى ومعنوى ، وإيجاد شعور بالنقص فى نفوس المسلمين والشرقيين عامة وحملهم من هذا الطريق على الرضا والخضوع للمدنية المادية . (٤) إضعاف العقيدة فى نفوس المؤمنين بها على أساس أن الشعوب التى تنحل عقائدها القومية وتضعف تغدو فريسة يسيرة للغزو الفكرى (٥) تقطيع أواصر الوحدة والإخاء والترابط من اجزاء العالم الإسلامى (٦) السخرية والتشكيك بمختلف الجوانب التى يعتز

بهـا العرب والمسلمون من تاريخ وتراث وقرآن وبطولات وأمجاد وموالاة التحقير والازدراء بالعالم الإسلامى وأممه فى المجالات المختلفة ووصفه بالضعف والتأخر وتسمية بالأمم المتخلفة (٧) تأجيج الخلافات بين الطوائف ، وإثارة الفتن والقلاقل (٨) إفساد الخصائص القومية فى الشعوب الشرقية والإسلامية والعربية .

تعليمات التبشير كما رسمها زويمر وبلس وشاتليه

(١) يجب أن يكون تبشير المسلمين بواسطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها . (٢) على المبشرين ألا يقنطوا إذا رأو نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة إذ من المحقق أن المسلمين قد نما فى قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوربيين وتحرر النساء . (٣) على المبشرات أن تزور منازل المسلمين وتجتمعن بسيداتهم . (٤) استعانة المبشرين فى سبيل إنفاذ دعايتهم بالموسيقى والمستشفيات والمدارس والملاجىء . (٥) على طبيب الإرسالية ألا ينسى ولا لحظة واحدة أنه مبشر قبل كل شىء وطبيب بعد ذلك . (٦) استغلال فرصة المرض والسيطرة على المريض وانتهاز فرصة الضعف والحاجة وعدم القدرة على التفهم والاقتناع والدس للعقل الباطن بالايحاء (٧) الإحسان والتعليم لهما أهمية كبرى فى مخطط التبشير ، ولكن على أن تكون وسائل فقط ، لا غاية فى نفسها . (٨) ليس هدف التبشير فى الأغلب نشر المسيحية بقدر ما هو هدم الإسلام .

وتدل المراجعات إلى أن أولى محاولات التبشير وبعثات المرسلين بدأت فى بوسطن ١٨١٠ حيث نشأ المجلس الأمريكى لمندوبى البعثات البشرية ، وبعد تسع سنوات أرسلت أولى البعثات البشرية إلى الشرق الأدنى واتخذت من « مالطه » مركزا لها منذ مطلع القرن التاسع عشر ، وقد استعين بالمطبعة عام ١٨١٥ فى إعداد المطبوعات اللازمة ، ثم بدا تجول هذه البعثات فى شمال البحر الأبيض ، وذهب بعض المبشرين إلى القدس ثم إمتد التبشير إلى بيروت ، وأسست المطبعة الأمريكية فى مالطة وفى بيروت عام ١٨٣٤ ثم بدأت أول ترجمة عربية للتوراه .

فمالطه هى أول مركز تبشيرى فى الشرق ، ثم كانت بيروت المركز الثانى ،

وقد بدأت منظمة الجزويت عملها فى لبنان عام ١٦٢٥ . وفى عام ١٨٦٦ أنشئت الكلية السورية الانجيلية (الكلية الأمريكية) وكلية القديس يوسف ١٨٧٣ (الكلية الفرنسية) وكان أبرز المرسلين الأمريكيين فى بيروت هو كرنيليوس فإن ديك .

وقد عمل ثلاثة من كبار الباحثين اللبنانيين مع المرسلين هم : فارس الشدياق وناصف اليازجى وبطرس البستانى عمل فارس الشدياق فى تصحيح تراجمهم العربية ، بدا عمله فى مالطه ثم استكمله فى لندن وساعد على ترجمة التوراة إلى العربية (وقد طبعت التوراة ١٨٥٧ أما اليازجى فقد عمل مع المرسلين سنة ١٨٤٠ وساعدهم على ترجمة التوراة وكذلك عمل البستانى .

وفى هذا الجو كونت الجمعية العلمية السورية ١٨٤٧ بتوجيه وحماية الأمريكيين وحملت لواء الدعوة إلى القومية العربية ولم يكن عجيبا أن يبرز هذا التيار فى مثل هذا المحيط ، فقد كان الهدف هو تمزيق الوحدة القائمة فى ظل الدولة العثمانية ، وقد رافق هذا الاتجاه حملة ضخمة على الخلافة والخليفة والحكم العثمانى ، وكانت هذه الحركة وهذه الحملة تهدف إلى تمزيق الكتلة المرتبطة بإثارة الخلاف والتفرقة باسم « عرب وترك » وإثارة العداء بدعوى اغتصاب الدولة العثمانية حق العرب ومحاولة اعتبار تركيا العثمانية هى الإسلام نفسه ، وفصل مفهوم القومية عن الفكر العربى الإسلامى وإحلال الفكرة العثمانية أو اللادينية للقومية محل مفهومها الطبيعى ، وهكذا كانت دعوة القومية العربية على يد دعاتها الأول سلاحا لهدم الدولة العثمانية واسقاطها ثم اسقاط الخلافة وهدم الوحدة بين العرب والمسلمين .

وهكذا تركز الدور الأمريكى فى الثقافة العربية الإسلامية منذ ذلك الوقت ، فقد بدأت المطبعة الأمريكية عام ١٨٢٢ وبدأت ترجمة التوراة ١٨٣٧ واستمرت حتى ١٨٦٥ ثم جرى تعريب الكنيسة فى العالم العربى وبدا دور الثقافة الفرنسية فى نفس الوقت فى بيروت أيضا واستمر ومن هنا حملت بيروت لواء نشر ودعم نفوذ الثقافتين الأمريكية والفرنسية فى الأدب العربى بينما حملت مصر لواء نفوذ الثقافة الفرنسية حتى ١٨٨٢ ثم نافسها نفوذ

الثقافة البريطانية التى حملته مصر والعراق والسودان من بعد ، بينما حمل المغرب العربى لواء الثقافة الفرنسية وحدها . أما الجامعة الأمريكية فقد بدأت فى بيروت ١٨٦٦ بدأت مع ستة عشر طالبا وبلغ عدد الطلبة المسجلين فى السنوات الأخيرة ثلاثة آلاف وثلاثمائة يمثلون خمسين جنسية وأكثر من أربعين طائفة دينية . فقد أعلن مديروها أنها مفتوحة دون أى اعتبار للون أو الجنس والدين ، وقال بعض الباحثين أن خريجها يخرج منها مؤمنا بإله واحد أو بآلهة عديدين أو غير مؤمن بأى اله . وقد بلغ مجموع خريجى الجامعة الأمريكية فى بيروت الآن ٧ آلاف منهم ١٤٠٠ طبيب وعديد من رؤساء الوزارات والأساتذة والقضاة والأطباء والصحفيين .

وليست الجامعة الأمريكية فى بيروت إلا نموذجا لعشرات الكليات والارساليات فى فرض الطقوس الدينية على مختلف الطلبة ، فلما حاول بعض الطلاب الامتناع عن الاشتراك فى الصلوات : قيل لهم « هذه كلية مسيحية أسست بأموال شعب مسيحى ، ولا يمكن للمؤسسة أن تستمر إذا لم يسندها هؤلاء ، وكل هذا قد فعله هؤلاء ليوجدوا تعليما يكون الإنجيل بعض موارده » .

وإذا كانت هناك شبهة فى أن هذه المعاهد والإرساليات لم تكن خاضعة للتبشير ، فان اختيار جميع رؤساء هذه الجامعات والمعاهد من القسس يرجح كفة القول بارتباطها بالتبشير . وهكذا تركزت فى لبنان أضخم أعمال التبشير والتغريب منذ ذلك الوقت المبكر وقد كان للبنان ظروفه التاريخية فى ارتباطه بالغرب وفى الصراع بين المارون والدروز ، الذى كان فى حقيقته صراعا بين النفوذين الانجليزى والفرنسى ، والذى فرض عليها وضعها الخاص ، وقد أصبحت ميدانا للسباق بين الارساليات الأمريكية والفرنسية وفى مصر تولى إدارة شئون التعليم والتربية دوجلاس دنلوب الذى كان فى أول أمره مبشراً فى إحدى مدارس الإسكندرية ، وفى مصر ركز التبشير عمله ، منذ أواخر إسماعيل فى القرن التاسع عشر وتوسع نطاقه بعد الاحتلال ١٨٨٢ ، وفى الثلاثينات من هذا القرن برزت حركة عنيفة ذات خطر ، وفى السودان جاهر غردون بضرورة تنصير السودان ١٨٧٨ وعند ما استردت

بريطانيا السودان بعد احتلال مصر نشطت حركات التبشير وأرسلت الرهوط من المبشرين ١٨٩٩ وفى سنة ١٩٠٥ دعا كرومر المرسلين إلى إنشاء مراكز للتبشير فى مديريات جنوب السودان وتنصير قبائل الدنكا .

وقد عقدت حركة التبشير عدداً من المؤتمرات :

(١) مؤتمر القاهرة ١٩٠٦ ، (٢) مؤتمر هولندا ١٣٥٠ هـ ، (٣) مؤتمر بيروت ١٩١١ ، (٤) مؤتمر لكنو (الهند) ١٩١١ ، (٥) القدس ١٩٢٤ـ و ١٩٢٨ ، (٦) مؤتمر القدس ١٩٣٥ ، (٧) المؤتمر الانخارستى (تونس) ١٩٣٠ ، (٨) مؤتمر التبشير العالمى فى أدنبره ١٩١٠ ، وفى عام ١٩٢٤ عقدت مؤتمرات للمبشرين فى القدس وبرمانا (لبنان) وقسنطينة (الجزائر ، وحلوان (مصر) . ومن عجب أن اختير لهذه المؤتمرات ، المناطق الزاخرة بالقوى الإسلامية أمثال لكنو فى الهند وقسنطينة فى الجزائر .

وقد تناولت هذه المؤتمرات دراسة الخطط الخاصة بالعمل فى مجالات التبشير وأشارت إلى الخطوات التى تمت فى سبيل تحقيق أهدافها .

وقد أعلنت فى هذه المؤتمرات حقائق بالغة الأهمية ، أهمها تأكيد أهداف الاستعمار من اتخاذ التبشير سلاحا من أسلحته ووسيلة من وسائله ، ومهما يكن من أمر حركة التبشير فى تاريخنا فإننا حين ننظر إليها بعد أن تحولت إلى مرحلة جديدة لا نرى إلا أنها جزء من حركة التغريب الكبرى التى كانت خطوة فى سبيل الوصول إلى أعماق الأهداف الأساسية .

وقد أشارت هذه التقارير إلى أهمية إلغاء الخلافة وأنها كانت عاملا من عوامل « انحلال الرابطة الاجتماعية فى الإسلام » وأهمية الدعوة القومية على النحو الذى حاول الاستعمار فرضها ، وأنها على حد تعبير « زويمر » تدحر روح الجامعة الإسلامية وتحل محلها . وأن هذا كله قد أدى إلى تفكك الوحدة فى العالم الإسلامى ، حيث أصبح التركى مثلا يقدم تركيته على إسلامه . وكذلك الاهتمام بأثر الحملة على كل قديم وطلب العلوم الحديثة مما يظن أنه سيقضى على مقومات الفكر العربى الإسلامى .

والواقع أن هذه النظرة لم تكن نظرة صادقة ، ولا علمية ، وأنها انبعثت أساساً من

التعصب ، أو بدافع الدعاية المسبقة لتشجيع المرسلين وحفز هممهم ، والدليل على ما نقول هو أنه بعد مرور أكثر من أربعين عاما يتكشف بوضوح أن الرابطة العربية لم تقض على الإخوة الإسلامية بل ربما زادتها قوة ، وأن دعوات التجديد لم تقض على التراث ، وأن طلب العلوم يساير مقومات الفكر العربى الإسلامى ، وقد أشارت تقارير التبشير إلى أهمية العمل من ناحية التعليم وأشار زويمر إلى أثر الاستعمار فى مخططات التعلم ومناهج التربية فى العالم الإسلامى إشارت ذات أهمية توضع موضع الاعتبار : « أن السياسة الاستعمارية لما قبضت على برامج التعليم فى المدارس الابتدائية أخرجت منها القران ثم تاريخ الإسلام ، وبذلك أخرجت ناشئه لا هى مسلمة ولا هى مسيحية ولا هى يهودية ، ناشئة مضطربة مادية الأغراض لا تؤمن بعقيدة ولا تعرف حقا ، فلا للدين كرامة ولا للوطن حرمة » .

وفى هذا يقول مدير الجامعة الأمريكية « أنهم يراقبون سير «القران وتاريخ الإسلام» فى المدارس الإسلامية ويجدون فيه الخطر الداهم . والواقع أن بعض الأقطار الإسلامية التى تحررت من نفوذ الاستعمار قد غيرت مناهجها كمصر مثلا ، وبعض الأقطار الأخرى ما زالت خاضعة لنفوذ الثقافة الأجنبية وخاصة فى العالم العربى ، فضلا عن حرية العمل التى ما تزال تلقاها الجامعات الأجنبية ومعاهد الإرساليات فى بعض إجراء العالم العربى .

* * *

وقد أولى التبشير أهمية كبرى للتقسيم السياسى الذى حدث بعد الحرب العالمية الأولى وانحلال الدولة العثمانية ، وقيام دول حكومات مستقلة فى كل جزء من أجزاء العالم الإسلامى ، ورأى أن هذا التقسيم من شأنه أن يعين على توسيع حركة التبشير ، وقد اعترف زويمر فى تقريره عام ١٩٢٤ إلى أن الإسلام ما زال هو العقبة فى طريق تقدم التبشير فى أفريقيا وأن الشيخ والدرويش هو صاحب النفوذ فى افريقيه ، وقد أشار غيره إلى أن الإسلام قد خطا فى عضون المائة عام الماضية (١٨٣٢ — ١٩٣٣) خطوات واسعة ، فقد اعتنق الإسلام فى الهند وحدها ستة ملايين من الهندوس والمنبوذين وفى افريقيا تضاعف هذا الرقم عشر مرات . وقال زويمر فى تقاريره أن الإسلام فى أفريقيا قد كشف عن سرعة تقدم الإسلام فى مركزه الواسع فى الشمال ومعاقله إلى فى السواحل إلى الجنوب والغرب الافريقى ولقد أخطأ المفسرون فى تقديراتهم السابقة لأنه تبين لهم فيما بعد أن بعض البلاد التى كانوا

يحسبونها خالية من الأديان المعروفة ، هى إما إسلامية محضة إما أنها على أهبة الدخول فى الإسلام . وقال مستر والتير سكرتير بعثة التبشير فى حوض النيل أن الاسلام لا يزال صلبا كالصخرة[1] وأشار زويمر فى تقرير ١٩١٤ إلى أن المسلمين يزدادون قابلية للالحاد أزدياداً هائلا ، وأن هدم الاسلام فى نفوس المسلمين له أهمية فى شىء واحد هو قبول الفكر الغربى كصديق دولى . وأشار إلى أن الأحوال فى مختلف البلدان الاسلامية إذ ذاك ملائمة لأعمال التبشير ، وأن الدول القائمة ــ إذ ذاك ــ أصبحت صديقة للتبشير وعضده القوى ، وأن الدستور الجديد فى مصر عام ١٩٢٤ اشتمل على نصوص قاطمة تكفل الحرية الدينية وصيانتها وأنه يمكن تقديم المعرفة (أى التغريب) عن طريق (١) الكتاب والصحيفة (٢) ومنهج التعليم والتربية فى وزارات المعارف والتربية (٣) البعثات إلى المعاهد العربية ، ومما يذكر أن مؤتمر ١٩٢٦ فى القدس عقد برئاسة (جون موط) الرئيس العام لجمعية الشبان المسيحيين العالمية ، وقد ردد المؤتمر المطاعن القاسية على الاسلام وبنى الاسلام ، وقوبلت هذه المطاعن بحملة عاصفة من احتجاج المسلمين فى مختلف أنحاء العالم .

* * *

وقد أصدرت مؤتمرات التبشير عديدا من القرارات كان من أهمها :

١ — قرار التعليم والتربية : « فى كل حقل من حقول العمل يجب أن يكون العمل موجها نحو النشء الصغير من المسلمين ، وموزعا فيما بينهم ، ليحيط بهم وليكونوا منه على صلة مباشرة ، ويجب أن يقدم هذا على كل عمل سواه فى الأقطار الاسلامية ، فإن زوغ روح الاسلام فى الناشىء الحديث يبتدىء باكرا من عمره ، فيجب والحالة هذه أن يؤتى بالنشء الصغير من المسلمين قبل أن يتكامل نمو عقليتهم ، وإبعادهم عن القوالب الاسلامية فتتقسو عقليتهم وأخلاقهم · ولم يزل التعليم التبشيرى هو أفضل طريقة للوصول إلى المسلمين. وأشار التقرير إلى ضرورة البحث عن : « السبب الذى دعا إلى كون الاسلام هو الدين الذى نزل فى تلك البقاع والبلدان وعاش وعلا علوا كبيرا أكثر من ألف سنة » وقد نظم التبشير خطاه فى عملين كبيرين :

(١) السياسة الأسبوعية ١٩٢٧/٩/٢٤ .

١ — « المؤلفات » ، وقد وضع المؤلفون ألوف الكتب المملوء بالطعن فى العرب والاسلام ، كما ركزوا على طبع التوراة وتوزيعها ، وقد أنشئت جمعية التوراة فى بريطانيا عام ١٨٠٤ وفى خلال القرن التاسع عشر استطاعت أن توزع ١٦٠ مليون نسخة فى ٣٦٤ لغة . كما بدأت فى (١٩١٢) م ١٣٣٠ هـ مجلة العالم الإسلامى وهى مجلة أدبية اجتماعية تتحول إلى مجلة تبشيرية .

(٢) « إعداد الدعاة » وقد أشارت تقارير التبشير إلى تخريج دعاة مثقفين تثقيفا عاليا فى اللغات السامية ، مع القبض على ناصية اللغات العامية والفصحى والتخرج الكامل فى العلوم الإسلامية وفهم روح المسلم وخصائص عقله ، ودراسة تاريخ الإسلام ، وما هو حى من الإسلام المعاصر فى المذاهب والطرق الصوفية » .

كما أعدت برامج خاصة ومعاهد لإعداد المبشرين تصور الشرق بصورة التأخر والضعف ، وقد أنشىء فى الفاتيكان معهد خاص لدرس الفقه الإسلامى والعقيدة الإسلامية حتى يتمكن المبشرون اللاتينيون من مهاجمة الفكر العربى الإسلامى . وقد انتدب لهذه المعاهد بعض الدونمه من اليهود والأتراك المدعين للاسلام .

* * *

وتبدو صورة الفكر العربى الإسلامى كما تصوره تقارير زعماء التبشير : بلس ، وزويمر ، شايليه على هذا النحو :

(١) أن الألوف يتجهون كل عام إلى مكة ويشربون ماء زمزم ، إلا أنه بالرغم من وجود كل أسباب الارتباط الخارجى والذى يجعل لفكرة الجامعة قوة حقيقية ، فإنه يستحيل أن يكون من المسلمين عنصر حقيقى فى استطاعته أن يجمع شمل السنين والشيعين معا ويضم الأتراك والفرس والهنود إلى العرب ليكافحوا يداً واحدة . (بلس)

(٢) فى أفريقيا ، التجارة كلها فى يد القبائل الإسلامية ومن المحقق أن التاجر المسلم يبث فى هؤلاء الوطنيين مع بضاعتة التجارية دينه الاسلامى وحضارته الراقية ، وللاسلام فى أفريقيا صديق مساعد على انتشاره هو الاستعمار الأوربى .

(٣) أن بين الأوربى والأفريقى هوة تفرق بينهما ، والمسلمون قد تمكنوا من إزالة الهوة التى كانت بينهم وبين الزنوج . زويمر

(٤) أن التقسيم السياسى الذى طرأ على العالم الاسلامى (بعد الحرب العالمية الأولى) سيمهد السبل لأعمال المدنية الأوربية ، إذ من المحقق أن الاسلام يضمحل من الوجهة السياسية وسوف لا يمضى غير وقت قصير حتى يكون الاسلام فى حكم مدنيه محطة بالأسلاك الشائكة . وأن الاسلام الآن فى سبيل التنازل عن أوضاعه وخصائصه الاجتماعية ، إذ الضعف التدريجى فى الاعتقاد سوف يقضى إلى انحلال الروح الدينية من أساسها . (شاتليه)

(٥) ليس ثم طريق إلى حضن الاسلام أقصر مسافة من « المدرسة » ، أن المدرسة أقوى قوة لجعل الناشئين تحت تأثير الحضارة الغربية ، هذا التأثير يستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوما ما ، قادة أوطانهم . (أنا مليجان)

(٦) إن كثيرين من المسلمين قد زعزع اعتقادهم حينما تعلموا اللغة الانجليزية ، أن الكتب المدرسية الغربية تجعل الاعتقاد بكتاب شرقى مقدس أمراً صعبا جدا . (تسكلى)

(٧) أن على فرنسا أن يكون عملها فى الشرق مبنيا على قواعد التربية العقلية وذلك حتى تبث فى دين الاسلام التعاليم المستمدة من المدرسة الجامعة الفرنساوية . (شاتلية)

(٨) أن نشر المدنية العربية فى العالم الاسلامى كفيل بزعزعه العقيدة الاسلامية فى نفوس المسلمين .

(٩) أن عدد المسلمين الذين يزورون باريس سنويا يزيد على عدد المسلمين الذين يحجون إلى مكة .

* * *

ولقد كان من أبرز من تصدى للتبشير فى العالم العربى : شاتليه ، وبلس وزويمر ، أما

شاتليه فيرى أن إرساليات التبشير تعجز عن زحزحة العقيدة الاسلامية من نفوس معتقديها ولكنها تستطيع أن تقصى لبانتها من هدم الفكرة الاسلامية ببث الأفكار التى تتسرب مع اللغات الأوربية . ويقول : ينبغى أن يكون عمل الاستعمار مبنيا على قواعد التربية العقلية ، وذلك بالتأثير على عقول أبناء الشرق وقلوبهم . وعلى المدارس الفرنسية أن تبث فى دين الاسلام التعاليم المتسمدة من المدرسة الفرنساوية . وعنده أن ينبغى لفرنسا أن يكون عملها فى الشرق مبنيا قبل كل شىء على قواعد التربية العقلية والتأثير على عقول أبناء الشرق وقلوبهم ، ليتسنى لها توسيع نطاق هذا العمل والتثبت من فائدته ، ويقول إنه يجدر بنا لتحقيق ذلك بالفعل ، أن لا يقتصر على المشروعات التى يقوم الرهبان والمبشرون وغيرهم بها ، بالنسبة إلى الغرض العام الذى نحن نتوخاه ، وهو غرض لا يمكن الوصول إليه إلا بالتعليم الذى يكون تحت نفوذ الجامعات الفرنساوية ، نظراً لما اختص به هذا التعليم من الوسائل العقلية والعلمية ، وإنا لنرجو أن يخرج هذا التعليم إلى حيز الفعل ليبث فى دين الاسلام التعاليم المسمتدة من الجامعة الفرنساوية .

ولا شك فى أن ارساليات التبشير من برتستانية وكاثوليكية تعجز عن أن تزحزح العقيدة الاسلامية من نفوس منتحليها ولا يتم لها ذلك إلا ببث الأفكار التى تتسرب مع اللغات الأوربية ، فبنشرها اللغات الانكليزية والألمانية والهولندية والفرنسية ، يتحكك الاسلام بصحف أوربا وتتمهد السبل لتقدم إسلامى مادى ، وتقضى ارساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الاسلامية التى لم تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلتها وإنفرادها . ولا ينبغى لنا أن نتوقع من جمهور العالم الاسلامى أن يتخذ له أوضاعا وخصائص أخرى إذا هو تنازل عن أوضاعه وخصائصه الاجتماعية ، إذ الضعف التدريجى فى الاعتقاد بالفكرة الاسلامية وما يتبع هذا الضعف من الانتقاض والاضمحلال الملازم له سوف يقضى إلى انحلال الروح الدينية من أساسها لا إلى نشأتها بشكل آخر .

والتقسيم السياسى الذى طرأ على الاسلام سيمهد السبل لأعمال المدنية الأوربية

إذ من المحقق أن الاسلام يضمحل من الوجهة السياسية ، وسوف لا يمضى غير زمن قصير حتى يكون الإسلام فى حكم مدينة محاطه بالأسلاك الأوربية » .

وقد كذبت الأيام كل ما ذهب إليه شاتليه عام ١٩٢٠ ومابعدها ، فإن الإسلام لم يضمحل ولم يستطع الفكر الغربى أن يسيطر على مقومات الفكر العربى الإسلامى أو يقضى عليها ، واستطاع فكرنا أن يزداد قوة على طريقته فى الامتصاص والاقتباس دون أن يفقد قاعدته أو مقوماته .

أما (بلس) فقد تحدث طويلا عن تاريخ التبشير وقال أن ريمون بول الأسبانى هو أول من تولى التبشير بعد أن فشلت الحروب الصليبية فى مهمتها فوصلت إرساليات التبشير إلى الهند وجزائر السند وجاوة وسواحل أفريقيا ، وقد إهتمت هولندا بالتبشير فى جاوه فى اوائل القرن الثامن عشر حتى قسمت جاوه إلى مناطق لكل منها كنيسة ومدرسة . وفى ١٧٩٥ تأسست جماعة لندن التبشيرية ثم انتقلت إلى نيويورك وألمانيا والدنمرك وهولنده وسويسرا ، وأشار إلى تأسيس جمعية الشبان المسيحية ١٨٥٥ من الانجليز والأمريكان وأن مهمتها هى نشر الانجيل بين أبناء الجيل الحاضر .

وأشار بلس إلى أن المبشرين الكاثوليك دخلوا ربوع أفريقية منذ القرن الخامس عشر أى فى أثناء الاستكشافات البرتغالية ، ثم تركزت قواهم فى أفريقية الغربية ثم توسعت فى أفريقيا الشرقية والحبشة وعززت الدول المحتلة إرسالياتها ، وكان أهمها من الكاثوليك والبروتستانت ، وفى أوغنده بدأت حركة الرهبان البيض الذى ألف ارسالياتهم الكردينال لافيجرى . ثم توافد المبشرون على أفريقيا الوسطى عقب بعثة ولفشون وستانلى ١٨٧٨ توسعت ثم ارسالياتهم فى شرق أفريقيا إلى أواسطها حتى الخرطوم والحبشة .

وقال بلس أن الاسلام هو العقبة القائمة فى طريق تقدم التبشير بالنصرانية فى أفريقية وهو العدو اللدود لنا وأن خصمنا هو ذلك الشيخ أو الدرويش صاحب النفوذ فى أفريقية فالشيخ والدرويش يجوبان شواطئ البحر الأحمر والنيجر والمغرب ووادآ ويبثان فى الأهالى أن الاسلام سينتشر فى كل الأقطار .

وفى مصر واجهت حركة التبشير معاونة فكرية واضحة شاركت فيها مختلف الصحف الوطنية وكان للدكتور هيكل فيها نصيب ضخم فقد والى مقالاته فى افتتاحيات السياسة

اليومية صيف ١٩٢٣ وصور حوادث التبشير على أنها حلقة من سلسلة « الغارة على العالم الإسلامى » . وكتب بعض الكتاب يهونون من قيمة أعمال التبشير هذه الأعمال أمثال الدكتور طه حسين والشيخ على عبد الرازق وقالو أنها لا تضر الإسلام ، وكشف هيكل عن أن التبشير قد وصل إلى غاياته فى مهاجمة الإسلام ، وأن هدفه ليس إخراج المسلمين من دينهم بقدر ما يهدف إلى أن يجعله مضطربا فى دينه ، وهذه هى اسمى مراتب الانتقام من الإسلام وأعظم الغايات الاستعمارية . وأشار إلى الخطة التى أمكن تنفيذها وصورها زويمر بإخراج دراسات القرآن والإسلام من برامج التعلم خلال خمسين عاما ومن ثم أمكن « إخراج الشاب والفتاة الإسلامية من الوسائط التى تخلق فيهم العقيدة والوطنية والإخلاص والرجولة والدفاع عن الحق . وشارك الدكتور هيكل فى هذه الحملة معظم كتاب السياسة وفى مقدمتهم أحمد نجيب الذى قال أن إقصاء الإسلام عن مدارس المسلمين هو أكبر واسطة للتبشير ، وأن ذلك قد حطم النشء الإسلامى تحطيما وهو سبب فساد الخلق والوطنية وموت الرجولة فى نفوس شبابنا . وواصل هيكل حملته فقال أن القصد من هذه الحرب التبشيرية هى الاسلام ذاته فهى ترى إلى اضعاف العقيدة الاسلام فى نفوس المؤمنين بها ، وأنها استمرار للنضال التاريخى بين الشرق والغرب والاسلام والنصرانية يتخذ اليوم أساليب الغزو الحديث بطريق الدعوة والاراء والوسائل الاقتصادية والاجتماعية ، ويعتقد خصوم الاسلام أنهم قطعوا فى سبيل إضعاف العقيدة الاسلامية فى نفوس المسلمين خطوات لاباس بها ، على أن إضعاف العقيدة الاسلامية هو الخطوة الأولى لغاية أخطر ، فالشعوب التى تتخلى عقائدها القومية وتضعف تغدو فريسة أيسر للغزو الدينى والفكرى ، ومتى تم هذا الوهن المنشود فى عقائد الشعوب الاسلامية استطاع الاستعمار الاجهاز على الفرائس وغاضت الخواص والعقائد القومية التى ما زالت تتكسر عليها حراب الاستعمار ، وإذا كان الاسلام ما يزال يناضل بقوة وصلابة فأنه إنما يرد جيوش الغزاة برسوخه وقوة عقيدته ، ثم يصل هيكل إلى الرأى بأن المقاومة لا تكون ألا بتنظيم التعليم الدينى فى المدارس تنظيما يكفل غرس التعاليم الاسلامية فى النفوس قوية راسخة مستنيرة ويقول : ومن الأسف أن التعليم الدينى ما يزال قاصرا غامضاً ، وأصول الاسلام تلقى فى صور عتيقة بالية ، وتلقن للنشىء اختياريه كأنها عبء غير مرغوب فيه ، فلا تبقى فى أذهانهم منها غير أثار مشوهة ، هذا فى حين أن الأمم

الأوربية تعنى بنظم التعليم الدينى فى مدارسها بصورة جبريه منظمة ، والكنيسة الرومانية تشرف على تنظيم التعليم الدينى فى معظم الدول الغربية ، وتخاصم الأمم التى تعتدى عليه »
وقد أحصى الدكتور هيكل ما تملكه الهيئات البشرية والارساليات فى مصر فبلغت أربعة عشر ألفا من الأفدنة ، مما يساوى مائة وعشرين مليونا من الجنيهات ، ويرد لها سنويا ما قيمته نحو مليون ونصف مليون من الجنيهات من بضائع ، وتبلغ إيرادات هذه هذه البعثات سنويا أربعة ملايين من الجنيهات . وقال أن السياسة الاستعمارية من يوم أن نزلت بلاد الاسلام جعلت أول أعمالها مناهضة التعليم الدنى والخلق الاسلامى ، وصرف الناس عن التربية الدينية التى تقوم أخلاق المسلمين وبذلك ضعفت المناعة الاسلامية فانفتح الباب أمام المبشرين ووجدوا أرضاً خصبة ، وأن سياسة الاستعمار ترى واجباً عليها حماية المبشرين الذين يهدمون الاسلام ، وأن إخراج القرآن وتاريخ الاسلام من البرامج التعليمية من شأنه أن يخرج ناشئه مضطربة مادية الأغراض لاتؤمن بعقيدة ولا تعرف حقا ولا تنكر باطلا . أنهم كما يقول مدير الجامعة الأمريكية يراقبون سير القران فى المدارس الاسلامية ويجدون فيه الخطر الداهم ، فالقرآن وتاريخ الاسلام هما الخطران اللذان تخشاهما سياسة التبشير . . وهكذا كان أول ما اتجهت إلية جهود هؤلاء الجبابرة هو القرآن إذ ما دام هذا القرآن محترما فى نفوس المسلمين ومعمولا به فالجشع الأوربى لا يمكن أن ينال مأربه من هذه الشعوب الشرقية العظيمة ، أذن فأضعاف المناعة الاسلامية ومحاربة القران هى الوسيلة لتعبيد الطريق أمام هذا الجشع ، وتمكينه من إذلال هذه الشعوب ، ولكى يقضى على هذا القرآن يجب أن تتضافر القوى عليه ، كل القوى ، سواء عن طريق المدرسة ، أو المدارس الأخرى ، وقد عنوا قديما بنشر دعاية واسعة ترمى إلى الاستغناء شيئاً فشيئاً عن اللغة العربية الفصحى للاستعاضة عنها باللغة العامية ، كل ذلك كيدا للقرآن وإضعافا لطريقة تعلمه وفهمه » . ولقد استطاع التغريب أن يجد من الأعلام التى تكتب بالعربية من يسخر من حملة التبشير وأن يصغر من أثرها ، هؤلاء طه حسين وعلى عبد الرازق وقد سمح لعلى عبد الرازق أن يقف فوق منبر الجامعة الأمريكية ليتناول مسألة التبشير وأن يهون من أمرها فى اتجاه تغريبى شامل[1] .

---

(١) راجع هذا الموقف فى كتابنا « الفكر العربى المعاصر فى معركة التغريب » .

حركة الاستشراق

هل يمكن القول بأن الاستشراق حركة منفصلة عن التبشير ، أو حركة تالية له أخذت مداها وقوتها وحملت نفس أهداف التبشير بعد أن تكشفت خططه وأبعد من مجال العمل الظاهر وتحول إلى مجال العمل الخفى فى ظل حكومات غربية، وهل حقا ما يقال من أن دعاة النفوذ الأجنبى والاستعمار والقائمين علية أساساً وكان مجاله فى هذه المرحلة أفريقيا أحسوا بأن عمل التبشير السافر المكشوف من قد أزعج العالم الاسلامى ولقى مواجهة ضخمة ، وأنشأ حركة رد فعل قوية ومن هنا تبين أن لا ضرورة له وأن أهدافه يمكن أن تبث بأسلوب أكثر ليونة ومرونة ومكراً .

وهل حقا ما يقال من أن توقف التبشير فى المناطق المتمدنية ، واقتصاره على المناطق المتخلفة ، كان تغييراً فى أسلوب العمل لا فى العمل نفسه ، وأن الأغراض التى حملها الاستعمار للتبشير مضت فى ركب حركة الاستشراق . وأنه قد تبين فى الثلاثينات أن حركة التبشير فى الأقطار المتمدنة قد انتهى أمرها ، وأنه يكفى أن يحل محلها منهج آخر يحمل جذور الشبهات وإثارة الخلافات بين الفرق والمذاهب ، وإحياء دعوات الشعوبية القديمة وابتعاثها والاهتمام بالجوانب الضعيفة وإعادة النظر فيها من أجل نفس الهدف الذى حمله التبشير ، وذلك إيمانا بأن المسلم لا يحول عن طريق الدين ولكنه يمكن أن يحول عن طريق الفكر ، وأن خلق روح الإلحاد والاباحة عن طريق دعوات جديدة باسم الحرية والتجديد والتقدم من شأنه أن تقضى على مقومات الفكر العربى الاسلامى ويسقطها ويحل محلها مقومات الفكر الغربى .

هذا هو ما يثار من آراء فى وجه الاستشراق . والاستشراق بعد ذلك عمل له شقين والذين يعملون فيه لا يتخذون طريقا واحد ولا تخطيطا واحداً ، فهناك استشراق يتصل بالدراسات القديمة وحدها يجددها ويبعثها وهناك مستشرقون يحاولون عملا مجرداً لوجه العلم ، غير أن هناك استشراق ومستشرقون يتصلون اتصالا وثيقا بدوائر الاستعمار والنفوذ

الأجنبي ويعملون بتوجيه من وزارات الاستعمار فى مختلف دول الغرب التى تحتل المناطق فى العالم الاسلامى أو فى افريقيا وآسيا . وهؤلاء هم الذين نعتبر عملهم من مخطط خدمة النفوذ الأجنبى ، وحركة التغريب وهم الذين يثيرون عشرات من الشبهات فى التاريخ واللغة والاسلام والتراث على نحو دقيق ماكر ، وكثير من هؤلاء يكتبون عن العرب والمسلمين والاسلام على نحو يبدو عليه طابع الانصاف والتقدير ، فى مطالعه وفى غضونه ، ولكنه يخفى على نحو من الدقة شبهات وسموما يراد بها وحدها القضاء على مقومات الفكر العربى الاسلامى وجذوره وأسسه .

ولا يضير هؤلاء المستشرقين أن ينصفوا جانبا أو آخر فى سبيل هدم جانب آخر ، وكل منهم يتخذ وجهته فى هدم شىء معين ولكن واحداً منهم لا يهدم كل شىء ، وهم إلى هذا يختلفون حتى لا يتهموا بالاتفاق على رأى ، فالمسألة الواحدة يقال فيها رأى من مستشرق وضده من مستشرق آخر ، وربما لا يكون هذا مقصوداً أو متفقاً عليه ، ولكنه يكشف عن أن القدرة على فهم الفكر العربى الإسلامى لا تتاح بدرجة واحدة ، أو أن درجة التعصب للفكر العربى ، أو درجة الإيمان بالغرض السياسى تختلف بين مسألة وأخرى وبين مستشرق وآخر . ولكنها فى مجموعها تمثل حملة مبلبلة لا حد لها فى إثارة الشبهات وإحداث عوامل الاضطرابات الفكرى فى النفس العربية والإسلامية وهذا هو الهدف الأكبر .

وإذا كان التبشير داعياً إلى تغيير العقيدة وهذا ما هو من المستحيل أساساً فإن حركة التغريب عن طريق الاستشراق تحمل دعوة إلى التجرد من الدين ، ومن الإيمان بالقيم ، ومن الإيمان بعظمة التاريخ الاسلامى وبطولاته ، ومن تقدير مكانة اللغة العربية ، فإذا الرأى فى هذا كله يحمل الشبهات التى تصل إلى حد الاحتقار والشك والسخرية والاتهام والانتقاص . وهذا العمل أخطر من التبشير نفسه . وهذا العمل هو الهدف الأساسى للنفوذ الأجنبى .

وعندنا أن الاستشراق سلاح فى غمدة ، ولكن الاستعمار والنفوذ الأجنبى الذى أختار أن يتخذ من حركة التغريب وسيلته إلى تمكين نفوذه وبقائه ، قد استطاع أن يجد

عن هذه النصوص ومن هذه الكتابات وسيلته ، وأنه حين أذاعها حرص على أن تصل إلى العالم الاسلامى على نحو من الانحاء ، وأن يصل منها نوع معين ، وأن يجعل لهذا اللون مكانة معينة تدخل فى دراسات الجامعات أو أبحاث العلماء أو كتابات الكتاب ثم تحشد لها الوسائل للتركيز عليها وإحداث الدوى بها ، كان هذا هو عمل التغريب .

وكم من كتاب حمل تقديراً للفكر العربى والاسلامى وللتاريخ الاسلامى تجوهل وأبعد ، وكم من كتاب حمل هذا التعصب والحقد أذيع وأتيحت له فرصة الانتشار والاهتمام ، وأبرز مثل ذلك جوستاف لوبون وأرنست وريتان وكلاهما كاتب فرنسى .

وجوستاف لوبون فى نظر الفكر الفرنسى والعالمى أجل مكانا فهو فيلسوف اجتماعى له أبحاثه المركزة القوية النافذة وقد انصف العرب والحضارة الاسلامية والعقل العربى على نحو علمى منهجى ، وارنست رينان فيلسوف ملحد هاجم المسيحية والمسيح والأديان ، وأنكر نبوة المسيح ، وكانت له حملة على الاسلام والعرب والعقل العربى الاسلامى ، وقد حدث بالفعل أن وصلت آثار لوبون إلى العالم الاسلامى قبل أن تصل آثار رينان ، ومع ذلك فإن آثار رينان لقيت رواجا لا حد له ، أذاعها طه حسين وأحمد أمين وأحمد ضيف ومصطفى عبد الرازق ، بل وأقامت الجامعة المصرية حفلا كبيرا لذكرى رينان وظلت هذه الآراء فى انتقاص العقل العربى الإسلامى تذاع وتردد كأنها أغنيات النصر أو الفتح بينما ماتت كلمات جوستاف لوبون ، وبلغ من أمر بعض كتاب العرب أن انتقصوا لوبون واتهموه بأنه ليس عالما وليس باحثا بينما أشادوا برينان الذى أنكره قومه وانتزعوه من كرسيه فى الكوليج دى فرانس . . ومن هنا يبدو على وجه الدقة كيف تعمل النصوص وكيف تذاع النصوص وما هى القوى التى تعنى بها وتركز عليها وتؤكدها . وهذه هى قوة حركة التغريب التى تعمل من أجل بقاء النفوذ الأجنبى . هذه الحركة التى عمدت عندما كشفت حركة التبشير خططها أن تستبدلها بحركة أشد قوة هى حركة التغريب عن طريق الاستشراق .

وحركة التغريب تقوم فى خدمة النفوذ الأجنبى وتستخدم فيها ثلاث عناصر :

(١) كتابات المستشرقين التى تتفق مع هدفها . (٢) كتابات الغربيين المتعصبين . (٣)

كتابات كتاب من العالم العربى والإسلامى تعلموا فى الغرب من وراءهم قوة يحمى ظهورهم ويفسح لهم فى مجال التوجيه عن طريق الصحافة والتربية ويدفع عنهم ما قد يواجههم من صعاب .

نقد أعمال المستشرقين

١ — وقد وجهت إلى أعمال المستشرقين نقدات واعية منصفة لم تصدر عن خصومة بل عن تقدير علمى منهجى ، تقول إن بعض هؤلاء المستشرقين لا يعرفون كلمة واحدة من اللغة العربية ، أمثال سلفستر دى ساس ، من أوائل المستشرقين ١٧٩٥ ، وهو أقوى مستغرب عرفته فرنسا إطلاقا ، كان يجهل العالم العربى جهلا تاما ، وكان افليس عرنيادق شارح مقامات الحريرى عاجزا عن أن يتكلم العربية أو يفهم ما يسمع من القول بالعربية ، لم نقل هذا عنه وإنما قاله زميل له هو جان غوله أحد أساتذة جامع استراسبورج وكذلك جيرار دى نرفال الذى لم يتعلم من العربية إلا كلة (طيب) ويقول جان غوله أنه لا فلوبير ولا بارس ولا أحد من هؤلاء استطاع أن يتصل اتصالا مباشرا بالأشخاص والأشياء فى الشرق ، فكان من جراء ذلك هذا العدد الكبير من الأحكام السلبية والتعسفية والنظريات الخاطئة والتأكيدات العجلى مما أدى إلى سوء التفاهم بين الشعوب .

٢ — وقال نبيه أمين فارس[١] : إن الجزء الأكبر من مؤلفات الغربيين عن الإسلام قد صدر عن أولئك الذين يتحكم فى تفكيرهم الاعتقاد بأن الإسلام دين متخلف ، وقد تقدم كثير نحو فهم الإسلام ومع ذلك فلا تزال الأحكام السابقة والآراء المغرضة تلازم موقفهم من الإسلام .

٣ — ويقول آخر إن ما يحول بين الافرنج وفهم الإسلام (١) كراهية الإسلام التى رضعوها . (٢) عدم اتقانهم اللغة العربية وفنونها . (٣) نزعة الأوربيين إلى الفتح وتكوين آرائهم من وجهة النظر هذه . (٤) سوء حالة المسلمين واعتبارهم المسلمين حجة على الإسلام . (٤) افتراض الرأى أولا ثم البحث عن أدله عنه . (٥) التحكم فى الاستنباط والقياس الجزئى .

---

١ — (١٩٥٦ — مجلة الأبحاث) .

٤ — وأشار لطفى جمعه فى ذكريات له أن أستاذهم فى التاريخ فى مصر مستر هيل (١٩٠١) كان يعلمهم أن اثنين من رجال أوربا أنقذا المدنية الغربية من السقوط فى أيدى البرابرة المتوحشين ، أحدهم شارل مارتل الذى هزم المسلمين والعرب فى موقعة بواتيه ، قال لطفى جمعه : وقد كتبنا هذا بأنفسنا وبايدنيا باملاء أستاذنا الذى مثل لنا أمة العرب التى أنجبت مئات الألوف من رجال الفنون والآداب الذين علموا أوربا وهذبوها فى وحشة وقسوة تعادل وحشة الوثنيين فصدقنا هذا وآمنا به وتعلمناه » .

* * *

وقد استهدفت كتابات المستشرقين الموالين للاستعمار والنفوذ الأجنبى بعض ما استهدفته حركة التبشير ، وكان أثرها أبعد وأعمق فى النفوس لما اصطبغت به دراسات المستشرقين من صبغة علمية ، وما أتيح لهم من منزلة وتقدير فى نفوس تلاميذهم الذين أشادوا به وخلقوا لهم جوا من الهيبة والتقدير .

وأهم ما استهدفت هذه الكتابات : تشويه الثقافة العربية الإسلامية للحط من شأن العرب والمسلمين فى نفوسهم ، وقد اتجهت هذه الكتابات فى مظهرها لا إلى الدعوة إلى دين معين ، أو فكر معين ولكن لتشويه كل دين أساساً وللحط من شأن الفكر العربى الإسلامى بمقارنته بالفكر الغربى واختلافه معه فى بعض الجوانب واتخاذ فترات الضعف التى مر بها العالم الإسلامى حجة على التخلف ، ومحاولة اعتبار فكرها وصورة الحياة فيها هى الإسلام أو الفكر الإسلامى نفسه .

وقد كشفت كتابات بعض المستشرقين عن أهدافها فى خدمة النفوذ الأجنبى والتعريب حين اتفقت فى بعض جوانبها مع مفاهيم دعاة التبشير ، وبدا ذلك واضحا فى كتابات المستشرقين أنفسهم فإن لورنس بروان يقول مثلا : إن الخطر الحقيقى كامن فى نظام الاسلام وفى قدرته على التوسع والاخضاع ، وفى حيويته ، أنه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الغربى . ويقول ليوبولد فايس : أصبح احتقار الاسلام جزءاً أساسياً من التفكير الأوربى ، ومن هنا كان اتجاه الفرنسيين إلى العمل على تشكيك المسلمين فى دينهم وتحقيره فى نفوسهم وتحميله تبعة صنيعهم وقد وصلوا فى ذلك إلى نتائج أكثر مما كانوا يتوقعون ، وذلك عن طريق تسميم عقول المسلمين بما يقولونه عن الإسلام وتاريخ الاسلام باسم البحث العلمى . وأن تحامل المستشرقين على الاسلام غريزة موروثة وخاصة طبيعية تقوم على المؤثرات التى خلفتها الحروب الصليبية ، وعنده أن كره الأوربيين نحو الإسلام كره عميق الجذور يقوم فى الأكثر على التعصب الشديد ، وهو ليس كرها عقليا فحسب ، وإنما يصطبغ بصبغة عاطفية قوية ، وقد لا تتقبل أوربا البوزية أو الهندوكية ولكنها تحتفظ أمامها بموقف عقلى متزن ، إلا أنها حين تتجه إلى الإسلام يختل التوازن ويأخذ الميل العاطفى للتسرب . وقد ظهر من بحوثهم كأن الاسلام منهم يقف أمام قضاته ، وأن ما يبدو فى سير المحاكم من عدالة فإنما هو للتعمية والتضليل ، وأن طريقة الاستقرار والاستنتاج التى يتبعها أكثر المستشرقين تذكرنا بوقائع ديوان التفتيش ، هذه الدواوين التى أنشأتها الكنيسة الكاثوليكية لخصومها فى العصور الوسطى ، أى أن تلك الطريقة لم يتفق لها أبدا أن نظرت فى القرائن التاريخية بتجرد ولكنها كانت فى كل دعوى تبدأ باستنتاج متفق عليه من قبل قد أملاه التعصب .

ويرى الدكتور محمد كامل عياد أن الاستشراق يعمل فى خدمة الاستعمار بأسلوب مقاومة الإسلام وتأييد الكنيسة ، قال : أن هناك علاقة وثيقة بين الاستعمار والاستشراق وعنده أن مباحث المستشرقين فى النهضة العربية الحديثة قليلة جدا وهى مختصرة وسطحية على العكس من دراساتهم عن تاريخ العرب القديم وعن التاريخ الاسلامى فإنها كثيرة

لا تكاد تحصى ، وهى تتعرض إلى عدد كبير من المسائل ولكنها تحوم فى الغالب حول الفتن الأهلية والخلافات المذهبية ومظاهر الانقسام والتفسخ . ومن الغريب أن نرى المستشرقين يبذلون كل جهودهم للكشف عن العوامل الخارجية والعناصر الغربية التى كان لها بعض التأثير فى نشأة الاسلام والحضارة العربية فى حين أنهم يذكرون باختصار أو يهملون بالمرة مظاهر التطور والتجديد والابتكار عند العرب ولابد أن يؤخذ فى الاعتبار أن المستشرقين المتأخرين أمثال مرجليوث وفاتيانى ولامنس قد استطاعوا أن يوحدوا بين أغراض الاستعمار وأهداف التبشير (١) .

وعند كثير من الباحثين أن التبشير والاستشراق مقدمة أساسية للاستعمار الأوربى وسبب مباشر لتوهين قوة المسلمين ووحدتهم ، وأن أكبر الأهداف للنفوذ الأجنبى والاستعمار مستعينا بالتبشير والاستشراق والتغريب والشعوبية هو الحيلولة دون وحدة المسلمين أو وحدة العرب وفى ذلك يقول لورنس براون فى كتابه الإسلام والإرساليات « إذا اتحد المسلمون فى امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً ، أما إذا ظلوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير ، ويرى القس كالهون سيمون : إن الوحدة تجمع آمال الشعوب السود وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوربيه ، لذلك كان التبشير عاملا هاما فى كسرة شوكة هذه الحركات فهو يعمل على سلب الحركة الإسلامية من عنصر القوة والتمركز منها » ومن هنا كان العمل يستهدف تغييب الوحده ودرء خطر هذه الوحده باستغلال الشعوب الآرية لها واستنزاف ثرواتها .

وعندنا أن الاستشراق قد استهدف توطيد النفوذ الأوربى ومقاومة الثورات والحركات التحررية بإثارة الشبهات حول المفاهيم العربية الإسلامية للقيم ومحاولة إحلال المفاهيم الغربية محلها .

---

(١) دراسة له فى كتاب (التاريخ والآثار) الصادر عن المجلس الأعلى للفنون والآداب .

ويرى الدكتور حسين الهراوى أن المستشرقين يتكلمون فى التاريخ الاسلامى بروح المؤرخ ، أما عن سيدنا محمد وعن الاسلام وعن القران فهم يتكلمون بروح المنفر الذى يخيف الناس من الاسلام وبروح المتحامل الذى يكيل الدسائس والشتائم من غير وزن .

وكنت أعلم أن المستشرقين ينقصهم فى مباحثهم عن الاسلام : الروح العالمية وأن لهم فى الاستقصاء طريقة لا تسرف العلم وهى أنهم يفرضون فرضا ثم يتلمسون أسبابه ، فإذا وجدوا فى القرآن أيات تتناسب فى معانيها مع فرضهم أقتبسوها وإذا وجدوا آيات لا تتناسب مع أغراضهم تجاهلوها ، وقالوا أنها غير موجودة فى القرآن ، فيخرج القارىء من كلامهم وهو يتهم الاسلام بالتلفيق كما يتهمونه .

ويقول الدكتور حسين مؤنس أنه النادر أن تقرأ لمستشرق فرنسى شيئاً طيباً عن حياة الرسول (ص) لأنه حتى لو هو وجد شيئاً طيباً فإن لسانه لا يطيعه فى كتابته ، ولو قاله فإنه يتحفظ فى قوله تحفظا بالغا حتى تحيل إليك أنه يخشى الوقوع فى النار .

ويرى الدكتور مؤنس أن الاستعمار وسع نفوذه بالعمل فى مجال الكتب بعد أن كان واسعاً فى مجال السياسة وحدها ، وأن كل معاونة فى مجال الحضارة فى الغرب اليوم للدول النامية فى أفريقيا وآسيا تبدو مشروطة بالمعاونة العلمية بإنشاء المعاهد والمدارس وبذلك تفرض لغتها وثقافتها ، فهو استعمار العلم والتقنية . هذا الاهتمام بطبع كل نص جديد يظهر عن العرب والاسلام ويشير إلى أن معظم البيانات التى تجمع عن العالم العربى والاسلامى « مشتقاة من غير ذوى الاختصاص من أرمن ويونان ممن أقاموا فى البلاد العربية للتجارة » وأشار إلى الارتباط بين دوائر المستشرقين وإدارات المستعمرات فى الدول الأوربية .

وينشر المستشرق الايطالى جريفينى أبحاثا عن الفقه الزندى ويقول أنه يقيد إيطاليا فى احتكاكها باليمن .

ويرى الدكتور مؤنس أن الاستشراق والاستعمار والتبشير أشبه بالحلقات الثلاث المتداخلة التى يتخذها التعاون شارة له دلالة على قوة التماسك .

وهناك مستشرقون متحاملون أمثال لويس استبرنجر وهنرى لا منس ، وقد كتب

ستيفن رونسيمان : كتابا كبيرا عن الحروب الصليبية جعله تاريخا للمسيحية فى الشرق العربى ، ونظر إلى هذه البلاد على أنها بلاداً مسيحية انتزعها الإسلام ، وأن الحروب الصليبية على هذا محاولة من المسيحية لاستعادة ما كان بيدها .

ويحاول المستشرقون إرجاع الفلسفة والعلوم العربية إلى أصولها اليونانية وينكرون فضل العرب والمسلمين . وقد وصف فارس الشدياق أحد ثلاثة اشتغلوا بالعمل مع المستشرقين والمبشرين وهم (ابراهيم اليازجى وبطرس البستانى) يقول أن هؤلاء[١] الأساتيذ لم يأخذوا العلم عن شيوخه ، إنما تطفلوا عليه تطفلا وتوثبوا إليه توثبا ، ومن تخرج منه بشىء فإنما تخرج على القسس ثم أدخل رأسه فى أصفات أحلام وتوهم أنه يعرف شيئا وهو يجهله ، وكل منهم إذا درس فى إحدى لغات الشرق أو ترجم شيئا منها تراه بخبط خبط عشواء ، فما اشتبه عليه منها رقعة ، من عنده بما شاء ، وما كان بين الشبهة واليقين حدس فيه ، ونحن فرجح منه المرجوح وفضل المفضول . ويقول الدكتور عمر فروخ أن الاستشراق على قدرة فى تاريخ البحث العلمى لم يفقد شيئا من حميته مع تقلب الأحداث على العالم ، ذلك لأن الاستشراق بدأ سياسيا فى الأكثر ، وعلميا فى الأقل ، وهو مازال منذ ذلك الزمن يرتدى طابعين : طابعا سياسيا استعماريا وطابعا علميا » . ومن الذين اتصلوا بالمستشرقين طويلا وقاموا باعداد مؤلفاتهم الأب أنستاس مارى الكرملى الذى يرى « أن علم المستشرقين عرضة للنقد والتحقيق ولا بد من أن ينتقدوا الانتقاد الصحيح ، ولقد وجدنا هفوات لا تغتفر لهؤلاء المستشرقين فى جميع الأمم وفى جميع التصانيف وما نشروه من الكتب[٢] .

ويروى صلاح المنجد فى كتابه « المنتقى من دراسات المستشرقين » أن المستشرقون ضروب ثلاثة : (١) ضرب ما لم يملك ناصية اللغة فأخطأ فى نشر الكتب وفى فهم النصوص ولكنه حفل بأمور شكلية لا فائدة لنا منها . (٢) ضرب أثرت فى دراساتهم مآرب السياسة والتعصب للدين فوجهوا الحقائق وفسروها بما يوافق أغراضهم أو ما يسعون إليه ، ومن المؤسف أن يسخر هؤلاء العلم الذى يسمو به الإنسان لإذلال الإنسان أو استعباده

---

(١) ذيل الفارياق ص ٢ .

(٢) المجلد ١٤ ص ٢٣٦ مجلة المجمع العلمى العربى — ١٩٣٦ .

أو الطعن فى تراثه وعقيدته بغير الحق . (٣) فريق أوتى سعة العلم والتمكن من العربية والاخلاص فى البحث والتحرر والانصاف . ويرى نجيب العقيقى فى كتابه « المستشرقون » (٣ مجلدات) أن المستشرقين ثلاث أقسام : (١) طلاب الأساطير والغرائب . (٢) المرتزقة الذين وضعوا أقلامهم فى خدمة مصالح الاستعمار السياسية والاقتصادية . (٣) فئة المتغطرسة الذين أعمتهم الضلالة عن الموضوعية . (٤) فئة تعرضت للاسلام دون أن تقصد الطعن فيه ، وقد درجوا على نقد الكتاب المقدس .

ويصور « فريد وجدى » موقفه من أبحاث المستشرقين بعد دراسته واستيعابه لأغلب آثارهم فيقول : لا بد من الحيطة والحذر فى النظر إلى البحوث الاستشراقية ، ومما لا شك فيه أن بعض الغربيين المشتغلين بالدراسات الإسلامية لم يعن بدراسة مبادىء الاسلام وعلومه ألا ليكون ذلك وسيلة لأن ينقده وطمعا فى استطاعته بهذه الوسيلة أن يرد شيئا من مبادئه . ويرى أن بعض الذين كتبوا بانصاف عن الاسلام ردتهم الكنيسة ، ومن هؤلاء هاذريان ريلاند (١٦٧٦ — ١٨١٨) أستاذ اللغات الشرقية بجامعة أوترشت الهولندية ، فقد عمد إلى تقديم صورة صحيحة لتعاليم الاسلام وإلى تصحيح الأخطاء التى كانت شائعة فى ذلك الوقت عن مبادىء الاسلام فى كتابين ألفهما وهو أول من أعطى صورة علمية صحيحة للتعاليم الإسلامية من علماء الغرب وقامت ضجة كبرى عند ظهور كتابه (محمد ينز) واتهم بممالأته للاسلام ، ووصف بأنه من دعاة الإسلام المبشرين به ، واتخذت الكنيسة ضده الاجراءات وأثبت كتابه فى قائمة الكتب المحرمة ، غير أن الأستاذ ريلاند لم يكن يهدف من دراسة الإسلام الدفاع عنه ، بل مهاجمته ، يريد أن يقدم صورة صحيحة ثم يحاول بعد هذا إيجاد مآخذ وفتح باب للمهاجمة والنقد ، وعنده « أن الواجب علينا أن نبحث الاسلام ونكشف عن خفاياه كما نبحث عن خفايا الشيطان ونكشف عن حيلته » .

وليس شكا بعد هذا العرض ، أن اهتمامات المستشرقين ما كانت لتصل إلى هذا الحد من الاضطراب لو كانت خالصة لوجه العلم ، ولو كانت كذلك لكان لها أن تسلك الطريق الطبيعى ، وأن لا تكون منحرفة فى اهتماماتها بالجوانب الضعيفة والتركيز عليها تاركة وراءها جوانب ضخمة خصبة من القوة والإيجابية ، وما كان هذا الاهتمام إلا اعتبارها الجوانب التى يمكن أن تثار من ناحيتها الشبهات .

مؤتمرات المستشرقين

وفى مؤتمرات المستشرقين ظهرت بجلاء أهداف الاستشراق وانكشفت مخططاته التى توجب الحذر والنظر إلى أعمال المستشرقين فى ضوء خدمة النفوذ الأجنبى والاستعمار ومقاومة كل ما يحول دون بقائه فى العالم الاسلامى وهو الفكر العربى الاسلامى بقيمه ومقوماته .

وقد بدأ عقد مؤتمرات المستشرقين (سبتمبر ١٨٧٣) بمدينة باريس ، لندن ١٨٧٤ سان بطربرج ١٨٧٦ ، إيطاليا ١٧٨٧ ، هولنده ١٨٨٣ ، فينا ١٨٨٦ استوكهلم ١٨٨٩ لندن ١٨٩٢ جنيف ١٨٩٤ باريس ١٨٩٧ روما ١٨٩٩ هامبورج ... الجزائر ١٩٠٥ هامبورج ١٩٠٩ أثينا ١٩١٢ أكسفورد ١٩٣٣ .

وقد شارك فى هذه المؤتمرات كثيرون من العالم العربى ومصر منهم محمود الفلكى ويعقوب أرتين ، وحمزة فتح الله ومحمود رشاد وحفنى ناصف وعبد الله فكرى وأمين فكرى ومحمود عمر الباجورى وأحمد زكى باشا وأحمد شوقى وعمر لطفى ومحمد فريد وسعد زغلول واسماعيل رأفت وعلى بهجت ومحمد شريف سليم وحسن عاصم ، وحامد والى ومحمد سلطان وعبد العزيز جاويش وحسين والى ومحمد سالم وعثمان غالب وأحمد السكندرى ومحمد أحمد جاد المولى وطه حسين وأمين الخولى وغيرهم . .

وفى المؤتمرات الأولى استطاع بعض ذوى الرأى أن يدلوا بآرائهم عن اللغة العربية ، وأبحاث حفنى ناصف عن(مميزات لغات قبائل العرب) وعبد الله فكرى وأحمد السكندرى عن اللغات العربية ومقارنتها باللهجات العامية وحمزة فتح الله عن حقوق المرأة فى الإسلام .

وكان أمثال أحمد زكى باشا وعبد العزيز جاويش وأحمد السكندرى ومحمد أحمد جاد المولى موضع تقدير المستشرقين ، لاصالتهم وقدرتهم على مواجهة انحرافاتهم والرد عليها . غير أن بعض من جاء بعد ذلك لم يكن له من القدرة والقوة ما يمكنه من معارضة آراء المستشرقين ، ثم جاء جيل بعد ذلك من أصحاب الولاء للفكر العربى والاستشراق تابع المستشرقين فى خطواتهم بل وأخذ منهم واعتمد عليهم واتخذ كتاباتهم مصادر أساسية بالرغم مما تحمله من الخطأ والخلط والاضطراب .

وقد صور أهداف هذه المؤتمرات وزير معارف هولندا فى مؤتمر المستشرقين بها عام ١٨٨٣ فقال ما نصه « أن هولندا لم تقصد التبسط بأطراف آسيا للتجارة والمكاسب المادية فقط بل قصدت نشر الدين المسيحى » وقال إن اهتمامهم بالأبحاث الشرقية بدأ عندما استعمروا جزر جاوه رغبة إلى معرفة نفسية تلك الشعوب ولغاتها وآدابها . ويبدو هذا المعنى واضحا مثلا فى موضوعات مؤتمر المستشرقين فى مراكش (٣١ مايو ١٩٢٨) الذى اشتركت فرنسا وأسبانيا فيه وعقد فى رياض الفتح فقد كان موضوعه دراسة تاريخ المغرب القديم والحديث ، وما يتعلق به من البحث فى دوله وآثارهم وأنواع السكان وأصولهم ولغاتهم ، وقد تناول البحث اللغه العربية واللغة البربرية فى المغرب ، وقد ضع برنامج المؤتمر م . بروفنسال مدير معهد الدروس العليا المغربية بالرباط ولم يحضره عربى واحد ، ومن عصارة أبحاث هذه المؤتمرات خرجت كل النظريات الداعية إلى تمزيق وحدة العنصرين : الممتزجين: العرب والبربر ، وإلى ما أذيع من أن الارتباط بين بالرومان أسبق وأقوى من صلتهم بالعرب والمسلمين وأن على المغاربة أن يعودوا إلى أصولهم الأولى .

وفى مؤتمر المستشرقين بالجزائر عام ١٩٠٥ أثار مستر فولار أوفولرس الألمانى أثار دعوى الاهتمام باللغة العامية وتقديمها على اللغة الفصحى ، وقال إنه لا يرى أن لغة القرآن هى أفصح لغات العرب أو اللغة العربية المحضه ، وقال إذا أردنا أن نطلب اللغة الأنصع فصاحة والأصح أصلا وجب أن نرجع بالبحث إلى العصور التى سبقت ظهور الإسلام .

وهاجم مستر (فولار) القرآن الكريم وقال أن مديح على طراز خاص من النثر وقد تصدى له عبد العزيز جاويش فكشف عن أخطاء المستشرق المتعصب ، وقال أن هذا المستشرق وأمثاله ليسوا من القدرة والفهم للغة العربية بحيث يمكنهم الحكم على الفصيح والأفصح ، فإن صحة الحكم فى اللغة تستوجب وجود اللغة راسخة فى الحس عريقة فى النفس وهو مالا يؤتى بالكسب إلا بعد قضاء السنين الطويلة فى مزاولة الدرس[1] كما تكلم فى هذا المؤتمر أحد الفرنسيين فطعن فى عادات العرب ونسبها إلى تعاليم الإسلام وتصدى لى شاب جزائرى وطلب منه أن يقدم على ما يقول برهانا من القرآن والسنة فعجز .

---

(١) الظاهر ٦ مايو ١٩٠٥ واللواء ١٨ مايو ١٩٠٥ . وانظر تفاصيل هذا المؤتمر فى كتابنا « الفكر العربى المعاصر فى معركة التغريب واللغة والثقافة » : فصل الاستشراق .

أن هدف حركة التغريب أساساً هو تثبيت قواعد النفوذ الأجنبى والاستعمار وهى الحركة الكبرى الأساسية التى كانت دعوة التبشير وعمل الاستشراق وحركة الشعوبية وسائل لها . وليس تغيير الدين فى نظرى هو وحدة هدف التبشير ، ولكن الهدف الأساسى هو فرض ثقافة معينة وفكر معين على الفكر العربى الإسلامى حتى يخضع العالم الإسلامى عن طريق الفكر للغرب ويكون تابعا لايحس بتبعيته بل يحس بمشاركته ، ولا تكون العلاقة بين التابع والمتبوع إلا علاقة ولاء وترابط وليست علاقة صراع وخصومه . فقد كان الغرب يؤمن ولا تزال بأن فكره ومدنيته وحضارته يجب أن تسود العالم كله وأن تختفى كل مقومات فكر الأمم التابعة له أو تنصهر فى ثقافته وهذا ما اطلق عليه حركة « تغريب الشرق » وبذلك يخضع العالم كله للفكر والحضارة العربية ، ولما كان هذا مستحيلا أساساً وتبدو استحالته فى الفوارق الجذرية بين الفكر العربى الإسلامى والفكر العربى لاختلافهما فى الأسس والقواعد والقيم الأساسية ، فمن هنا جاء الصراع ومن هنا أخذت حركة التغريب تشهر سلاحا بعد سلاح لتحقق هذا الهدف فكان التبشير والاستشراق . وكان استغلال حملة كتاب الغرب على الشرق ثم كانت الشعوبية ممثلة فى حركات ذات صبغة فكرية أو دينيه ، ومن ورائها مجموعة من الكتاب الدين يحملون اسماء عربية من أصحاب التبعية للفكر الغربى والولاء لثقافته والإيمان بوجوب نقل ثقافته وحضارته ككل وأنه لا انفصال بين الثقافة والحضارة .

ويمكن القول أن حملة التغريب إنقسمت إلى ثلاث حملات :

المرحلة الأولى : التبشير وقد كانت كتابات المتغريب فى هذه المرحلة عنيفة ومتعصبة جامحة وكان يتبعها عمل مباشر عن طريق المدرسة والمستشفى .

فى المرحلة الثانية : أنتهى التبشير فى المدن وأحل التغريب محله كتابات الاستشراق، وفى هذه المرحلة خفت والحده واختفى الجوح . كان الهدف الطبيعى هو القضاء على التحدى وإرخاء المفصل ، وأسباغ طابع من التخدير حتى يمكن أن تتحقق عملية التغريب فى يسر ، وذلك بالتحويل للمناهج فى مجال التربية والتعليم ، وإثارة الشكوك الخفية وإثارة الخلافات التى تحول دون الوحدة ، وتلجأ إلى التفرقة والخلاف والقضاء على كل ما من شأنه أن يدعو إلى التجمع ونسيان الخلافات ومواجهة الحملة التغريبية .

وليس ما جاء فى المرحلة التالية من إنصاف وليونة فى العبارة إلا وسيلة لتنفيذ خطة أشد قسوة وأعمق تأثيراً وليس تغييراً فى مفاهيم التعريب وليس تخففا من تعصبه ، وليس تقربا فى سبيل الالتقاء على مفاهيم الفكر العربى الإسلامى ، وقبولا لوجهات نظره فى القيم والقضايا الكبرى .

وتمثل المرحلة الثالثة : « حملة الغرب على الشرق » وفى هذه الحالة ظهر كتاب ليسوا مستشرقين وليسوا من اتباع الإرساليات أو زعماء الاستعمار وإنما هم كتاب غربيون فيهم صلف التعصب للجنس الأبيض وغرور الإحساس بالتفوق . فكان تناولهم لقضايا الفكر والتاريخ فى العالم الاسلامى تناولا صادراً عن هذه الروح ، بالغ التعصب للاستعمار وأوربا والغرب ، حاملا أشد الحملة على الشرق والاسلام والعرب باعتبارها تمثل التخلف والجهل والضعف . وقد استغل التغريب هذه الحملات واستخدامها فى سبيل سحق روح إيمان العالم الاسلامى والأمة العربية بنفسها وحرص على نشر هذه الأثار فى صحف العالم العربى ، وفى خلال مرحلة مابين الحربين نشرت الصحف عشرات من هذه الفصول وحرصت على إبرازها واستطاعت بعض الصحف غير الموالية للاستعمار أن ترد عليها .

وفى هذا المجال أيضاً ظهرت كتب متعصبة منحرفة ، وفتح لها الطريق إلى الجامعات ، وقد تعالت صيحات فى جامعة القاهرة وفى معاهد القدس وبيروت وسوريا أكثر مرة عن مؤلفات تتناول العرب والاسلام والقرآن واللغة العربية بالتحقير وإثارة الشبهات ، تدرس فى المدارس والجامعات وتفرض على الطلاب . وقد حمل لواء هذه الحملة رجال السياسة والاستعمار أمثال رون داركور وهانوتو ، وكرومر ، وجلوب ولورنس ، ونلوب وليولى

وويلكوس ، أما دوق داركور فهو فى مقدمة الذين إفتعلوا الضجيج بالحملة على المصريين والاسلام والمسلمين فى كتاب ألفه عام ١٨٩٣ بعنوان Egypte et les Egyptien وقد أثار ما جاء فى هذا الكتاب من حملة مغرضة حماس قاسم أمين فرد عليه بكتاب باللغة الفرنسية ١٨٩٤ كما تصدى للرد عليه طلعت حرب باللغة الفرنسية أيضاً . وقد أشار داركور فى كتابه إلى أن السرفى تأخر الفكر فى مصر كما يراه هو ؛ مرده إلى الاسلام ، فالاسلام هو السبب الأساسى فى هذا التأخر الذى لحظه فى كل بلد إسلامى ، فالاسلام فى رأيه لا يحض على البحث فى العلوم غير الدينية ، ولذلك احتقر المسلمون علوم الغرب واعتقدوا أن القرآن قد حوى بين دفتيه علوم الأولين والآخرين وكل ماعداه باطل ، وأنكر على العرب أن كانت لهم مدنية خاصة . وقد تناول قاسم آرائه بالتفنيد ودحض هذه المفتريات جميعا ، ثم ظهر مقال هانوتو عام ١٩٠٠ فى جريدة الأهرام فى الطعن على الاسلام والمسلمين ، وقد دعا قومه إلى قتال المسلمين والقضاء عليهم ، وهاجم التوحيد ، وردد قول كيمون الذى دعا إلى نسف الكعبة ونقل (النبى محمد) إلى متحف اللوفر . وقال أن على أوربا المستعمرة فى الشرق تلقيح أفكار المسلمين بجانب من الأخلاق الأوربية وقطع الصلة بينهم وبين بعضهم وبين كعبة الاسلام .

وقد تصدى للرد على هانانو الشيخ محمد عبده وعلى يوسف وفريد وجدى . وفى كتاب الفتوحات العربية الكبرى لجلوب حملات على تاريخ العرب والاسلام ومغالطات لا حد لها ، قد حمل « جلوب » على المؤرخين العرب فى كتاباتهم التاريخية وأتهمهم بسوء التقدير ، ولا شك قصد جلوب إلى رسم صورة فيها تشكيك وتضليل ، وانشأ صورة زائفة عن النبى وقادة الاسلام وقد حرص « خيرى حماد » مترجم كتابه إلى اللغة العربية أن يرد على كل أخطائه فى مكانها وكذلك كانت حملة كرومر ودنلوب ولورنس وويلكوكس وليوتى تحمل هدفا محدداً :

(١) القضاء على اللغة العربية والقرآن . (٢) التشكيك فى الاسلام . (٣) اتهام العرب والمسلمين بالقصور واتهام فكرهم بالضعف . (٤) إثارة الشبهات حول التاريخ واللغة والدين والتراث جميعا .

وهناك كتّاب حملة التعصب أمثال رينان وفولتير ولويس برتران ومنتسيكو . وهم

ليسوا من رجال السياسة والاستعمار ولكنهم كتاب غربيون متعصبون للغرب ، علاهم إحساس باستعلاء الجنس واللون ، وأحدهم « رينان » يؤمن بنظرية السامية والآرية ، وهو من أكبر دعاة استعلاء الآرية والأوربيين وهو صاحب الحملة على الأديان والاسلام بالذات وعلى العرب وعقليتهم . أما فولتير فهو أحد أحرار الفكر فى رأى العصر كله ، ولكن كتابه عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم قد كشف عن تعصبه ، فقد أسمى مسرحيته « التعصب أو النبي محمد » وكل حوادث المسرحية من صنع مخيلته وبها كثير من الأخطاء التاريخية ، ومن هذه الأخطاء اعتباره الزبير زعيما لسادة قريش الناهضين لدعوة محمد عليه السلام . وقد وجه هذه القصة إلى البابا بنو الرابع عشر ، مصوراً أنه قد كتبها عن « عقيدة بربرية زائفة » وكان ذلك عام ١٧٤٢ ووصف النبي بأنه مؤسس ديانة كاذبة . وقد كشف هذا العمل عن أن فولتير لم يكن إلا واحداً من أولئك الطامعين فى صولة أصحاب النفوذ ، وأن عمله لا يمت إلى الفكر الحر بصلة ، إلا إذا كان الفكر الحر فى نظر الغرب هو هذه الحملات التى تحمل صورة التعصب . وقد وصف عمله هذا بأنه تمسح بأبواب الملوك وأصحاب الجاه ؛ وأنه قدم ثمنا لذلك أفكاره الحرة .

من هؤلاء الكتاب لويس برتران صاحب كتاب إمام الإسلام أو بإزاء الإسلام . وقد وصف الدكتور هيكل هذا الكتاب (١) بأنه أشد ماظهر فى السنين الآخرة صراحة فى عدوانه على المصريين والمسلمين وأشدها إمعانا فى الطعن عليهم والنيل منهم ، وهو فوق ذلك صيحة لإعلان الحرب بين الشرق والغرب والنصرانية والإسلام . والكتاب لا تشتمل على شيء جديد غير هذه النزعة الرجعية التى أدت إلى الحروب الصليبية فى القرون الوسطى ، وأشار الدكتور هيكل إلى هدف برتران فقال : إذا كان يريد أن يعتقد أن قومه أكرم عنصراً وأشرف مقاما فى الإنسانية من الشرقيين ومن المسلمين ، فليعلم أن الزمن الذى أتاح لأوربا أن تحكم العالم ردحا من الزمن قد أتاح ذلك من قبل لأمم آسيا ولأمم أفريقيا ومصر التى نالها المؤلف بحقده وكراهيته فقد حكمت العالم عصوراً عديدة وقد صبغت العالم بمدنيتها ، ولعل أهلها يومئذ كانوا يعتقدون أن الأجناس التى تقطن أوربا كلها

---

(١) ٢٠ مارس ١٩٢٦ السياسة الأسبوعية .

همج وبرابرة متوحشون . والكتاب فى مجموعه صيحة استعلاء فيها اتهام للشرقيين والمسلمين بالتأخر والتعصب وبأنه لاقابلية عندهم للتمدن . وفيه إشارة إلى أن أوربا تحمل أمانة تمدين العالم .

وقد حشدت الصحف والمجلات فيما بين الحربين صفحات كثيرة للرد على الكتب المشبوهة التى صدرت فى الغرب عن الإسلام والمسلمين والعرب والمصريين وكلها تحمل طابع الحقد والاحتقار والتعصب والاستعلاء . وقد أشار (م ر . ح . كويت) فى كتاب الإسلام والدول البريطانية إلى أن طابع الاستعلاء هذا يصدر عن أساس تربوى قديم يقول : إن الكثيرين منا شبوا على كراهية الإسلام والمسلمين وارتضعوا ذلك مع لبان أمهاتهم ، هذا فضلا عن أن مالدينا من المعلومات عن الدين الإسلامى تزيد فى بعدنا عن معرفة حقيقته خصوصا لعدم إمكاننا الوقوف على أصوله من اللغة العربية[١] .

وقد وجهت الصحف الفرنسية والبريطانية طعونا لا حد لها للفكر العربى الإسلامى وللمسلمين والعرب والمصريين ، ولقد أشار شكيب أرسلان إلى أن إحدى دور السينما فى شامبرى بفرنسا عرضت فلما يمثل المسلمين فى هيئة رثه رزيه قذرة متوحشة تشمئز لمنظرها النفوس ، ثم كتبت تحت هذه المناظر عبارات تلقى فى أذهان النظارة أن دين الإسلام هو السبب فى جذب هذه الأمم إلى الوراء وتعاليمه هى التى قذفت بهم فى أحضان الهمجية[٢] . وقد صدرت عشرات الكتب ضد الإسلام والعرب فى مختلف فروع الكتابة ، سواء فى مجال التاريخ أو اللغة أو القومية أو الوطنية أو السياسة أو الاجتماع تحمل جميعها عوامل التشكيك وإثارة الشبهات ، وما تزال تصدر ، فإذا كان هناك تغير أو اختلاف بين مرحلة الثلاثينيات ومرحلة الخمسينات فإنما هو تغير فى الواجهة والأسلوب دون تغير فى الهدف أو الغاية ، فقد خفت قليلا لهجة العنف والهجاء ولكنها تحولت إلى طابع من الدس والحقد الخفى ، وغلب طابع الاستشراق على طابع التبشير ، ولا شك أن هذا الطابع الجديد أشد خطرا ، ويمكن القول بأن هذه الحملة الضارية المستمرة تتخذ سبل الصحافة والتأليف والسينما ، وقد كان لجريدة التيمس دوراً ضخما فى هذه الحملة

---

(١) مجلة المجلات العربية (أكتوبر ١٩٠٣) .
(٢) الصحف مارس ١٩٣٨ .

طوال أكثر من سبعين عاما بحكم الروابط بين الاستعمار البريطانى والعالم الإسلامى - وقد عاش كثير من الكتاب حياتهم الفكرية فى مراجعة هذه الكتابات والرد عليها أولا بأول ، من هؤلاء : الأمير شكيب أرسلان الذى عرض لعشرات من هذه الكتب وكشف ستار الهدف التى تخفيه . والدكتور زكى على الطبيب المصرى الذى أقام فى سويسرا منذ ثلاثين عاماً وقد كتب مئات المقالات فى صحف أوربا ومصر وتركيا والهند فى تصحيح هذه المفاهيم ، وكذلك فى كتابه الضخم الرائع « الإسلام فى العالم » وعجاج نويهض الذى قدم فى مجلتى المنار والفتح عدداً من الكتب الصادرة فى هذا المجال وأشار إلى هذا المعنى مستر جب وصوره نبيه أمين فارس فى عبارة واضحة : « أن الجزء الأكبر من مؤلفات الغربيين عن الإسلام قد صدر عن أولئك الذين يتحكم فى تفكيرهم الاعتقاد بأن الإسلام دين غير راق » .

ويمكن أن تقسم هذه الكتابات إلى مراحل ثلاث أصدرتها طوائف ثلاث :

كتب أصدرها المبشرون وهذه واضحة العنف فى مهاجمة الإسلام والثقافة العربية وهى فى الأغلب لا تحمل أسماء مؤلفيها ، وكتب أصدرها المستشرقون وهو لا تحمل كل الحقيقة ، ولا تبلغ مبلغ التعصب ، ولكنها تؤثر الدس الخفى وتفضل تطعيم كتاباتها بالسموم القليلة المتصلة ، أما القسم الثالث فهو كتابات غير المتخصصين من الأدباء أو السائحين أو كتاب الرحلات والتاريخ والأب وهذه مؤلفات سريعة عاجلة ولكنها مطبوعة بطابع الاحتقار للشرق والاسلام والعرب .

ومن هذه الحصيلة كلها تستطيع حركة التغريب القوية المندفعة بكل قوتها إلى العمل أن تجد المادة الخصبة لحملاتها المتفرقة والمجزأة ، والمنثورة فى صحف الغرب والصحف العربية وعن طريق أقلام كتاب يكتبون بالعربية ، وفى مقدمة هذه الأعمال التى جمعت كل الاتهامات والشبهات (دائرة المعارف الاسلامية) التى يشرف عليها كتاب متعصبون غير منصفون .

مقاومة التغريب

لم يقف الفكر العربى الاسلامى موقف التسليم أمام حملة التغريب فى مراحلها الثلاث : كتابات المبشرين والمستشرقين وكتاب الغرب المتعصبين ، ولكنه واجهها فى قوة وحمل لوائها : جمال الدين الأفغانى (الرد على الدهريين) محمد عبده (الرد على هانوتو) قاسم أمين (الرد على دوق داركور) فريد[1] وجدى (فى رده على كرومر وهانوتو وعشرات من كتاب الغرب خلال عشرين عاما فى مجلة الأزهر) ، مصطفى الغلايينى (الرد على كرومر) كرد على (الرد على المستشرقين) وحمل عبد العزيز جاويش على المستشرقين فى مؤتمرهم سنة ١٩٠٥ راداً على شبهاتهم . ولم يقف الأمر عند تأليف الكتب فقد حفلت الصحف المصرية العربية بردود ومعارضات على شبهات الكتاب والمستشرقين ، وقد كتب فى المؤيد الدكتور حسين همت فى ديسمبر ١٩١٠ كاشفا عن حركة المبشرين فى مواجهة الاسلام ، وصور تجربته وكيف واجه هذه الحملة وقد ربى فى مدرسة أجنبية مسيحية ، كما صور هذه التجربة كثيرون ، كما تناولت الصحف الرد على الحملات التى وجهت إلى اللغة العربية والقرآن ، وشارك فيها على يوسف والدكتور شبلى شميل . وبعد الحرب العالمية الأولى برز كتاب جدد أمثال الدكتور حسين الهراوى ، والدكتور هيكل والدكتور محمد كامل عياد والدكتور محمد البهى والدكتور محمد محمد حسين ، وظهر كتاب غربيون منصفون كشفوا خطط حملة التغريب أمثال : اتيان دينيه وليوبولد فايس . ولا شك أن هذه الكتابات وثائق لها أهميتها فى رسم صورة شاملة لمعركة التغريب وموقف الفكر العربى منها ، موقف المقاومة والدفاع ورد الفعل وفيها يتمثل طابع المعركة .

١ — من كتابات الدكتور حسين الهراوى

لما اشتدت وطأة المبشرين فى الأغواء والإيحاء وغزوة عقل المسلمين بمختلف الطرق ، عكفنا على دراسة شىء غير قليل من طرقهم ومؤلفاتهم وخرجنا بنتيجة رسخت فى عقيدتنا رسوخا قويا هى أن المستشرقين هم طلائع المبشرين ، وانهم هم الذين يمهدون السبيل لتشكيك المسلمين فى عقائدهم وانهم يمهدون طريق الطعن فى الإسلام وفى نبيه الكريم .

---

(١) اقرأ « فريد وجدى » لانور الجندى فى سلسلة أعلام العرب .

فإذا قلبت أى كتاب اجتماعى أو عمرانى باللغة الأجنبية يتكلم عن مصر أو الشرق أو الإسلام وجدت أشياء كثيرة لا يقرها عقل ولا يستسيغها منطق وليست فى الحقيقة من شىء ، ويلفت نظرك بصفة خاصة ما يوصف به الدين الاسلامى من الصفات التى لاتنبو فقط عن الذوق السليم والحقيقة ، بل إن الكتاب الأوربيون يصورون الإسلام بصورة بشعة غريبة لا تكاد تقرأها حتى يقشعر بدنك من هول ما تقرأ .

كنت أطالع هذه الكتب التاريخية وأجد فرقا كبيرا عندما تكتب عن التاريخ القديم ووصف مصر القديمة وأثارها وسوريا وتاريخها والعراق وماضيها ، ولكنها إذا تكلمت عن التاريخ الإسلامى أو حياة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أجد تحريفا ظاهراً وكذبا واضحا وتشنيعا كثيرا ، فالنبى العربى يوصف بأنه مؤسس دين حربى لا صلة بينه وبين الفضيلة وأن عبارة ابن عبد الله تطلق على الوالد المجهول كما يفعل مرجليوث ، وفى دائرة المعارف الإسلامية طعنا جارحا على النبى ، وفى تقرير لجنة العمل المغربى الذى أعده المستشرقون الفرنسيون تنكشف التقارير السرية التى يرسلها المستشرقون يطالبون فيها حكوماتهم بمقاومة الإسلام لأنه روحه تتنافى مع الاستعمار ، مع المطالبة بالتقليل من أهمية اللغة العربية وصرف الناس عنها بإحياء اللهجات المحلية فى شمال أفريقيا واللغات العامية حتى لا يفهم المسلمون قرآنهم ويمكن التغلب على عواطفهم . وفى زيارتى لأوربا علمت أن الأوربيين يربون على كراهية الاسلام واحتقار الشعوب الاسلامية ، أما المستشرقون فيربون تربية استعمارية ليعملوا فى المستعمرات على أسلوب يحذرهم من العطف على الشرق أو الميل إلى الإسلام .

وهم فى التاريخ يتكلمون بروح المؤرخ ، أما عن سيدنا محمد وعن الاسلام والقرآن فهم يتكلمون بروح المنفر الذى يخيف الناس من الاسلام ، وبروح المتحامل الذى تكيل الشتائم من غير وزن ، وتنقصهم فى مباحثهم عن الاسلام : الروح العلمية ، لهم فى الاستقصاء طريقة لا تشرف العلم ، وهى أنهم يفرضون فرضاً ثم يلتمسون أسبابه ، فإذا وجدوا فى القرآن آيات تتناسب فى معانيها مع فرضهم اقتبسوها ، وإذا وجدوا آيات لا تتناسب مع أغراضهم تجاهلوها ، وقالوا أنها غير موجودة فى القرآن ، فإذا وجدوا فى القرآن ما يهدم نظريتهم تجاهلوه ، والتمسوا الآيات التى تتناسب والمعنى المراد ، ولا مانع من بترها إذا

اقتضى الحال أو تحريف معناها حسب الرغبة ؛ والغرض هو تزويد جماعة المبشرين والمستعمرين بحجج شبه منطقية يزعزعون بها عقائد المسلمين وهى إحدى الطرق التى وضعها الاستعمار من زمن بعيد .

(٢) وقد قدر لى أن أبحث بعض مواضع تاريخية أو اجتماعية أو دينية فكنت أعثر فجأة على آراء المستشرقين فى الشرق والاسلام فتعتريني هزة الألم ، أما لخطأ فاضح أو عدم فهم أو تعصب ، فالمستشرقون كلهم ممن يكونون أساتذة اللغات الشرقية من الأوربيين . كما أنهم يؤلفون كتبا لرواد الشرق من الأوربيين ومهنة كهذه لها الصبغة الاستعمارية فى أوضح شكل وأنصع مظهر لجديرة بأن تنيقظ لما ألف فيها وما كتب ، ولذلك لا نخطىء أن نستنتج أن الغاية من وراء هذا العلم هو المادة والاستعمار وتقبيح الشرق وعاداته ومظاهره . لهذا فهمت لماذا تطعن الكتب الاجتماعية الأوربية التى تبحث فى مسائل الزواج وتعدد الزوجات فى الدين الاسلامى طعنا جارحا عن حد القول . فمثلا فى كتاب (مارشال) من الزواج يقول : أن الحجاب منتشر فى مصر إلى درجة أن الأم لا يسمح لها أن ترى وجه ابنتها إلا بعد سن الرابعة عشر : أن أشهر المستشرقين واسمه « مرجليوث » كان فى مصر منذ بضع سنين ، هذا الرجل له مؤلفات كثيرة عن الاسلام ، كلها طعن جارح ، وفكر خاطىء وتعصب ممقوت ، فهو يتشكك فى النبى نسبا ، أبا وأما ، ثم يتشكك فى كل ناحية من نواحى الدين ، أما بالطعن الجارح أو الغمز أو اللمز .

فهذه الأمثلة عن جماعة المستشرقين فى تأليفهم ، ولما كان الشرق يرزح كثيرا تحت نير الاستعمار ، وكانت التربية الاستعمارية تتجه بالفكر الشرقى إلى أن يكون عبداً للفكر الغربى ، فترى فئة المتعلمين منا ينظرون إلى الغرب نظرة الاكبار والاعظام مستسلمين لآرائه استسلاما من غير قيد أو شرط ، ونشأ عن ذلك أن نفوسهم تشربت التشكيك فى أوطانهم وعقائدهم وأخلاقهم ، فأخذنا نرى طغيانا هائلا جارفا من الأفكار الغربية إستأثر بالفكر الشرقى والروح الشرقى ، والعائلة والوطنية الشرقية .

أما أثر إستعباد الفكر الشرقى فنجده واضحاً فى المباحث الاجتماعية الشرقية فنرى مثلا من يبحثون فى الأدب الشرقى يستشهدون بمستشرق ، وهذا المستشرق ليس له فضل

غير البحث فى الكتب العربية مثل التى فى متناول أيدينا ، فلماذا لا نرجع إلى المنهل الذى ورد منه ونستنتج منه بقدر استطاعتنا ، أما فى الاجتماعيات الشرقية فقد طغى علينا الكثير من فتنة الغرب فنرى قصصنا الاجتماعية وفن الروايات عندنا مترجما عن اللغات الأجنبية ، لا يخرج عن موضوع خيانة الأزواج وحب العذارى والزنا وما إليه من مغريات القراءة فى الشباب مما يؤثر فى اخلاقنا وقوميتنا ، هذه كلها أثر من آثار الاستعباد الفكرى الذى أدخله الغرب إلى الشرق أما فى الغرب فلا زالت النظرة إلينا هى تلك النظرة التى يصورها المستشرقون .

كل ما ذكرنا هو الموجة الهائلة التى اكتسح الغرب بها أفكار الشرقيين ولذلك وجب أن تصادمها موجة أخرى من الشرق ، هذه الموجة الأخرى هى الأنانية القومية فى الأدب والاجتماع والصناعة والاعتزاز بالنفس وتحرير الفكر الشرقى من إثر هذا التخدير الطويل الأمد ، فإننا نزعم أن الفكر الشرقى لا يقل عن الغربى ولكن ينقصه تلك الأنانية القومية فى الأخلاق والعادات والآداب .

والذى نراه أن أدبنا الحى لا ينهض إلا باستقلال الفكر والانسانية والوطنية ، فليس العلم احتكاراً . وإن خطأنا الفاضح أننا نعتمد على الغرب حتى فيما يخصنا من التاريخ القومى وما يخص بلادنا من أدب واجتماع فنستمد تاريخنا من الكتب الأفرنجية بينما كتب المرحوم أحمد كمال باشا الخطية مازالت رهينة المكاتب والدواليب ، ولذلك كانت الأغلاط التاريخية فاشية فى كتبنا مما ستره عنا الإفرنج .

(٣) إن رأينا فى المستشرقين أنهم ما تخصصوا فى العلوم الإسلامية والمباحث اللغوية العربية إلا لغزوة العقل الشرقى واخضاعه واستعباده للعقل الأوربى ، حتى رأينا أن نهضتنا الأدبية والاجتماعية لا تتجه إلى غرض منتج ، وعندى أن الاستشراق مهنة وحرفة كالطب والهندسة والمحاماة وهو أقرب إلى مهنة التبشير . ولا يخفى أن التاريخ الإسلامى ينقسم إلى قسمين : الأول منه هو « الاسلام » من حيث هو دين وعناصره القرآن والحديث وحياة محمد صلى الله عليه وسلم وهذا ما يتصدى له المستشرقون ، وترى كلامهم (عنه) مملوءاً بالتشكيك والاستنتاج الخاطىء والغمز واللمز ، إنهم يكيلون التهم جزافا ويرمون

الإسلام بما شاءت عقائدهم الخاصة . كيف نقوى أنفسنا أمام المستشرقين الذى يدخلون الشك فى عقائدنا ويصورونا فى كتبهم على غير حقيقتنا . لذلك نرى لزاما علينا إذن أن نعرض لآراء المستشرقين وأن نقف أمامهم موقف الند للند ، فأن مصادرنا ومصادرهم واحدة ، وليس لهم من ميزة غير التهذيب والتحليل وكثير منه خاطىء ومبنى على التشكيك والنزعة التى يراد بها إستعباد العقل الشرقى ليحتقر الشرقى نفسه . إنهم يستعمرون العقول ويحتلون الأذهان ويشككون فى العقائد . قال مرجليوث فى كتابه تاريخ العالم (فصل ٨٩ ص ٢٣٦٤) عن نسب النبى « وأنه ابن عبد الله » مايأتى :

«إننا نشك فيما إذ أننا نعرف شيئا عن والد النبى لأن لفظة عبد الله تطلق عن الشخص المجهول وربما كان لها فى هذا المعنى عن اطلاقها على والد النبى . وقال ص (٢٣٩٨) أن إعجاز أسلوب القرآن يفسر إما بأنه لا يمكن تقليده أو الإخبار بأمور يمكن التحقيق منها ولم يكن للنبى وسيلة لمعرفتها وأننا نعلم من القرآن أن كلا من هذين الإدعائين عندما أذيع لم يسلم من النقد ، أن ذوق الأسلوب الأدبى يختلف كباقى الأذواق » . وعندنا : أن هذا القول معناه أن مرجليوث لا يعرف شيئا عن الأدب العربى ، وألا لعلم أنه كان فى العرب نسابون ولو أنه تكلم عنهم وعن مصادر الشك فى أقوالهم وتنسيبهم لكان لنا أن نناقشه بالأدلة العلمية ، وإذا كان مرجليوت قد حصر إعجاز القرآن فى الأسلوب والاخبار بالغيب فقد فاته ضروب من الإعجاز فى القرآن كثيرة ومنوعة .

أما « فنسنك » فإن آراءه مليئة بالطعن عن النبى : فإنه يقول أنه لا يعرف شيئا عن شعور محمد نحو الكعبة فى شبابه وبعد الرسالة إلى أن هاجر بعام ونصف وأن مالدينا من تاريخ حياته لا يصح أن يؤخذ اساساً تاريخيا ويحاول فنسنك أن نقول أن محمداً كان وثنيا قبل البعثة .

---

(١) (الهلال يناير ١٩٣٤ ، المعرفة يونيو ١٩٣٢ ، الأهرام أكتوبر ونوفمبر ١٩٣٣) ؟

٢ – من كتابات الدكتور هيكل

من الأدلة على تأثر بعض المستشرقين بحرصهم على هدم المقررات الدينية وإسرافهم في ذلك ، أن مباحث هؤلاء المستشرقين تدل على أن القرآن ليس وثيقة تاريخية لا محل لريبة فيها وأنه حرّف بعد وفاة النبي وفي صدر الإسلام وأضيفت إليه أثناء ذلك آيات لأغراض دينية وسياسية . ويذهب بعضهم إلى أن القرآن كتاب وضعه محمد . ومن المستشرقين طائفة تزعم بالفعل في أمر القرآن ما نقل عنهم ، ولكن زعمهم هذا يدل على أنهم إنما تدفعهم إليه أغراض يبرأ منها العلم ولا تخفى على أحد .

وحسبك دليلا على ذلك قولهم : أن عبارة « ومبشرا برسول من بعده اسمه أحمد » التي وردت في الآية السادسة من سورة الصف ، إنما أضيفت بعد وفاة النبي لالتماس الدليل على نبوة محمد ورسالته من الكتب المقدسة السابقة للقرآن ، فلو أن الذين قالوا هذا القول من المستشرقين كانوا يخلصون للعلم حقا ، لما لجئوا إلى مثل هذا التدليل القائم عندهم على أن التوراة والإنجيل كتابان مقدسان بالفعل ، فلو أنهم كانوا يريدون العلم للعلم لسووا بين القرآن والكتب المقدسة التي سبقته ، فإما اعتبروه مقدسا مثلها ، فذكره الكتب المقدسة التي عرفها الناس قبله طبيعي لا محل لرفضه ، وإما اعتبروا هذه الكتب كما اعتبروا القرآن ، وقالوا في شأنها ما قالوه في شأنه ، وقرروا أن أصحابها وضعوها لأغراض دينية أو سياسية خاصة ، ولو أنهم قالوا مثل هذا القول لقضى المنطق بفساد ما ذهبوا إليه من تحريف القرآن لأغراض سياسية أو دينية ، فما كان للمسلمين أن يلتمسوا الحجة من هذه الكتب إلا بعد أن اطمأن ملكهم ودانت لهم الامبراطورية المسيحية ، كما دان لهم غيرها من أمم الأرض ، وبعد أن دخل المسيحيون في الاسلام أفواجا بل أمما كاملة ، هذا هو المنطق الذي يقتضيه البحث العلمي النزيه ، أما اعتبار التوراة والانجيل مقدسين ونفي هذه الصفة عن القرآن فأمر لا يسوغه العلم ، وأما القول بتحريفه التماسا للحجة من التوراة والإنجيل فهراء لا يقره التاريخ ولا يرضاه المنطق . والذين زعموا هذا الزعم الفاسد من المستشرقين هم قلة بين أشد المستشرقين تعصبا ، أما كثرتهم فيرون أن القرآن الذي نتلوه اليوم إنما هو بعينه القرآن الذي تلا محمد على

المسلمين أثناء حياته ، لم يحرف ولم يبدل ، وهم يحرصون على أن يذكروا هذا وإن أضافوا إليه عبارات النقد للنظام الذى جمع « القرآن » به ولترتيب السور فيه .

ولقد تأثر كثير من المستشرقين فى بحوثهم التى صبغت صبغة العلم بأهواء أمزجتهم ، وليس من اليسير أن يقوم المستشرقون فى بحوثهم الاسلامية بكل هذه الدقة وهذا الانصاف مهما تحسن نيتهم ومهما يتحروا الدقة العلمية ، فعسير عليهم أن يحيطوا بكل أسرار اللغة العربية وأن أحاطوا بعلومها ، ثم أنهم متأثرون بالنصرانية الأوربية تأثرا يجعل أكثرهم ينظرون إلى الأديان نظرة ملؤها الريبة ، ويجعل الأقلية المستمسكين بمسيحيتهم يتأثرون بما كان بين المسيحية والعلم من نضال فيخضعون فى بحوثهم الإسلامية لمثل ما خضع له أمثالهم فى بحوثهم المسيحية أو فى بحوثهم الدينية بوجه عام . أقصد التأثر بهذا النضال الهدام ، وهذا أمر لا يعاب به المستشرقون المنصفون ، فلن يستطيع أحد من الناس أن يتحرر من حكم بيئته الزمانية والمكانية ، لكنه يجعل بحوثهم فى الأمور الاسلامية تشوبها شوائب تنأى بها عن الحق ، ولو بمقدار .

ومن شأن ذلك أن يلقى على عاتق العلماء من أهل البلاد الإسلامية هذا العبء الجليل العظيم ، عبء القيام بهذه المباحث الإسلامية بدقة ونزاهة فى حدود الطريقة العلمية .

٣ — من كتابات محمد كرد على

من نظر فى كتب من يعالجون من الافرنج مسائل المسلمين والاسلام يقع فما دونوه على أغلاط مستغربة قد تدعو إلى سوء الظن ببحثهم ودرسهم ، وتكثر هذه الأغلاط وتقل بحسب بعد المؤلف وقربه من ديار الاسلام .

ومنها ما ينشأ من جهل الكاتب بموضوعه ، كأن يرجع إلى كتب ضعاف المؤلفين عندهم من مثل أرباب الرحلات المرتجلة والقصص الملفقة وكتابات المؤرخين المتآمرين والصحافيين المهرجين ممن يهمهم قبل كل أمر أن يحملوا إلى قرائهم كل غريب ، فإن لم يجدوا اخترعوا ما تمليه عليهم مخيلاتهم وأوردوه فى معرض الحقائق . ومنها الخطأ العمد وما يسوق إليه التعصب الدينى أو الغرض السياسى . وهذا الضرب من

الأغلاط يكثر فى الأمم اللاتينية أكثر من غيرهم وهى منبعثة فيهم عن أحقاد قديمة متوارثة ونتيجة لأزمة لقلة عنايتهم بالتحقيق والتدقيق . ومن أقدم الأغلاط محاولة إلصاق حريق مكتبة الاسكندرية بعمر بن الخطاب ليذهبوا بذلك إلى أن الاسلام دين تخريب . وهذه الخزانة أحرقت بالتحقيق قبل الإسلام بقرنين ، وكان واضع هـذه الأسطورة السمجة راهب شرقى فتلقفها دعاة التعصب من الغرب ، وقد رد هذه الفرية جهابذة النقد من الغربيين لمهدنا بعد أن راجت قرونا عند عامتهم . ومن أغلاط الفكر المعتمدة ما روجه الآباء اليسوعيون للحط من قدر الإسلام ، وكيف ذهبوا يختلقون مالا أثر له إلا فى أدمغتهم ، وفى مقدمة من كتب له التميز فى هذا الباب عميدهم الأب هنرى لامنس فإنه صرف عمراً طويلا فى الطعن فى الإسلام والعرب حتى دعوة فى أوربا المؤرخ المتخرب ، وأصبح العارفون يأخذون كل قول له بتحرز شديد . ويقول مؤلف تاريخ أسبانيا Walteufel إن هؤلاء العرب المتعصبين الذين أمرهم نبيهم أن يحملوا على الكفار ويذبحوهم ليرضى عنهم خالقهم ! قد ساروا مع النصارى من سكان إيبريا (أهل أسبانيا) بتسامح عجيب فأطلقوا لهم الحرية فى دينهم وكانوا يحترمون معابدهم ويحفظونهم فى أموالهم وأنفسهم . وهو مثال لما جرى عليه الفاتحون .

وقد كذب الكاتب فى حكمه على الرسول وصدق فى قوله بأن المسلمين فى الأندلس عاملوا أهلها معاملة لم تقم لغالب أن عامل بها المغلوبين ، والأرجح أنه بنى حكمه فى صاحب الرسالة على ماتلاه فى بعض كتب رهبان القرون الوسطى وأخذ يصغر من شأن العرب فى الأندلس ويقول إنه لم ينشأ منهم سوى عدد من النبغاء من عيار ابن رشد وليته قال لنا كم من فيلسوف أخرجت أسبانيا النصرانية فى طويل عمرها ولو قرأ المؤلف كتابا واحداً من الكتب المعتمدة فى التاريخ لخجل أن ينسب مانسب إلى محمد بن عبد الله الرسول العربى الأمى من الشدة على غير أهل دينه ولعلم أنه أوصى بأهل الذمة فى كل فرصة وكذلك فعل أصحابه من بعدهم .

٤ — الدكتور محمد كامل عياد

إن أبحاث المستشرقين فى النهضة العربية الحديثة قليلة جداً وهى مختصرة وسطحية على العكس من دراساتهم عن تاريخ الآدب القديم وعن التاريخ الإسلامى فإنها كثيرة لا تكاد تحصى ، وهى تتعرض إلى عدد كبير من المسائل ولكنها تحوم فى الغالب حول الفتن الأهلية والخلافات المذهبية ومظاهر الانقسام والتفسخ ، وهذه الدراسات كلها تعالج الحياة الاقتصادية والاجتماعية والحركات الشعبية وتطور الأنظمة السياسية ، وأنها تتمركز فى المسائل اللغوية والنصوص الدينية وأخبار قصور الملوك والأمراء والحفريات الأثرية . ومن الغريب أن ترى المستشرقين يبذلون كل جهودهم للكشف عن العوامل الخارجية والعناصر الغربية التى كان لها بعض التأثير فى نشأة الإسلام والحضارة العربية فى حين أنهم يذكرون فى أختصار أو يهملون كل الأهمال مظاهر التطور والتجديد والابتكار عند العرب إن هؤلاء المستشرقين الذين يحاولون إرجاع الفلسفة والعلوم العربية إلى أصولها اليونانية يعودون من جهة ثانية ويتوسمون فى بيان الفروق الجوهرية بين الشرق والغرب وينكرون على الشرقيين وبينهم العرب أن يكونوا قد بلغوا مستوى اليونان القدماء وبالتالى مستوى الأوربيين الحديثين فى إدراك فكرة الإنسانية ومفهوم العلوم وحقيقة الفن .

٥ — الدكتور محمد تقى الدين الهلالى

لهؤلاء العلماء الأوربيين الذين يتسمون بالمستشرقين أخطاء ، منشؤها القصور ، لأن أكثرهم إذا لم يكن كلهم يتعلمون الآداب والعلوم الشرقية بأنفسهم بمطالعة الكتب ويستعينون بتراجم أمثالهم ممن سبقهم فيلمون باللغات والعلوم إلماما ضعيفا لا يمكن صاحبه أن يجلس على منصبه الحكم ويقضى بالقسطاس المستقيم ، والكتب وحدها لا تهدى ضالا ولا تقيم جاهلا ، وقد قيل : لا يأخذ العلم عن صحفى ، فأكثر المستشرقين صحفيون فى العلوم الشرقية ، ولنضرب لذلك مثلا (جورج سايل) أول من ترجم القرآن إلى الانجليزية . وقد وجدت فى الجزء الأول من القرآن الذى ترجمه أربعون غلطة . مثال آخر هو رسائل أبى العلاء المعرى ترجمها إلى الإنجليزية عالم إنجليزى نسيت إسمه وطبعت فى أوربا ، طالعتها فوجدتها مشحونة بأغلاط ، ومثال ثالث ترجمه مارماديوك العالم الأديب الشهير صاحب مجلة (إسلاميك كلتشر) أى الثقافة الإسلامية وله تصانيف جياد قرأت شيئاً من ترجمته للقرآن فوجدته

فيها أغلاطاً واضحة جداً ويرتكب هذه الأخطاء (١) المستشرقون أمثال جورج سايل ومارجليوث وزويمر ومن على شاكلتهم ، والحامل على ارتكابها شدة البغض للاسلام والشرق كله من أجل الإسلام (٢) السياسون والمستعمرون (٣) الأدباء الذين يطمعون فى المال الوفير .

٦ — الفنان الفرنسى اتيان دينيه

أن الخطأ الأساسى الذى يقع فيه بعض مستشرقى العصر هو محاولتهم استخلاص معنى حرفى وعلل مقصودة مرتبطة بمرى المنطق الغربى من أقوال الأنبياء ، على حين أن الأنبياء هم جبابرة الإلهام الذين يكاد الوحى ينوب لديهم عن كل تدليل عقلى . وفى هذا كفاية لبيان أن سلوك طريقة النقد فى درس تاريخ الأنبياء غير منطقى . وكان حرى بأسلوب النقد هذا بعد جهد ثلاثة قرون أن يهدم الأساطير ويقيم مقامها حقائق لا جدال فيها . لكنه لم يتبين شيء من ذلك ، فإننا إذا قارنا النظريات الحديثة التى أطرفنا بها مستشرقو الفرنسيس والانجليز الألمان والبلجيكيين والهولنديين وغيرهم وعارضنا بعضهم ببعض لم نجد إلا التباسا واختلاطا لأن النظريات فى « شخصية محمد » متضادة تبطل إحداها الأخرى .

ماذا كان خلق محمد وماذا كان سر تأثيره العظيم على أبناء وطنه ؟ يقول دوزى : لعل رسول الله — كما كان يلقب نفسه — لم يكن يشبههم . لقد كان له خيال على حين أن العرب مجردون من الخيال وكان دينا على حين أن العرب ليسو كذلك (مسلمو الأندلس ج ١ ص١٨) ويصرخ الأب لامنس ، هذا خطأ ؛ «كان محمد رغم معايبه أو إذا شئت بفضل معايبه يفتن البدوى الذى كان يتعرف ذاته فى شخص النبى العربى كما يدعوه القرآن « مسايرة » فنى هذا التفاعل أو هذه المطابقة التامة بين البيئة التى صورته نجد أولا سر السلطان الكبير الذى كان له على معاصريه (مهد الإسلام ص ٤و٥) .

٢ — ماذا كانت ميول محمد قبل البعثة : يقول دوزى : كان محمد سوداويا ، صموتا ، يميل إلى النزهات التى لا انتهاء لها وإلى التأملات الطويلة فى الوديان الموحشة (نفس المصدر) ويرد الأب لامنس عليه قائلا : « كلا ، ليس ما يثبت حقيقة هذا الاعتكاف فهو لا يتفق مع نفرة محمد من الوحدة وكراهيته المشهورة للنسك (كتاب هل كان محمد صادقا ص ١) .

٣ — ماذا كانت العوامل فى بعثة محمد ورسالته ؟ يؤكد الاستاذ « نولدكه » أنها « نوبات الصراع » . ويشير الاستاذ دوفويه إلى أن هذا بعيد الاحتمال لأن الحافظة فى المصروعين تكون مسدودة . على أن المعروف عن محمد كلما كان يهبط عليه الوحى هو نقيض هذا « مباحث شرقية ج ١ ص ١ — ٥) . ثم يؤكد الأستاذ « سيرنفر » فى رده أنها نوبات الهستريا العضلية التى اشتهرت باسم شونلاين (كتابه حياة محمد وعمله ج ١ ص ٢٠٧) . ويرد الدكتور سنوك هرجرونجه على ذلك قائلا : لقدع وهن الأسس التى يقوم عليها التشخيص . يجب أن نقر بأن قيمة محمد هى فيما يميزه عن سائر الهستيرين لا فى الحالة المرضية التى كانت مشتركة بينه وبينهم .

٤ — ما هى أسباب مرض الرسول . يقول الأب لامنس : أن محمداً كانت له شخصية غاية فى الجودة : وقد كثفت جسمه الملذات وخدرت اعضاءه فاصبح مهدداً بداء السكته . أما الدكتور بنيه سافغله فيقول : أن رؤى محمد كانت مسببة أحيانا بخور قواه من الجوع ، فكان يسمع أثناء صومه كواء القطط ومات بحمى هاذيه ذامت يومين . ويقول الاستاذ كلمان هوار أنه بالتهاب رئوى ، ويقول الأب بارود النائب الرسولى أنه مات مسموما بيد إمرأة يهودية . ويعلق (اتيان دينيه) على هذا التناقض العجيب فيقول . أليس اختلاف هذه الأخبار يحير الألباب . وهل يستطيع القارىء أن يأخذ منها رأيا واضحاً . من اليسير سرد الأمثلة الكثيرة على المتناقضات الصريحة التى وقع فيها علماء الشرقيات على زعمهم أنهم يؤلفون كتبهم بالاستناد إلى مبادىء العلم الثابتة ، ولكن الشواهد كافية للدلالة على المستشرقين العصريين لا يتفقون فى شأن من الشؤون الخطيرة ، وقصاراهم رغم فيض العلم أن يقدموا إلينا أشخاصاً خياليين هم أبعد جداً عن الحقيقة . أن على هؤلاء المستشرقين أن يملأوا الهاوية التى تفصل بين عقليتهم الغريبة وعقلية أولئك الأشخاص وإلا تعرضوا للخطأ فى كل المواضع .

٧ — الدكتور محمد البهى

عمل « التبشير » هو إنكار المقومات التاريخية والثقافية والروحية فى ماضى الأمة ، والتنديد والاستخفاف بها ، وصياغة هذا الانكار والتنديد والاستخفاف فى صورة البحث وعلى أساس من أسلوب الجدل والنقاش فى الكتابة ، أن التبشير والاستشراق كلاهما دعامة الاستعمار ، وكلاهما دعوة إلى توهين القيم الإسلامية ، والغض من اللغةالعربية الفصحى ، وتقطيع أواصر القربى بين الشعوب العربية والإسلامية . فالقرآن (عندهم) كتاب مسيحى يهودى نسخة محمد ، والإسلام دين مادى لا روحية فيه ، يدعو إلى الدنيا وليس إلى صفاء النفوس والمحبة ، وأنه يميل إلى الاعتداء والاغتيال ويحرض اتباعه على القوة على غير المسلمين عامة ، كما أنه يدعو إلى الحيوانية والاستغراق فى اللذات الدنيا . والفلسفة العربية فكر يونانى كتب بأحرف عربية ، وأن اللغة العربية الفصحى لم تعد صالحة اليوم وبدلا منها يجب أن تستخدم اللهجات الدارجة كما يجب أن تستخدم الحروف اللاتينية عوضا عن الحروف العربية .

وهناك الدعوة إلى إحياء الفرعونية فى مصر والأشورية فى العراق والبربرية فى شمال افريقيا والفينيقية على ساحل فلسطين ولبنان وإلى تفضيل الفارسية — كلغة أدبية — على العربية كلغة سامية . وأن الذى حمل إمارات الحياة الأدبية الجديدة فى الشرق العربى فى نهاية القرن التاسع عشر وكذا فى الشرق الإسلامى وحمل مظاهر الحضارة عامة ، هم نصارى لبنان الذين تعلموا من جهود المستشرقين الأمريكيين فى سوريا وإلى البربر وحدهم هم أصحاب المدنية مع شمال افريقية والأندلس .

والتبشير والاستشراق فى ذلك سواء ، والفرق بينهما أن الاستشراق أخذ صورة « البحث » وأدعى لبحثه « الطابع العلمى الأكاديمى » بينما بقيت دعوة التبشير فى حدود مظاهر « العقلية العامة » وهى العقلية الشعبية . وقد استخدم الاستشراق الكتاب والمقال فى المجلات العلمية وكرسى التدريس فى الجامعة والمناقشة فى المؤتمرات العلمية العامة .

أما التبشير فقد سلك طريق التعليم المدرسى فى دور الحضانة ورياض الأطفال والمراحل الابتدائية والثانوية للذكور والإناث على السواء ، كما سلك طريق العمل الخيرى فى الملاجىء والمستشفيات.

ولم يقتصر التبشير على استخدام النشر والطباعة وعمل الصحافة فى الوصول إلى غايته .

فهناك مؤسسات أخرى لا يرى فيها التبشير ظاهراً ، وأن كانت لا تخفى هدف الاستشراق. وكلها تخضع للاتجاه الكاثوليكى فى بحث الاسلام وتراثه وكذلك للنفوذ الفرنسى .

يقول لوارنس برادن : فى كتابه الإسلام والإرساليات . « إذا اتحد المسلمون فى إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرا . وأمكن أن يصبحوا نعمة أيضاً ، أما إذا بقوا متفرقين فانهم يظلون حينئذ بلا قوة » ويفضح القس كالهون سيمون عن رغبة التبشير القوية فى تفريق المسلمين التى عبر عنها براون فيما قبل يقول : أن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السود وتساندهم على التخلص من السيطرة الأوربية ولذلك كان التبشير عاملا مهما فى كسر شوكة هذه الحركات . ذلك لأن التبشير يعمل على إظهار الأوربيين فى نور جديد جذاب وعلى سلب الحركة الإسلامية من عنصر القوة والتمركز فيها، فوحدة المسلمين إذن فى نظر التبشير هو التفرقة فى توجيه المسلمين واتجاهتهم ، والتبشير إذ يرى هدفه المباشر تفكيك المسلمين ، يرى بالتالى درء خطر وحدتهم على استعمار الشعوب الأوربية وعلى استغلالها واستنزافها لثروات المسلمين « ك : التبشير والاستعمار » .

وفى هذا المعنى يقول لورانس براون « الخطر كامن فى نظام الإسلام وفى قوته على التوسع والإخضاع وفى حيويته ، أنه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الأوربى . »

وهنا يبدو واضحا أن التبشير مقدمة أساسية للاستعمار الأوربى ، كما أنه سبب مباشر لتوهين قوة المسلمين ، ولقد كان المبشرون يعملون بطرق مختلفة كالتعليم مثلا على تهيئة شخصيات شرقية وعربية لا تقاوم التبسط الأجنبى .

وطريق التبشير لتوهين المسلمين لم يكن الدعوة إلى المسيحية وإنما كان طريق تشويه الإسلام ومحاولة إضعاف قيمة ثم تصوير المسلمين فى وضعهم الحالى بصوره مزرية بعيدة عن المستوى الحضارى فى عصرنا الحاضر .

ولعل أخطر ما قام به المستشرقون حتى الآن هو إصدار دائرة المعارف الإسلامية بعدة

لغات ، ومصدر الخطورة فى هذا العمل هو أن المستشرقين عبئوا كل قواتهم وأقلامهم لإصدارها وهى مرجع لكثير من المسلمين فى دراساتهم على ما فيها من خلط وتحريف وتعصب سافر . وقد اتجه المستشرقون والمبشرون بمعاونة الاستعمار إلى المجامع اللغوية ، ومجال التربية محاولين غرس مبادىء التربية الغربية فى نفوس المسلمين حتى يشبوا مستغربين فى حياتهم وتفكيرهم ، وحتى تخف فى ثقتهم موازين القيم الإنسانية . وليس نشاط المستشرقين موجها فقط إلى المسلمين ، أنهم يفتحون عيونهم لكل الاتجاهات وهم يقظون لكل حركة قد تعوق سيرهم أو تفسد خططهم ، فإن حاول أحدهم أن يبدو محايدا أو يتخفف من أثقال التعصب تجد بقية المستشرقين يهبون فى وجهه يطالبونه بأن يكون موضوعياً وأن يستخدم الطريقة العلمية ويلجأ إلى النقد ذى المستوى العالى . ولا يعرف العقل ولا المنطق حداً لما يقوم به المستشرقون من تحريف للتاريخ الإسلامى وتشويه لمبادىء الإسلام وثقافته وإعطاء المعلومات الخاطئة عنه وعن أهله . وكذلك يجاهدون بكل الوسائل لينتقصوا من الدور الذى لعبه الإسلام فى تاريخ الثقافة الإنسانية . وبعض المستشرقين أكثر تعصبا ضد الإسلام وعداوة له من البعض الآخر ، ولكن يصدق عليهم جميعا أنهم أعداؤه .

مصطفى السباعي — لقاء مع المستشرقين

لما زرت أكثر جامعات أوربا عام ١٩٥٦ واختلطت بالمستشرقين ازددت إيماناً واقتناعاً بخطرهم على تراثنا الإسلامي كله سواء كان تشريعياً أم حضارياً ، لما يملأ نفوسهم من عصبية تأكل قلوبهم حقداً ضد الإسلام والعرب والمسلمين . وقد اسقط أندرسون فى جامعة لندن أحد المتخرجين من الأزهر فى شهادة الدكتوراه فى التشريع الإسلامى لأنه يزعم فى أطروحته على أن الإسلام أعطى المرأة حقوقها كاملة ، فلما سألته عن ذلك قال : لأنه كان يقول : الإسلام يمنح المرأة كذا ، والإسلام قرر للمرأة كذا فهل هو ناطق رسمى باسم الإسلام، هل هو أبو حنيفة أو الشافعى ، حتى يقول هذا الكلام ويتكلم باسم الإسلام .

وفى جامعة أكسفورد وجدنا رئيس قسم الدراسات الإسلامية العربية يهودياً يتكلم اللغة العربية ببطء وصعوبة ، ويلقى تفسير آيات من القرآن من الكشاف للزمخشرى ، وهؤلاء تحس فيهم عبارة بسيطة عن جريدة عادية ، وسألته عن مراجعه فى دراساته وأحاديثه عن البخارى ومسلم فقال : انها كتب المستشرقين أمثال جولد تسيهر ومرجليوث وشاخت . أما فى جامعة كمبردج فكانت رئاسة الدراسات العربية والإسلامية للمستشرق اربرى وقد قال اننا نحن المستشرقين نقع فى أخطاء كثيرة فى بحوثنا عن الإسلام، ومن الواجب ألا نخوض فى هذا الميدان لأنكم أنتم المسلمون العرب أقدر منا على الخوض فى هذه الأبحاث .

وفى جامعة ليدن بهولندا التقيت بالمستشرق اليهودى شاخت وهو الذى يحمل فى عصرنا رسالة جولدتسيهر فى الدس على الإسلام والكيد له وتشويه حقائقه ، وقد باحثته فى أخطاء جولدتسيهر وتعمده تحريف النصوص التى ينقلها من كتبنا ، فأنكر ذلك فضربت مثلا واحداً مما كتبه (تسيهر) فى كتاب السنة ، وكيف حرف قول الزهرى (ان هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة الأحاديث) إلى لفظ (على كتابة أحاديث) فاستغرب ذلك . وكذلك تحليله لموقف الزهرى من عبد الملك بن مروان وذكرت له من الحقائق التاريخية ما ينفى ما زعمه جولدتسيهر . وقلت أن جولد تسيهر هو مؤسس المدرسة الاستشراقية التى تبنى حكمها فى التشريع الإسلامى على وقائع التاريخ نفسه ، فلماذا لم يستعمل مبدأه هذا حين تكلم عن الزهرى وكيف جاز له أن يحكم على الزهرى بأنه واضع حديث فضل

المسجد الأقصى ارضاء لعبد الملك ضد ابن الزبير ، مع أن الزهرى لم يلق عبد الملك إلا بعد سنوات من مقتل الزبير » وقلت : لقد كانت مثل هذه الأخطاء كما تسميها أنت تشتهر فى القرن الماضى ، ويتناقلها مستشرق منكم إلى آخر على أنها حقائق علمية ، قبل أن نقرأ نحن المسلمين تلك المؤلفات إلا بعد موت مؤلفيها ، وأرجو أن تسمعوا منا ملاحظاتنا على أخطائكم لتصححوها فى حياتكم قبل أن تتقرر كحقائق علمية . وقابلت المستشرقين فى بلجيكا والدنمرك والنرويج وفنلندا وألمانيا وسويسرا وباريس ، والسويد وليدن بهولندا ومنشستر بانجلترا وكمبردج وأكسفورد وجلاسجو وأدنبره واتضحت لى الحقائق التالية :

أولا : إن المستشرقين فى جمهورهم لا يخلو أحدهم من أن يكون قسيساً أو استعمارياً أو يهودياً وقد يشذ عن ذلك أفراد . (ثانياً) إن الاستشراق فى الدول الغربية غير الاستعماريه كالدول الاسكندنافية أضعف منه عند الدول الاستعمارية . (ثالثاً) إن المستشرقين المعاصرين فى الدول غير الاستعمارية يتخلون عن جولدتسيهر وآرائه بعد أن انكشفت أهدافه الحقيقية . (رابعاً) ان الاستشراق بصفة عامة ينبعث من الكنيسة وفى الدول الأوربية يسير مع الكنيسة ووزارة الخارجية جنباً إلى جنب . (خامساً) ان الدول الاستعمارية كبريطانيا وفرنسا لا تزال حريصة على توجيه الاستشراق الوجهة التقليدية من كونه أداة هدم الإسلام وتشويه لسمعة المسلمين .

ففى فرنسا لا يزال بلاشير وماسينيون يعملان فى وزارة الخارجية الفرنسية كخبيرين فى شئون العرب والمسلمين . وفى انجلترا نجد الاستشراق فى مكان محترم فى جامعات لندن وأكسفورد وكمبردج وأدنبره وجلاسكو وهم يحرصون على أن تظل مؤلفات جولدتسيهر وشاخت هى المراجع الأجنبية بصدد الاستشراق من الغربيين والراغبين فى حمل شهادة الدكتوراه عندهم من العرب والمسلمين وهم لا يوافقون أبداً على رسالة لطالب دكتوراه يكون موضوعها إنصاف الإسلام وكشف دسائسهم .

وأعتقد أنه قد انقضى ذلك العهد الذى كنا فيه نعتمد على مصادر معرفتنا بعلومنا وتاريخنا على مصادر الغربيين مع أنهم ليست لهم مصادر إلا كتبنا ومدوناتنا . ولئن كنا بها جاهلين من قبل فلقد آن الأوان أن نرفع عن جباهنا خزى الجهالة بمصادرنا وعار الإتكال فى فهمنا على فهم الغرباء عن لغتنا وصحة الاعتقاد بديننا وعلمائنا على نحو ما يريد منا هؤلاء المستشرقون أن نعتقده فى حق ديننا وعلمائنا من شك وسوء ظن .

الكتاب الثالث

حركة التغريب

مخططها ودعاتها

لكي نفهم مخطط حركة التغريب لابد من ألقاء نظره على هؤلاء الدعاة التي حملوا لواء العمل في ميادين التبشير والاستشراق وكتابات خصوم العرب والإسلام من ركائز الاستعمار وزعمائه في العالم العربي والإسلامي ، وأصحاب دعوات سيادة العقلية الآرية والإيمان بالرجل الأبيض ودورة في تمدين الملونين .

ومن خلال مجموعة منوعة من كتابات هؤلاء الدعاة نستطيع أن نرسم صورة واضحة لهذا العمل ، فهنا حكام الاستعمار في مصر والمغرب : أمثال : كرومر وليوتي ودعاة التبشير أمثال لافيجرى وزويمر ولسكوكس وكتاب متعصبون لأوربا والجنس الأبيض أمثال دوق دار كور وهانوتو ، ولويس برتران وفواتير ومشرفون على التعليم في البلاد المستعمرة أمثال : دنلوب .

ومستشرقون أمثال فنسك ولويس شيخو وهنرى لامنس ومرجليوث ، ورينان من خلال هذه المجموعة : التي تضم الفرنسيين والانجليز ، وغيرهم من الأجناس الأخرى ، في مختلف أعمالهم ومناصبهم وأجناسهم يجمعهم شيء واحد هو إثارة الشبهات في وجه الإسلام والثقافة العربية الإسلامية ، والعمل للقضاء على مقومات هذه الأمة عن طريق فكرها ، وهم في حملاتها يكشفون عن تعصب واضح ، مهما ألبست كتابات بعضهم صورة البحث العلمي وأجل ما تفتقده في كتاباتهم روح الإنصاف أو العدل أو كلمة الحق لوجه الحق وحده .

وقد حملت هذه الكتابات في فترة من فترات الحياة الفكرية العربية على أنها حقائق أو آراء علمية جديرة بالبحث ، وقد واجه الفكر العربي هذه الآراء فكشف عن زيفها وفند أخطاءها وادعاءتها وشبهاتها ؛ هذه الشبهات التي ما زالت إلى اليوم غذاء كل كتابات التعصب والاتهام للاسلام والفكر العربي الإسلامي واللغة العربية والتاريخ والدين والتراث ، هذه الجذور وضعها زعماء الاستعمار أولا أمثال كرومر وليوتي وجلوب ولافيجرى ودنلوب . ونحن لا نفرق هنا بين زعماء الاستعمار والمبشرين والمستشرقين وكتاب التعصب ، من وزراء الخارجيه والاستعمار أو أعضاء الاكاديميات ، ولسنا بذلك نحاول أن نثير خصومات جديدة ، أو نجدد اتهامات بادت ، وإنما نريد أن نوضح الصورة

التى تخفى على الكثيرين اليوم ، حين يرون شبهة من الشبهات تثار هنا أو هناك ، فيظن بعض شبابنا أنها أمر جديد ، أو أنه أمر على جاد ، أو يجد فيه بعض ما يغريه على اعتناق هذا الرأى أو ذاك ، دون أن يلم إلماما كاملا بأرضية هذه القضية وجذورها العميقة والعوامل التى دعت إلى إثارة هذه الشبهات ، فالمعروف أن هذه « الشبهات » قد أثيرت للقضاء على مقومات فكرنا وبالتالى على مقومات شخصيتنا ، حتى تصبح صورة مهلهلة ليست من الشرق أو من الغرب ، ويمكن بذلك السيطرة علينا سيطرة فكرية ووضعنا مجال النفوذ والتبعية عن طريق الاقتناع الفكرى ، أما الأمر الأهم فإن هذه الشبهات إذا عرضت بأسلوب العلم ، فإننا نستطيع أن نكشف عن انها لم تكن يوما من الأيام صادرة عن أساس علمى أو بحث منهجى ، وإنما هى قد صدرت أول الأمر من زعماء الاستعمار ودعاته وأنها رسمت بالصورة التى تحمل طابع التحقير وإثارة الشبهات وخلق أجواء من الريبة والاتهامات تعمل على الغض من شأن الفكر العربى الإسلامى والنظر إليه نظرة مشوهة ، ولم ترسم أبداً صورة الإنصاف أو النقد القائم على المنهج العلمى الحر ، الذى حاول الغرب دائما أن يدعى أنه موجده ومنفذه ، وتتصل هذه الاتهامات فى مجموعها برد أسباب تأخر المسلمين والعرب إلى دينهم وإلى فكرهم ، والشبهات تحاول دائما أن تعزو إلى الإسلام أنه هو عامل التأخر الأول — وإلى أن اللغة العربية هى الحائلة دون الابتكار والاختراع . وإلى أن التاريخ العربى الإسلامى ملىء بصفحات الاختلاف والصراع .

وفيما بين السطور حملات عنيفة مصدرها الخصومة المذهبية والدينية أصلا ، وهى خصومة استغلها الاستعمار ، وحاول دائما التركيز عليها . غير أن الذين واجهوا هذه الحملات من كتاب العرب والمسلمين كانوا أعف قلما وأسمح نفسا وأقرب إلى المنهج العلمى فى البحث فلم تترهم عبارات التعصب والاتهام التى بلغت أقسى ما يمكن أن يوجه من ألفاظ واتهامات إلى الإسلام والنبى وأصحابه ، وكانوا يستطيعون أن يردوا عليها بمثلها ولكن حماهم من ذلك أدب دينهم ومنهج فكرهم العربى الإسلامى الذى يرتفع عن الاتهام والهجاء فضلا عن التكريم الذى يكنه دائما هذا الفكر لكل دين ولكل فكر ، وكان فى تفنيده للاتهامات والشبهات غاية فى أدب النقد والسجال ، وغاية فى احقاق الحق ، والأدلاء بالحجج والأسانيد التى تهدم كل شبهه واتهام .

ومن شأن مراجعة هذا العمل كله اليوم أن يكشف للذين لم يعاصروا هذه الحركة فهم جذورها ومنطوقها فلا يرونها إلا حيث هى قائمة على التعصب او الجهل او مدفوعه بهدف واضح هو تأكيد النفوذ الاستعمارى والقضاء على مقومات الفكر العربى الإسلامى التى هى مصدر مقاومة كل غزو فكرى او خارجى صورة لفرض فكر دخيل .

(١) فولتير . . . . « تمثيلية محمد »
(٢) كرومر . . . . « تغريب الفكر العربى »
(٣) ليوتى . . . . « مهاجمة اللغة العربية والإسلام »
(٤) الكردينال لافيجرى . . . . « الرق فى الإسلام »
(٥) دنلوب . . . . « تغريب التعليم والتربية »
(٦) أرنست رنيان . . . . « الإسلام والتقدم »
(٧) دوق داركور . . . . « مصر والمصريون »
(٨) جبرائيل هانوتو . . . . « مصر والمصريون »
(٩) صمويل زويمر . . . . « التبشير »
(١٠) مرجليوث . . . . « محمد وظهور الإسلام »
(١١) لورنس . . . . « الأعمدة السبعة »
(١٢) هنرى لامنس . . . . « تاريخ العرب والإسلام »
(١٣) لويس شيخو . . . . « أدب العرب والإسلام »
(١٤) لويس برتران . . . . « أمام الإسلام »
(١٥) وليم ويلكوكس . . . . « الدعوة إلى العامية »
(١٦) فنسنك . . . . « دائرة المعارف »
(١٧) جلوب . . . . « الفتوحات العربية الكبرى »
(١٨) جولد تسيهر . . . . « السنة والتشريع »

فولتير = تمثيلية محمد

أصدر الكاتب الفرنسى المشهور بحرية الرأى « فولتير » عام ١٧٤٥ م تمثيلية أسماها « محمد والتعصب » وهدأها إلى البابا فى محاولة جريئة تكشف عن حقيقة دعوى حرية الفكر عنده ؛ وقد واجه « توفيق الحكيم » هذه القصة فقال :

قرأت قصة فولتير التمثيلية « محمد » نخجلت أن يكون كاتبها معدوداً فى اصحاب الفكر الحر ، فقد سب فيها النبي سبا قبيحا عجبت له وما ادركت له عمله ، لكن عجبي لم يطل فقد رأيته يهديها إلى البابا بنوا الرابع عشر .

وعلمت ان روسو كان يتناول بالنقد اعمال فولتير التمثيلية فاطلعت على ما قال فى قصة (محمد) علنى اجد ما يرد الحق إلى نصابه فلم أر هذا المفكر الحر أيصاً يدفع عن النبى ما ألصق به كذبا وكأن الأمر لا يعنيه ، وكأن ما قيل فى النبى لا غبار ولا حرج منه ، ولم يتعرض للقصة إلا من حيث هى أدب وفن ، ولقد قرأت بعد ذلك رد البابا بنوا على فولتير فألفيته رداً رقيقاً كيسا لا يشير بكلمة واحدة إلى الدين ، وكله حديث فى الأدب ، فعظم عجبى لأمر فولتير وسألت نفسى طويلا : أيستطيع عقل مثقف كعقل هذا الكاتب العظيم أن يعتقد ما يقول ، دين يتبعه آلاف الملايين من البشر ، على مدى الأجيال ، هو فى نظره حقاً دين كاذب ، ومبادىء إنسانية كالتى جاء بها الإسلام هى عنده حقاً مبادىء بربرية ، أم أنه التملق والزلفى والنفاق ، وأن الزمن والتاريخ يضعان أحيانا أقنعة زائفة على نفوس تزعم أنها خلقت للدفاع عن حرية الفكر .

منذ ذلك اليوم وأنا أحس كأنى فجعت فى شيء عزيز لدى : الإيمان بنزاهة الفكر الحر ، ولقد كنت أحيانا ألتمس الأعذار لفولتير وأزعم أنه قال ما قال لا عن مجاملة أو ملق ، بل عن عقيدة وحسن طويه إستناداً على علم خاطىء باخبار النبى ولكن كتابه إلى البابا كان يتهمه أتهاما صارخا ويدع مجالا للشك فى دخيلة أمره ، إنى قرأت لفولتير كتباً أخرى

كانت تكشف عن آراء حرة حقا فى مسائل الأديان وتنم عن روح واسعة الآفاق تكره التعصب الذميم فما باله عندما عرض لذكر « محمد والإسلام » كتب شيئاً هو التعصب بعينه ، تعصب لدينه ذهب فيه إلى حد السجود وتقبيل الأقدام ، لا لرب العزة والخلق ، بل لبشر هو رئيس الكنيسة التى ما أرى أن فولتير كان ذات يوم من خدامها المخلصين . وإنما هى الأطماع التى كانت تدفع فولتير فيما أرى إلى التمسح بأعتاب الملوك والباباوات ، ولقد يقدم ثمنا لذلك أفكاره الحرة أحيانا ، منذ ذلك الحين وفولتير عندى متهم ، ولن أبرئه أبدا ، ولن أعده أبدا من بين أولئك العظام الذين عاشوا بالفكر وحده ، وللفكر ، وأحسب أن التاريخ العادل سوف يحكم عليه هذا الحكم ، فينتقم للحق بما افتراه على نبى كريم ظلماً وزوراً .

على أن الذى يدعو إلى الدهش أكثر من كل هذا أن الشرق والإسلام وقفا من هذا الأمر موقف النائم الذى لا يعى ولا يشعر بما يحدث حوله ، فلم نر كاتبا من كتاب الإسلام قام فى ذلك الوقت يدفع عن دينه هذا الهراء الذى قال فولتير ، ويقذف فى وجه هذا الكتاب بالحقائق الباهرة القاطعة ، أو أن مؤلفا وضع كتابا يبرز فيه شخصية النبى الخيرة العظيمة واضحة جلية ، لقد كان الشرق فى ليل هادىء بهيم لم تثر فيه حركة فولتير يومئذ ساكنا .

ولكن الأمر قد تغير اليوم ولاحت فى افق الشرق خيوط الفجر وقام فى هذا القرن كتاب يمجدون عقيدتهم وهم يعلمون أن ذلك تمجيدا للحق وللشرق ، فان المسأله ليست مسألة دين فقط ، وإنما هى مسألة جنس وقومية ، وإذ تقول اوربا « الإسلام » فانما تعنى فى غالب الأحيان « الشرق » أن الحرب الصليبية لم تكن فى حقيقها الا حرب الغرب على الشرق ، وهذا المد والجزر بين الغرب والشرق يفهمه مفكرو الأوربيين تمام الفهم ، ويحسبون له الحساب فالدفاع عن شخصيتنا وعقيدتنا دفاع عن حياتنا

كرومر = تغريب الفكر العربى

يعد افيلنج بارنج (كرومر) من كبار دعاة التغريب والاستعماريين فى العالم الإسلامى وواحداً من الذين وضعوا مخطط السياسة التى جرى عليها الاستعمار ولا يزال، فى محاولة القضاء على مقومات العالم الإسلامى والأمة العربية جزء منه، والإيمان بأن هذا العمل الفكرى هو أهم الأعمال القادرة على دعم نفوذ الاستعمار وتركيز قوى الغرب فى قلب المنطقة، وتمثل كتاباته فى تقاريره وفى كتابه (مصر الحديثة) خطة عمل كاملة، وأيدلوجيا شاملة للقضاء على مقومات الفكر العربى الإسلامى وتمزيق وحدة العالم الإسلامى، ومقاومة القيم والمفاهيم العربية والإسلامية. ولقد أمضى لورد كرومر فى مصر مالا يقل عن ربع قرن قابضا على زمام السلطات (١٨٨٢ — ١٩٠٦) وأتيح له من قبل أن يمضى وقتا فى الهند، درس فى خلالها مناهج الاستعمار البريطانى هنالك، وقد عمل أول أمره فى مصر مندوبا فى صندوق الدين المصرى ١٨٧٧ ثم مالبث أن عين بعد الاحتلال البريطانى مباشرة مندوبا ساميا ومعتمداً لبريطانيا، ويهمنا فى هذه الدراسة أن نتناول آثاره فى مجال الفكر العربى الإسلامى ومخططه الذى سار عليه من بعده كل دعاة التغريب والذى اتخذته منظمات التبشير ومعاهد الإرساليات وكل من اشترك فى مخطط العمل «دستوراً» من أجل تأكيد النفوذ الأجنبى عن طريق الفكر.

وقد تبلورت حملات كرومر فى نقاط هامة قليلة:

(١) إثارة الشبهات حول الإسلام، وذلك بالادعاء بأنه دين مناف للمدنية ولم يكن صالحا إلا للبيئة والزمان اللذين وجد فيهما.

(٢) أن المسلمين لا يمكنهم أن يرقوا فى سلم الحضارة والتمدن إلا بعد أن يتركوا دينهم وينبذوا القرآن وأوامره ظهريا لأنه يأمرهم بالخمول والتعصب، ويبث فيهم روح البغض لمن يخالفهم والشقاق وحب الانتقام وأن المانع الأعظم والعقبة الكؤود فى سبيل رقى الأمة هو: القرآن والإسلام.

(٣) أن الإسلام يناقض مدنية هذا العصر من حيث المرأة والرقيق وأن الإسلام يجعل المرأة فى مركز منحط .

(٤) الطعن فى شريعة الإسلام وسياسته ومعاملاته .

(٥) أن الشاب المصرى المسلم أثناء ممارسته التعليم الأوربى يفقد إسلامه أو أفضل قسم منه ويقطع حبل المرساة الذى يربطه بعرفاً إيمانه . وأن الشبان الذين يتلقون علومهم فى أوربا يفقدون صلتهم الثقافية والروحية بوطنهم ، ولا يستطيعون الالتجاء فى نفس الوقت إلى البلد الذى منحهم ثقافته ، فيتأرجحون فى الوسط ويتحولون إلى مخلوقات شاذة ممزقة نفسيا .

(٦) هاجم القرآن ، وقال أنه ينافى العمران وهاجم الإسلام لأنه أباح الطلاق وأنه حرم الربا والخمر .

(٧) قال أن الإسلام خال من التسامح ويغلب عليه التعصب . وأنه يغرس فى العقول الانتقام والكرة اللذان يجب أن يكونا أساساً للعلاقات بين الرجل والمرأة بدلا من المحبة والإحسان .

(٨) دعا إلى اطلاق الحرية للمرسلين والمبشرين فى مصر والسودان ، وأن ينشئوا مدارسهم ، وضمن تقاريره إحصائيات عن أعمال التبشير فى جنوب السودان وفى تقريره عام ١٩٠٤ أعلن أنه كتب إلى جمعية تبشيرية انكليزية يحضها على بعث مرسليها إلى جنوب السودان ، وقال أن جنوب السودان سكانه وثنيون ، وأن اتصالهم بالمسلمين إنما يذكرهم بفظائع الدراويش والنخاسين من العرب ، وطالب بأن يتاح للمرسلين فى أن ينشئوا مدارس فى الخرطوم ويدخلوا ماشاءوا من التعاليم الدينية ، وقال أن أعمال المبشرين فى الجنوب (جنوبى كودوك — فاشوده) سائرة سيرا مستمرا ، وقال أنه لم يطلب منه حتى الآن أى ترخيص لإنشاء مدارس فى جنوب السودان تعلم فيها فرائض الإسلام .

(٩) دعا إلى خلق طبقة من المتفرنجين المستغربين من الوجهة الأوربية والمدنية الحديثة ، وقال أن هؤلاء جديرون بكل تنشيط ومعاونة يمكن أن تعطى لهم ، وقال أن هؤلاء

هم حلفاء الأوربى المصلح ومساعدوه ، وسوف يجد محبو الوطنية المصرية أحسن أمل فى ترقى أتباع الشيخ محمد عبده للحصول على مصر مستقلة بالتدريج .

* * *

وهذه النصوص المنقولة من كلمات كرومر تمثل جماع ما دعا إليـه المبشرون والمستشرقون دعاة التغريب والشعوبيون وما زالون يدعون إليه حتى الآن ، وهى مجموعة من الأكاذيب المنبعثة من التعصب واستخدام سلاح الشبهات للقضاء على مقومات الأمة وقيم فـكرها ، بعد أن تأكد الاستعمار والنفوذ الأجنبى من أن هذه المقومات هى مصدر القوة فى العالم الإسلامى لمقاومة كل ضغط أجنبى .

وقد استهدفت هذه الحملة أساساً قتل روح المقاومة والحملة على الاستعمار وخلق روح تدعو إلى تقبله والرضى به والاستسلام له ، على أساس أنه أمر لا يمكن مقاومته ، ومن المصلحة الانتفاع بالمستعمرين وقبول فـكرهم وحضارتهم ، وتقبل الحرية والاستقلال على مراحل ، وهذا التيار الذى دعى فيما بعد بتيار التعقيل أو الالتقاء مع الانجليز فى منتصف الطريق ، وقد ارتفع هذا الصوت فى السنوات الأخيرة لـكرومر وحاول خلق فلسفة قوامها تقبل الاستعمار وصداقته وعدم معارضته ، وذلك بتصوير الاحتلال على أنه حقيقة واقعة ، وكانت حجة دعاة هذه الحركة التى تمد خطوات التغريب والشعوبية القائمة الآن فى العالم الإسلامى امتداداً لها ، كانت حجة هذه الحركة فى « الاعتدال » أو التعقيل على أساس فهم سلبى قوامه أن التخلص من الاحتلال يحتاج إلى قوة ليست موجودة لدى المصريين وأن الدعوة إلى مقاومة الاستعمار هو انفاق للوقت فيما لا طائل تحته ، وما دام الإنجليز هم الذين يمسكون زمام الأمور وحدهم فلا سبيل إلى الاصلاح إلا بمصادقتهم والتفاهم معهم وقبول ما يتنازلون عنه . وقد أشاد كرومر بهذه الدعوة التى حمل لوائها لطفى السيد فى الجريدة .

ومن هنا تعمقت الحملة على الوطنيين وعلى دعاة الجلاء والحرية وعلى أصوات الدعوة المتحمسة وهوجمت أبشع هجوم ، وقد حملت هذه الدعوة : الإيمان بالفـكر الغربى إيمانا كاملا ونقله ، والتشيع له ، وتحقير كل مقومات الفـكر العربى الإسلامى ورميه بالضعف والجمود والتخلف ، كما حملت لواء التقدير لأمثال كرومر ووصفه

بالبطولة والاعجاب ببريطانيا وأوربا واعتبارها رأس الأمم العظيمة ، وبذلك انحرف ميزان المفاهيم بين القيم الأساسية والمفاهيم المستوردة .

وقد أيد كرومر هذا الاتجاه وأطلق عليه إسم « المدرسة » وتمثل هذا الاتجاه فى كتابات الجريدة ، التى أنشأها الباشوات والاقطاعيون والموالون للانجليز ، وأصبح شعار هذه الدعوة : « الاعتدال ، المحاسنة ، التعقيل » .

ثم كان أن اتجه المخطط التى نهايته فى ظل هذه الحركة وكانت الدعوة إلى :

(١) الأقليمية الضيقة ، مصر للمصريين ، لسنا نحن عربا وليس لنا بالمسلمين أى روابط ، ولا دخل لنا فى أمورهم ومن هنا لا يجوز لنا أن تشارك فى معارك طرابلس التى وقعت مع إيطاليا فى سبيل مقاومة الاستعمار .

(٢) التعليم ، لا يكون إلا لطبقة معينة من الأمة هى الطبقة الثرية التى تتأهل لولاية الحكم وأن أبناء الطبقات الفقيرة لا يجوز أن يتعلموا إلا « فك الخط » .

(٣) اللغة العربية الفصحى هى مصدر التخلف ولذلك لا بد من تحسين اللغة العامية حتى تصبح لغة الكلام والكتابة معا .

(٤) الانجليز يعملون لتمدينا وحمايتنا ، فلا خصومة بيننا وبينهم ولكن مودة وصداقة .

(٥) الوطنية لا تكون إندفاعا عاطفيا ، ولا ينبغى أن يتعلق بأوهام الجامعة الاسلامية أو الرابطة العربية وإنما تقوم على سياسة المصالح فمصر أولا وقبل كل شىء .

وبذلك حقق كرومر هدفه فى خلق تيار واضح فى تعميق دعوته ونشر سمومه وقبول آرائه فى ازدراء الفكر العربى الاسلامى واحتقار الاسلام والعروبة واللغة العربية والشك فى صلاحية هذه المقومات لبناء أمة أو نهضة . فاستطاع أن ينشر هذه الآراء عن طريق صحيفتين : صحيفة لها طابعها العلنى فى تأييد الاستعمار : (المقطم) وصحيفة لها طابعها المصرى الغامض : (الجريدة) .

وقد مضى كرومر خلال فترة إقامته فى مصر إلى آخر المدى فى تنفيذ مخططه الاستعمارى التغريبى الذى يتركز على عدة أعمال أساسية :

(١) الحملة على مركز الرابطة التى تجمع العالم الاسلامى وهى السلطنة العثمانيـة والخلافة والسلطان عبد الحميد وتأييد خصومها وفتح أبواب مصر لهم وإتاحة الفرصة بهم للحملة على الجامعة الاسلامية والخلافة والدولة العثمانية .

(٢) الحملة على الاسلام باعتباره تركيا نفسها وباعتبار أن الكيان القائم فى تركيا بكل أخطائه ومساوئه هو «الاسلام» والتركيز على الخلافة الاسلامية باعتبارها نقطة الالتقاء للعالم الاسلامى رغبة فى القضاء عليها .

(٣) الاتفاق مع فرنسا وتوقيع الاتفاق الودى وذلك حتى لا يجـد المصريون مجالا للحملة على بريطانيا ومقاومة نفوذها ، وقد كشف ذلك عن أن الاستعمار ملتق على هدف واحد هو السيطرة على العالم الاسلامى .

(٤) استقدام عديد من الأجانب ومن السوريين واللبنانيين خصوم الدولة العثمانية ليصبحوا « ركائز » فى دعم الحكم وإتاحة الوسائل الكفيلة لهم بالكتابة والتجارة والسيطرة على مجالات الاقتصاد والفكر والصحافة .

(٥) نشر اللغة الانجليزية والثقافة الانجليزية على حساب اللغة العربية والثقافة الفرنسية فى محاولة القضاء على الفكر الاسلامى العربى وبذلك أمكن تجميد اللغـة العربية فى المدرسة المصرية والجامعة وتجميدها عن النمو فى العالم العربى والاسلامى كله .

وقد حاول كرومر تنفيذ تجربة الاستعمار البريطانى فى الهند للقضاء على اللغة العربية بها ، وذلك بنشر اللغة الانجليزية حتى تكون لغة تخاطب ، ففرض التدريس بها ، ولقد كان الاسلام هو العامل الأساسى الذى استطاع أن يحمى اللغة العربية بوصفها لغة القرآن ولولاه لانتهت اللغة العربية فى مصر .

(٦) خلق روح الإقليمية وتمصير القيم بعد أن كانت عربية أو اسلاميـة وذلك لعزل كل قطر عن القطر الآخر وأقام حدود فكرية بين أجزاء الوطن العربى والعالم الإسلامى . وقد استطاع هذا التيار أن يبتعد عن جذور الفكر العربى الاسلامى وأن يشجبه شجبا كاملا ، ويجمل الحديث عنه جموداً ورجعية ، كما انتشرت الحملة العنيفة المستمرة على رجال الأزهر ووصفهم بأنهم رجـال الدين وإلقاء اتهامات

الأكليروس على علماء المسلمين ، كما نقلت الاتهامات التى وجهها الفكر الغربى إلى المسيحية الغربية على الاسلام . ولم تمر حملات كرومر دون أن تواجه بمعارضة ونقد وتشريح وكشف لما بها من أخطاء ومغالطات وتعقيب .

وأبرز ثلاثة تناولوا كتابات كرومر بالرد هم : فريد وجدى ومصطفى الغلاييني ورشيد رضا . وعندما صدر كتاب مصر الحديثة (مارس ١٩٠٨) نشرت اللواء والمؤيد ردوداً تفصيلية ، مما جاء فيها قول المؤيد « لم يكن كرومر من رجال العلم والفلسفة ولا من رجال التأليف ، إنما كان جنديا يؤمن بمجد الامبراطورية ، تعود بحكم وظيفته أن يكتب ، ونظرته استعمارية تنبع من وجهة نظر سيطرة بريطانيا ، وهى قائمة على كراهية للشرق والعرب والمسلمين واحتقارهم والايمان بأن الرجل الأبيض له حق تمدينهم » .

٢ — وقال فريد وجدى فى رده على كرومر أنه مما لا خلاف فيه أن الاسلام كان وحدة سبب يقظة الأمة العربية والروح التى بعثتها لتكوين وحدتها الاجتماعية والسياسية وأنها باسمه وبتأثير تعاليمه اتصلت من بين شعابها وهضابها الرملية لمنازعة دولتى الرومان والاعجام حق السيادة الأرضية ، وباسمه أسست تلك المملكة الباهرة فى الأندلس التى كانت سببا فى إيصال نور المدنية إلى أوربا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين ، فهل يصح أن توصف المبادىء التى كونت هذه الدول بأنها مبادىء تميت الشعوب التى تسود فيها .

(٣) أما مصطفى الغلاييني فقد أصدر كتابا فى ٢٢٤ صفحة باسم « الاسلام روح المدنية صدر ١٩٠٨ فى بيروت وأعيد طبعه فى مصر بعد ذلك .

وقد رد فيه مفصلا على آراء كرومر عن (١) التعصب فى الاسلام . (٢) الرق فى الاسلام . (٣) المرأة فى الإسلام . (٤) المدنية الاسلامية وأجاب على ثلاث أسئلة هى : (١) هل الشريعة الاسلامية لا توافق هذا الزمان . (٢) هل الاسلام مدن الإنسانية أم آخرها . (٣) هل القرآن مناف للعمران .

(٤) أما الشيخ رشيد رضا فقد رد فى المنار مجلد ١٠ (١٩٠٧) على ما ذكره كرومر وأعاد إلى الذاكرة ما وجهه إلى المستشار الانجليزى عام ١٩٠٥ عندما هاجم

الشريعة الاسلامية وقد جاء فى ذلك قوله إلى كرومر : « هل عنيت بما قلت فى تقريرك الأخير عن الحكم بالشريعة الاسلامية التى وضعت منذ أكثر من ألف سنة الدين الاسلامى نفسه الذى هو عبارة عن القرآن الكريم والسنة النبوية أم عنيت بذلك الفقه الاسلامى الذى وضعه الفقهاء .

وقد رد كرومر فى مكر ولؤم ، فقال أنه انما قصد الفقه ولم يقصد الدين الاسلامى نفسه .

رد فريد وجدى على اتهامات كرومر وشبهاته

غير خاف فى أن الاسلام كان وحده سبب يقظة الأمة العربية والروح الذى بعثها لتكوين وحدتها الاجتماعية والسياسية ، وأنها باسمه وبتأثير تعاليمه انفلتت من بين شمابها وهضابها الرملية لمنازعة دولتى الرومان والاعجام حق السيادة الأرضية . وباسمه أسست الخلافة الأموية التى مدت ملكها إلى حدود الصين شرقاً ثم إلى حدود فرنسا غربا ، وباسمه أسست الخلافة العباسية التى حفظت كنوز العلم اليونانى من الأفكار وباسمه أسست تلك المملكة الباهرة فى الأندلس والتى كانت سبباً فى إيصال نواة المدينة إلى أوربا فى القرنين الحادى عشر الثانى عشر ، فهل يصح وصف المبادىء التى كونت كل هذه الدول وكانت باعثة لكل هذه المدنيات الفاخرة فى مدى فترة قرون متتابعة بأنها مبادىء تميت الشعوب التى تسود عليها . نعم طرأ على المسلمين فساد اجتماعى بعد قرون من ظهور الإسلام وبعد بلوغ مملكته ومدينته أشدهما ، فهل يليق بباحث أن يلقى تبعة ذلك الفساد الطارىء على الإسلام نفسه ، أم الأولى أن يقال أن ذلك الفساد سببه حلول مبادىء مناقضة لمبادىء الإسلام الحقة ساقت الأمة إلى لوازمها ومقتضياتها أن مبادىء الإسلام شىء غير آثارها التاريخية .

(٢) أن الشريعة الإسلامية لم تبتكر الرق بل كان موجوداً قبل ظهورها بألوف السنين ، وهى لم تحتمه وإنما أجازته مراعاة للحكمة التاريخية .

إن الإسلام علق أمر الاسترقاق فى الحرب بإرادة الحكومة تمهيداً لأبطاله حينما تدرك الجمعية البشرية بواسطة الحوادث المهذبة ضرورة ذلك ، لذلك لما توصلت المدنية لأبطال هذه العادة كان المسلمون من أول من لباها ، ولم يسمع أن عالما من علماء الإسلام قام فى بلد من البلاد وطعن على مبطلى الاسترقاق زاعما أن أبطاله مما ينافى الدين .

(٣) أما من جهة العلاقة بين الرجل والمرأة فليس فى الإسلام منها ما ينقض أعلى المبادىء الدنية بل هو قد سبقها إلى تقرير حقوق للمرأة لم تصل إليها مدينة أوربا إلى الآن ، فالإسلام قد اعترف للمرأة بأن لها روحا كروح الرجل وهو الحق الذى أبته أوربا عليها زمنا طويلا وقرر بأنها شريكة الرجل فى الحياة وأنها كائن ممتع الخصائص بكل الإنسانية التى تؤهلها لأرقى مراقى البشرية وقد أباحت لها الشريعة الإسلامية أن تلى القضاء بين الرجال وأن تلى الافتاء فى شؤون المسلمين ، وهذا من الحقوق التى لم تنلها المرأة فى العالم الغربى إلى الآن، وأجازت لها أن تتصرف فى أموالها استغلالا وإيجاراً ورهنا وبيعا ، وهذه أيضاً من الحقوق التى لا تتمع بها المرأة الأوربية تمتعاً تاما ، وحث الشارع على أن تحضر المجامع الدينية والنوادى الشورية العامة عند طرؤ حادث على المسلمين وصور لها أن تبدى رأيها فى وسط الجموع ، وعلى الحكومة أن تحله محل الاعتبار أن كان حقا ، والمرأة بنص الكتاب شريكة الرجل فى الحياة شركة رباطها المودة والرحمة ، ولا توجد شريعة فى الدنيا لا توجب على المرأة خدمة زوجها إيجابا قهريا غير الشريعة الإسلامية ، فالمرأة فى نظر الاسلام شريك محترم له حق الرعاية والاكرام لازميل ممتهن ومما يعد مدهشا فى احترام الاسلام لحرية المرأة أن لا يوجب عليها إرضاع ولدها ولها أن تجبر زوجها على استرضاع بواسطة وضع ما صوره .

فهل كل هذه الحقوق الممنوحة للمرأة التى لم تصل إلى بعضها المرأة الغربية مما يمكن أن أن يحتقر فى نظر الباحث الأوربى ويعلن عنه على رؤوس الاشهاد أنه مما ينافى الفكر العصرى . لعل جناب اللورد يرى ما عليه العامة من المسلمين الآن من الخشونة فى معاملة النساء فيظن أن ذلك عملا بشريعتهم وإذا كان كذلك قلنا لا يصح أن تتخذ حال العامة فى أمة صورة صحيحة لشريعتها وإلا لرأينا فى عامة أهل أوربا ما يحملنا نحكم على أصول من بيئتهم بأنها من أحط الأصول وأبعدها عن العواطف الكريمة .

ويعيب اللورد كتاب الاسلام (القرآن) بأنه جمع فى دفتيه بين القوانين المدنية والجنائية والدينية وأكد بأن هذا الجمع هو السبب الفعال فى انحطاط كل الأمم التى تدين بهذا الدين . فلم نفهم وجه ارتباط الانحطاط بذلك الجمع ولم نقف فى تاريخ البشر على ما يقوى شبهة اللورد ويؤيدها ، بل رأينا ان كتب كل المدنيات القديمة التى كانت ولم تزل إحدى مفاخر النوع البشرى كانت جامعة بين القوانين المدنية والدينية وهذه بين

أيدينا كتب قدماء المصريين والبابليين والأشوريين والهنديين والعبرانيين واليونانيين والرومانيين تشهد بما نقول وما من أمة من هذه الأمم إلا ولها صرح قائم فى عالم المدنية الإنسانية . ومما يصح اتخاذه برهانا عمليا على أن اجتماع كل تلك القوانين فى كتاب واحد لا يعطل سير النهضة المدنية ولم تمد بالنفوس عن بلوغ أرقى شأن من الترقيات .

ولعل اللورد كرومر يريد مبدأ جمع الاسلام بين الدين والسياسة وهو المبدأ الذى حاربته أوربا من بدء القرن الثامن عشر ولم تزل تحارب بقاياه إلى اليوم لتبرز سياستها ملحدة بلا دين من كل وجه وهو على رأى بعض السياسيين مطلوب الروح العصرية الحافزة .

أن تشبيه اختلاط الديانة والسياسة فى كتابنا لقيام أمر حكومتنا على هذا المبدأ المشترك بما كان حاصلا فى الأمم الأوربية قبل قرن من الزمان هو تشبيه مع الفارق الجسيم ، ذلك لأن كتب الديانة النصرانية أعتبرت الأمة مكونة من طائفتين متميزتين ؛ رجال الكهنوت وطائفة الشعب ووهبت للاولين من الامتيازات ما علا بهم عن مستوى العامة والخاصة معا . ومدت فى سلطتهم على الانتاج والأرواح حتى جعلتهم فوق الملوك نفوذا فحدث من ذلك من التقارير بينهم وبين الملوك ما جر إلى أقسى الحروب وأفظعها قرونا مستطيلة . كانت أوربا فى أثنائها كحدوة بأرجلهن واستمر النزاع حتى توصلت فرنسا لوضع حد لتلك السلطة الدينية الخطرة ، أما فى الإسلام فالامر على خلاف ذلك لأن الإسلام بحكم مبادئه الحرة لم يعترف بوجود طائفة ممتازة تدعى طائفة رجال الدين فلم توجد فيهم الامتيازات الكهنوتية ولم تقم فيه طائفة قوية تنازع الحكومة سلطتها الزمنية . وماعلماء الإسلام فى نظر الكتاب إلا أفراداً انقطعوا لدراسة الدين بمحض اختيارهم وليس لهم أمام القانون الإسلامى أدنى اعتبار مدنى أو دينى وليس لشكل الألبسة أوامر دينية تجبرهم عليه . على أن الشكل الذى يحافظ عليه علماء مصر تشاركهم فى أكبر التجار والزارعين فى جمع البلاد المصرية .

ليس لدى المسلمين مسألة يقال لها مسألة فصل الدين عن السياسة ، بل ولا يتصور حدوث ذلك فى يوم من الأيام ، وذلك لعدم اعتراف كتابنا بأى إمتياز لأى طائفة من الطوائف ، وإنما اجتمعت هذه الأصول عندنا فى كتابنا لتكون سياستنا ذات دين لا يفارقها العطف ولا الرحمة ، ولا يزايلها اللين ولا المروءة فعلاقة الدين بالسياسة عندنا

علاقة أخلاقية روحانية لا علاقة ضغط ولا جبرية ومتى خلت السياسة عن الأخلاق الدينية كانت مجتمع حيل وأكاذيب وليس لأحد أن يعيرنا بامتزاج سياستنا بالدين ما دام التاريخ يشهد لهذا النوع السامى من المدنية بالسبق إلى باحات الكمال البشرى .

لقد أرتنا الحوادث مقدار الضرر الذى حصل من فصل الأخلاق الدينية عن السياسة ومبلغ الخطر المتوقع حدوثه لدوام الحال على هذا المنوال ، ونحن إذا كنا ندعو للرجوع لديننا فإنما ندعو لذلك بعد أن طفنا من التاريخ والحوادث الحاضرة على كل ما يمكن علمه من الشئون الخاصة ، فرأينا رأى العين إن كتاب الإسلام الجامع لسائر القوانين بين دفتيه هو أثبت ما يمكن أن يقوم بناء الإجماع عليه وليس فى هذا ما ينافى مبادىء المدنية العصرية .

(٢) وكان كرومر فى تقريره ١٩٠٦ قد هاجم الاسلام والفكر العربى الاسلامى فى ثلاث مواضع (١) إباحة الاسترقاق . (٢) المرأة . (٣) اجتماع الأصول الدنية والقانونية فى الاسلام . وقد رد عليه كثيرون فى مقدمتهم فريد وجدى ، ومصطفى المنلاطى والدكتور شبلى شميل . وقد نشر فريد وجدى رده باللغة الانجليزية فى جريدة الجيبشيان ستندر حتى يهيىء للورد كرومر فرصة قرائته بنفسه وبلغته ، غير أن كرومر لم يلبث بعد عامين بعد خروجه من مصر أن أصدر كتابه « مصر الحديثة » وعاد فاتهم الإسلام والثقافة العربية الاسلامية مرة أخرى باتهامات جديدة فعاد فريد وجدى إلى الرد عليه مفندا رأيه بادلة جديدة فى بضعة وعشرين مقالا نشرها فى جريدة الدستور عام ١٩٠٨ ثم جمعها فى كتابه : (اللورد كرومر والإسلام) .

ومما جاء فيها قول فريد وجدى : صغر فى عينى جدا من حيث معارفه التاريخية والاجتماعية والدينية وكنت أظن أنه بعد أن قرأ ردى عليه فى أجبيشان ستندارد الانجليزية يؤوب إلى الحق ، فيتنازل عما اختزنه ذهنه عن الاسلام عن طريق الوراثة والتقليد فإذا به ازداد تعسفا وجنى على الحقيقة . ويظهر أن السياسة قطعته عن العلم فلم يدرس فى فلسفة الأديان كتابا واحداً . ويسوءنا أن نجاريه فى تعديه على الاسلام فنكيل له الصاع بالصاع ونريه من أقوال قادة الفلسفة الأوربية مبلغ ما أتت به

المسيحية للعلم والمدنية ، ولكن يردنا عن ذلك أدب اسلامى أفاضه علينا القرآن فنمتنع عن تناول النصرانية بالقول تفاديا من استياء الآخذين بذلك الدين .

ولكن ذلك لا يمنعنا من أن نذكره بقول العلامة « درابر » أن المسيحية لبثت فى أوربا ألف سنة فلم تنجب عالما واحداً ولم يلبث الإسلام غير سنين معدودة حتى نبغ فيه ألوف من أراكين العلم وأساطين الفلسفة . ، إن المصرى تعتبر من أكثر العالمين أدبا وظرفا وكرما وماذا رأى كرومر من سوء أدابنا حتى يحط من قدرنا إلى هذا الحد ، أن ذنب الإسلام فى نظر أهل السياسة من أوربا أنه دين يحمل الآخذ به على الإباء والشمم ، ويحميه من أن يكون مضنة للمستعمرين من الأمم ، مم يكفر المسلم المعتصم ، أيكفر من وجدانه دينا لا يجافى العقل ولا يحجر عليه ، دينا يفتح باب الحرية المعقولة فى وجه كل ميل من أميال جسده وبصره ، دينا يدعو للقوة الدنيوية كما يدعو للمنزلة الأخروية . لا بد أن يكون من الذين يحومون حول كرومر رجل أو رجال دسوا له الدسائس ، فما كان كرومر يستطيع أن يقول هذا الكلام مالم يقم قوم من المسلمين يدعون أنهم آخذون فى اصلاح الاسلام وكلمة اصلاح التى هى فى لغتهم **Reform** تذكرهم بانقلاب أساسى للدين من نوع الانقلاب الذى أحدثه لوثر وكالفان من مؤسسى البروتستانية ، فلما رأى كرومر أن فى مصر رجالا يدعون هذه الدعوى ولم يثمر أعمالهم سنين ثمرة تذكر ، زعم أن الإسلام غير قابل للاصلاح . أما الاسلام فى ذاته فلا يعوزه اصلاح ما ، وكل ما يشاهد فى أهله من آثار الحيدة عنه ، أسبابه الجهل والبعد عن أصوله وفروعه ، فانشر العلم بين طبقات المسلمين تنتهى كل هذه الخرافات . ثم يطلب الاسلام الاصلاح . هل يحجر على المتعلم العلم ، هل يصد الباحث عن البحث ، هل يأمر باحراق المتكلمين فى الطبيعيات ، هل يزجر أهله عن السعادة المادية ، هل يكبح الآخذين به عن الملذات البدنية المعتدلة ، هل يقيم لهم الوسطاء والشافعيين من الكهنة ، هل يأمر الناس بالذلة والمسكنة ، هل يحسن للانسان قتل الناس بمجرد مخالفتهم له فى العقيدة ، هل يبيع حملته الجنة والرحمة الإلهية .

كل ما فى الأمر أن جهال المسلمين غلوا فى تعظيم الصالحين وفى استعمال البيارق

والطبول فى الأذكار ، وافرط أغنياؤهم فى كثرة التزاوج والطلاق ، وهى أمور سببها الجهل ، وأوجبها سكوت العلماء وغدا تنتبه العقول فلا يوجد لها عين ولا أثر .

يقول اللورد أن الإسلام فشل فى تكوين نظام اجتماعى وهذه كلمة تضحك الصخر وتبكيه فى آن واحد ، فياليت شعرى إذا خاب الاسلام فى تكوين نظام اجتماعى فكيف جمع العرب المشتتين وكون منهم أمة دحرت الرومان والفارسيين وما زالت تمتد حتى بلغت أقصى ما بلغته دولة الرومان فى قرون وصار ملكها أكبر من ملك انجلترة اليوم ، ألم يقرأ نظام الأندلسيين فى غرب أوربا فى القرن السابع والثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر من الميلاد حيث كانت أوربا تتعلم منهم العلوم وتقبس منهم المدنية . أتريد دليلا على فساد مزاعم اللورد كرومر أقوى من قوله أن الاسلام خاب فى تكوين نظام اجتماعى فى الوقت الذى أجمت فيه التواريخ أن الأمة الاسلامية اجتمعت بالاسلام وارتقت به وكونت لنفسها فى ممالك متعددة مدنيات باهرة تفضل مدنية اليوم من أكثر الوجوه . ولكن الأغرب فى كل ما مر من تعليلات كرومر لإخفاق النظام الاجتماعى الذى وضعه الاسلام قوله : إنه حط من قدرة المرأة ، كيف حط الاسلام من قدر المرأة وهو الذى أثبت لها روحا وقد نفتها عنها أوربا فى مجمع دينى مقدس ، واثبت أن لها أن تضحك وأن تأكل اللحم وأن تلبس ما تشتهى وقد حرمت عليها الكنيسة الأوربية ذلك فى العصور الوسطى ، وأباح لها حق التملك والتصرف بما لها والتكلم فى شؤون المسلمين العامة وتولى القضاء والافتاء وفرض لها فى بيت زوجها كل كرامة حتى لم يكلفها بارضاع ولا بخدمة منزلية . هذه المرأة الأوربية المعطاة قشور الحرية دون لبابها ، ولم تزل ، لا تمتلك حرية للتصرف بما لها (وليس لها حق الانتخاب لحكومتها) وقد نسى كرومر بأى جهاد نالت المرأة الأوربية بعض ما هى فيه اليوم .

العلة الثانية : خلط العلماء المقلدون الشريعة بالدين حتى أفقدها مرونتها . وهو قول عجيب لا يصدر إلا ممن لا يدرى ماهية التشريع الاسلامى ولا التشريع على وجه العموم ، وهو لمجىء الأصول الشرعية من خلال آيات القرآن ، ولاعتقاده بأن الإسلام دين وضعه

النبى من تلقاء نفسه يندهش كلما سمع أن شريعة المسلمين التى يريدون الرجوع إليها قد ألفها رجل بدوى فى القرن السابع الميلادى لا عهد له بشرع ولا نظام ، فهو كلما يذكر ذلك يكاد يتميز تعجبا من إنحطاط عقل المسلمين لقبولهم شريعة واضعها على هذا الحال . ولو أنه طالع القرآن ولو مرة وتلا بعض السنة الصحيحة فى التشريعات ، ثم ألقى نظرة على مرونة الأصول الشرعية الإسلامية التى وضعها الأئمة وإباحة الإسلام للاجتهاد والاستنباط فى كل عصر ، ولم يقيد فكرة ببعض من أخذ عنه هذا القول من المترجمين المتملقين أو المسلمين المتفرنجين أو العلماء الجامدين لعلم أن أصول الشريعة الإسلامية هى أصول خالدة لا تقبل النقض وأنها مرنة غير قابلة للتحجر ، وأنها أرقى وضعا وأجمع لمصالح البشر من كل شريعة وضعية إلى اليوم ، ويعبرنا اللورد بالمفتى الذى افتاه يقطع يد القاطع للطريق ورجله وهو حد لم يوجبه الله إيجابا ، بل خير القاضى بينه وبين النفى ، وما خيره إلا لاختلاف أحوال الناس باختلاف الأوساط . وليته قرأ أنواع تعذيب السحره والسراق والمجرمين فى أوربا ، حيث كانوا يعلقونهم فى أعمدة جماعات ويوقدون تحتهم نار هادئة تسيح منها لحومهم وشحومهم ويتركونهم يموتوا على هذه الصورة بعد أيام كثيرة ، وليته ذكر أنهم كانوا فى أوربا يأتون بالمرأة المتهمة فيربطون كلا من يديها ورجليها فى بغل قوى ثم يضربون البغال فتجرى إلى كل جهة ، فتتمزع المرأة وهى عارية الجسد على هذه الصورة الفظيعة ، قرأت كل هذه الأنواع فى كتبهم . ولها عندنا رسوم وصور يتفطر قلب من يراها ، فهل يريد كرومر أن أبرز له تلك الرسوم ليراها بعينه فيعرف أن الفرق بين عقوبات الإسلام وعقوبات الغرب بعيداً جداً .

٢ — أما الاسترقاق فقد كان عند ظهور الإسلام مقرراً فى جميع الشرائع الوضعية والسماوية وكان حظر الرقيق لا يفترق عن حظر الجمادات فى كبير شى ، فكان إنفراد الإسلام بإبطال الرق وهو مشروع فى جميع الأديان والقوانين البشرية مما يقابل بالنفور العام ، وليس هذا من الحكمة العلمية فى شىء ، فكان موقف الإسلام إزاء هذه المسألة الخطيرة كموقفه إزاء كل مسألة متأصلة فى النفوس فابتدأ بتضييق دائرة الاسترقاق فجعله لا يصح إلا بالحروب الشرعية ضد الأمم المتحدة ، لا كما يفعله النخاسون فى افريقيا ، ثم أخذ بعد ذلك فى تلطيف حالة الأرقاء بالتأثير على عقول المسلمين ، فقرر بأنهم أخواننا جعلوا تحت

أيدينا لا لنمتهنهم أو نكلفهم مالا يطيقون بل نعاملهم معاملة الإخوان فى الإنسانية ، ثم كافأ ضعفهم فى الهيئة الاجتماعية بأن وهبهم من جهة القانون من الامتيازات بما لم يسمع له فى تاريخ العالم للآن ، فقرر أن تكون عقوباتهم نصف عقوبة الأحرار .

وجملة القول أن الشريعة الإسلامية لم تنكر الاسترقاق إذ كان موجوداً قبل ظهورها بالوف من السنين وهى لم تحتمه وإنما أجازته مراعاة للحكمة التاريخية . وأن الإسلام علق أمر الاسترقاق فى الحروب بإرادة الحكومة تمهيداً لإبطاله . حينما تدرك الجمعية البشرية بواسطة الحوادث المهذبة ضرورة ذلك .

* * *

ويصور الدكتور سامى النشار دور اللورد كرومر فى تغريب الفكر العربى الإسلامى على نحو أشد وضوحا وقوة وذلك بعد مرور أكثر من ثلاثين عاما على كتابات فريد وجدى يقول : إن كرومر قد أتى وكان إليه جماع الحروب الصليبية ، وفيه حقيقتها ، أضغان الصليبيين القدامى وأحقادهم وسخائمهم العتيقة ، أنه حين أتى أعلن أنه سيهدم فى مصر ثلاثا : القرآن والكعبة والأسرة الإسلامية ، وظن هذا الصليبى الصغير أنه بقادر على هدم حقيقة الكون الكبرى ، وأنه إله صغير فى يده الأمر والنهى ، ولكنه حاول وحاول ، واستخدم براعة نادرة حلقة معينة وقد استطاعت هذه الحلقة أن توجه الفكر الإسلامى إلى الاتجاه الذى أراد كرومر .

لا تستطيع أن تقرأ تاريخ المغرب الحديث دون أن ترى اسم المارشال « ليوتى » بارزاً واضح الأثر بوصفه الرجل الذى مهد للاحتلال الفرنسى للمغرب وقعد قواعده ، مثله مثل كرومر فى مصر ، فهو أول حاكم للمغرب (ديسمبر ١٩١٢) ويعده مواطنوه الفرنسيون أنه منشىء المغرب الحديث ، وأبرز أعماله هو خلق الخصومة وتأريثها بين عنصرى الأمة المغربية العرب والبربر ، كما خلق كرومر الخلاف بين المسلمين والمسيحيين فى مصر ، وقد حارب اللغة العربية وحارب جامعة الزيتونة وظل يعمل فى همة حتى عام ١٩٢٥ حينما بلغ السبعين من عمره وقد استطاع أن يكسب بعض شيوخ الطرق الصوفية إلى صف الحماية واستعان بهم على تركيز النفوذ الفرنسى عن طريق الفكر والدين ، وكان ليوتى بارعا فى استغلال الحزازات القبلية ، واستطاع أن يكسب إلى صف الاستعمار أرباب الطرق الدرقاوية التى حملت لواء تثبيط مقاومة الشعب للاحتلال ، فقد أوصى دعاتها الأهالى بالطاعة والتسليم للسلطات الفرنسية ، وقد بلغ مولاى عبد الرحمن غاية ما أمات فرنسا فى هذا وقد ربط مستقبله بمستقبل فرنسا على حد يعتد روم لاندو فى كتابه (تاريخ المغرب فى القرن العشرين) فى أنه لم تكد جنود الحلفاء تنزل المغرب حتى اتصل شيخ الدرقاوية بهم وطلب أن يصبح مواطنا ، وقد قام الطرقيون بدورهم فى استسلام الأمير عبد الكريم فى حرب الريف عام ١٩٢٦ وقد أشار لاندو أن الطريقة التيجانية هى أيضاً قد نفعت فرنسا بنفوذها القوى فى جنوبى المغرب وموريتانيا والريف ، وكذلك الطريقة الكتانية وكان الفضل فى ذلك إلى المارشال ليوتى الذى كان عمله الفكرى من أكبر الأعمال التى مهدت للنفوذ الغربى الفرنسى فى العقل العربى الإسلامى المغربى وقد أولى ليوتى اهتمامه الأكبر إلى مقاومة جامع الزيتونة حتى قال لأحد أعوانه أنه : إذا تم لفرنسا القضاء على القرويين فقد ضمنت فرنسا لنفسها الخلود فى المغرب ، ذلك لأن خريجى القرويين كانوا أهم عنصر فى المقاومة التى واجهت الاستعمار الفرنسى ، ولقد تعرضت جامعة القرويين منذ أواخر القرن الثامن عشر إلى حملة

ضخمة قادها كتاب الافرنج وطعنوا فى معارف أهلها وكفاءاتهم وكان هذا تمهيداً للتدخل فى مناهجها ومحاولة إماتتها والقضاء عليها .

وأبرز أعمال ليوتى هى حركة الفصل بين العرب والبربر ، وقد صور هذا الدور فيكتور بايه فى كتابه (الشعب المغربى أو العنصر البربرى) فقال : لما حفظنا للقبائليين (البربر) فى الجزائر حالهم ، اتخذوا اللغة الفرنسية بدلا من العربية ، ولابد لبربر المغرب أن يتبعوا تلك الخطة ، ومن الواجب علينا أعانتهم على ذلك ، وقانونهم الخاص لا علاقة له بالقرآن ، فيجب أن نثبته ونتممه ونرقيه بكيفية بربرية ، إن لم تكن فرنسية ، ولا نترك القرآن يثبت فى أوطانهم ، واقد جعلنا برنامجا للتعليم البربرى فى فكرة فرنسية ، وجل المدرسين من القبائليين وذلك من أحسن الوسائل لمصادرة اللغة العربية » .

وهكذا كشف مخطط ليوتى وحلفائه هدفهم فى القضاء على اللغة العربية والإسلام والقرآن أساساً باعتبارها وسائل المقاومة للغاصب ، وقد أشار الجنرال مارتى فى كتابه (مغرب الغد) إلى هذا المعنى حين قال « لا حاجة لنا فى تعليم العربية إلى المستغنين عنها ، والعربية رائد الإسلام ، ويجب علينا أن نمدن البربر خارج طور الإسلام ويجب علينا أن نمر من « البربرية » إلى « الفرنسية » بدون واسطة ، ولابد لنا من فتح مدارس فرنسية بربرية تتعلم فيها الشبيبة البربرية اللغة الفرنسية ، ويجب علينا أن نأخذ الاحتياط فى المذاكرة معهم فى شأن الدين ، لأن الإسلام وما وضع على البرابر إلا صبغة سطحية » . وصور مارتى هذه المدرسة الفرنسية البربرية فقال أنها فرنسية باعتبار ما يقرأ فيها وبربرية باعتبار تلاميذها فلا حاجة إلى واسطة أجنبى حيث أن التعليم العربى ، وتدخل الفقهاء ، وكل المظاهر الإسلامية سنبعد عنها ابتعاداً وبذلك نبعدهم قسراً عن كل ما يطلق عليه لفظ إسلام » وقد أشار فيكتور فيكى إلى أنه يهتدى فى ذلك بتعليمات المارشال ليوتى التى تهدف إلى مصادرة اللغة العربية وكتابة البربرية بحروف فرنسية . وأشار جان جيرو فى مجلة المغرب الكاثوليكى إلى أن الجنرال ليوتى فهم أن إثارة التناقض بين العنصرين البربرى والعربى هو الكفيل بجلب المصالح لدولة فرنسا وأنه قد اندفع إلى ذلك بما له من ذكاء حاد يكشف به جانب المنفعة .

وكما أولت فرنسا الجنرال لافيجرى اهتماما خالدا بإقامة تمثاله الضخم فى مدخل تونس ، كذلك أقيم للمارشال ليوتى مدفنا على ربوة تشرف على مدينة رباط الفتح بالمغرب .

وقد أشارت جريدة المقطم إلى الرابطة بين أهداف كرومر وليوتى ، فقال خليل ثابت رئيس تحريرها إن كرومر وليوتى كانا يمثلان سياسة من أكبر السياسات فى القرن التاسع عشر فأنهما مع عنايتهما بالإصلاح الإدارى والمالى والاقتصادى ، لم ينسيا أنهما وكيلا دولتين لهما أغراض ومقاصد لابد من مراعاتها والسهر عليها وأنهم كانوا من أعظم رجال الاستعمار .

وبعد فقد كان ليوتى عاملا على هدم ثلاث قواعد هامة :

١ — اللغة العربية وإحلال اللغة الفرنسية مكانها وتشجيع اللهجة البربرية .

٢ — تحويل التعليم إلى اتجاه الفكر التونسى والثقافة التونسية والقضاء على القرآن والدراسات الإسلامية .

٣ — إقامة المحاكم البربرية وذلك للقضاء على النظم القضائية المستمدة من التشريع الإسلامى .

الكردينال لافيجرى

يعد الكردينال لافيجرى من أكبر دعاة التغريب والعاملين على تثبيت قواعد النفوذ الأجنبى فى المغرب العربى كله ، وعندما توفى ١٨٩٢ كان عملا ضخما قد تم فى الشمال الأفريقى لتركيز دعائم النفوذ الفرنسى حتى نسب إليه وارتبط به المؤتمر الانخارستى الذى عقد فى مدينة تونس ١٩٣٠ بعد أن أقيم تمثال له فى مدخل المدينة عام ١٩٢٥ يمثله وهو آخذ الصليب بيده اليمنى والإنجيل بيده اليسرى ، وما زال قائماً فى مكانه إلى اليوم ، وهو مع الجنرال ليوتى من طلائع الاستعمار فى المغرب أشبه بكرومر ، وزويمر فى الشرق وقد حاول من جاء من بعده أن يربطوا بينه وبين لويس وحملته الثامنة على تونس فقال أسقف قرطاجنه « إن الفكرة العظمى التى كانت تدور بين جنبى سان لوى (لويس التاسع) والتى ورثها الكردينال لافيجرى هى التى تدفعنا إلى عقد المؤتمر الانخارستى ، أن مؤتمر قرطاجنه سيكون حملة صليبية جديدة أو الحملة الصليبية التاسعة والكردينال لافيجرى هو مؤسس جمعية الآباء البيض المبشرين فى الجزائر وتونس ، وكان مصدر العمل كله تقرير حقيقه تقول أن الوسيلة الوحيدة لبقاء الاحتلال والنفوذ الفرنسى ودوامه هو تحويل أهالى المغرب إلى فرنسيين وتغيير دينهم إلى دين الغرب .

ومن أبرز ضربات الكردينال لافيجرى محاضرته المشهورة عن الرقيق فى الإسلام والتى رد عليها المؤرخ العربى المصرى أحمد شفيق صاحب الحوليات بكتاب ضخم باللغة الفرنسية ترجمه أحمد زكى باشا إلى اللغة العربية .

ومنذ مطالع شباب الكردينال لا فيجرى المولود عام ١٨٣٥ كان اتجاهه إلى درس العلوم اللاهوتية حتى وصل إلى مناصب الأكليروس إلى رتبة « الكردينالية » وقد جال جولات واسعة فى بلاد المغرب وبلاد افريقيا من أجل تدعيم إرساليات التبشير ، والمعروف أن تونس احتلت سنة ١٨٨١ وأن عمله كان تمهيداً لهذا الاحتلال الذى كانت فرنسا تتطلع إليه منذ احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠ ثم تأكيدا ودعما لهذا الاحتلال .

ومن أهم الأعمال التى وضع لافيجرى أسسها :

(١) إقامة مدارس تبشيرية ومنها مدارس للراهبات استطاعت من بعد أن تضم كثيراً من حفيدات الباى والمفتى الأكبر وكبار الشخصيات المتصدرة للقيادات السياسية .

(٢) محاربة اللغة العربية والإسلام والقرآن . (٣) الدعوة إلى إعادة المغرب إلى أصله الرومانى . (٤) توسيع نطاق التبشير فى أفريقيا كلها وأقام جمعية الآباء البيض ذات التاريخ المعروف فى مواجهة انتشار الإسلام . وقد خلفه بونس وفوكو وجول سيكار ولهم مؤلفات خطيرة فى الدعوة إلى تقويض أركان الإسلام والفكر الإسلامى واللغة العربية .

وجملة رأى الكردينال لافيجرى واتباعه أن هذه البلاد (المغرب) بلاد رومانية أصلا ، ولابد من إرجاعها إلى طابعها الرومانى القديم . وفى نفس الوقت الذى كان المؤتمر الأفخارستى يعقد فى تونس على أثر حملة التجنيس ودعوة التونسيين إلى الجنسية الفرنسية ، كان الظهير البربرى الصادر فى المغرب (مراكش) يدعو إلى فصل العرب عن البربر ، وفى نفس العام ١٩٣٠ كان احتفال فرنسا فى الجزائر بمرور مائة عام على احتلالها ، واعتباره احتفالا بمرور قرن على إقرار الكنيسة المسيحية فى الجزائر[١] . وفى هذه الحركات جميعا كان اسم لافيجرى لا يفارق الكتاب والمتحدثين متخذاً منه نقطة البدء إلى توسع نشاط التبشير فى شمال أفريقيا ، ولقد أثار المؤتمر الأفخارستى ضجة لا حد لها ، فقد اعتمد له مليونا من الفرنكات من ميزانية الحكومة التونسية ، وتقرر عقده فى قرطاجنه ، فلما اقترب موعده قدمت إلى العاصمة جماعات كثيفة من الرهبان وأخذت تتجول فى الشوارع ، صفوفا متراصة تتقدمها كشافة ترتدى ملابس الحروب الصليبية ، وهى قمصان بيضاء رسم عليها الصليب من أمام ومن خلف ينشدون الأناشيد الكنائسية ، وكان حديث الرهبان إلى المسلمين لا يخرج عن أنهم من أرومة مسيحية ورومانية وأنهم لابد أن يعودوا إليها ، وأن هذه البلاد « ستدخل فى حياة جديدة بعد ليل الإسلام الطويل »

---

(١) اقرأ هذه القصة بالتفصيل فى كتابنا « الفكر والثقافة المعاصرة فى شمال أفريقيا .

الرقيق فى الإسلام

هاجم الـكردينال لافيجرى الإسلام فى محاضرة له عن الرقيق ، أثارت كاتباً عربياً مصريا هو المؤرخ أحمد شفيق صاحب الحوليات الذى كان فى باريس فى هذه الفترة :

قال أحمد شفيق باشا فى مذكراته : فى أول يوليو سنة ١٨٨٨ ذهبت إلى كنيسة سان سوليبس لأستمع فيها إلى محاضرة عن الرقيق . وهو موضوع يهمنى بصفتى مسلماوكان بصحبة الـكردينال سودانى صغير قال أنه أنقذه من الرق وقد تـكلم عن سير الرق فى أفريقيا ولفت الأنظار إلى انتشاره ومما قال . لقد زاد الرقيق فى أفريقيا منذ عشر سنين وأصبح يقدر بمليون نسمة فى السنة فإذا استمرت هذه الحال خمسين عاما أخرى فلن يبق فى تلك الأنحاء إنسان حر ، وما يزال الرق زائما عند حدود مصر وفى زنجبار وبلاد العرب ، وعلى ساحل البحر الأحمر ، وبالرغم من رقابة السفن الإنجليزية فإن النخاسة يعبرون هذا البحر فى جوف الليل فلا يراهم أحد . ثم تـكلم عما يلاقيه الرقيق من المر والذل وتعرض إلى الإسلام فى هذه النقطة فقال : إن سوء معاملة الرقيق امر يبيحه الإسلام .

وقد عقدت العزم منذ عودتى من باريس على أن أرد بالفرنسية على المزاعم التى وردت فى محاضرة الـكردينال لافيجرى .

وقد رددت على الـكردينال سنة ١٨٩٠ فى مؤلف بالفرنسية ترجم إلى اللغتين التركية والعربية عنوانه « الرق فى الإسلام » وقال شفيق باشا : الذى حملنى على الشروع فى هذا البحث على الاسترقاق إنما هو الخطأ الشائع فى أوربا بخصوص الديانة الإسلامية إذ يزعم القوم أن نصوصها تحض على ارتـكاب الفظائع الحاصلة فى أفريقيا الوسطى ، فلما أقدمت على هذا العمل رأيت الواجب على أن أحيط علم الجمهور بخلاصة تاريخ عن الاسترقاق وموقف الاسلام منه وقال أحمد شفيق : إن الدين الإسلامى الحنيف لا يبيح فى أى حال من الأحوال معاملة الرق إذا كان أبواه مسلمين حرين ، ولا يكون الاسترقاق إلا فى الحرب ومع ذلك فهو مقيد بشروط وروابط معلومة منها أن يتم على وجهه المقرر له ، ومنها أن يكون مع أقوام يؤمنون بالله ورسوله على أنهم إذا رضوا بالاسلام دينا أو دفعوا الجزيه تخلصوا من ربقه العبودية .

أن الشريعة الاسلامية تأمر تابعيها بالتزام الرفق والرأفة مع المملوكين وأستشهد على ذلك بالمأثور عن النبي فقد قال : « اتقوا الله في الضعيفين المرأة والمملوك » . وأمر صلى الله عليه وسلم ، بأن يلبس المملوك من لباس سيدة . وتتغذى من غذائه ، ولا يحمل فوق طاقته وإن كان سيده مقترا في معيشته فلا يسرى عليه ذلك .

إن الكتاب والحكم والأحاديث النبوية تبيح للسيد أن يتزوج مملوكته إذا أعتقها وأمهرها

وقال إن الكردينال لافيجرى واتباعه قد اتهموا الديانة الإسلامية بأنها تدعو إلى النخاسة وتوصى أهلها بارتكاب الفظائع والقبائح التى يرويها عن أواسط أفريقيا .

وبلغ من حكمة أحمد شفيق أنه لم يشر إلى الكردينال لافيجرى فى كتابه الذى لقى بالغ التقدير من الكتاب الغربيين أمثال : مسمر ، رنيو ، أندرى لوبون ، ما سيجلى .

وقالت جريدة الريبو بليكان أورليانز الفرنسية أن لافيجرى رغم أن المسلمين يعتقدون أن الزنجى ليس من العامة البشرية والهيئة الاجتماعية الإنسانية بل هو واسطة بين والحيوانات العجم وانهم يعلمون هذه المتقدات لأطفالهم ويبثونها فى أذهانهم وقد حققنا بالبراهين الدامغة أن الكردينال لافيجرى قد استعمل فى دعواه طرق الغش والتدليس لكى يجتذب تعضيد الفرق الدينية مادياً وأدبياً قد برقش رأيه ودعوته بصفة الدين فنهج منهجاً مناقضاً لطريقة تمثيل الحقائق بالصفة إلى من حقها أن يكون عليها .

يعد « دنلوب » واضع المخطط الأساسى لتغريب التعليم والتربية وإقصاء الإسلام عن برامج التعليم فى المدرسة المصرية ، باعتبار أن التعليم والتربية لها أكثر الأثر فى مخطط التغريب والشعوبية والتبشير والاستشراق إن لم تكن هى جوهر هدف الاستعمار الأساسى ، فإن خلق طبقة من المتفرنجة الذين يفكرون الدين والخلق معا (الإلحاد والاباحة) هو عمل أساسى فعلى هؤلاء يعتمد الاستعمار مستقبلا فى تنفيذ مخططه وتكوين ركائزه التى يعتمد عليها بعد جلاء القوات المحتلة ، وقد قام دنلوب بدور كبير فى تعميق مخطط التغريب وهدم مقومات الفكر الإسلامى ، وكان أبرز ما عمل له : نزع أعتقاد الشباب المسلم فى القرآن وكان مذهبه « متى توارى القرآن ومدينة مكة من بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربى يتدرج فى سبيل الحضارة » .

وكان دوجلاس[1] دنلوب قد عين سكرتيراً عمومياً للمعارف فى ٨ مارس سنة ١٨٩٧ ثم مستشاراً فى ٢٤ مارس سنة ١٩٠٦ ، وقد كان فى أول أمره قسا مبشراً عمل فى وظيفة مدرس للغة الإنجليزية والخط الأفرنجى فى مدرسة رأس التين الثانوية ثم لفت نظر كروم فدفعه إلى العمل فى نظارة المعارف فما زال يترقى به حتى أصبح مسيطراً سيطرة كاملة على شئون التربية والتعليم . وكانت أبرز أعمال دنلوب .

١ — العمل على محاربة اللغة العربية والإسلام والأزهر لذلك عمل على اضطهاد معلمى اللغة العربية من الأزهريين .

٢ — نشر لواء اللغة الإنجليزية وتأهيلها للسيطرة الكاملة على كل شئون التعليم وبذلك أمكنه القضاء على نفوذ اللغة العربية ولقد مضى فى ذلك إلى حد أنه جعل تعليم سائر

---

(١) ولد دنلوب فى اسكوتلانده ١٨٦١ وتخرج من القسم اللاهوتى فى إحدى كلياتها ، وجاء إلى مصر مبشراً ١٨٨٩ وعين مدرساً فى مدرسة سنت أندرو التابعة للمجمع التبشيرى لاسكوتلاند ، بمرتب فرنكات معدودات ، وسعى لدى كرومر بمساعدة السير فونكريف وكيل الأشغال حتى عين مدرساً للغة الانجليزية فى مدرسة المهندسخانة فالمعلمين الخديوية .

العلوم كالرياضيات والتاريخ والكيمياء والجغرافيا والرسم باللغة الإنجليزية ، وضيق على اللغة العربية تضيقاً كبيراً .

ومما يذكر أنه كان يسافر كل صيف إلى بريطانيا ثم يعود فى أول العام الدراسى ، وقد استقدم معه عدداً كبيراً من الإنجليز جملة الشهادات الأهلية الذين كانوا يعينون بمرتب لا يقل عن ثلاثين جنيها ، وقد اختارهم بنفسه ، وقد كان أبرز كتابات هؤلاء المدرسين الكراهية للغة العربية والعداء للحرية ، ومحاولة تحطيم المجال للأمة العربية وتحصير التلاميذ واتهام تاريخ العرب والمسلمين وإثارة الشكوك حوله ، واتهام الحضارة الإسلامية العربية بالاتهامات المختلفة وذلك لخلق شعور عام بكراهية هذه الأمجاد والنفور منها والسخرية بها ، وكانوا يطمثون روح الوطنية فى الشباب والقضاء على حماستهم تهديدهم ، وكانوا يصفون الأمة بأنها نصف متحضرة ، وقد داسوا على كل عاطفة وطنية واضطهدوا كل شاب أظهر ميلا أو عاطفة نحو دين أو وطن وانشئوا نظاما من التجسس فى المدارس يطاردون به الشباب الوطنى ، وكان محرما على كل أستاذ مصرى أن يتحدث عن تاريخ مصر أو تاريخ الإسلام بما يبرز عظمة أمتنا ، وكان أهم ما يقال إذ ذاك أن مصر بلد زراعى وأنها ظلت محتلة طوال تاريخها بالفرس والرومان والاتراك و . . وأنها لن تحكم نفسها أبداً ، وأن جيشها قد هزم فى التل الكبير وأن الجنود المصريين ذبحوا ليلة ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ التى كانت قمرية كما يذبح الخراف وكان محرما أن تقرأ جريدة وطنية أو تاريخ الإسلام أو العربية .

وقد قاوم « دنلوب » نشر التعليم العالى فى مصر وقد سجل ذلك كرومر فى تقريره سنة ١٩٠٧ « أن انجلترا لا تريد نشر التعليم العالى فى مصر ، وأنها لا تريد إلا إعداد جمهور عن طبقة الأفندية ليشغلوا الوظائف الثانوية فى الحكومة وأن المصريين لا يصلحون للعلوم العالية وأن زيادة التعليم تصرف عن فلاحة الأرض وتعود على مصر بالإفلاس » .

وقد حرص دنلوب بتوجيه كرومر وبريطانيا على تنفيذ خطة واضحة المعالم للعمل على وقف انتشار التعليم أو ترقيته وسبيلهم إلى ذلك تقليل اعتمادات المعارف ، وصرف أغلب المبالغ المعتمدة فى بناء القصور المشيدة واقتناء الأثاث الفاخر المدارس .

وكان دنلوب منفذ هذه السياسة يقول « أن سياستى فى التعليم هى الجودة لا الكثرة »

وهذه مغالطة واضحة . وكان دنلوب يعمل على قلب المدارس الابتدائية إلى أولية راقية اكتفاء بالمدارس الأميرية فى كل مديرية ، كما شجع انتشار المدارس الأجنبية وفق غايات سياسية تسير فى نفس الاتجاه الاستعمارى ، وهو تحطيم كيان الأمة وإفساد معنويتها .

وحرص دنلوب على معاملة الطلبة الوطنيين بمنتهى القسوة فعدل فى ١٩١٠ المادتين ٨٨ و ١٠٠ من قانون نظام المدارس بفرض عقوبات على التلاميذ ، وفصل كل تلميذ لا يحصل على ٢٠ درجة فى السلوك واتخذ من ذلك القانون سلاحا لخنق الشعور بالحرية

وقد سجل مسيو « إدوار لامبير » ناظر مدرسة الحقوق فى تقريره الذى نشره فى جريدة الطان ١٩٠٧ بعد أن أبعده كرومر ودنلوب صورة الصراع بين الفرنسيين والإنجليز على المناصب الكبرى فى التربية والتعليم وكشف عن الخطة التى رسمها كرومر وتفذها دنلوب فى إقصاء الفرنسيين عن المناصب الكبرى فى المدارس العالية وتعيين إنجليز بدلا منهم ، دون أن يكونوا فى مستواهم من الناحية الفنية ، وأنه قد أخرج الأساتذة الفرنسيين من القضاة من مدرسة الحقوق واستبدل بهم شبانا من الإنجليز عينوا بمجرد تخرجهم من الكليات البريطانية دون أن يكون لهم أى قدر من الكفاية التى تمكنهم من دراسة القانون .

كما أشار إلى الأنظمة الاستبدادية التى اتخذها بالنسبة للطلبة وكيف عاملهم بقسوة متناهية ، وأضطهدهم وجرح كرامتهم ، مما أحال مدرسة الحقوق معقلا للوطنية المصرية بحيث أصبح كل طلابها الأربعمائة تابعين للحزب الوطنى .

وأن كرومر حين اضطر تحت ضغط الرأى العام إلى تعيين سعد زغلول ناظراً للمعارف، وعمل على سلب سلطته الفعلية وأشار إلى الخطط التى كان دنلوب يديرها مع نظار المدارس وكبار الموظفين للاتصال به شخصياً وتلقى أوامره وتعليماته قبل أن يكتبوا تقاريرهم الرسمية . وقال لامبير فى تقريره أن الموظف القابض على الإدارة الحقيقية لوزارة المعارف هو دوجلاس دنلوب .

وفى ظل هـــذه الفترة التى قضاها دنلوب فى وزارة المعارف وقد امتدت إلى عام ١٩٣٠ ثم تبعه خليفة له فى تحقق تفيذ خطة التغريب الكاملة للتعليم على النحو

الذى استمر يشق طريقه من بعد ، وكان هدف هذا المخطط أساسا هو تغريب ثقافتنا ومحاولة تدمير شخصيتنا العربية وإحالتها إلى مزيج مضطرب من نتف الثقافات المختلفة ومحاولة التشكيك فى عظمة تراثنا الفكرى وأمجادنا العربية وتاريخنا الباهر الحافل بالمواقف الخالدة فى الدفاع عن الحرية ومقاومة الغالب والمشاركة فى الحضارة والمدنية وحماية آثارها والإضافة إليها وكان هدف التعليم أساساً تخريج موظفين ، وأدوات ، وليس التثقيف العام .

وقد أبطل دنلوب عديدا من الكتب المقررة لأنها تتحدث عن القيم العربية الإسلامية وقد كشفت جريدة المؤيد (٢٥ يوليو ١٨٩٩) عن نماذج من هذا العمل ، وقال أن هذه الكتب غير موافقة لهدفه من الوجهتين الدينية والسياسية وذلك بإيرادها قواعد الإسلام وأركانه مصحوبة بالحكم والآيات والقرآن والأحاديث التى تحث على حب الوطن والتعاون وإصلاح ذات البين ، وفى سبيل شجب هذه الكتب أعلن دنلوب أن مثل هذه الكتب غير وافية بحاجات التعليم وأوغر إلى بعض المدرسين الموالين له بأن يضعوا كتبا بديلة لها ، تضم بعض خرافات لافونتين ، وفى عبارة سقيمة وأسلوب نازل ، وأشارت المؤيد إلى أن الشيخ حمزة فتح الله ناضل فى سبيل إحباط رأيه ، فأعلن دنلوب أن كتب المطالعة يجب أن تكون مجردة خالية من كل ما له مساس بالدين » .

ومثل هذا حدث مع عبد العزيز جاويش الذى عاد من بريطانيا بعد الدراسة وقد ناقش دنلوب فى منهج مدرسة المعلمين وكان رأيه أن يكون المنهج عاما واحداً ، فاعترض جاويش وقال إن فى مدرسة المعلمين بريطانيا برنامجا من أربع سنوات فأشار دنلوب إلى أن مدرسة المعلمين تهدف إلى تخريج مدرسين يؤدون واجباً محدوداً لا يزيد عن إعداد موظفين . كان ذلك متمشيا مع قول كرومر « عقل بريطانى وأيد مصرية » . وقد واجهت مؤلفات عبد العزيز جاويش نفس مصير مؤلفات على مبارك وعبد الله فكرى فقد أقصيت فعلا وألفت كتباً أخرى بدلا منها تحقق هدف « دنلوب » وهدف التغريب أساساً .

ولم يجد « دنلوب » قبولا لعمله وخططه فقد ظلت الصحف الوطنية توالى مهاجمته وقد تعرضت له اللواء فى ٩ أكتوبر سنة ١٩٠٧ فقالت إن المصريين

يعلمون أن دنلوب هو أقوى آلة، وضعها اللورد كرومر لتعطيل التعليم فى مصر وأكبر مقاوم لرقى البلاد من باب المعارف، ومحاولة سد الطرق التى يرقى بها، وأنه يستعمل كل ما أوتى من سلطة وقوة لمحاربة المصريين حتى بالسطو على ذمم الموظفين معه لتجد من ضعفها قوة ومن التلاعب بها السلاح القاتل للأمة » .

وقد أبطل دنلوب عام ١٩٨٨ كتاب على مبارك وعبد الله فكرى (طرق الهجاء) لأنه تحدث فيه عن الفضائل الإسلامية ، ورأى أن هذا الكتاب غير موافق لغرضه من الوجهتين الدينية والسياسية بإرادة قواعد الإسلام وأركانه والحكم والآيات والأحاديث التى تحث على حب الوطن وتعاونه وإصلاح ذات البين وكان هذا الكتاب مقرراً منذ عام ١٨٩٤ ولكنه بمكره أعلن أن هذا الكتاب غير واف بحاجات التعليم وأوعز إلى بعض أوليائه من المدرسين أن يضع كتابا يتفق مع المواصفات الاستعمارية فألف الكتاب الجديد حافلا بخرافات لا فونتين فى أسلوب سقيم وعبارة نازلة .

كما ألغى دنلوب الباب الوارد فى المنهج تحت عنوان العقائد والعبادات الإسلامية ، وناضل الشيخ حمزة فتح الله فى سبيل إحباط رأيه فكان من قول دنلوب أن كتب المطالعة أن تكون خالية من كل ما له مساس بالدين .

لم تكن خصومة « رينان » للاسلام والفكر العربى الاسلامى إلا خصومة للأديان والروحية جميعا ، وقد حمل حملات عنيفة على المسيحية ، ولم تكن آراء « رينان » إلا صورة عميقة لشكوك عصره وشبهاته التى صنعتها مراحل طويلة من تطور الفكر الغربى .

وقد طعن « رينان » فى الاسلام ووصفه بأنه عدو العلم والعقل ، ووصف العرب بأن عقولهم قاصرة بطبعها ، غير مستعدة لفهم الفلسفة وما وراء الطبيعة ، ومع ذلك فإن آراء رينان حافلة بالتناقض والاضطراب فبينا هو يمقت الفكر العربى الاسلامى ويحمل عليه وينتقده انتقاداً مرا يعترف برهبة هذا الدين وعظمته .

وفى دراسة لجرجى زيدان يقول : أن رنيان قد اشتهر بمقاومة النصرانية فبينا كان أبواه يعدانه لخدمتها انقلب حتى أصبح من أشد الناس انتقاداً عليها ، فألف سلسلة مؤلفات فى هذا الشأن صدرها بكتاب (حياة يسوع) وألحقه بأبحاث فى تاريخ الرسل وأصل النصرانية والقديس بولس شدد فيها لهجة الانتقاد حتى أصبح مكروها من كل الفئات الدينية ، ومن مؤلفاته (اللغات السامية) الذى تناول فيه تاريخ اللغات السامية ومقابلتها بعضها ببعض ، وقد بسط تاريخ اللغات العبرانية والفينيقية والآرامية بفروعها ، وقال عن الشعوب السامية أنهم يميلون بفطرتهم إلى التوحيد وأنهم أول من قال بوحدانية الخالق بينما عبدت الشعوب الأخرى آلهة شتى كاليونان والرومان والمصريون .

ورأى رنيان فى النبى محمد رأى متعصب فقد وصفه بالخداع والدجل وقرر أن الذى أسس الإسلام وشيد صرحه هو عمر ، لأنه يماثل القديس بولس فى المسيحية ، وقال أن الفلسفة الاسلامية ما هى إلا الفلسفة اليونانية مخطوطة بحروف عربية ، ولم يهضمها العرب لأن الإسلام دين لا يسمح بحرية الفكر وروح النقد ، كما هاجم ابن رشد وقال أنه لا يعرف كيف يكتب ولا كيف يفكر ، وأن لغته لغة همجية ، ومؤلفاته لا قيمة لها .

وقال أن الإسلام يعادى العلم والفلسفة ، وأنه صارم يتحكم فى العبد وفى دنياه

وفى آخرته ، وأنه ذلك القيد الثقيل الذى لم تصب بمثله الإنسانية فى تاريخها . والواقع أن رينان لم يثبت فى نظر مؤرخيه بأنه باحث مستقر الفكر ، بل عرف باضطراب الرأى وقد وصفه بيكافيه أكبر الباحثين فى آثاره : بأنه رجل يقلب أوضاع الأشياء والمسائل وذلك لاختمار النزعة الصليبية فى عقله الباطن وتملكها على أفكاره فى الحكم على من يخالف تعاليم دينه الأول قبل الحاده وكفره . وقال مؤرخوه أنه أفسد الاستشراق الفرنسى بهذه الآراء وقد سار على نهجه (منك) فى كتابه الفلسفة العربية واليهود ، وكليمان هور فى كتابه تاريخ العرب ، وكازنوفا فى كتابه محمد ونهاية العالم .

والواقع أن رينان مدان برأيه فى الالحاد والتدين أساساً فهو الذى يقول فى كتابه (مقالات ومحاضرات) أقول دائما ، ولست بحاجة إلى أن أكرر أن العقل البشرى يجب أن ينزه من كل المعتقدات الدينية وأن يحصر جهوده فى مجاله الخاص وهو أقام العلم الوضعى . وقد كان كتابه حياة يسوع قد أجج ثورة جامحة فى فرنسا فى القرن الثامن عشر ، وقد انتزعه هذا الكتاب من كرسيه فى كوليج دى فرانس بتهمة الالحاد والكفر ، وكان منذ مطالع شبابه قد أثار حنق الأساقفة ورؤساء الدين عليه ورمى بالزندقة ، حين انتزع نفسه من العقيدة الكاثوليكية وآمن بمذهب الدهريين ، فقد قدس الطبيعة فى كل مظاهرها ، ولرنيان محاضرة مشهورة ألقاها فى ٢٩ مارس ١٨٨٣ فى جامعة السربون عنوانها الاسلام والعلم . حمل فيها على الاسلام حملة متعصبة عنيفة ، وقال أن الدين الاسلامى عقبة فى سبيل تقدم العلم بسبب التعصب وقال أنه اضطهد العلم والفلسفة ، ووصف العقلية السامية بأنها مجدبة كالصحراء التى نبتت فيها ، وقال أنها لا تقوى على التحليل والتعمق .

وقد رد جمال الدين الأفغانى على هذه المحاضرة فى جريدة الدبيا التى نشرت فيها المحاضرة ، غير أن رد جمال الدين فيما يبدو لم ينشر بكامله وإنما اجتذئت منه عبارات الدفاع وظهر كأنما هو تأييد لرينان فيما ذهب إليه .

وقد جاء مصطفى عبد الرازق عام ١٩٢٣ فأثار هذه القصة مرة أخرى فى إحتفال أقامته الجامعة العربية لذكرى رينان وقال وأكد ما ذهب إليه جمال الدين فى تأييد رأى رينان وقال أن فكر جمال الدين تطور فى أقل من ثلاث سنوات . ورد هذا التطور إلى سفره إلى أوربا

واتصاله بكبار الفلاسفة والعلماء وحبه للاستظهار بصداقتهم فى خدمة مراميه السياسية وإندماجه فى سلك الحركة الفكرية الحديثة البعيدة عن الدين .

وقد دافع رشيد رضا عن جمال الدين ، وشك فى النصوص التى اعتمد عليها مصطفى عبد الرازق وأشار إلى أنه لا يعقل أن يؤيد جمال الدين الأفغانى رأى رينان فى أن الدين الإسلامى كان عقبة فى سبيل ترقية العلوم ويتصل بهذا القول ما أشار إليه رينان نفسه حين قال : منذ شهرين عرفت الشيخ جمال الدين بفضل مساعدنا مسيو غانم ، وقليل من الناس من تركوا فى نفسى أثرا كأثره . أن محادثاتى معه بينت لى أن الإسلام فى نصفه الأول لم يحارب العلم ، وأن المسلمين لا يحاربون العلم والفلسفة إلا عندما يتمدون عن المصادر الأولى لدينهم وعندما تضطرب أحوالهم الاجتماعية والسياسية .

وقد تصدى لهذا الأمر باحث عربى فى السنوات الأخيرة هو « عباس مكى » الإيرانى الأصل ، الذى استطاع أن يكشف الستار عن حقيقة موقف جمال الدين فى هذا الأمر ، فقال أن المحاضرة ألقيت فى ٢٩ مارس ١٨٨٣ وكان جمال الدين فى باريس فلما نشرتها جريدة الدبيا فى ٣٠ مارس ١٨٨٣ أرسل مكتوبا إلى محرر الجريدة فلم ينشر قبل ١٨ مايو من هذه السنة ، وأنه نشر بغير اهتمام معلقا على محاضرة رينان ، وجاء فى الديباجة : أن الشيخ جمال الدين أرسل مكتوبا فى هذا الشأن باللغة العربية يحتوى بعض ما خطر بباله عند قراءته هذه المحاضرة ، فبادر إلى ترجمة أصح ما يمكن لهذا المكتوب لاستفادة قرائنا . وقال الكاتب أنه لا يمكن العثور على الأصل العربى ، ولا يمكنا أن نعرف هل هو أصيل أم مفتعل ، وقد رأينا أن جواب جمال الدين (كما نشر) فيه تدليسات وتحريفات من قبل مترجم المكتوب فى إدارة الجريدة ولعله هو رينان نفسه ، وكان رينان أحد المحررين الموظفين فيها . ودليل ذلك أن المحاضرة نشرت فى أواخر مارس ولم يطبع الجواب إلا بعد شهرين تقريبا ، ولا نظن أن مجاهدا مثل جمال الدين مكث إلى هذه المدة لتدوين رده . والراجح أن جمال الدين كتب رده فى مدة أسبوع ، وكان يفهم الفرنساوية فقرأ المحاضرة ، فور ما طبعت ولكن لأجل الرد قد طلب من بعض أصدقائه أن يترجم له المحاضرة بدقة وصحة . ومن الراجح أن جمال كتب بالعربية ، لأن رينان كان مستشرقا يفهم تلك اللغة ، وكان

الغرض الأصلي أن يطلع عليه رينان الذى كان صديق جمال الدين وبينهما معرفة قبل هذه المحاضرة ، فلما أرسل مكتوبه إلى رينان انتظر حتى يأس جمال الدين من نشر جوابه لأن جمال الدين لو قرأ مكتوبه فى الجريدة ووجد به تحريفا لردها ، ولا تعرف إذا كان قد احتيج إلى محرر الجريدة عن تدليساته وهل أهمل المحرر الرد الثانى .

هذا فضلا عن أن جمال الدين من مجاهدى الإسلام والمدافعين عنه طول حياته وآرائه معروفة وتآليفه بين يدى الأنام متداولة فى جميع أنحاء العالم فهل يحق لمثله أن يقول ما نشر فى جريدة الدبيا مما نسب له . ومنه أن الإسلام اجتهد لخنق العلم وإيقاف حركة النهضة . ولا شك أن محاضرة عبد الرازق كانت سقطة من سقطاته ، وكانت حلقة من حلقات التغريب فى هذه الفترة فكيف تحتفل الجامعة المصرية برجل اتهم العرب والمسلمين فى دينهم وتاريخهم وفكرهم . ولقد رد على مصطفى عبد الرازق كثيرون وكان النقد الذى وجه إليه ينصب على أنه أيد آراء رينان ولم ينقضها ، وأنه اتهم جمال الدين بأنه قبلها ووافق عليها ، وقد أشار إلى ذلك أحد الباحثين فى صحيفة الأخبار (٢٠ مارس ١٩٢٣) حين قال : أن إلقاء « مصطفى عبد الرازق » لهذه المحاضرة لم يعن صاحبها بأن يمحص ما فيها من الآراء لأن إلقاء مثل هذا بين جمهور عظيم بدون تعرض لهدم أدلة ساقها رجل فرنسى بالطعن فى الإسلام ، مع أن هدم تلك الأدلة فى نظرنا لا يحتاج إلى جهد كبير ، دليل ناهض على أن هناك غرضا مخبوءاً وراء هذه المحاضرات وكيد يكاد » .

* * *

وقد رأينا أن نرسم عن طريق هذه القضية صورة للتغريب وتداخله العجيب الذى يفرض على جامعة ناشئة أن يحتفل بذكرى رجل هاجم العرب والمسلمين والقرآن وتاريخ الإسلام بينما هى لم تحتفل برجل غيره من أعلام العرب أو المسلمين أو حتى من الغربيين الذين انصفوا العرب والإسلام أمثال جوستاف لوبون ، وأن يكون الذى يردد هذه الاتهامات رجل تخرج من الأزهر ، وأن لا يقف الأمر على ترديد الاتهامات بل اتهام

جمال الدين الأفغانى وهو الذى يعد فى نظر الباحثين موقظ الشرق[1] والعرب والمسلمين بأنه قبل رأى رينان وأيده فيه ووصل إلى حد الانحراف فى عقيدته .

وقد وجه رينان فى محاضراته أتهامات واضحة تتلخص فى :

(١) نشأ من التساهل الواقع فى التعبير بعلوم العرب وفلسفة العرب وفنون العرب وتمدن العرب وعلوم الإسلام وتمدن الإسلام آراء فاسدة وخطأ عظيم عمل به (٢) انحطاط بلاد الإسلام فى العالم واضح (٣) سبب هذا الانحطاط هو أن عقول المسلمين بلغت من الحمق غايته حتى كان دينهم صار حجابا على قلوبهم منعها من أن تعى شيئاً من العلوم . (٤) العجز عن التقدم ناتج عن دين الإسلام . (٥) دين الإسلام قد نجح ، ولكن لشقائه فإنه لما قبل الإسلام الفلسفة قتل نفسه وحكم عليها بالانحطاط التام .

وقد رد على رينان رجال من أبناء جلدته منهم غوستان لوبون الذى قد أشار إلى محاضرة رينان ووصفها بالتناقص وأنه أراد أن يثبت عجز العرب . وقال لوبون : ولكن نزهاته كانت ينقضى بما كان يجىء فى الصفحة التى تليها فبعد أن قال رينان أن تقدم العلوم مدين للعرب وحدهم عدة ستمائة سنة ذكر أن عدم التسامح مما لا يعرفه الإسلام إلا بعد أن حلت محل العروب شعوب متأخره كالبربر والترك ، ثم عاد فادعى أن الإسلام اضطهد العلم والفلسفة وقضى على العقل فى البلاد التى دانت به .

رد العلامة مسمر

وقد رد مسيو مسمر رئيس الإرسالية المصرية بفرنسا على خطاب رينان فقال : ـ

المسألة التى يطرحها للبحث مسيو رينان فى تناقص الإسلام للعلوم هى مسألة معضلة تقتضى زمناً واسعاً وتتطلب بحثا كثيرا مع حرية فكر وإنصاف .

وإذ أردنا أن تظهر الحقيقة ، وبدون مبالغة فى مدح دين الإسلام ، يسهل علينا أن

---

(١) أثار الدكتور محمد حسين ومن قبله الأستاذ عطية خميس المحامى عديداً من الشبهات حول موقف جمال الدين الأفغانى ودعوته ، ويمكن أن يدرس رأيه هذا فى الرد على « رينان » فى ضوئها .

أن نثبت صواب تفنيدنا دعوى المسيو رينان فإن مطالعتنا وبحثنا فيما يختص بهذه المسألة ، وتجاربنا بمباشرة أهل الشرق مدة طويلة حملنا على أن نأتى فى كتابنا (سوارى دى كونتسانتيول)[1] الذى سبق لنا تأليفه بما يتبين منه رفعة مقام الإسلام فى العلوم ، فإننا نعتقد منذ أربعة عشر سنة ونعتقد الآن أيضاً أن دين الإسلام كما ابتدأ وانتشر وعمل به مدة قرون من جبال البرنية لغاية جبال هملايا هو وحده الذى يلتئم كل الالتئام مع التقدم والتمدن ، وهو وحده الذى لا يعارض العلم ولعمرى لو احكمت أمور أهل الشرق بآراء سديدة لأنتج الإسلام إحياء العلوم والمعارف بعد اندثارها ، كما حصل ذلك فى أوربا فى القرن السادس عشر للميلاد .

جزم المسيو رينان بأن المسلم غير أهل للتعلم ، شديد البغض للعلوم وضرب مثلا لذلك برفاعة بك (يقصد رفاعة الطهطاوى) الذى كان بفرنسا بوظيفة إمام للمدرسة المصرية قائلا أنه ألف بعد عودته إلى مصر كتابا يدعى فيه أن العلوم مضادة لدين الإسلام ، فأقول : إنى قد تعرفت برفاعة بك مدة وجودى بالقاهرة وقبل وفاته ، وتحادثت معه كثيراً فاتعجب مما أبداه المسيو رينان فى حقه حيث يقضى أوقاته فى ترجمة كتب العلم فترى كثيراً من الكتب التى تدرس بالمدارس المصرية مترجمة بقلمه أو تحت رئاسته وقد كان لأبنه دخل فيما فعله عرابى .

وبالجملة فقد حصل تقدم ظاهر فى مدة عشر سنين ، فن زمن قليل كان من جملة تلامذة الإرسالية المصرية ثلاثة مشايخ من الأزهر رجع أحدهم قريباً لإتمام تأليف نبذة فى مقابلة الشرائع ببعضها كى يعرضها على دار علوم مدينة جنيف ويتحصل على درجة الحكمة (الدكتوراه) والثانى : أبو النصر أفندى معلم اللغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية بباريس والثالث : الشيخ حسن جلال الذى يحضر بمدرسة سان لويز التجهيزية للحصول على درجة بكالوريا (إيس سيانس) وزد على ذلك أنه مع قيامه بأداء واجباته فى التعليم حافظ دائماً على صوم شهر رمضان فهو حينئذ ليس بفيلسوف ولا من أهل الشك .

---

(١) الكتاب فى ٢٧٥ ص — طبع فى باريس ١٨٧٠ .

أما من جهة ذكاء عقول الشبان المسلمين ونجاحهم فى العلوم فيمكن أن اتكلم فيه بمعلوميه ، بما إنى متشرف منذ سبع سنين بتدبير أمور الإرسالية المصرية ، ولنذكر مثلين من باب المقارنة والبرهان المظمى وهما (عثمان غالب) ومحمود رياض اللذان مكثا للتعلم بفرنسا سبع سنين ، فالأول رجع إلى مصر حائزا على شهادة الدكتوراه فى الطب والدكتور فى العلوم الطبيعية وهو الآن معلم بمدرسة الطب الكائنة بالقاهرة والثانى نال شهادة الدرجة الثالثة فى العلوم وشهادة الأجازة فى العلوم الفقهية وشهادة من دار العلوم السياسية .

فيمكننا الجزم بأن دعوى المسيو رينان بوجود حجاب على قلوب المسلمين باطلة من أصلها وأن هذا الحجاب لا وجود له إلا فى تصوره .

٢ — قال المسيو رينان أن الإسلام غير معين على التقدم بل هو عين نفيه ، نعم يكون ذلك لو اقتصرنا على مقارنة ما كان للاسلام من البلاد قبل مائة سنة بما هو باق إلى الآن ، فإنه حصل تغلب على حدوده ، من جميع الجهات ، حتى أن ربع بلاد الإسلام وقع الآن تحت حكم الأجانب . ولا يمكن نسبة تأخر البلاد الإسلامية لعدم قابليتهم للتقدم بل لسرعة تقدم البلاد الأخرى .

٣ — من الغريب أنه قبل أن يلقى المسيو رينان خطبة بيومين قد ألقى بعض العلماء الفخام والدكاترة النظام (بياطرة سنتا) أمام المحفل بعينه مقالة عن مأثر العرب فى علم الطب درجت فى الجريدة العلمية المسماه (ريفيو ساينتيفك) بتاريخ ٣١ مارس ، وقد اشتملت على ملخص استكشافات العرب فى « علم الحياة » وحيث كانت معرفة هذا العلم موقوفة على معرفة الرياضيات والهيئة والطب والكيمياء . فهذه المقالة توقفنا على حقيقة تمدن الإسلام فى مدة القرون المتوسطة الميلادية ، فلو كان المسيو رينان أطلع على هذه المقالة ، أو على ما كتبه (سيديو) ودوزى فى مؤلفاتهما عن العلوم والآداب والفنون والصنائع المنسوبة إلى العرب وعرف بذلك ما عملته هذه الأمة من العلوم مما لا يحصى عدده بينما كانت أوربا منغمسة فى حمأة التوحش والجهالة لما نسب هذه الحادثة الخارقة للعادة لأسباب واهية كالتى أبداها .

وإنى لفى غاية العجب من أن أرى رجلا معدوداً من علمائنا وفلاسفتنا ينسب هذا

التمدن العظيم الذى عم العالم ، وكان الحكم فيه شوريا عادلا لشرذمة يسيرة من النسطورية والمجوس واليهود ، وينسى العرب ودينهم وإن كان قد مدحهم ضمناً .

زعم المسيو رينان أن دين الإسلام قتل نفسه بقتله العلوم والحال أن دين الإسلام قد عمر أثنى عشر قرناً ولا يمكن لأحد أن يقول أنه مات كما لا يمكن لأى فليسوف أو سياسى تحديد عمره .

وكما احترم المسيو كوزن الفليسوف مذهب الكاثوليك حيث قال عند كلامه على هذا المذهب أنه باق فى الحياة ثلاثة قرون ، كذلك يجب علينا احترام دين الإسلام والاستعانة به فى كل ما تعود منفعته على العالم كما استعنا فى تقدمنا بجميع القوى الطبيعية بدون أن ننظر إلى ما فعله الأقدمون من احتقارهم إياها .

وينبغى أن نقارن أمرين ببعضهما :

(الأول) : أن الدين النصرانى ظهر فى عصر الإمبراطور أغسطوس وقتما كان التمدن الرومانى فى درجته العلياء وكان منشؤة فى بلاد اليهود وما استطاع أن ينتشر منها بل فى بلاد الأغريق والرومانيين التى كانت أعظم بلاد متمدنة فى ذلك الوقت ، ومنها كان عليه إلا أن يحفظ ما وجده فيها من المعارف والتقدم ويستمر عليه .

الثانى : دين الإسلام كان ظهوره فى زمن لم يبق فيه أثر لهذا التمدن الرومانى ومهده كان بحيث جزيرة العرب أغنى بلاداً قفرة أهلها إلى هذا العهد ، أهل خرافات وأوهام وعبدة أصنام جهلة ليس لعقلهم استعداد لهذا التمدن الاغريقى الرومانى ولا براعة لهم إلا فى قول الشعر . ومع ذلك فترى أن الدين النصرانى أطفأ المصباح الذى كان استامه عباد الأصنام فلما جاء دين الإسلام إضاءة واستنارت الدنيا وكان ذلك أنى تحقيقا لقانون التمدن الذى مقتضاه منع الطبيعة من التقاعد والتقهقر . إن أساس الدين الإسلامى بمقتضى قواعد العلم أرفع من أساس الدين النصرانى بالمسافة التى تفصل الأعقاد بإله واحد مخالف للحوادث والاعتقاد بإله مركب من ثلاثة آلهة ظهر على الأرض فى هيئة إنسان كما أن مبدأه كان أنفع وأخير لمن اتخذه دينا .

فدين الإسلام جاء ليوفق بين جزء عظيم من بنى آدم كان يقاتل بعضهم بعضا بسبب الأديان السابقة وينشر العلوم بين أمم كانت قبل مجيئه غارقة فى الجهل .

إن الدنيا كانت فى هذا الوقت ، أى وقت ظهور محمد (صلى الله عليه وسلم) محتاجة لمن ينقذها من الأهوال التى كانت فيها ، ومن شذ وقال أن محمداً كذاب فقد بت فى المسألة بدون أن يحلها ويبين أسباب نجاح محمد ، أما نحن معاشر الفلاسفة المحققين فنقول أن الرجال إلى العظمة الذين تبقى أعمالهم خالدة مدى الأزمنة هم من أهل النباهة الفائقة يجيئون لإصلاح العالم ولشفاء عصرهم من مرضه ، وما فعله محمد هو أنه لما رأى ضلال الناس ، فى معرفة الحقيقية ، عزم على إرشادهم وتطبيق قوانين الطبيعة على أمور العالم بقدر ما كان معروفا فى ذلك الوقت لذلك أعلن بأن الله واحد ، ثم أن الوحدانية التى هى أساس دين الإسلام هى السبب فى نصرة محمد ، ولقد أصاب بعض المؤلفين العظام فى قولهم أن إعلان الوحدانية فى وقت ملت فيه الأمم من خرافات علم اللاهوت ، كان من أفضل الأشياء ، حتى أنه بمجرد ما نطق بها محمد أحرقت جميع معابد الأصنام وأنارت بذلك ثلث الدنيا .

فهل يحق لنا جهل حقيقة معنى الإسلام فى زماننا هذا ، أعنى زمن المناقشة بالأفكار والآراء المستجدة الحرة ، كما يفعل الأكثرون ، فإن لا نرى إلا بونابرت الذى عرف حقيقة بقريحته الوقادة معنى الإسلام فى قوله : « أن النصرانية تهديد والإسلام وعد » ، والكاتب مراشى الذى كان موجوداً منذ قرنين فإنه مدح محمداً بقوله « أن الدين المحمدى حفظ ما كان معقولا من الدين النصرانى وزاد عليه كل ما هو موافق لقانون الطبيعة » .

ومن تأمل كلام « القرآن » رأى أن محور « الإسلام » الوحدانية وقطبية المواخاه وتحسين شئون العالم بالتدريج بواسطة العلم ، فهذه هى حقيقة أسباب نصرة الإسلام ، وقد حدد رينان لرفعة بلاد الإسلام خمسمائة سنة ، والحال أنها تزيد عن ذلك بكثير ، فإنه بعد هبوط دولة بغداد ودولة قرطبة ، جاء السلطان سليمان ورفع عظمة الإسلام إلى أقصى درجة إذ عند وفاته كانت دولة الإسلام تحتوى على مائة وعشرين مليوناً من النفوس ، يهابها جميع سكان الأرض بقوتها الحربية وحكم نظامها ودراية حكامها وأزهار تمدنها وما ابتدأ الاضمحلال إلا من بعد حصار مدينة (ويانه) سنة ١٦١٣ كما ابتدأ أضمحلال أسبانيا من بعد واقعة (دوكردا) .

وعلى ذلك يلزمنا الاعتراف بأن عظمة الإسلام تحت الترك كانت كعظمته تحت العرب ، فمن يجهل ما كان للترك من الرفاهية والعظمة والمقام فى رفعة الإسلام ، فليقرأ المؤلفات المشهورة كتاريخ الحروب تأليف مونتوكلى وتاريخ الدولة العلية .

وفى سنة ٧٤٣ من الميلاد أى بعد مائة واحد عشر سنة من وفاة محمد (صلى الله عليه وسلم) كانت دولة الإسلام أكبر من دولة اسكندر المقذونى ، وقدر مملكة قيصر تقريبا ، وفى ١٥٦٦ م عند وفاة السلطان سليم كانت أكبر من مملكة الرومانيين ، فبذلك يتضح أن عظمة الإسلام مكثت ألف سنة ، وكل من يعرف أنه لا يمكن الوصول إلى مثل هذه الدرجة العليا فى الأمور السياسية والحربية إلا بالعلوم يجزم بأن الإسلام كان متقدما فى العلوم والتمدن كما أن كل من يعرف أن للأديان والممالك أعماراً كالأشخاص تنمو ثم تهدم ثم تموت ، يعرف أن ما وقع للأديان والممالك أعماراً لابد من وقوعه للاسلام ومملكته ومع ذلك فالإسلام قبل أن يأخذ فى الأضمحلال قد أدى إلى ما وجب عليه إذ كان الواسطة بين تمدن الأغريقيين الرومانيين وزمن إحياء العلوم عندنا ولولاه لوقف تقدم العالم مدة عدة قرون ، فهذا هو فضل الإسلام ، وقد سمى العالم الفرنساوى (لتيريه) تمدن العرب بزمن إحياء العلوم الصغير والحاصل أن نسبة تقدم العلوم عند المسلمين لمن يكن دينهم كنسبة فتح الإسلام لجأة ثلث الدنيا للعرب لا غير ، كان سرعة نجاح الإسلام لا يمكن توضيحها إلا بإسلام الأمم الصغيرة التى كانت مجاورة للعرب .

وجميع المذاهب التى كانت توعط بالوحدانية قد تلاشت فى دين الاسلام كما يتلاشى الغدير فى النهر . أما أسباب انحطاط الإسلام فى هذا الزمان فهى عدم الاشتغال بالعلوم ، فإن التاريخ يفيدنا حقيقتان (الأولى) أن تقدم العلوم فى وقتنا هذا حصل رغما عن الدين النصرانى أما دين الإسلام فالعكس من ذلك ، أى لا يمكن أن يبقى على قيد الحياة إلا بانتشار العلوم وتقدمها ، فإن بين الاسلام والعلوم (رابطة كلية) (الثانى) أن النصرانى إذا صار عالما ترك دينه بخلاف المسلم فإنه لا يترك دينه إلا إذا صار جاهلا ، فبأى وجه يمكن نسبة التمدن الحالى إلى الدين النصرانى والحال أنه ما جاء إلا بعد خمسة عشر قرنا من ظهوره .

وبأى وجه يمكن نسبة انحطاط المسلمين إلى دينهم ؟ الحال أن السبب الوحيد فى تمدنهم السابق الذى مكث ألف سنة ، وكان عاما مؤسسا على الشورى هو الأصول المبينة فى « القرآن » فهل مات الاسلام ، لا يجيب على هذا السؤال بالاثبات إلا من كان قليل العقل . فالدين الذى له ملايين من النفوس مستعدون للمدافعة عنه بكل ما يمكنهم • ليس على شرف الزوال وله عمر طويل . ولو نظرنا إلى التقدم الحاصل فى بلاد الاسلام منذ خمس عشرة سنة ، لاتضح لنا أن المسلمين آخذون فى اليقظة ، كما أن هناك علامات تدل على إشراف أوربا على الفشل ، وعندنا أنه لانجاة لبلاد الاسلام إلا بتعليم الأهالى كما هو مأمور بذاك فى القرآن .

* * *

وقد تصدى للرد على رينان رجل مثل « واصف غالى » الذى قال أن الأكثرية العظمى من كتاب أوربا والذين قد جعلوا من المسائل الاسلامية مظهر علمهم وعنوان شهرتهم ، قد أجمعوا على القول بأن الاسلام هو المسئول وحده عن فساد الأمم العربية وانحلالها . أن أن شبه الاجماع هذا مع الحكم على الشعوب العربية على هذا المثال مما يلفت النظر ، على أننا قد نلتمس لهؤلاء الكتاب وغيرهم بعض العذر لما صادفوه من العقبات التى عاقتهم عن درس المؤلفات العربية بتعمق ، لأن الكتب تتابع فى موضوعها وتتشابه فى أغلاطها ، فضلا عن أن بعض الأغلاط التى أرتكبت وتقادم العهد عليها قد ألفها الناس واطمأنوا إليها ، من الخطر على الكتاب والباحثين أن يتعرضوا لاستئصال شأفتها فلا غرابة إذ اتفق الاباحيون والمتمدينون على هذا الحكم القاسى ، الأولون لأنهم تعلموا من الحرية المطلقة فى الفكر أن يسخروا من المعتقدات جميعاً ، وأن ينتقدوا الأديان نقداً مراً ، والآخرون لأن عقائدهم الدينية قد جعلت نفوسهم جامدة لا تلين .

يقولون إن الإسلام قد حط من قدر المرأة وجعلها ملهاة للرجل ، وجهلوا أن محمداً صلى الله عليه وسلم بذل أقصى الجهد فى تحريرها وطمأن مصالحها وتحسين مركزها المادى والأدبى ، وما على المتشككين إلا أن يرجعوا إلى تعاليم النبى ليعرفوا كيف رفع « محمد » المرأة إلى المكان اللائق بها .

ولا شك أن التطبيق الدقيق لأحكام القرآن ونصوصه يكفل للمرأة المسلمة الحديثة التمتع

بالحقوق المدنية التى يمكن فى دائرة المعقول أن تصبو إليها ، فهل يمكن بعد ذلك القول بأن الديانة المحمدية ترى بتعاليمها إلى تحقير المرأة وأنها تتنافى مع تحريرها ورقيها .

ومن عجب أن كثيرون كتبوا منصفين لفكرنا العربى الإسلامى ولحضارته . غير أن « رينان » بآرائه القاسية المتعصبة كان يجد تقديرا وترديداً فى دوائر الجامعة والصحافة .

وقد تناول رينان العرب والعقلية السامية فوجه إليها كثيرا من التسفيه ، كما تناول الفلسفة العربية ووصفها بأنها فلسفة يونانية كتبت بأحرف عربية .

وقال أن « الوحدانية » هى أية السذاجة والبساطة فى العقل السامى ، والساميون وحدون بالطبيعة ، والتوحيد من شأنه البساطة والسذاجة ، وأن — الساميين والعرب أصفى عناصرهم — ليس لهم علم ولا فلسفة ولا شعور باللونيات ولا خيال خلاق ولا فنون تشكيلية . ولا آداب ملاحم ولا أساطير تبنى على التصور .

* * *

وقد واجه الدكتور حكمة هاشم أستاذ الفلسفة بجامعة الرباط آراء رينان فقال :

أن أول ما نريد بيانه هو وهن الموضوعة الأساسية التى إعتمد عليها رينان فى دراسة السيكولوجيا السامية ، وقال أنه فى آرائه صدر عن نزعة عرقية باطلة لم تعد ترضى العلم الحديث وأن طريقته الاستقرائية غير مستوفاة . وقال أن أكبر ما نأخذه على رينان تعسفه فى التعميمات التى تتجاوز حدود المقدمات ، والحقيقة أنه إجترأ على تراكيب قضفاضه فوقع فى مثل ما رمى به أولئك الذين يستهويهم وضع النظريات الكبرى بعد نظرهم نظراً غير مستوى فى كتب اللغة وفى النصوص .

وبعد ، فقد كانت لنا قبل الإسلام شعر ملاحم طويلة النفس كالألياذة ، ولكن ما بالنا لا نقيم وزنا للخيال إلا إذا جاء على طريقة الأغريق ، أن ملكة التصور الخلاق تتخذ أشكالا مختلفة والشكل الأسطورى واحد من عديدها .

ثم لقد كان لنا لسان صالح لأن يكون محملا لدين جليل مع ما انبعث عن هذا الدين من عقيدة وشرع وفقة ونحو وحرف وكلام وجدل ومنطق وعلوم عقلية ، فكيف استطاع لسان يعتبر رينان أن أجروميته تمثل طفولة الفكر الانسانى أن يقوى على النهوض بكل

هذا ، بل لقد أتسع لساننا بالذات لاستيعاب حكمة فارس ورياضيات الهند وفلسفة يونان فبأى لغة يا ترى وصلتنا آثار أفلاطون وارسطو وسقراط وجالينوس وأرخميدس .. الخ كيف فهم عنا تراجم العصر الوسيط اللاتيني حكمة اليونان الرفيعة التي مثلناها أولا لحملوها إلى أوربا عن طريق لساننا ليغنى بها التفكير الغربى .

ليس هذا كل ما فى الأمر ، لقد كان لنا فلسفة خاصة يوم لم يكن للافرنج ولا القوط ولا للهون ولا للسلت فلسفة ، افيكفى فى الحط من شأن هذه الفلسفة أن يقال أنها دخيلة علينا .

ولم يكن العرب أمة غالبة دائما حتى نقول أن لسانهم إنما انتشر بقوة السيف ، نعم لقد امتد ملكهم ذات يوم من جبال البرانس وأعمدة هرقل إلى الهند والصين ، ولقد كانوا على رأس العالم المتمدن فى عهود زاهرة كحقبة بغداد فى القرن الثامن المسيحى أيام الرشيد والمأمون ويوم اشعت مملكة الاغالبة على سردينية وصقلية ونابولى ، وكعهد قرطبة فى القرن العاشر . ثم فى حقبة القاهرة الفاطمية وفى المغرب الاسلامى على المرابطين والموحدين . ولكنهم واجهوا نكبات ومصائب كان من حقها منطقياً أن تحولتهم محواً كأداة حضارية .

ومع ذلك لا هولاكو البوذى الذى ذبح أهل بغداد ذبحا وجعل مياه دجلة سوداء من مداد ثقافتنا . ولا الحروب الصليبية التى عاشت فى أرضنا قرنين كاملين ، ولا الفتح المغولى ، ولا الغزو الطورانى ، ولا غلبة الأعاجم علينا فى كل ملة ونحله ، لا ولا الاستعمار الغربى نالت من عنفوان العربية .

لماذا ؟ لأن هذه اللغة أثبتت حيويتها أمام الكوارث لأنها وقد ألقحتها الثقافات الفارسية واليونانية والبيزنطية والهندية عرفت كيف تصفى عصارة تلك الثقافات فيتمثلها نسقها اليعربى الأصيل ، أن سر حياتها القوية المنيفة قائمة على مرونتها وقابليتها للتكييف ، ولنقل مع لويس جارديه أن الخميرة العربيه العامة فى جوف كل الشعوب التى استهواها الاسلام إنما هى هذا اللسان الرائع ذو الأزمنة المركزه حول الذات الالهية ، هذا القرآن المدهش بين أثار علها مسحة الخشونة وبينات تتميز برونق منقطع النظير .

دوق داركور : مصر والمصريون

L'Egypte et les Egyptiens

أصدر دوق داركور كتاباً بالفرنسية عام ١٨٩٣ هاجم فيه الإسلام والثقافة العربية الإسلامية وكان مما قاله أن السر فى تأخر الفكر فى مصر يرجع الى الإسلام .

فالدين هو السبب الأساسى فى التأخر الذى لحظه فى كل بلد إسلامى ، وعنده أن الإسلام لا يحض على البحث فى العلوم غير الدينية ، لذلك احتقر المسلمون علوم الغرب ، واعتقدوا أن القرآن قد حوى بين دفتيه علوم الأولين والآخرين وان كل ما عداه باطل ، أنكر دوق داركور أن العرب الأولين مدنية خاصة وعنده أن المدنية لا تقوم إلا على أساس علمى والعلم عندهم لم يكن يخرج عما أتى به القرآن ، لذلك أمر عمر بإحراق مكتبة الأسكندرية ، ثم أن العرب لم يحاولوا استكشاف علوم الدنيا لأنهم تعصبوا لأصول دينهم وآمنوا بالقضاء والقدر ، لذلك قامت مدنيتهم على قوائم المدنيات العتيقة(١) .

وقد واجه قاسم أمين هذه الحملة بكتاب رد فيه على الدوق الفرنسى أصدر ١٨٩٤ تحت عنوان « المصريون » Les Egyptienes

وقد بدا قاسم أمين فأشار إلى أن الإسلام لم يعترض تطور العقل الإنسانى ولا تقدم العلوم ولا الآداب ولم يحل دون استكشاف الحقائق العلمية ، وقد مضت فترة كان العلماء المسيحيون ينقلون العلم عن العلماء العرب . وفى القرآن آيات تحض المسلم على أن يفكر فى خلق السماوات والأرض ، وأن يبحث ماهية هذه العوالم والعوالم الأخرى ، وقال : إنما عاق التقدم قوم من الجهلة حاولوا تفسير القرآن حسب ما يمليه عليهم الهوى ، وعند ذلك تسربت إلى الدين فئة من الأوهام والخرافات هى التى يحسبها السائحون من أصول الدين وليست فى الواقع من الدين فى شىء ، وقال : أنه سيأتى يوم تجتمع فيه الإنسانية تحت رأيه الإسلام حينما يتبينون أنه دين العلم ودين السياسة ودين الاجتماع .

ودحض قاسم فى رده على داركور ما عرض له من أن الإسلام هو الذى أقام ذلك الاختلاف بين الطبقات ؛ وقال قاسم : أن الإسلام قد سوى بين الناس جميعا ، وليس من قواعد الجماعة المسلمة أن يرث الرجل امتيازا خاصا لأنه من أسرة أو من طبقة خاصة ، بل لقد سبق الإسلام كل النظم السياسية الثورية بألف سنة أو يزيد حين أنكر

---

(١) تلخيص أحمد خاكى من كتابه قاسم أمين .

امتيازات الميلاد أو الثروة . وهو من بين الأديان جميعا يفسح المجال لـكل ذى عمل أن يحسن عمله فيرقى من أدنى الدجات حتى يبلغ أسماها ، ثم ليس فى الإسلام طبقة تمثل السلطة الروحية التى كانت للـكنيسة ، وليس فى الجماعة المسلمة فئة تتمتع بالسلطة الدينية على حساب الآخرين ، وللفقراء والمحرومين حق معلوم فى أموال الأغنياء فلهم جزء من أربعين جزءاً من كل مال مقبول ، وقال : لقد انحدر الينا من تعاليم الإسلام ما يؤيد الإخاء والمساواة . وقال أن ذلك النظام الإجتماعى والسياسى قد هوى فى حال من الانحلال والتدلى حينما اضطرب المسلمون وأصبح الأمـر فوضى ليس له أساس من علم ولا من دين ، فقد قام على الجماعات المسلمة طغاة لا يعرفون إلا صالحهم الشخصى .

وقد عبرت مصر قرونا يستغلها وحوش فى صورة أدميين ، أقبلوا عليها من كل بقاع الأرض ، فـكانت مسرحا لفظائع الظلم والقسوة .

وأشار إلى أن أوربا قد أقامت العثرات فى طريق التقدم والنهضة فى الزمن الحديث ، وأن القناصل فى بلادنا يكونون ممالك مستقلة تحمى المجرمين واللصوص وسفاكى الدماء من رعاياهم .

جبرائيل هانوتو :

نشر هانوتو أحد وزراء خارجية فرنسا في الجورنال الفرنسية ١٩١٠ بعض مقالات هاجم فيها الإسلام والثقافة العربية الإسلامية ، وقد ترجم هذه المقالات محمد مسعود فى المؤيد (٢ — ١٥) إبريل ١٩٠٠ وقد نشر الشيخ محمد عبده على الأثر مقالات رد فيها على اتهامات هانوتو كما نشر فريد وجدى فصلا مطولا .

وقد حملت كلمات هانوتو عبارات غاية فى العنف والتعصب ، ومن ذلك قوله : الإسلام دين بشرى يقتل معتقدة دائما ويغريهم بالكسل أو التسكع والتبرؤ من شر الفسوق ، وأن السياسة التى تجب على أوربا المستعمرة فى الشرق أن تحتذيها مع المسلمين هى تلقيح أفكارهم بجانب من الأخلاق الأوربية وقطع الصلة بينهم وبين كعبة الإسلام .

وأشار إلى كلمات كيمون ورددها وقال أن كيمون دعا إلى نسف الكعبة ونقل قبر محمد إلى متحف اللوفر .

وهاجم هانوتو أصول الإسلام ، ودعا قومه إلى قتال المسلمين والقضاء عليهم .

وقال الشيخ محمد عبده فى الرد عليه : لو لم يتعرض مسيو هانوتو إلى الطعن فى أصل من أصول الإسلام ما حركت قلمى لذكر اسمه وكان حظى من النظر فى مقاله هو العظة والاعتبار .

يرى الناظر فى كلام مسيو هانوتو لأول وهلة أنه مقلد فى التاريخ كما هو مقلد فى العقائد وأنه جمع خليطا من الصور وحشرها فى ذهبه ثم هو سلط قلمه ينثرها كما يشاء القدر ليدهش بها من لا يعرف الإسلام من الفرنساويين .

وقال : يجب على الباحث فى الإسلام أن يطلبه فى كتابه ، كما يجب عليه أن يطلب آثاره ، والإسلام إسلام والمسلمون مسلمون .

لا أنكر أن الزمان تجهم للمسلمين كما كان قد تنكر لغيرهم وابتلاهم بمن فسد

من المتصوفة من عدة قرون فبثوا فيهم أوهاما لا نسبة بينها وبين أصول دينهم فلصقت بأذهانهم لا على أنها عقائد ولكنها وساوس ، قد تملك الجاهل وتربك العاقل إذا لم يغلبها بعوامل الدين الصحيح ، فنشأ الكسل بين المسلمين يفشو الجهل بأصول دينهم ، أما لو رجع المسلمون إلى الحقيقة من دينهم لأدو فرضهم واستنبتوا أرضهم واستعزوا من الثروة ، واعتمدوا فى نجاح أعمالهم على معونة القدر وأيقنوا فى صولتهم علما أن ليس من الموت مفر ، ثم صال صائلهم على مكان العزة منها ونال ما ينال القوى من الضعيف .

أما لو رجع المسلمون إلى كتابهم واسترجعوا باتباعه ما فقدوه من آدابهم لسلمت نفوسهم من العيب وطلبوا من أسباب السعادة ما هداهم الله إليه فى فنزويلة وعلى لسان وعلى لسان بنيه واستجمعت لهم القوة . ودبت فيهم روح القوة وكان ما يلقاه هانوتو وكيمون من دين صحيح شرا عليهما مما يخشونه من دين شوهته إليهما .

ويرى كيمون أن يخلى وجه الأرض من الإسلام والمسلمين ويستحسن رأيه هانوتو لولا ما يقف فى طريق ذلك من كثرة عدد المسلمين وبئسما اختاراً لسياسة بلادهما أن يظهرا ضغنهما ويعلنا رأيهما وضعف حلمهما .

أما فليعلما وليعلم كل من يخدع نفسه بمثل حلمهما أن الإسلام أن طالب به غيبة فله أوبة ، وأن صدعته النوائب فله نوبة . وقد يقول عنه المصنفون اليوم من الانكليز مثل إسحق طيلر وهو قس شهير ورئيس كنيسة : « أنه يمتد فى أفريقيا ومعه تسير الفضائل حيث سار ، فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره والشجاعة والإقدام من أنصاره ، ثم هو لا يزال تنتشر فى الصين وغيره من أطراف آسيا وسترشده الحوادث إلى طريق الرجوع إلى طهارة وتنثنى به الملمات إلى ما كان عليه لأول نشأته وتدرك عند ذلك الأمم منه خير ما ترجو إن شاء الله .

صمويل زويمر

لعب صمويل زويمر دوراً ضخماً فى حركة التغريب بوصفه رئيس المبشرين فى الشرق الأوسط منذ أوائل هذا القرن وأجرأ الدعاة المقاومين للفكر الإسلامى والرجل الذى إستطاع أن يقتحم الأزهر ، ويوزع منشوراته ، وقد اتيح له أن يطوف بالصين والهند وأفريقيا والهند والصحراء ومدغشقر وأن يكتب دراسات مطولة عن البعثات التبشيرية والإرساليات فى هذه المناطق وكيف تحاول أن تنافس الإسلام وتقضى عليه .

وقد رأس مؤتمرات التبشير التى عقدت فى القاهرة ولكنو (الهند) والقدس ، وأدلى فيها بتقارير ضافية عن الخطوات التى حققتها محاولاته فى تغريب العالم الإسلامى وزعزعة مقومات فكره عن طريق التعليم والصحافة والمستشفى . وهو فى تقدير بعض الباحثين أول من قدم من الغرب فى أوائل هذا القرن من دعاة التغريب ، قدم إلى البحرين ، وانتقل إلى الحسا ، وتردد بينهما وكان يلقب نفسه « ضيف الله » ، فتح فى أول أمره حانوتا فى السوق لبيع الكتب المختلفة ، ثم تخصص بالتدريج فى بيع الكتب التى تفرق بين الأديان ، ثم لم يلبث أن أسس مدرسة ومستشفى صغيرا للتبشير ، ثم استقدم عدداً كبيراً من المرسلين والدعاة إلى بلاد البحرين من رجال ونساء أمريكيات ، واستخدم الفقراء من العرب والمسلمين فى العمل معهم ، وادعى أنهم قد تركوا دينهم ، قالوا عنه أنه الرجل الذى لا يهزم لأنه درس الفكر الإسلامى سنين طويلة بعد أن عاش سنين أطول فى غمار الشعوب الإسلامية ، وقد ظل يتنقل بين البحرين ومسقط والكويت والبصرة حتى عام ١٩١٣ وكان قد قدم إلى القاهرة ١٩٠٦ وأقام مؤتمراً للتبشير فى بيت أحمد عرابى فى باب اللوق ، تحديا لشعور المسلمين ، ثم فى ١٩١١ فى (لكنو) معقل الفكر الإسلامى فى الهند ومقر جماعة العلماء التى يرأسها شبلى النعمانى ، ثم رأس مؤتمراً فى القدس ١٩٢٤ ثم فى ١٩٢٦ ، وتولى تحرير مجلة العالم الإسلامى التى نشأها مع مكدونالد ، وله عشرات الكتب عن الإسلام تحمل وجهة نظره منها : داخل عالم الإسلام ، المسلمون اليوم ، الإسلام فى العالم ، ترجمات القرآن ، أمية النبى ، الحديث القدسى .

وقد أشار نجيب العقيقي الذى ذكره فى كتابه « المستشرقون » وعدَّه واحداً منهم ، إلى أن له من المصنفات فى العلاقات بين المسيحية والإسلام ما « أفقدها بتعصبه واعتسافه وتضليله قيمتها العلمية » وقد أشار المقتطف فى باب الكتب (مجلد ٥٠) إلى كتابه « صراخ المستغيثين من أبناء الشرقيين » وقال : إن مدار بحثه فى هذا الكتاب عن أطفال المسلمين وأحوالهم الصحية وتربيتهم العقلية والأدبية والدينية ؛ ألفه بالإنجليزية الدكتور زويمر المراسل الأمريكى فى هذا القطر وعربه الشيخ مترى حبيب الدورى . وقد نقد محمد محمد سعفان (بالقضاء الشرعى) إهتمام المقتطف بهذا الكتاب وأشار إلى ما فيه من تعصب واعتساف على الفكر العربى الإسلامى ، وقد سارع الدكتور صروف فنشر خطابه وعلق عليه منتصلا وقال : إننا مع استحساننا قيام إناس من أصحاب كل دين ومذهب لانتقاد ما يرونه فيه مما يستحق الانتقاد ، نستهجن جداً أن يقوم إناس من غير دينهم ومذهبهم وينقدون ما يعتقدون أنه خطأ فيه ، لأن التنديد بمعتقدات الغير لا يصلحها بل يزيد أصحابها تشبثا بها ، ناهيك أن الخارج على المذهب قلما يفهم حقيقة ما يحسبه خطأ لأنه لا يعرف ملابساته فيخطىء فى حكمه أكثر مما يصيب » .

ومجمل ما ذهب إليه « زويمر » هو اتهام الفكر العربى الإسلامى بأنه لم يؤلف للأطفال وقال : « أن العرب عنوا بفروع العلم والآداب كلها ووضعوا فيها عشرات والمئات والألوف من المؤلفات ، ولكنهم مع وفرة ما ألفوا وترجموا أهملوا أطفالهم وصغارهم فلم يضعوا كتبا لتعليمهم » وهذا ولا شك من أكبر مغالطات زويمر وهو ليس صحيحا على إطلاقه ، فإن الفكر العربى الإسلامى حافل بما يصلح للأطفال فى باب التربية والتعليم وإن أعلام المسلمين ومفكريه قد تناولوا بالبحث شئون التربية ورسمو لها مخططا ما زال حيا نابضا بالحياة وقد شهد بذلك علماء التربية المحدثين .

وقد صور الدكتور زويمر مذهبه فى إثارة الشبهات فى الفكر الإسلامى على نحو ماكر ملىء بالتعصب والكراهية :

* عدم المجادلة بالبراهين العقلية ، بل استجلاب العواطف واستمالة الأهواء .

* إن المسلمين يعتقدون بأن القرآن لم يحرف ، من دون الكتب السماوية كلها ، فيجب علينا أن نثبت لهم أن فيه متناقضات .

* إن لإرساليات التبشير فى البلاد الإسلامية مزيتين : مزية تشييد ومزية هدم ، أو بالحرى مزيتى تحليل وتركيب ، والأمر الذى لا مرية فيه هو أن حظ المبشرين من التغيير الذى أخذ يدخل على عقائد الإسلام ومبادئه الخلقية أكثر بكثير من خط الحضارة الغربية منه .

* العمل لمنع اتساع نطاق الإسلام بين الشعوب الوثنية .

وقد أشار (زويمر) فى تقريره ١٩١١ إلى أن الإسلام قد بدأ يتنبه لحقيقة موقفه من الحملة عليه ، ويشعر بحاجته إلى تلافى الخطر ، وهو يتمخض الآن بثلاث نهضات إصلاحية (١) إصلاح الطرق الصوفية (٢) تقريب الأفكار من الجامعة الإسلامية (٣) إفراغ العقائد والتقاليد القديمة فى قالب معقول ، ومصدر هذا الشعور بالحاجة إلى الإصلاح واحد ، وهو التغيير الذى حدث فى الإسلام عندما اكتسحت أهله الأفكار العصرية والحضارة الأفرنجية ولا يمنع أن يكون الشعور مؤديا إلى عاطفة الاحتجاج والحذر ، أو إلى التوفيق والتحكيم ، لأن كلا العاطفتين تجتمعان عند جعل الإسلام فى مستوى الأفكار العصرية .

وفى العالم الإسلامى الآن حركتان متناقضتان : يحمل لواء الحركة الأولى : رجال الصوفية والمشايخ من اليمن والصومال والبوادى وشعارهم الرجوع إلى التعاليم المحمدية ، والحركة الثانية يتولى زعامتها أنصار الإصلاح ومبشرو الدين الجديد فى مصر والهند وجاوه وفارس ، وهؤلاء يبنون أساسهم على رسم الطرق المعقولة .

ثم يقول زويمر : إن أشياع الإسلام الجديد يريدون أن يرموا من السفينة مشحونها لينقذوها من الغرق . وعنده أن مدينة مكة والطرق الصوفية هما من أكبر العوامل على بث شعور الوحدة بين المسلمين فإذا كان فى أفريقيا عوامل أخرى فهى الأحوال المساعدة التى يتصف بها الإسلام ومركز بلاده الجغرافى وارتقاء الشعوب الإسلامية فى السودان ، وقال إن التجارة فى هذه الأصقاع كلها بين القبائل الإسلامية ، ومن المحقق أن التاجر المسلم يبث فى هؤلاء المواطنين مع بضاعته التجارية دينه الإسلامى وحضارته الراقية . وللاسلام

فى أفريقيا صديق يساعد على انتشاره هو الاستعمار الأوربى فإن الذى يفعله الاستعمار بعد أن يسلب من الأمراء المسلمين سلطتهم السياسية هو أن يقرر الأمن ويمهد السبيل للمسلمين. فالاستعمار يسلب عن المستعمرات السلطة الإسلامية السياسية ولكنه يزيد الإسلام نفوذا . وما زال الشيخ والدرويش هما صاحبا النفوذ فى أفريقيا .

ولقد كانت كتابات زويمر كلها ترمى إلى إثارة الشبهة حول إمكانية مجاراة تيار الحضارة مع الاحتفاظ بمبادىء القرآن وتعاليمه ، وكان يرى أن اتساع نطاق الحضارة من شأنه أن يقضى على مفاهيم الإسلام ، وكان يعلن دائما أن هدف بعثات التبشير ليس إدخال المسلمين فى المسيحية وإنما إثارة الشبهات أمامهم فيحتقروا أمتهم ، ويتنكروا لقيمهم الأساسية ويصبحوا ملحدين إباحيين .

ومن ذلك قوله : لقد تساءل اللورد كرومر مرة هل يبقى الإسلام إسلاما إذا دخل عليه الإصلاح ، فأنا أقول بصفة قطعية أنه لا يبقى كذلك ، لأن الإصلاحات تجهز عليه فالأركان الأساسية الموجودة فى الإسلام كالحج وتعدد الزوجات والطلاق لا تستطيع الثبات فى وجهة تيار المدنية الجارف .

والواقع أن كل ما وصل إليه دعاة التغريب من آراء هى فى أساسها أهواء ، وما وضعوه منها فى صيغة « التقرير » قد ثبت بمرور الأيام أنه ليس صحيحا ، وأن الفكر الإسلامى العربى استطاع أن يوائم بينه وبين الحضارة والفكر العصرى ، وقد كان دائما قادراً على التلقى والامتصاص ودوما كان قادراً على الحركة ، مرنا لا يجمد ، وما يزال الإسلام قائما والفكر الإسلامى حيا إلى اليوم وبعد أن كتب زويمر ما كتب بنصف قرن .

وفى كتابه « الإسلام : ماضيه وحاضره ومستقبله » أورد معلومات مضللة عن نفوذ المبشرين فى أفكار الإسلام وعن تعداد المسلمين . ومن رأيه عدم مجادلة المسلمين بالبراهين العقلية بل الدخول عليهم من الجهة القلبية لاستجلاب عواطفهم واستمالة أهوائهم .

ومع أنه بروتستانتى فقد كان يستجمع البعثات الكاثوليكية والأرثوذكسية ويدعو إلى توحيد العمل فى شن الغارة على الإسلام وانتهاز فرصة الضعف التى مر بها العالم الإسلامى بعد الحرب العالمية الأولى .

وقد أولى زويمر اهتمامه بأواسط أفريقيا والنيجر ودعا إلى توسيع نطاق العمل بها وأبدى تخوفه من اتساع نطاق الإسلام بها . وسجل فى تقاريره تقدم الإسلام فى هذه المناطق ، « من مركزه الواسع فى الشمال ومعاقلة التى فى السواحل إلى الجنوب والغرب الأفريقى » وقال إن المبشرين قد أخطأو فى تقديراتهم السابقة لأنه تبين لهم فيما بعد أن بعض البلاد التى كانوا يحسبونها خالية من الأديان المعروفة ، هى أما إسلامية محضة ، أو أنها على أهبة الدخول فى الإسلام » .

وفى مؤتمر ١٩٢٤ المنعقد فى القدس كشف زويمر عن خطته الجديدة وصاغ خلاصة تجاربه فى عمل جديد ، هو ما المعنا إليه من الاتجاه إلى التحول فى الأساليب لافى الغايات ، وإخفاء التبشر وإبراز التغريب ، والاعتماد على الأساليب الخفية الحتمية عن طريق المناهج الدراسية والصحف وإثارة الشبهات حول قضايا الدين واللغة والتاريخ والتراث وهذا مجمل خطته :

« لقد صرفنا من الوقت شيئاً كثيراً ، وأنفقنا من الذهب قناطير مقنطرة ، وألفنا ما استطعنا أن نؤلف وخطبنا ومع ذلك كله فإننا لم ننقل من الإسلام إلا عاشقا بنى دينه الجديد على أساس الهوى . . فالذى نحاوله من نقل المسلمين عن دينهم هو باللعب أشبه منه بالجد .

وقال : وعندى أننا يجب أن نعمل حتى يصبح المسلمون غير مسلمين . . أن عملية الهدم أسهل من عملية البناء فى كل شىء إلا فى موضوعنا هذا ، لأن هدم الإسلام فى نفس المسلم معناه هدم الدين على العموم .

وأعلن أن الأحوال السياسية فى جميع البلاد الإسلامية أصبحت ملائمة لأعمال التبشير ، وأن العراقيل من بعض الحكومات قد أزيلت ، وأن الحرب العظمى جعلت العديد من المسلمين على صلة مباشرة بالحضارة الغربية ، وهم يزورون الأقطار الأوربية زرافات ، وألوف من الطلاب المسلمين يهاجرون من آسيا ليتعلموا فى أوربا وسيل من العمال والصناع يتدفق من شمال أفريقيا على فرنسا ويبلغ عدد الذين يزورون باريس سنويا أكثر من الذين يحجون إلى مكة ، وأنه لابد من عمل مجهود لإيجاد الاستعداد الفكرى والذهنى لقبول جهود

المبشرين عن طريق إدارات التربية والتعليم والمعارف والصحف والكتب والسينما والمسرح . وقد وسعت وسائل النشر الحديثة المجال لنمو الصلة بين المسلمين والحضارة الغربية .

* وقال : إن التطورات الحديثة الحادثة بنطاق واسع فى جميع أنحاء العالم الإسلامى قد دعت بالضرورة لأن يتخذ «التبشير» شكلا جديداً ملائماً للحالة الجديدة فى الشرق الإسلامى .

وقد أمكن أن نتبين بدلائل قاطعة أن الإسلام قد انتقض غزله وحاق به الضعف وتفككت حزمته ، وعلى الإجمال أصبحت الروح القومية تدحر روح الجامعة الإسلامية وتحل محلها ، فإن المسلم التركى على سبيل المثال أخذ ينقلب ليصير تركيا أكثر منه مسلما .

وكان لإلغاء الخلافة تأثير عميق ليس فقط فى تركيا بل فى جميع العالم الإسلامى .

وقد أخذت الظواهر تتكاثر فى جميع النواحى لتدل بصفة قاطعة على انحلال الرابطة الاجتماعية فى الإسلام ، وأثار هذا الانحلال نراها جلية فى تطور مكانة المرأة وعلى الأخص فى المدن . ومن ثمار هذا الانقلاب النسائى العدول عن الزواج المبكر والتوسعة فى الحرية على المرأة .

* أما الانقلاب الفكرى فى الإسلام فظاهر لا يحتاج إلى بيان ، فأينما أدار الإنسان وجهه وجد تعطش المسلمين للمعارف ، وطلب العلوم ، وتتكون الآن عقلية جديدة فى المسلمين هى نتيجة التحاك والاتصال بالعلوم الغربية والحضارة الغربية ، وفوق كل هذا ، الأمر العظيم الذى يقف الإنسان عنده حائراً معتبراً هو انحلال العروة الدينية فى الإسلام ، حتى أنك ترى من المسلمين من قد أصبحوا فى عماية من أمرهم لا يدرون كيف يتقدمون ، ولا كيف يتأخرون لوقوعهم فى الحيرة . . اهـ

* * *

هذه هى أفكار «صموئيل زويمر» المبشر الأكبر الذى رسم مناهج الدعوة إلى تغريب الفكر العربى الإسلامى ، وعمل فى الميدان أكثر من ٣٥ عاما وعقد عديداً من المؤتمرات فى الجزائر والقدس والقاهرة . . ولكن كيف تبدو آراؤه اليوم بعد أكثر من ثلاثين عاما . . ؟

أنها فى الحق تبدو مجرد أوهام وتكهنات لم تصدق ، فإن الإسلام لم تنحل عروته ،

والتجار المسلمون والطرق الصوفية استطاعوا غزو أفريقيا غزوا قويا وبعثات التبشير المزودة بالجاه والمال لم تحقق أزائه تقدما يذكر .

ولم تؤثر القومية على روح الأخوة الإسلامية بل زادتها قوة ، ولدينا فى العالم الإسلامى الآن منظمة القومية العربية ممثلة فى الجامعة العربية ومنظمة العمل الإسلامى الثقافى الموحد ممثلة فى مجمع البحوث الإسلامية والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية » وكلها تسير فى هدفها دون تعارض

ولم تصدق آراؤه التى استقاها من الخبرة الطويلة فى نتائج بث الأفكار المسمومة والمغرضة عن الإسلام واللغة العربية واستطاع العرب والمسلمون أن يكشفوا زيفها ، وأن يردوا عليها وأن يتجنبوها .

والهدف الأكبر الذى سعى إليه وهو إثارة الشكوك عن طريق الطلاب الذين يسافرون إلى أوربا قد باء بالخسران ، فإن أكثر الذين حملوا لواء الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه والذين آمنوا بمقومات الفكر العربى أساساً تعلموا فى أوربا ، ولا زلنا نذكر الدكتور يحيى الدرديرى ، ولطفى جمعه والدكتور غلاب وعلى مظهر ، ومنصور فهمى ، والدكتور هيكل ، وعمر الدسوقى ومالك بن نبى ، أو ممن تعلموا فى معاهد الأرساليات : كالدكتور عمر فروخ والدكتور مصطفى الخالدى فضلا عن أنه قد تحول كثيرون ممن أثرت فيهم خدعة الاستعمار ، والغزو الثقافى ، وبقى الآخرون فى الظل وقد كشفهم العرب المسلمون وتحاموهم ، ولم يضعف الإسلام بانحلال الخلافة بل قامت دولة إسلامية هى الباكستان وزاد عدد المسلمين حتى بلغ الآن ٦٥٠ مليونا .

وبذلك سقط منهج الفكر والبحث فى الإسلام عند أمثال هؤلاء الدعاة الذين كشفوا عن هدفهم فى القضاء على روح الإسلام وقيمه ومفاهيمه .

مرجليوث

يعدّ مرجليوث من كبار المستشرقين الإنجليز ، وكان أستاذ الدراسات الإسلامية فى جامعة اكسفورد ، وله اتصال واسع المدى مع المصريين بعد الاحتلال البريطانى . وقد اتصل به الشيخ عبد العزيز جاويش وهاجمه عندما أصدر كتابه (محمد وظهور الإسلام) .

ومنذ عام ١٩٠٧ تناولت الصحف فى مصر آرائه فقد أصدر فى ذلك الوقت كتابا عن النبى محمد وجعله حلقة من سلسلة عظماء الأمم ، وصفه سليمان الندوى مما يعد بأنه لم يؤلف بالإنجليزية كتابا أشد تحاملا على النبى منه ، حاول فيه مرجليوث أن يشوه كل ما يتعلق بالسيرة ، وأن يشكك فى أسانيدها ، ولم يأل جهداً فى نقض ما أبرمه التاريخ ومعارضه ما حققه المحققون من المنصفين[1] .

وقد أشار الشيخ جاويش إلى آراء مرجليوث وقال أنه — أى مرجليوث — حارب التاريخ كما حارب الأنصاف وحمل على الرسول حملات منكرة وأشار إلى قول مرجليوث « إن المسلم معناه فى الأصل الخائن ، وعلل ذلك بأن هذه الكلمة مشتقة من اسم مسلم » .

وأدعى مرجليوث أن النبى كانت تنتابه النوب العصبية كثيراً ، وزعم المؤلف أن النبى عاشر بعض النصارى فاستفاد كثيراً من القصص واقتبس بعض أساليب التعبير ، وعلل زواجه بخديجة بطمعه فى مالها » .

وقد صارت آراء مرجليوث مصدراً للمتعصبين من الكتاب الغربيين ومن ذلك ما نقله عنه مستر سكوت وآثار كثيراً من الاعتراضات .

وقد أشار رشد رضا إلى أن السبب فى أكثر غلط مرجليوث وخطأه فى السيرة هو التحكم فى الاستنباط والقياس الجزئى وبيان أسباب الحوادث كما هو شأنهم فى أخذ تاريخ الأقدمين من الآثار المكتشفة واللغات المنسية وأقله عدم فهم الله .

كما أشار صاحب المقتبس (محمد كرد على) إلى كتابه عظماء الأمم فقال أنه لم يؤلف كتاب بالإنجليزية أشد تحاملا على النبى مما جاء بهذا الكتاب فقد حاول مرجليوث أن يشوه كل ما يتعلق

(١) سليمان الندوى : محاضرات عن الرسول (القاهرة) .

بالسيرة الشريفة، وأن يشكك فى أسانيدها ولم يأل جهداً فى نقص ما أبرمه التاريخ . ويعارض ما حققه المحققون من المثقفين ، ومرجليوث له فرض فى الشعر الجاهلى نشره فى يوليو ١٩٢٥ فى إحدى المجلات الاستشراقية ، وفى ١٩٢٦ نقله طه حسين فى كتابه المشهور عن الشعر الجاهلى ، يقول مالك بن بنى : ربما لم يكن فرض مرجليوث ليحتوى على شيء خاص غير عادى لو أنه حين نشر لم يصادف ذلك الترحيب الحار من المجلات المستغربة ، ومن بعض الرسالات التى يقوم بها دكاترة عرب محدثون ، حتى لقد كسب هذا الفرض قيمة المقياس الثابت فى دراسة الدكتور صباغ عن (المجاز فى القرآن) وقد رفض الدكتور صباغ رفضا مقصوداً مغرضا الاعتراف بالشعر الجاهلى كحقيقة موضوعية فى تاريخ الأدب العربى » .

ومما يذكر أن مرجليوث هاجم « كتاب مستقبل الإسلام » الذى أصدره السيد توفيق البكرى عام ١٩٠٧ فى عبارات لا تدل على انصاف العلماء فقال : فى القطر المصرى اليوم نهضة جديدة وقوة حية وقد ذهب المسلمون فى مصر الآن لمقابلة مساعى المرسلين ورد دعواهم بدفع التهم التى يوجهونها إلى الإسلام .

أما جماعة المصلحين المسلمين فى مصر فإنهم ينكرون أن الإسلام فى ذاته هو الباعث على التقهقر ، وأن المسيحية فى أوربا هى مصدر الرقى والتقدم وسخر من قول الشيخ البكرى : إن الإسلام هو دين المستقبل بدليل زيادة انتشاره الواضح فى السنوات الأخيرة .

ومما قاله « إن الإسلام قد منى بالانحطاط لأن الاحاديث التى لا يؤمن بصحتها غمرت أوامر القرآن الحقيقية فشوهت الأفهام وأثقلت العقول بما لا يحتمل ، فهم يطلبون الرجوع إلى الوحى الأصلى وهو القرآن ، وقال إن التقهقر الذى منى به الإسلام لم ينشأ من الدين نفسه وإنما نشأ من الطرق المختلفة لتفسير معانيه » والواقع إن التعرض للأحاديث النبوية هو من الشبهات المثارة فى وجه الإسلام والتى تهدف إلى التشكيك فيها جملة باعتبارها « المذكرة التفسيرية للقرآن » ونحن نقبل تحقيق الأحاديث والتعرف إلى الأكيد منها ولكننا لا نشجبها جملة كما يدعو مارجليوث وغيره، أما وصفه بالتقهقر الذى مر به المسلمون فإنه ليس قطعا راجعا إلى الإسلام الذى أقام النهضة والحضارة ألف عام ، وإنما رجع إلى التحلف الفكرى عن مفاهيم الفكر الإسلامى العربى وقيمه ، أما الحضارة الغربية فلا صلة لها

مطلقا بالدين وليس رقيها محسوبا على دين من الأديان ، فإنها من الأمور المادية العقلية التكنولوجية المحضة وقد ظهرت بعد المسيحية بألف وخمسمائة عام .

وكان مرجليوث قد نشر عام ١٩٠٤ مقالا عن مستقبل الإسلام ضمنه عديداً من آرائه القائمة على ضعف الاستنتاج ، أو تعصب الرأى ، فردد قول رايس من أن الإسلام لم يبق من عمره إلا قرنان كما أعاد ما قاله أحد المبشرين من أن الإسلام لا يلبث أن يذوب ذوبان الثلج بين يدى العلم والتمدن والنصرانية كما نقل رأى الدكتور برون الذى قال : إن الإسلام يذهب بذهاب الدولة العثمانية ومضى يردد الكلمات التقليدية التى رددها المتعصبون وخدام الاستعمار من أن الإسلام لن يبقى بعد احتكاكه بالتمدن الحديث ويموت لا محاله كما ردد ما قاله أحد كتاب التغريب من أن الانحطاط الذى يعيشه المسلمون — فى هذه الفترة — يرجع إلى أسباب متصلة بالإسلام نفسه ، لأنه لا يوافق روح التمدن .

وهكذا يتكشف فى كتاباته جماع متسق لما تورده حملات التشكيك التى لا يرقى كتابها إلى مقام العلماء الباحثين .

محمد وظهور الإسلام = مرجليوث[1]

نقد العلامة عبد العزيز جاويش هذا الكتاب فقال :

كتاب وضعه مستر مرجليوث ، ظهر هذا الكتاب من نحو سبع أعوام ونفوس الإنجليز والأمريكين ترقبه لما لذلك الرجل عندهم من المكانة العلمية الرفيعة ولاسيما وهو مشغوف بدعوى أنه محيط بأكثر لغات العالم ، فتراه يدعى العلم بالاسبانية والفرنسية والإيطالية والألمانيه والعربية والفارسية والعبرانية ، وقد انتشرت شهرة هذا الأستاذ فى بعض البلاد الأوربية ولقد كنت إبان ظهور هذا الكتاب فى مدينة اكسفورد حيث المؤلف ، فلما ذكرت له رغبتى فى شراء كتابه وعد أن يقدم لى منه نسخة ثم جعل يتباطأ تارة ويتناسى أخرى حتى مللت وعوده ، وظننت أنه لا بد لهذا الكتاب من سر يريد إخفاءه عنى ولاسيما والمؤلف يعلم أننى ضعيف الثقة بكثير من المستشرقين سيء الظن بهم وقد كنت فى الواقع كذلك ، ولكن بعد أن خبرتهم وسبرت غور معلوماتهم وتبينت مبلغ كفاءتهم ، ولولا أننى وجدت من بينهم أفذاذا قليلين جداً لما اطمأنت نفسى إلى أحد منهم فلما حصلت على الكتاب وتصفحته ثم درسته بابا بابا وكلمة كلمة ، حتى جئت على آخره فوجدته عند ظنى به ، وجدته حارب التاريخ كما

(١) توفى مرجليوث فى مارس ١٩٤٠ عن ٨١ عاما .

حارب الأنصاف وحمل على الرسول عليه السلام حملات منكرة ، ويظهر أن المؤلف توقع أن لا يقع كتابه إلا فى أيدى البله ولا يطلع عليه إلا الإغرار ، فلم يبال إن جاء فيه بمحدثات لو أنه تدبر لما اجترأ على الأقدام عليها .

فمن ذلك أنه يقول إن المسلم معناه فى الأصل (الخائن) وعلل ذلك بأن هذه الكلمة مشتقة من اسم مسلمة ، ثم زعم أن المسلمين سموا أنفسهم بذلك من غير تدبر ثم حولوا هذه المادة إلى معنى التسليم المشهور اليوم .

وأدعى المستر مرجليوث أن (النبى) كانت تنتابه النوب العصبية كثيراً ، وفسر بذلك ما كان يصيبه (ص) من الجهد خلال نزول الوحى مع أنه عليه السلام لم يعرف فى تاريخ حياته أنه كان يصاب بأمثال تلك النوبات العصبية قبل زمن البعثة ومقدماتها .

ورغم المؤلف أن الرسول عاشر بعض النصارى واليهود فاستفاد كثيراً من القصص واقتبس بعض أساليب التعبير التى لم تكن معروفة للعرب مثل (ذاق الموت ، ونفخ فى الصور ، وفى آذانهم وقر) ونحو ذلك.

ولقد كان الأجدر بالمؤلف أن يذكر لقراء كتابه أن ما قدمه لهم هنا إنما هو من مبتدعاته ، قد سبقه إليه مشركو قريش ونصاراهم فقالوا : إنما يعلمه بشر ، كما كان يجمل به أن يريهم كيف بكتهم القرآن ورد زعمهم ذلك بقوله « لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) وقوله (ما كنت تتلوا قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون) ولو أن المؤلف فعل ذلك لأبعد نفسه عن التعصب المرزول .

شق على المؤلف أن يرى فى محمد نبيا يوحى إليه ببعض الغيب فجاء بمقدمات مهد بها السبيل لإقناع قراء كتابه أنه ما كان بالرسول ولا بالنبى، فزعم أنه كان للعرب فى تجسس الأخبار والإسراع تنقلها صراع لم يوفق أحد من المتحضرين الآن إلى كشف سرها ، وقال إن محمد كان نقاداً للرجال صادق الفراسة وإذا اتى الرجل انكشف له سره وعرف كيف يستميله إليه ويجتذبه .

جاء المؤلف بتلك المقدمات ليستنبط منها إن ما كان من بلاغ النبى ورسالاته لم يكن

وحيا يوحى ، وإنما أنباء وروايات يجيئه بها جواسيسه وعيونه .

وعلل المؤلف زواج الرسول لخديجة بطمعه فى ثروتها والناس قاطبة يعرفون كيف كان زهد الرسول ، وأنه لم يورث أعقابه الزهيد مما تركه خلفه بل جعله لعامة المسلمين لقوله (نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقه) . ولما أراد أن يلتمس علة لظهور بعثة النبى على راس الأربعين سرد لنا قصة مفادها أنه كان لقريش دار ندوه لا يشهدها إلا من تجاوز الأربعين . وقال أن محمداً والذين آمنوا به قد كونوا جماعة سرية على نحو مايفعل الماسون ، وأن هذا الجمع السرى قد اتخذ له بضع رموز منها قولهم « السلام عليكم » .

وللمستر مرجليوث عدا ما تقدم تخريجات وتأويلات من أعجب ما يرى الراءون فمن ذلك ما قاله فى التوحيد الذى هو روح الإسلام ، فلقد زعم أن النبى نظر فى تعاليم النصارى واليهود فأخرج منها ما لا يقبله العقل وكان (الله) أحد أصنام الكعبة قبل الإسلام فوفق بين إله اليهود والنصارى وجعلهما واحداً ، فكيف يكون التوحيد هو عين التثليث إلا فى نظر من يغالطون فى القضايا الحسابية العقلية . ولو أن الكاتب أراد أن ينصف الحق والتاريخ لقال بما قال به القرآن فى أكثر من آية من أن التوحيد هو دين جميع رسل الله وأنبيائه . ومما ورد فى هذا الكتاب فى تعليل إسلام عمر بن الخطاب بأن سر انقلاب عمر من إضطهاد أخته وضربها إلى مجاراتها والمبادرة باعتناق الإسلام بأنه تأثر من رؤيتها مجروحة بسبب قسوته وتسرعه فأحب أن يكفر عن سيئته هذه فأظهر إعجابه بالقرآن ورضى الإسلام دينا .

يتصفح الناقد هذا الكتاب فيتمثل صاحبه إذ أخذ يدافع عن اليهود كأنه يهودى المنبت ، وإذا كتب للدفاع عن النصارى فكأنه هو نصرانى صميم . وإذا ذكر حوادث الوثنيين من العرب ، وأصاب النبى من إذاهم وكيدهم طرب طربه ممن دبر تلك الحكاية وأمعن فى إيصالها إلى الرسول .

* * *

قد اشتهر مستر مرجليوث بقدرته البليغة وعلمه الواسع باللغة العربية ، وأنا لا أريد أن أذكر هنا رأيى فى هذا المستشرق الشهير إكتفاء بحادثة وقعت لنا فى جامعة اكسفورد . ذلك أننى كنت مدعوا معه فى بعض المنازل فلما كنا على المائدة سألنى بعض الحاضرين :

هل سبق لى أكل لحم الجزور ، فأجبته أننى لا أذكر ذلك وربما اتفق لى هذا وأنا صغير ، فلما سمع الاستاذ مرجليوث هذا الكلام قال : كيف ذلك ؟ وعلى كل مسلم فرض أن يأكل لحم الجمال ولو مرة واحدة فى حياته . لأنه من قواعد الإسلام ، عند ذلك أجبته وأنا دهش مما قال : يا سيدى إننى أعرف أن قواعد الاسلام خمس ، أما هذا السادس فلا أعرفه ، بيد أنى استميح الأستاذ عفوا إن يذكر لى مأخذ هذا الحكم فقال : أنه ورد فى (صحيح البخارى) أنه قد جاء أحد اليهود إلى الرسول وقال له إنى جئت أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فأجلسه الرسول وأمر له بلحم جزور ، ومن هنا استنبط مستر مرجليوث أنه يجب على كل مسلم أن يأكل لحم الجزور وأن هذا من العوائد الإسلامية التى ينهدم الدين بانهدامها ، فلما فرغ قلت له : إن صح وجود هذا الحديث فى البخارى فالذى يفهمه المسلم الذى يفقه اللغة العربية منه أحد أمرين فأما أن يكون الرسول أراد يقدم لذلك اليهودى شيئا من الطعام لأنه ضيفه فى بيته ، وأما أنه أراد أن يمتحن إيمان اليهودى بإطعامه شيئا مما حرمه الله على بنى إسرائيل فى التوراة من أجزاء اللحم ، ثم تلوت الأدلة المفيدة لذلك ، فبهت الأستاذ ولكن لم تجسر قوة المكابرة وشدة العناد التى فطر عليها الأوربيون ولا سيما المستشرقون فيهم على أن تحوله عن رأيه .

وبمثل كلام هذا الأستاذ يعتدى واضعوا الكتب التاريخية والقانونية وعن مثله ينقل أمثال مستر سكوت آداب الإسلام ودقائق أسراره .

لورنس : الأعمدة السبعة

إن الجانب الذى يهمنا من دراسة هذا المغامر البريطانى فى هذا المجال هو كتاباته عن العرب فى كتابه (أعمدة الحكمة السبعة) فقد كشف فى كتابه عن حقد وكراهية للعرب والمسلمين ولتاريخهم ، وحاول التقليل من شأنهم ورميهم بالجهل والتخلف . فضلا عن مغالطاته المتعددة وأخطائه التاريخية .

وأبرز ما يؤكد ذلك قوله بالنص :

« لقد كنت أعلم أننا إذا كسبنا الحرب فإن عهودنا للعرب ستصبح « أوراقا ميتة » غير أن الاندفاع العربى كان وسيلتنا الرئيسية فى كسب الحرب الشرقية ، وعلى ذلك فقد أكدت لهم أن بريطانيا سوف تحافظ على عهودها نصا روحا فاطمأنوا إلى هذا القول وقاموا بالكثير من الأعمال المدهشة ، ولكنى فى الواقع بدلا من أن أشعر بالفخر لهذا الذى فعلته ، كنت أشعر دائما بنوع من المرارة والخجل ، لقد ذهبت إلى الصحراء غريبا لا أملك أن أفكر على طريقة أهلها ولا أن أشاركهم معتقداتهم ، ولكنه كان على أن أقود العرب وأن استخدم حركتهم إلى أقصى حد لصالح بريطانيا فى الحرب وإذا لم أكن أقدر على التطبع بطباعهم فعلى على الأقل أن أخفى ما عندى وأن أتسلل بنفوذى بينهم ، إن الرجل إذا ألقت به الظروف إلى من لا يماثلونه عاش بينهم ولا ضمير له ، لأنه قد يعمل ضد صالحهم أو يستميلهم إلى غير ما يحبون لأنفسهم ، وهو يتحايل بدهائه لتغلب دهاءهم ، وهكذا كنت مع العرب ، كنت أقلد أحوالهم فيقلدوننى حكاية واقتداء ، وكنت أخرج على مألوف وأتظاهر بمألوفهم .

لقد كان بعض الإنجليز وعلى رأسهم كتشنر يعتقدون أن ثورة يقوم بها العرب على الأتراك تساعد انكلترا وهى تحارب ألمانيا على دحر خليفتها تركيا ، إننى لم أبلغ درجة من الحمق تجعلنى لا أدرك انه لو قضى للحلفاء أن ينتصروا وأننا لو كسبنا الحرب فإن هذه الوعود سوف تكون حبراً على ورق ، ولو كنت مناصحا شريفا للعرب لنصحتهم

بالعودة إلى بيوتهم وسرحت جيشهم وجنبتهم التضحية بأرواحهم ودعوتهم إلى عدم المخاطرة بحياتهم فى مثل هذه الحرب ، أما الشرف فقد فقدته يوم أن أكدت للعرب بأن بريطانيا ستحافظ على وعدها .

لقد كان قواد الحركة العربية يفهمون السياسية الخارجية فهما عشائريا بدويا ، وكانت طبيعة قلبهم وصفاء نيتهم وأنعزالهم عن العالم الغربى تخفى عليهم ملتويات السياسة وأخطاءها وتشجع البريطانيين والفرنسيين على القيام بمناورات جريئة يعتمدون فى نجاحها على سذاجة العرب وضعفهم وبساطة قلوبهم . وكانت لهم بساطة فى التفكير وثقة فى العدو .

إننى أكثر ما أكون فخراً إن الدم الإنجليزى لم يسفك فى المعارك الثلاثين التى خضتها لأن جميع الأقطار الخاضعة لنا لم تكن تساوى فى نظرى موت إنجليزى واحد ، لقد جازفت بخديعة العرب لاعتقادى أن مساعدتهم كانت ضرورية لانتصارنا القليل الثمن فى الشرق ، ولاعتقادى أن كسبنا للحرب مع الحنث بوعودنا أفضل من عدم الانتصار » اهـ .

* * *

وأعتقد أن هذه النصوص كافية لكى تكشف حقيقة لورنس والدور الذى قام به فى العالم العربى ، وآية خداع لورنس وتآمره على العرب ما سجله « وإيزمان » فى كتابه « التجربة والخطأ » قوله : وأود أن أعلن فى هذا المجال تقديرى للخدمات الجليلة التى أسداها لقضيتنا الكولونيل لورنس ، لقد اجتمعت به فى مصر وفلسطين ، وقابلته فيما بعد مقابلات عدة ، أن علاقته بالصهيونية علاقة إيجابية على الرغم من تظاهره بالميل للعرب .

وقد ظل اسم لورنس يدوى مصوراً تلك المغامرة السحرية الجريئة التى قام بها والعمل البطولى الذى وصف من أجله بأنه سلطان الصحراء العربية وملك العرب غير المتوج حتى توفى فى ١٩ مايو ١٩٣٥ .

ثم ظهرت بعد ذلك كتابات كشفت وجهه الحقيق ؛ كتبها أمثال ريتشارد الدنجتون فى كتابه « لورنس الدجال » وجان بيروفيلار الكاتب الفرنسى ، ولويل توماس ، وروبرت جرتفر ، والكابين ليدل هارت ، فكشفوا عن حقيقته وأظهروا مئات المغالطات التى ملأ بها كتابه ، وعزوا سر إندفاعه ومحبته للظهور إلى سبب باطنى،ذلك أنه كان إبنا غير شرعى

لأمه ، ووصفوه بأنه كان متحمسا للقضاء على الامبراطورية العثمانية لتأكيد سطوة الاستعمار البريطانى وحده . وأن ما أدعاه من محبته للعرب ومقابلته للملك البريطانى مع فيصل بالعباءة والعقال العربى ورفضه قبول الوسام إنما كان هذا كله تغطية لموقفه ، وبلوغا بالمسرحية إلى غايتها .

وقد دخص ريتشارد الدنجتون فى كتابه هذه الأسطورة البطولية ، ليحل محلها إنسان ملىء بالعقد والشذوذ . وعنده أن لورنس هو الذى عمل على اجتماع فيصل وحايم وإيزمان فى باريس ١٩١٩ وهو الذى كتب الاتفاقية التى وقعها كلاهما . وكان لورنس يطلق على الثورة العربية « تقطيع أوصال الدولة العثمانية » وهدفه إيقاع الخلاف وتعميقه بين العرب والترك .

وقد عرف أن لورنس لم يصل إبان الحرب العالمية مصادفة ، ولكن العمل الذى قام به كان قد بدأ ربيع ١٩١٤ عندما وصل إلى الشرق ، متخذا من (فن البناء العسكرى الصليبى) موضوعا لدراسته ، وكان قبل ذلك ملتحقا ببعثة أوفدت إلى وادى الفرات للبحث عن آثار الحيثيين ، وهكذا كانت خطته فى دراسة الصحراء تختفى وراء عمل علمى بحت ، هو دراسة البادية والمدن العربية والإلمام بطابع سكان الأصقاع من مدن وحضر ، والإلمام باللهجات التى يتكلمون بها والوقوف على عاداتهم ، ثم استخدمه الإنجليز ، فى ديوان الاستخبارات بعد ذلك حتى وصل جدة ١٩١٦ واتصل بفيصل وعمل معه .

هنرى لامنس

يعد « هنرى لامنس » من أشد المستشرقين تعصبا على الفكر العربى الإسلامى وقد بالغ فى التعصب على الإسلام حتى أعلن المنصفون شكهم فى أمانته العلمية ، وقالوا أنه لايفسى عواطفه فيما يكتب عن النبى والإسلام ، وأنه كان داعية ولم يكن عالما ، وقد عرف بتهكمه على النصوص العربية ، كما وصف بإرهاقه للنصوص وتحميلها أكثر مما تحتمل ، فإذا وجد فى الإسلام موضعا للفضل ذهب ينسبه إلى مصدر غير إسلامى .

ولد ١٨٦٢ فى بلجيكا واتخذ لبنان موطنا ودرس فى الكلية اليسوعية ببيروت ، واشتغل بالتدريس فيها من ١٨٨٦ وتخصص فى تاريخ الشرق الأدنى وحضارة أهله ، واتقن اللغة العربية وعين ١٩٠٧ استاذا فى معهد الدراسات الشرقية فى الكلية اليسوعية ببيروت، وتوفى فى (مايو ١٩٣٧) ووصف بالراهب المؤرخ وأخذ عن جولد زيهر ونولدكه وكيتانى وولهوزن وله كتاب عن حياة محمد لم توافق دوائر الفاتيكان على نشره خشية أن يؤدى ما فيه من طعن وتهجم إلى احتجاج الأمم الإسلامية ، وله كتاب فاطمة وبنات محمد وكتابه عن الثلاثة : أبو بكر وعمر وأبو عبيدة (ومغزى الربط بينهم هو إدعائه بأنهم تآمروا على الخلافة بعد وفاة النبى دون على) ويقول فييت أن كتابه عن فاطمة وبنات محمد يسوده التعصب والاتجاه العدائى .

وقد تعصب لامنس للأمويين ووقف جانباً كبيراً من جهوده العلمية لدرس تاريخهم السياسى وخلافهم مع العباسيين ، ومصدر إعجابه ببنى أمية أن دولتهم كانت فى تقديره — لادينية — ولأنهم أقاموا ملكهم فى الشام وتأثروا بالمدينة القديمة التى قامت فى ربوعه .

---

(١) مجلة المجمع العلمى العربى م .

(أولا)

يرى الدكتور زكى محمد حسن أن لامنس غير منصف يقول :

ظل « لامنس » علما من أعلام المستشرقين المشتغلين بدراسة التاريخ الإسلامى حتى توفى ١٩٣٧ ومع أن هذا الراهب المؤرخ أخذ كثيراً من آرائه عن شيوخ المستشرقين مثل جلدزيهر ونولدكه وكيتانى وولهوزن ، فإنه انتحى من البحث ناحية ميزته عنهم ، فقد بالغ فى التعصب على الإسلام حتى أفسد ذلك علمه فى بعض النواحى ، وجعل المؤرخين وعلى رأسهم المستشرقون يشكون فى أمانته العلمية ويتهمونه بركوب متن الشطط ، ولن يصعب علينا أن نثبت أن لامنس كان فى ناحيتين من النواحى الثلاثة التى انقطع للكتابة فيها محاميا قديراً ، لبنى أمية تارة ، ولأعداء الإسلام تارة أخرى ، وأنه كان خصما عنيداً للمسلمين عامة وللعلويين والعباسيين خاصة ، وأنه كان يسلب العرب الفضائل والصفات الخلقية الجميلة التى أجمع المستشرقون على نسبتها إليهم ، وأنه كان فى خصومته يعتمد فى بعض الأحيان على السفسطة والمغالطة . أما مؤلفات لامنس عن بلاد العرب وجغرافيتها قبل الإسلام وعن جغرافية الشام وتاريخها المسيحى فراجع ثمينة فى موضوعها ودراسات علمية صحيحة لا يمكن أن يستغنى عنها باحث فى هذا الميدان ، ولقد كان هذا الراهب الجليل عالماً قديراً إلا عندما كان يكتب عن الإسلام وأبطاله . أجل ؛ كان لامنس فى مؤلفاته عن الإسلام داعية ، ولم يكن عالما ، وأنه لم ينس عواطفه فيما كتب عن النبى والإسلام .

كتب لامنس عن الإسلام وعن إخلاص محمد فى إعلانه الدعوى وكتب عن عمر وكتب عن فاطمة وبنات محمد ، وقيل أنه كتب عن حياة محمد مؤلفا لم توافق دوائر الفاتيكان على نشره خشية أن يؤدى ما فيه من طعن وتهجم على احتجاج الأمم الإسلامية . والأب لامنس فى جميع هذه المؤلفات يتهم رواة السيرة بأنهم مخترعون ، ولكنه لا يحجم عن الاعتماد على رواية من رواياتهم إذا استطاع أن يلمح فيها مطعنا على الإسلام ، وهو حين يرى رواية أو حديثا فيه مصلحة الشيعة ، إتهمهم بوضعه ، وحين يرى رواية تعلى من شأن السنيين ألصقها بكتابهم ، حتى أنك لتراه يضرب كل فريق بالآخر ليقنعك باضطراب كل هذه العناصر التى قامت عليها السيرة ، وليخرج عليك هنا وهناك بآرائه المغرضة .

وهو بعد هذا أن وجد فى الإسلام موضعا للفضل ذهب بنسبة إلى مصدر غير إسلامى ، أو يفسره تفسيراً ماديا يذهب بموطن الخير فيه ، فلامنس لا يستطيع أن ينكر أن الإسلام حرم قتل الذرية ووأد البنات ، ولكنه يستطيع أن يطلع عليك بقوله أن النبى دفع إلى هذا التحريم بحنينه إلى الذرية ، بعد أن صار (لطيا) فى طفولته ، وكذلك يستكثر لامنس أن يكون للنبى ما نسبته إليه السيرة من أبناء وبنات ، فيقول إن كتاب السيرة فعلوا ذلك رغبة فى إعلاء شأن النبى ، وهو إذا قرأ أن النبى لم يرغم بناته على ترك أزواجهن الذين تأخروا فى إعلان إسلامهم ، فسره بأن النبى كان يتشرف بهؤلاء الإصهار . ويعمل على الانتساب إليهم ، ويحرص على ودهم .

وهو إن تكلم عن السيدة عائشة لم يجد من مفردات اللغة الفرنسية إلا كلمة (Favorite) ليصف بها زوجة النبى ، وأقرب ترجمة لها بالعربية (محظية) وهو يحرص على استغلال بعض الاضطراب فى النصوص العربية التاريخية ليثبت أن الصحابة كانوا لا يقبلون عن طيب خاطر أن يصاهروا النبى ، ولكنه يذكر فى موضع آخر أن رقية ابنة النبى كانت جميلة وأن عثمان بن عفان إنما اعتنق الاسلام ليتزوجها ، وينسى لامنس أن يذكر فى موضع ثالث أن النبى كان يحرص على مصاهرة ذوى الحسب والنسب من المشركين .

ومهما يكن من شيء فقد كان للأب لامنس طرق غريبة فى التهكم على النصوص العربية وكان يرهق النصوص فيحملها أكثر مما تحتمل ويستنبط منها أكثر مما تفيد ، بل كان يغض الطرف عنها أن كانت تثبت خطأ آرائه .

وقد سجل عليه تعصبه زملاء له من أعلام الاستشراق فى مقدمتهم : بيكرودسو وجورفروا وبومبين وماسية وقال (فييت) فى نعى لامنس بجلسة ١٠ مايو ١٩٣٧ أنه من الصعب أن نقبل كتاب (فاطمة وبنات محمد) فى ثقة ودون تحفظ فإن التعصب والاتجاه العدوانى يسودانه إلى حد كبير .

وهكذا نرى أن الأب لامنس كان من أشد المتعصبين على الإسلام ، وكان المستشرقون يعرفون فى لامنس هذا العيب الكبير ويأخذونه به .

(ثانياً)

للأب لامنس المستشرق اليسوعى نظرية غريبة تتعلق بشكل الحكومة الإسلامية التى قامت عقب يوم السقيفة واستمرت طوال عهد الشيخين (أبو بكر وعمر) فهو يرى ان تلك الحكومة كانت حكومة ثلاثية من طراز النظام الثلاثى (Triumvira) المعروف فى التاريخ الرومانى طوال فترة الانتقال من الجمهورية إلى الامبراطورية ، وان قوام هذه الحكومة ثلاثة من كبار الصحابة : هم أبو بكر وعمر وأبو عبيده ، وأن هؤلاء الثلاثة اجتمعت كلمتهم فى أواخر عهد النبى على أن يحتكروا الحكم بعد وفاته ويتداولوه واحدا بعد واحد . وان اثنين من أزواج النبى ، هى عائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر مهدتا لهم السبيل إلى ذلك وان هذه المؤامرة قد نجحت الى حد بعيد .

* * *

ورد الأستاذ عبد الحميد العبادى على هذه الشبهة على النحو التالى : —

إن نظرية الأب لامنس لا تقوم على أساس تاريخى متين .

(أولا) لأن المصادر القديمة الموثوق بها لا تذكر شيئاً من هذا القبيل ، فالطبرى والبلاذرى اللذان استوعبا كل ما أمكنهما استيعابه من الأخبار المتعلقة بقيام الخلافة العربية ، لا يأتيان بخبر واحد يؤيد من قريب أو بعيد نظرية الأب لامنس .

(ثانيا) أن الأحاديث التى يستشهد بها الأب لامنس أغلبها من الأحاديث المروية فى مناقب الصحابة وخصائصهم ، وهذه ينبغى أن تؤخذ بتحفظ ، وربما كان من واجب الباحث إلا يستشهد بها فى مقام البحث العلمى الصريح ذلك لأن معظمها ولا شك موضوع ، وأن السبب فى وضعه يرجع إلى حاجة الأحزاب السياسية إبان العصر الأموى وصدر العصر العباسى .

(ثالثا) إن الأب لامنس يهمل كل الأهمال الرواية التى تشير إلى الذهول الذى أصاب عمر بن الخطاب عقب وفاة النبى ، وقد لحظ صديقنا الدكتور السنهورى فى كتابه (الخلافة) قيمة هذه الرواية ، ولكنه لا يعلق عليها الأهمية التى كنا نعلقها نحن . فقد قال عمر : « والله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا إن رسول الله قد مات » وقد تصدى له عمر فقال « إيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت . هذه الرواية العالية الإسناد فى الأهمية بمكان فهى تتعلق بإثبات نص من نصوص القرآن ، إذا كيف نوفق بين عمر المؤتمر على رأى

لامنس وعمر الذاهل لموت الرسول كل هذا الذهول كما تدل الرواية المذكورة .

وبعد فإن القول بائتمار أبي بكر وعمر قديم غير حديث ، فقد قال به روافض الشيعة منذ ظهرت الأحزاب السياسية بشكلها التاريخي في صدر الإسلام ، فزعموا أن أبا بكر وعمر وعثمان (لا أبا عبيدة كما يرى لامنس) قد ائتمروا ببني هاشم وغصبوهم حقهم في الخلافة .

فالأب لامنس لم يزد على أن أخذ وجهة نظر روافض الشيعة وغلاتهم إلى قيام الخلافة وبنى عليها بحثه الخاص بشكل الحكومة الإسلامية الأولى ، وهي بعد وجهة نظر ليست لها قيمة علمية على الإطلاق[1] .

(ثالثاً)

أما كرد علي فإنه قد عارض آراء الأب لامنس في أكثر من موضع . فهو ينقد كتابه : « مختصر تاريخ سوريا » . ويقول[2] :

مما لا حظناه أن المؤلف يأتي بجمل ينتزعها من عبارات الخلفاء والسلاطين والفاتحين وغيرهم قيلت في أحوال عامة لا تدرك على جليتها إلا إذا ذكرت العبارة من سياقها ، فيأتي المؤلف بجمله من المقول بالعربية ويترجمها بالافرنسية ويستخرج منها موضوعا قد يكون سبة على قائلها ويستنتج منه أنها كانت دستوراً جرى العمل عليه .

وقد رأينا صاحبنا يحرص كل الحرص على نسبة كل شيء إلى سكان البلاد الأصليين ، وقد كرر غير مرة أن عالم قريش (خالد بن يزيد) تلميذ راهب ولم يقل كلمة واحدة فما أفضل فيه هذا التلميذ على الآداب العربية ، وكيف كان أول من ترجمت له العلوم من السريانية واليونانية والقبطية في دمشق وما هي منزلته في الخلفاء وهو عالم الأمويين ومحدثهم ومستشارهم وشاعرهم ، ونظن أن عمل خالد بن يزيد هذا من التطورات المهمة في تاريخ الأمة التي تستحق أن يشار إليها ولو بسطر واحد أكثر من أخذه عن راهب علما لم يكن له به معرفة .

---

(١) مجلة الثقافة ١٩٣٩/٢/٢١ .
(٢) مجلة المجمع العلمي العربي م ٢ ص ٢٧١ .

ومما قاله فى شيخ الإسلام ابن تيمية أنه صاحب (المذهب الارتجاعى) وأن عمله مختل ، وأنه كان لا يفتر عن مقاتله البدع وقضى حياته وهو يسوق أبناء دينه فى سبيل التعصب .

ونحن لا نطلب منه أن يعتقد فى دين الإسلام اعتقاد أهله بل نطلب منه أن ينصف ويتجرد من العواطف التى تذهب بهجة العلم حتى لا يعدّ من الغالين فى مذهبهم .

وقد قال فى القرآن وإعجازه وتفسيره وبلاغته أشياء كان يقول بها متعصبة الأديار فى القرون الوسطى . ثم أن دعواه بأن الفقه الإسلامى قد تأثر بالفقة القديم السابق لا سيما بالفقه اليونانى وذلك بواسطة الحقوق القانونية لكنائس المسيحية فى الشرق هى دعوى أدعاها غيره قبله ولم يأتوا بحجة مقبولة معقولة ، ولا نرى فى دخض هذه الفرية إلا أن نحيله إلى مقالات سعيد الخورى الشرتونى اللبنانى صاحب أقرب الوارد وبذلك يتبين له فساد هذا الزعم وأن مصادر الفقه الإسلامى من الكتاب والسنة والاجماع والقياس ليس إلا .

وقد وصف المؤلف « صلاح الدين الأيوبى » بالطماع ، ولكنه وصف الحروب الصلبية بوقائع البسالة . ووصف جمال الدين الأفغانى بالمهيج الأفغانى وكان الأنصاف يقتضى منه أن يصف ملوك الصلبيين بالأوصاف التى تليق بهم ولكنه صورهم كلهم على الغاية من النجدة والعقل ولو أنصف لسمى تلك الحروب بحروب الجنون والطيش كما سماها المنصفون من مؤرخى الصليبيين . ولنذكر لبعض أولئك الملوك بعض صفاتهم فى نقض العهود والعبث بالمهادنات وقتل الأسرى وغير المحاربين من الشيوخ والعجزة والنساء والأطفال .

وبعد فإن المؤرخ أراد أن ينفى المنقبة التى أتاها صلاح الدين وربما عدت فى نظر الغربيين من أهم أعماله الصالحة وهى أبقاؤه على الصلبيين يوم فتح القدس فلم يضع السيف فيهم كما قتلوا هم المسلمين يوم استيلائهم عليها . وقال إن عمل المسلمين هذا : « عجز وخوف » .

ونى الأب لامنس ما ثبت من أن الصلبيين يوم فتحوا القدس قتلوا سبعين ألفا من المسلمين ، فقال إن هذا القول مما سلم به الباحثون بدون رويه ، واعتذر عن فعلة الصلبيين فى بيت المقدس بأن هذه المدينة عوملت بما تقضى به الأخلاق الحربية لذلك العهد فى معاملة المدن التى تؤخذ عنوه .

وأدعى المؤلف أن دار العلم بطرابلس لم تكن مدرسة جامعة بل مدرسة صغيرة لتلقين العلم الدينى ، بيد أن المؤرخين مجمعون على أن طرابلس كان فيها دار حكمة على مثال دار الحكمة فى بغداد وقال الأثرى (فإن برشم) فى مفكراته : « لقد ازدهرت طرابلس زمن القاضى ابن عمار وقد أنشأ فيها بيت حكمة جهزه بمائة ألف مجلد من الكتب وكان فيها على عهده مدرسة جامعة ومدارس دينية وخزائن كتب وربما كانت طرابلس قبيل استيلاء الصليبيين عليها أول بلدة علمية فى الشام .

ومن غرائب أحكام (لامنس) قوله : إن دور الأكراد الأيوبيين كان قليل البهاء ، وما ندرى لعمر الحق أى بهاء أعظم من كون صلاح الدين وأسرته يدفعون عادية أعدائهم من الصليبيين على قلة عددهم وأسبابهم ، ثم تروج العلوم والمعارف فى أيامهم حتى أنشئت فى عهدهم معظم الجوامع والمدارس ودور القرآن والحديث والفقه والطب والهندسة الخ .

ومما قاله (لامنس) عند كلامه على الأحزاب التى نشأت فى الشام أنها لم تلبث أن أصيبت بالخلاف والمناقشات الشخصية وهو الأرث الذى أورثها إياه ظلم ثلاثة عشر قرنا . أى أن المؤرخ لا يعترف بأنه قامت للعدل سوق فى هذه الديار منذ فتحها العرب ونسى أوتناسى على الأقل عهد الرشيد والمأمون ونور الدين وصلاح الدين فقبح الأب لامنس الكل بقوله ، وكنا نود لو خص فى كتابه بضع صفحات بيضاء فى عدل الروم والرومان فى الشام لنرى الفرق بين السابقين واللاحقين ، بيد أنه صور العرب أنهم سالبة كلية فى هذا القطر وفى غيره ، لا مدنية ولا صناعة ولا عدل ولا نظام وهو لا ينطبق مع ألوف من الشواهد ويكفى بأن نذكره يقول سيد يليو فى تاريخ العرب « لا يسع أحداً أن ينكر أن الخلفاء كانوا إلى القرن التاسع للميلاد سادة مملكة عظيمة زاهرة وعجيبة بازهارها ، وأن ملوك بغداد كانوا يبعثون بالسفارات والهدايا إلى الأمبراطور شارلمان وإلى امبراطور الصين ، وأنهم كانوا مثال العظمة الحقيقية بما أنشأوه من معاهدهم الرشيدة ، وما بذلوه من الأخذ بايدى العلوم ، وأن المدارس التى أنشئت فى واسع ممالكهم كانت تجدد إنارة مصباح المدنية من أقصى الشرق إلى أعمدة هركول تاركة فى كل مكان مصانع مدهشة من آثار الصناعة العربية ومؤازرة على تجديد دم العالم القديم» .

وأصرح من ذلك ما قاله رينان : لم تنج أوربا البتة من العمل العام الذى أثرته اللغة العربية فـ ومعلوم مقدار الـكلمات فى كل المطالب التى أخذها الأسبانيون والبرتغاليون من لغة جيرانهم المسلمين ، وفى اللغات الرومانية الأخرى ، عدد كبير من الـكلمات العربية ، وكلها تعبر إلا قليلا عن أمور علمية أو أعمال صناعية وتؤكد مبلغ انحطاط الشعوب النصرانية فى القرون الوسطى عن المسلمين فى العلم والصناعة » .

وقد أفاض المؤلف فى تاريخ لبنان حتى كاد يصبح تاريخيا لهذا الجبل ، والـكلام على سائر أقاليم الشام جاء عرضاً ، مع أن الوقائع المهمة فى تاريخ البلاد وقعت فى دمشق وحلب والقدس وحمص وغيرها من الحواضر أكثر من قرى لبنان مثال ذلك : أنه ذكر « فخر الدين المعنى » بتطويل لم يبلغ شأو بعض بعضه صلاح الدين « الأيوبى » ولم يذكر المؤلف فى المدارس التى نهضت بالبلاد إلا مدارس اليسوعيين ومدرسة الدومنيكيين العالية فى القدس ، والأنصاف يقضى بأن يذكر المدارس الأخرى التى كان لها شأن فهم فى إنهاض البلاد مثل المدارس الوطنية فى بيروت ولبنان ودمشق وغيرها .

وإن من واجب المؤرخ أن يتجرد من عواطفه الخاصة فأما أن يذكر العاملين أيا كانوا أو يتخلى عنهم جميعا .

(رابعاً)

عرض « كرد على » لمنهج الأب لامنس فى البحث

قال[1] : أنه عاهد تاريخ الإسلام على مناقضته وتمحض للخط من قدر العرب ، ونشر أخطائه وأكاذيبه فى دائرة المعارف الإسلامية ، ومن عمله تحريف آيات القرآن ، وحذف مالا يروقه من كتب المسلمين وخلط الآيات القرآنية بأبيات من الشعر ، ويجمل الأحاديث النبوية من كلام بعضهم ، ومن ذلك اقتطاع جملة واحدة من نص طويل وإيراد الخرافات المنقولة من كتب الوضاعين والقصاصين ، مدعين أنها منقولة من كتب الثقات الأثبات .

وقال كرد على أن « لامنس » ألف تاريخا مختصرا للشام لم يذكر فيه للاسلام وللعرب محمدة من ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن ، ووصف العربى بأنه ليس شجاعا وأنه على استعداد

(١) مجلة المجمع العلمى العربى م ٢ .

للنهب . كما تمدح الصليبيين — وهم بشهادة المؤرخين — من أهل الخبث والفجور ، وادعى أن الصليبيين عاملوا الأهالى فى الحروب الصليبية معاملة حسنة .

وفى تقدير الباحثين أن لامنس أضعف من شأن أكثر مؤرخى العرب أمثال الطبرى والبلاذرى وابن سعد والأصفهانى وابن الأثير وابن خلدون وأبى الفداء ، ووثق بعض القصاص الوضاع ، وقد ذكر أميل درمنجم وهو من كتاب الغرب الأب لامنس باللوم ، وقال أن كتبه قد شوهت محاسنها بما بدأ فى تضاعيفها من كراهية الإسلام ورسوله وأنه استعمل فى التاريخ طرقا بالغ فيها بالنقد » .

(خامساً)

عدد « كرد على » أخطاء لامنس فى كتابه الإسلام والحضارة العربية[١] .

لقد نسى لامنس وبعض جماعة أموراً كان من الحرى بكل مشتغل بالعلم أن يجعلها قيد نظره ، هى أمانة العلم فأخذوا منذ ألقوا رحالهم فى الشرق ، يحرفون آيات القرآن ويحرفون من كتب المسلمين ما لا يروقها ، ويخلطون الآيات بأبيات من الشعر وما تحرجوا قط من اقتطاع جملة واحدة من نص طويل ، ليبنوا عليها ما يتخيلونه نافعاً لغرضهم ، يوردون الخرافات المنقولة بصيغ التضعيف فى كتب الوضاعين والقصاصين ويدعون أنها منقولة من كتب الثقات الأثبات .

وقد ادعى لامنس إن العرب لا قابلية فيها لشئ من مشخصات المدينة ، وينقصه فى ذلك شواهد التاريخ ، فقد علموا العالم القديم ونقلوا إليه ما لم يعرفوه وهم يتهمون صلاح الدين بأنه لم يبق على الصليبيين إلا خوفا منهم وعجزا عن التنكيل بها وإنما كان ذلك من صلاح الدين سياسة منه اقتضاها دينه وبعد نظره .

(سادساً)

وكتب كرد على معلقا على آراء فى مبحثه عن مادة عن « الشام » الواردة فى دائرة المعارف الإسلامية فقال : إن بحث الأب لامنس عن الشام قد وقعت فيه هنات لا يصح الأغضاء عنها ، فمنها فى فتح الشام أن الأعراب بعد الردة وقيام أبى بكر الصديق تألفوا عصابات عملا بإشارة

(١) ص ٢٩ ج ١ كتاب الإسلام والحضارة العربية .

الرسول أو بعثه غزو بلاد دخلت من حماتها . . الخ . . ومعنى هذا أن مبدأ الفتح كان بعصابات على عهد أبي بكر ، مع أن جميع كتب التاريخ مجمعة على أن صاحب الرسالة أنفذ في حياته الشريفة خمس غزوات إلى الشام وهي (دوم الجندل . مؤته . ذات السلاسل . بتول ، آبل الزيت) وفي عهد الخليفة الأولى أرسلت الجيوش تباعا دراكا بقيادة جلة من الصحابة منهم خالد بن الوليد وكانت وقعة اليرموك هي الموقعة الفاصلة، ولم يكن جيش العرب أقل من ٣٥ ألفا وجيش الروم ٢٠٠ ألف أنجد مرات . وأراد الأب لامنس أن يصغر من شأن هذا الفتح فنسبة إلى عصابات مع أنه كانت حربهم حربا منظمة ولم يترك الروم في قوس المقاومة منزعا وما كان يقصد من الفتح الغزو والغنائم فقط كما قال .

وقال لامنس « إن الحركة العقلية كانت في العصر الأموي قاصرة على الشعر وفي رأسها الشاعر التغلبي الأخطل النصراني ، والخليفتان يزيد الأول والوليد الثاني مع أن شعراء الأمويين عدوا بالعشرات ، والحقيقة أن الحركة العقلية لم تكن أدبية فقط فإن خالد بن يزيد الأموي في دمشق أمر بأن يترجم له كتب الطب والنجوم والكيمياء وجلب فلاسفة من مصر والروم وأغدق عليهم الأموال لذلك ، وأنشأ أول خزانة للكتب في دمشق بل في بلاد الاسلام ، ثم جاء عمر بن عبد العزيز فأمر أن تترجم الكتب فالحركة إذن لم تكن أدبية صرفة .

٣ — وقال انه كان في دمشق معمل للورق في القرن العاشر للميلاد مع أن معامل الورق كانت في دمشق وطبرية وطرابلس وحماة وحلب ومنبج منذ أواخر القرن الثامن ، وتدل القرائن على أن الوراقة كانت معروفة في الشام في أوائل الإسلام[1] .

(سابعا)

أخطاء الأب لامنس في السيرة

ونقد العلامة : أتيان دينية في كتابه (الشرق في نظر الغرب) أخطاء لامنس في السيرة قال يدل الأب لامنس في كل تآليفه على ريبة بالأخبار الإسلامية تبلغ إلى حد الرغب.«لاشيء أدعى إلى الخوف والحذر من سذاجة الأحاديث الخادعة ، وأنك لتقع على أسرار في تلك

---

(١) مجلة المجمع العلمي ص ١٢٩ م ٧ سنة ١٩٢٧ .

الاختلافات الأقل خطراً فى الظاهر) ورأيه أن السيرة من أولها ليست إلا مجموعة خدع وتلفيقات ، وإذا كان الأمر كذلك فملام لا يطرح الأخبار والأحاديث الإسلامية جملة ؟ لكنه لو فعل فعلى أى أساس يبنى المصنف تصنيفه ، لقد نهج الأب لامنس نهجاً لا تحتاج المخيلة فيه إلى كبير جهد : كلما ذكرت الأحاديث أو الأخبار ، خلة حسنة ممدوحة فى محمد وصحابته رأيته يؤكد أنهم كانوا مصابين بالعيوب المناقضة لتلك الخلال ، وبكلمة موجزة نقول ان طريقة الأب لامنس تقوم على عكس المنقول عكساً مطرداً . ولا يعدل الأب لامنس عن هذا الأسلوب إلا حينما يجد أسلوباً أشد مكراً فى سوق الخبر إلى معانى السوء .

مثلا : فى الخبر أن محمداً لقب بالأمين وأنه كان لا يفر من المخاطر ، وأنه كان يتهجد ويصوم طويلا وقد يقضى ثلث الليل فى الصلوات ، فمثله لنا لامنس فى قوله أنه رجل غير أمين ، قليل الشجاعة ، أكول ونؤوم (كتابه : هل كان محمد صادقاً) .

ولا سلوب « العكس » هذا شأن وحرمه عند بعض المؤرخين الذين عرف عنهم التجرد من كل تقليد دينى ، وأحر بالنتائج التى يجنيها هذا الأسلوب أن تكون مدعاة للسخرية وليس يجرؤ المستشرقون على إنكار حقيقة النبى ولكنهم سينتهون إلى ذلك ، فانهم بدأوا بتجريده من اسمه زاعمين أنه لم يدع محمداً قط ، وأن حقيقة اسمه ستظل من الألغاز التى لا حل لها ، وحجتهم أن كلمة محمد نعت ذو معنى خاص .

وقد وصف لامنس النبى بأنه ساعى البريد ، مهمته مقصورة على البلاغ أو حمل الرسالة إلى محل الإقامة ، ووصفه بأنه أسلم نفسه للتمتع بلذات العيش ، وأنه مصروع ، وأن الإفراط قد حطم عزيمته . بهذا الأسلوب كتب كل مؤلفاته ، بل كتب بعضها بأسلوب أبعد أيضا عن اللباقة ، وليس يجرى قلمه بألفاظ اللطف والتأديب إلا مع خصوم النبى وأعداء الإسلام وينسج الأب لامنس على هذا المنوال من التعصب كما تعرض للذين أحبهم الرسول أو كرمهم الإسلام فاطمة ، على ، عمر . وقد أجهد لامنس نفسه فى كتابه (فاطمة).

ليستنبط من حسابات غير صحيحة ان فاطمة إذ تزوجت كانت متقدمة فى السن ؛ ويستدل بهذا على أن فاطمة لم تكن حسنة الصورة . وهذا رأى (روى) بلاجدال ، لأن البنات اللواتى لا يبكرن إلى الزواج فى المجتمع الإسلامى يغلب أن يكون السبب انه يطلب بيدهن ثمن غال ، إما لجمال بارع أو لذكاء مفرط أو شرف محتد ، لذلك فاذا وفق الأب لامنس إلى اقناعنا بأن فاطمة لم تتزوج وهى بعد حدثة السن ، فهو يهدى إلينا الحجة القاطعة على فضائلها . ولنا أن نستخرج من هذا الخطأ الجوهرى الذى بنى عليه الأب لامنس كتاباً برمته حقيقة لا مراء فيها ، وهى أن المستشرق العلامة ليس يحكم على عادات العرب وليس يصف أحوالهم إلا بالقياس على عادات مشارقة النصارى الذين يعيش بين ظهرانيهم وبين هؤلاء وأولئك بون كبير .

ووصف لامنس فاطمة بأنها كانت بكاءة هزيلة بليدة الفهم ، وأن علياً كان قبيح الشكل ومن حيث الفكر محدوداً ، أما عمر فكان حينئذ مسكيناً أدنى مرتبة من الوسط .

يرى القارىء أن هذا كله من قبيل خطه « العكس » التى يجرى عليها الأب لامنس سواء فى الكلام على أصدقاء الرسول ، أما أعداء الإسلام فإنه يثأر لهم بأن يذكرهم بالخير العميم ، هؤلاء من خصوم الإسلام يحدثنا عنهم الأب لامنس بغير اللهجة الأولى ، بل انه يشيد بذكرهم ، بالغة منه الحماسة حداً .

ويرفق الأب لامنس تصنيفه باسناد ضخم ، غير أن انتفاعه بعلمه لا يلتئم مع روح الإنصاف الهادىء المدقق الذى يتصف به العلماء الحقيقيون مثلاً ، بلغنا من الأخبار عن زهد النبى وتقشفه وأنه لم يخرج من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير ، ولكن الأب لامنس يضرب بهذه الأخبار ، ولا يسلم قط بزهد مؤسس الإسلام وتقشفه ، فاذا عثر خلال مطالعاته الجمة بخبر مفرد رواه ابن حنبل وفيه أن محمداً أكل فى مأدبة أدبها له الأنصار كتفى ضأن غلب عليه الفرح الشديد وبادر إلى وصف الرسول بأنه رجل أكول ، قائلا إن النبى كان قادراً على التهام ثلاثة من أفخاذ الضأن .

فاذا لم يعثر الأب لامنس رغم الأبحاث الطويلة بخبر واحد معرفة فى وجوه غاياته استغنى عنه وثبت على مزاعمه الباطلة . مثلاً : لمحمد من زوجه خديجة ثلاثة ذكور وأربع أناث. ومع ذلك ينكر الأب لامنس أن محمد عقب ولداً ذكراً ، ومن التناقض أنه لا يفتأ يدعو النبى بلقبه « أبى القاسم » على حين أنه ينكر وجود القاسم هذا انكاراً جازماً .

إن الأمثلة على هذا الأسلوب الغريب فى كتب هذا المستشرق كثيرة لا نكاد نحصيها ، ومن شأنها أن تظهر لنا خلو تصنيفه من روح العلم رغم غزارة الأسانيد ، ومما يسترعى إليه الأذهان هو أن هذه الاستشهادات الكثيرة لا يريد بها فى الغالب إلا إثبات أشياء تافهة جداً ، بل ان الأب لامنس لا يحجم فى درك غاياته عن تأويل بعض الألفاظ العربية تأويلا غير صحيح البتة .

وليس من دليل لغوى يجد له أن يترجم لفظ الردة مثلا بما معناه (الانفصال) أو لفظ المنافقين بما معناه « المشككون الفاترون » وقد أنعم الأب لامنس على هذه الألفاظ بمعان لم تكن لها ولن تكون سواء فى العربية الفصحى أو لهجاتها العامية ، يستنتج استنتاجات فيها كثير من التعرض ، محاولا بذلك تكريم المنافقين الذين كانوا يغدرون بالنبى ويمكرون به مقدماً إياهم على أنهم أبطال القومية العربية .

أما العرب الذين اعتنقوا الإسلام فالأب لامنس يبدى لهم من العداء بقدر ما يبدى لنبيهم الذى أوحى إليه بهذا الكتاب . وقد يضيف الأب لامنس وجوه أخرى كثيرة كلها حرية بالنقد والتمحيص ، منها إنشاؤه الذى ملأه تعبيرات جديدة غريبة تمسخ فى شكل مضحك جميع الأخبار عن الحياة العربية . من هذه الألفاظ ، الحملة الصحافية ، الماليون ، مصرف مكة ، مليار النقابة القرشية ، إبلاغ الرسالة إلى محل الإقامة ، ديوان ذى الجلال أو وزارة الله الخ .

وبعد فماذا ينبغى من الأناجيل لو اتبعنا فى درسها طريقة الأب لامنس ، لكنك لن تجد مسلماً يجرؤ على مثل ذلك المسخ أو التشويه لصورة يسوع الجليلة التى يحترمها أتباع

.النبي العربي العظيم احترام ، بل لن تجد مسلماً يتسامح في شيء من هذا القبيل ، وعلى هذا فنحن نضن بأنفسنا عن مقابلته بمثل سلاحه انتقاماً منه ونؤثر العمل بآلامه ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن . وقد كشف الأب لامنس في كثير من أبحاثه ذلك الاتجاه الواضح لتعصبه وانحرافه حتى أنه أبدى إعجاباً كبيراً في مقال له (نظره في حاضر الإسلام) نشره في المشرق سنة ١٩٣٠ لما بلغ إليه الأمر من أن التعليم القرآني في تأخر مستمر ومطرد في البلاد الإسلامية المستقلة ، وان تطور التعليم الرسمي في المعاهد العالية والثانوية يتحرر شيئاً فشيئاً من تأثير الدين حتى يصبح لادينيا محضا ، وأن دعاة التطور قد مدوا أصابعهم داخل الجامع الأزهر ، والزيتونة ، وأشار إلى أن ذلك سيؤدي إلى اضطراب الشبيبة الاسلامية في مبادئها وعقائدها وأن ذلك سيؤدي إلى صدمة قوية يعانيها الإسلام .

لويس شيخو

يعد لويس شيخو من أقسى المستشرقين على الاسلام والفكر الاسلامى وفى مجلة المشرق التى أصدرها ربع قرن حملات متصلة وأثارة مستمرة للشبهات ، وفى مجال دراساته الأدبية لا ينسى خصومته وتعصبه فى عشرات المجالات والأبحاث يتناول الاسلام والفكر الاسلامى على نحو لا يشرف العالم أو الباحث .

ومن أبرز أثاره رسالة أسماها (خرافات القرآن) ترجمها زويمر عام ١٩١٤ وانتفع بها فى دعاة التبشير فى مصر والبلاد العربية فى الطعن على الاسلام ونشرها فى مجلة العالم الاسلامى .

ولويس شيخو قس يسوعى ولد بماردين وتعلم بمدرسة الأباء اليسوعيين فى غزير بلبنان وانتظم فى سلك الرهبانية اليسوعية وتنقل فى بلاد أوربا والشرق ، وقد عهد إليه بتعليم الآداب العربية فى جامعة القديس يوسف وأنشأ مجلة المشرق (١٨٩٨) وتوفى فى بيروت (١٨٥٩ — ١٩٢٧) وله مؤلفات متعددة أهمها شعراء النصرانية .

وقد وجه إليه النقد من زملائه المستشرقين لتعصبه ومما ذكره أميل درمنجم عنه قوله: « وشيخو مثل لامنس ، لم يأل جهدا فى إثبات دعواه أن العرب قبل الاسلام وبعده لا شأن لهم فى المدنية وإذ كان هناك حضارة فان أصحابها هم نصارى العرب ، وقد لفق كتابا أدعى فيه أن معظم شعراء العرب قبل الاسلام كانوا نصارى وبراهينه على دعواه واهية[١] .

وقال كرد على[٢] : أن لويس شيخو كتب معظم مقالات مجلته مدة خمس وعشر سنة ونشر فيها أولا أمهات تآليفه وراعى فى كتبه نظام رهبانيته فجاءت كتاباته إلا قليلا أشبه بكتب الدعايات المذهبية ، منها بكتب علمية مشتركة ، وما حالف قط طريقته الدينية إلى

---

(١) أنظر كتابنا (الثقافة العربية المعاصرة فى معركة التغريب والشعوبية) .
(٢) ص ٢٣٥ م المجمع العلمى م ٨ .

ما يسمونه الطريقة العلمانية ، ولو خلت من هذه النزعة لكانت فى الغاية من جودة التأليف .

ولم يرزق ذوقا عاليا فى الأدب العربى ، وظلت كتاباته إلى آخر أيامه كما كانت فى أول عهده نمطا واحداً لا تتناسب مع مقدرته على التأليف ووقوفه على أدب العرب والافرنج وعلوم العصر ، وهكذا يقال فى ذوقه فى الشعر ، وقضت عليه الصنعة أو البيئة على ما يظهر أن يغمط حق العرب فى مدنيتهم ، وكان فى الأغلب ينظر إليها من الوجه الذى لا يستحسن ، لذا يعد شعوبيا وشديد الشعوبية بأفكاره وتصريحاته لا صلة بينه وبين العرب إلا بما نشره من آثار علمهم وآخر أثر له من هذا القبيل أنه ذكر جملة من أدباء المسلمين — وهو مولع فى التفريق بين المسلمين والمسيحيين — فى الربع الأول من القرن العشرين لم يتجاوز فى عدهم العشرات فى الأمة العربية ، مع أن من وضعوا المصنفات والتآليف ولهم مكانة فى الشعر والأدب لعهدنا لا يقلون عن ثلاثمائة رجل ، إعتذر بجهله أسماءهم مع أن من اشتهرت بين قراء العرب مصنفاتهم وفيها الممتع لا يصعب السؤال عنهم ويستغرب أن لا يطلع مثله على أعمالهم .

لويس برتران

أصدر الكاتب الفرنسى لويس برتران عضو الأكاديمية الفرنسية عام ١٩٢٦ كتابا بعنوان « أمام الاسلام » تناول فيه المصريين والشرقيين والمسلمين بالهجو واتهمتهم بالتأخر ، والتعصب ، وقال أنه لا قابلية لهم للتمدن ، وردد العبارات المعروفة التى تدعى أن للغرب حق تمدين العالم .

وقد واجه الدكتور هيكل هذا الكتاب وما تضمنه من آراء فقال أنه « أشد ماظهر فى السنين الأخيرة صراحة فى عدوانه على المسلمين والمصريين وأشدها إمعانا فى الطعن عليهم والنيل منهم ، وهو فوق ذلك صيحة لإعلان الحرب بين الشرق والغرب والنصرانية والإسلامية والكتاب لا يشتمل على شىء جديد غير هذه النزعة الرجعية التى أدت إلى الحروب الصليبية فى القرون الوسطى .

وقال : إن برتران واحد من أربعين بيدهم قيادة الرأى والفكر فى فرنسا ، وقد حمل على أهل الاسكندرية لأنه رآهم يبدو عليهم الاعتداد بالنفس والاعتقاد بأنهم مسايرون للأوربى ، وقال : هذه هى الجريمة فى نظر برتران .

وكتابه هو عصارة روح الكراهية والحنق ، ثم قال : إذا كان مسيو برتران يريد أن يعتقد أن قومه أكرم عنصرا واشرف مقاما فى الإنسانية من الشرقيين ومن المسلمين ، فليعلم أن الزمن الذى أتاح لأوربا أن تحكم العالم ردحا من الزمن ، قد أتاح من قبل لأمم آسيا ولأمم أفريقيا ومصر التى نالها المؤلف بحقده وكراهية قد حكمت العالم عصوراً عديدة ، وقد صبغت العالم بمدنيتها ، وأهل أهلها يومئذ كانوا يعتقدون أن الأجناس التى تقطن أوربا كلها همج وبرابره متوحشون وأن أمم الاسلام قد نظرت لأمم أوربا ردحا من الزمن على أنها أمم الموت والتقهقر .

ولیم ویلـکوکس : الدعوة إلى العامية

فى يناير ١٨٩٣ ألقى المهندس الإنجليزى وليم ويلـكوكس محاضرة فى نادى الأزبكية (انجلوا اجيبشيان كلوب) موضوعها : لماذا لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن ؟ زعم فيها أن قوة الاختراع تأتى من القوة المفـكرة ويرثها الإنسان من آبائه والقوة الخيالية ويرثها الإنسان من الأمهات . وقال أن أهم عائق يمنع المصريين من الاختراع أنهم يؤلفون ويكتبون باللغة العربية الفصحى ، ولو ألفوا وكتبوا باللغة العامية لصاروا مخترعين ، واستدل على ذلك بأن الإنجليز كانوا يؤلفون باللاتينية فلم يكونوا مخترعين ، فلما اختاروا لغة الفلاحين الإنجليز ، وكتبوا بها صاروا مخترعين ويرجع ذلك إلى الزمن الذى نبغ فيه شكسبير وبيكون . . . » .

ولم يتوقف ويلـكوكس عن هذا الحد ، بل اشترى ترخيص مجلة اسمها الأزهر من منشئيها إبراهيم مصطفى وحسين رفقى ، وأصدرها بالاستعانة بالشيخ أحمد الأزهرى وراح يردد فيها هذه الدعوة .

ومضى فاتجه إلى الإنجيل فترجمة إلى اللغة العامية ، ثم ما كاد يحال إلى المعاش وكان من أكبر مهندسى الرى والخزانات حتى عمل مبشراً ، يجادل الناس فى عقائدهم ، ويحمل إلى القرى النائية الأدوية والتبشير ، وظل يعمل فى مستشفى مصر العتيقة (هرمل) المعروف إبان حملات التبشير التى أثارت الرأى العام .

وقد كتبت مجلة الطائف عنه أنه اعتـكف سنة ١٩٢٦ فى داره بحلوان وخرج منه أخيراً مبشراً يجهد اللغة العربية وبدأ حركة التبشير فى مسكنه الحالى الصغير فى جهة الزمالك حيث وضع كتابين أو ثلاثة كتبها باللغة العامية وأطلق على آخرها اسم « الأكل والإيمان » ووزع كتبه بنفسه مجانا على العامة فى المدن وسكان القرى وكان ينتقل بينها ويجالس أهلها .

وقد ردد سلامه موسى فى مجلة الهلال دعوة ويلكوكس إلى العامية وتحدث معه ، وقال : إن الهم الذى يقلق ويلكوكس هو اللغة التى نكتبها فهو يرغب فى أن نهجرها ونعود إلى لغتنا العامية فنؤلف بها وندون بها أدابنا وعلومنا وأن ويلكوكس يرفض التسوية أى قيام لغة مشتركة من العامة والفصحى — ويدعونا إلى هجرة اللغة الفصحى هجرة تامة واصطناع العامية .

وقد نشر سلامة موسى ذلك عام ١٩٢٦ أى أن ويلكوكس ظل مقيما على دعوته أكثر من ثلاثين عاما .

ولما توفى فى يوليو ١٩٣٢ أشارت جريدة الأهرام إلى دوره هذا فقالت : كان يقوم باستخدام اللغة العامية لأنها أقرب إلى الافهام وأنه أنشأ لاذاعة هذه الفكرة بمعاونة سكرتيره أحمد بك الأزهرى مجلة باسمه مجلة الأزهر ولكن الرأى العام قاوم فكرته فأبطل تلك المجلة ولكنه ظل هو ذاته يؤلف باللغة العامية المصرية فكتب فى ذلك حياة المسيح وأعمال الرسل وترجم كتب العهد الجديد إلى اللغة العامية المصرية .

فنسنك : دائرة المعارف

يعد فنسنك من أبرز المستشرقين ، وقد ولى تحرير القسم الأكبر من دائرة المعارف الإسلامية. وهو تلميذ «سنوك هيجرونية» سافر قبل الحرب الأولى إلى جاوه ، واعتنق الإسلام ، وما كاد يعود إلى بلاده بعد الحرب الأولى ارتد عن الإسلام ومضى يهاجمه فى عنف وأخذ طريق مرجليوت ونيكلسون ، والأب لامنس ودى كاسترى وكازنوف .

وقد رشح عام ١٩٣٣ عضوا فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة غير أن الدكتور حسين الهراوى تصدى لكشف مواقفه من الإسلام مما عمل على شطب اسمه وإقصائه .

وقد أشار الدكتور الهراوى[١] إلى أن فنسنك إذا أراد أن ينال من الإسلام فإنه يفرض فرضا ثم يبحث عن الآيات التى قد تتناسب مع هذا الرأى الذى فرضه ، فإذا وجد آية تدحض رأيه حذفها ، وأنكرها انكاراً حتى يخرج بالنتيجة إلى نزوع الشك فى فؤاد من يطلع على أقواله من غير تمحيص ، وقال أن هذه هى طريقة المستشرقين الذين يتبعونها فى مباحثهم عن الإسلام أو حياة محمد (ص) أو عندما يريدون أن يستقصوا مسألة فى القرآن ، وهذه الطريقة لم يبتدعها فنسنك بل هى طريقة قديمة من أقدم ما ورد فى كتب المستشرقين ، والغرض منها ظاهر جلى ، هو تزويد جماعة المبشرين والمستعمرين بحجج شبه منطقية يزعزعون بها عقائد المسلمين وينالون من تمسكهم بدينهم ، وهى إحدى الطرق التى وضعها رواد الاستعمار من زمن قديم ، وكانت إحدى وسائلهم مع تقوية اللغات العامية حتى لا يتفاهم المسلمون ولا يفهمون لغة قرآنهم ، وقديما أطلعنا على تقرير لجنة العمل المغربى ، وفيه يقول المستشرق سيكاردا « إن الإسلام فى روحه الخاص قوة مخالفة لاحتياجاتنا ورغباتنا ونزعاتنا » إلى أن قال ، « فمن مصلحتنا التقليل منه بين الشعوب الخاضعة لسلطتنا » .

---

(١) ١٩٣٣/١١/١ الأهرام .

وفى تقرير بورينو الذى يدرس اللغة العربية لفريق من طلبة أوربا :

إننى سأعلمك لغة القرآن ، فهذه اللغة قد ماتت ولا يتكلم بها أحد فهى « لا تينية » العربى ، وهذه اللغة المستعملة فى جنة محمد وساجيب إليك دراستها فى المستقبل إذا أردت أن تتذوق حلاوة الاجتماع بالحور العين » فأمثال هذه المبادىء هى التى رسمها المستشرقون لدراسة اللغة العربية ، وأكثر من ذلك أن بعضهم مثل مرجليوت يغالى فى الطعن فى نسب « محمد » فيقول أن اسم أبيه (عبد الله) معناه أنه (مجهول الأب) وتتمثل لك نتيجة عمل المستشرقين جليا فى كل كتاب علمى أو عمرانى أو اجتماعى ، يكتب شيئاً عن الشرق وعن الإسلام ، فأنك لا تكاد تقرأ أى هذه الكتب ، حتى ترى إجماعا على الجهل بالإسلام ، وإجماعا على الطعن فى النبى الكريم ، وقد أنتج ذلك أن بعض المسلمين الذين لم يلموا إلماما كافيا بدينهم أخذوا يتبعون خطى المستشرقين ويقتفون أثرهم وقد اخترعو لنا اسما غريبا لهذه الجهالة هو « حرية الفكر » .

بمثل تلك النواحى أصبحنا لا نقرأ للمستشرقين شيئا إلا ونحن نحرص على تفكيرنا وأن نعنى بتعرف الغرض الذى يرمى إليه قبل أن نثق بما يكتب ، وأن نقتفى أثره فيما يبحث وفى مستنداته » .

وقال الدكتور الهراوى أن من أخطر آراء فنسنك رأيه فى كلمة إبراهيم ، ورأيه فى كلمة كعبة (فى دائرة المعارف الإسلامية) .

فقد أشار تحت لفظ إبراهيم: إن الآيات المكية ليس فيها ذكر لنسب إسماعيل لإبراهيم ، ويقول أنه لا يعرف شيئاً عن شعور محمد نحو الكعبة فى شبابه وبعد الرسالة إلا بعد أن هاجر بعام ونصف ، وأن ما لديه من تاريخ حياته لا يصح أن يؤخذ أساساً تاريخيا .

ونسب (فنسنك) إلى النبى (محمد) أنه لم يشذ عن الجماعة فى العبارة المكية ، أى بعبارة أصرح ، أنه كان وثنيا قبل البعثة وأن فنسنك لا يعرف شعور محمد نحو الكعبة ، ويرد الدكتور الهراوى على هذه الشبهة فيقول أن عبادة محمد كما وردت فى كتب السيرة معروفة تماما فقد كان يتحنث فى الغار شهرا ، ثم يطوف بالكعبة ويوزع الصدقات

ثم يطوف بالكعبة ويوزع الصدقات وكان يحترم الكعبة ويتجنب الأصنام وكانت عبادته بالغريزة والوراثة تتصل بعبادة جده الأعلى إبراهيم .

ومما أورده الدكتور الهراوى رداً على رأى فنسنك القائل : بأن الآيات المكية ليس فيها إشارة إلى علاقة محمد بالكعبة « قال أننا نذكره بالآية «إذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا . . إلى قوله ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم » وقال : هلا يفهم فنسنك أن الحج هو استجابة لهذا الدعاء إن لم يكن بناء البيت فى هذا المكان لغرض الحج .

وفنسنك يعرض بالاختراع فى الدين ويصرح بأن ملة إبراهيم اخترعت اختراعا ، ويزعم أن محمداً أراد بهذا الاختراع أن يتصل بيهودية إبراهيم والواقع أنه : « ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما » .

وأشار الدكتور الهراوى إلى أن لفنسنك زميل هواميل درمنجم يزعم أن محمداً كان يتعبد على طريقة اليهودية والمسيحية تمهيداً لدين هو الإسلام ومثله مرجليوث ، ويقول الهراوى : فأنت ترى أنهم اختلفوا فى أسانيدهم التاريخية واتفقوا على أن محمداً كان يخدع ويدس ويطلب علاقات اليهود .

وقد واجهت دائرة المعارف منذ بدأت ترجمتها عام ١٩٣٢ كثيراً من النقد ، لما تضمنته من شبهات واتهامات ، تناولتها أقلام « رشيد رضا » صاحب المنار و« كرد على » رئيس المجمع العلمى العربى وأحد أقطاب دراسات دوائر الاستشراق ، « وفريد وجدى » ، كما تناولها الدكتور « تقى الدين الهلالى » الباحث المغربى المسلم الذى قال : إن دائرة المعارف الإسلامية أخطاء ودسائس ناشئة عن التعصب الأوربى ، وقال أن فى كتابات بروكلمان مثل ذلك وأقبح .

وقد أشار كثير من الباحثين أن[١] أغلب كتاب دائرة المعارف قسس مبشرون يهمهم أن يختفوا الإسلام لا ينصفوه ، وقليل منهم من يتصف بالشجاعة العلمية فيتغلب على عناصر التعصب وضيق الأفق ، وليس كتاب الدائرة وحدهم على هذا النمط ، بل جل المشتغلين بالدراسات الإسلامية وهم لا يتجاوزون صناعة التبشير ، تعرفهم من لحن القول . ومن هؤلاء توماس باترك هيوز صاحب قاموس الإسلام ، وهو مرجع متداول لا تكاد تخلو منه مكتبة أوربية ، وقد قضى القس المؤلف فى وظيفته التبشيرية فى بلاد الهنديين المسلمين والبوذيين والبرهميين أكثر من عشرين سنة ، ونشر معجمة هداية للموظفين الإنجليز ممن كانوا يتولون الحكم ببلاد الإنجليز فى أواخر القرن الماضى ومساعدة للمبشرين بالمسيحية ممن يجادلون علماء الإسلام . وأشار الباحثون إلى أن أهم نواحى الخطر فى هذه الدائرة أن ما يترجم منها لا يتعرض بالتحليل والإيضاح لما فيها من أخطاء وشبهات . وأنها تسطر البدع الدخيلة على الإسلام باستفاضة مثيرة . وقد أمعن مؤلفوا الدائرة فى تسجيلها وشرحها وكأنها أصول مقررة لا بدع دخيلة .

(١) عبارة الأستاذ محمد رجب البيومى .

(١) أخطاء دائرة المعارف الإسلامية : رشيد رضا[١]

هو معجم لفقه طائفة من علماء الإفرنج المستشرقين لخدمة ملتهم ودولهم المستعمرة لبلاد المسلمين بهدم معاقل الإسلام وحصونه بعد أن عجز عن ذلك دعاة دينهم بالطعن الصريح على كتاب الله ورسوله وبعد أن عجز عن ذلك الذين حرفوا القرآن بترجماته الباطلة ، والذين شوهوا تاريخ الإسلام بمفترياتهم ، ذلك بأن هؤلاء الملفقين لهذا المعجم الذى سموه دائرة المعارف لم يتركوا شيئا من عقائد الإسلام ولا من فضائله ، ولا من الشريعة ولا من مناقب رجاله إلا وصوروه لقراء معجمهم بما يخالف الصورة الصحيحة من بعض الوجوه إما بصورة مشوهة أو بصورة عادية لا مزية لها .

وفى هذه الدائرة عيوب علمية وتاريخية أخرى أهمها أنها لم تكتب لتحقيق المسائل التاريخية والعلمية لذاتها بل لأجل بيان آرائهم وأهوائهم والأعلام بما سبق لهم ولعلمائهم فيها من بحث وطعن فى كتبهم ورسائلهم المتفرقة . وكان على الذين شرعوا فى ترجمة هذا المعجم وضع حواشى لتصحيح ما فيها من الأغلاط التاريخية والعلمية والدينية وبيان الحق فيما دسوه فيه من عقائدهم وآرائهم الباطلة ، ونوط هذا وذاك بالعلماء الاخصائيين ، وقد ذيل الجزءان الأول والثانى ببعض الحواشى من هذه التصحيحات والانتقادات إلا أنها غير كافية فى موضوعها ثم أعرض المترجمون عن ذلك فيما بعد ، وطفقوا ينشرون الأجزاء غفلا من التعليق على مواردها المشوهة للاسلام وتاريخه بعد أن ظننا أنهم سيزيدونه إستقصاء وتحقيقا . أقول ولا أخشىء لا آثماً ولا مخالفا أن نشر هذا المعجم باللغة العربية كما كتبه واضعوه بدون تعليق على مافيه من الأغلاط والمطاعن ومخالفة الحقائق هو أضر من شر كتب دعاة المبشرين وصحفهم ، لأن هذه كلها لا تخدع أحداً من أعلام المسلمين بما فيها من الباطل ، أما هذا المعجم المسمى بدائرة المعارف الاسلامية المعزو أكثر ما نقل فيه إلى كتب المسلمين فانه يخدع أكثر القارئين له ممن يعدون من خواص المتعلمين لأنه يقل فيهم من يفرق بين الحق والباطل مما فيه ويقل فيهم من يعلم أن مؤلفى هذه الدائرة من خصوم العرب والاسلام واللغة العربية .

---

(١) المنار مجلد ١٩٣٤ .

(٢) معلمه الاسلام = محمد كرد علي(١)

كتبت إلى صديق هوتسما الهولندي رئيس تحريرها أن المعلمة فاتها الكثير من رجال الاسلام المتقدمين والمتأخرين ومن هؤلاء من هم أحرياء أن يترجم لهم بأطول مما ترجموا وأن في بعض المقالات نزعة من التعصب لا يليق ظهورها على صفحات مثل هذا الكتاب كمقالات البلجيكي لامنس والروسي غرانشكوفسكي ومقالات هوارالوتشي الموجزة ايجازا مخلا أليق بها أن يكون فهرسا من أن تنشر في معلمه يقصد بها القصى .

وفات هذه المعلمه كثير من رجال الاسلام منهم عبد الحميد الكاتب واحمد بن يوسف الكاتب واحمد بن يوسف (ابن الدايه) وعمرو بن مسعده وعبد القادر الجرجاني وعلى ابن عبد العزيز وأبو عبد القاسم بن سلام وأبو هلال العسكري وأبو أحمد العسكري وصالح ابن جناح وابن الحفاظ الكفيف وابن خاتمة الأندلسي وابن عنين وابن الصيرفي والوهراني وملك اليمن المؤلف عمر بن يوسف وعمارة بن حمزة وابن طولون الصالحي وابن عبد الهادي وغيرهم.

فإذا عرضت هذه المعلمة على كبار العلماء منذ الآن سدوا بعلمهم بعضها وحذفوا ما كان فيها نابيا عن الحق مغموسا بالتعصب والرعونة وأضافوا إلى صفحاتها ما اكتشف من آثار العرب ومخطوطاتهم .

(٣) رأى فريد وجدى فى دائرة المعارف الإسلامية

أن هذه الدائرة تشمل على الشيء الكثير من التهم الباطلة على الاسلام ورسوله ورجالاته الصالحين ولا يدفع ببعض هؤلاء المشرفين إلى التورط مع هذه الخطة الحربية إلا ما يحملونه فى صدورهم من البغضاء لهذا الدين فلا يصح والحالة هذه أن يحمل المترجمون أنفسهم اثم نقل هذه السفاسف إلى لغتهم وبأقلامهم ليقرأها الناس فى جميع بلاد المسلمين فالذى أراه أن يتتنعوا عن ترجمة ما يصادفونه من هذه الأباطيل وأن يكتفوا بالإشارة إليه مشفوعة بما يدحضها ويبين فسادها بكل دليل . أليس من البلاء أن يضطر أحدنا أن يصف أطهر نساء العالم وهى فى الوقت نفسه أمة فى الدين بالطيش والفجور ، أى فائدة أدبية ترجى من إذاعة هذه الفرية بين المسلمين فى عبارات وقحة يسمح بها لنفسه رجل أجنبى عن الدين . لذلك أرى الامتناع عن ترجمتها والإشارة عليها بدلا من ترجمتها على غير وجهها وتلطيفها بما يخرجها عن صيغتها التى أراد لها كاتبها . والملاحظ أن مترجمى الدائرة لم يعقبوا على التهم التى وجهها الكاتب إلى خاتمة النبيين .

---

(١) مذكرات كرد علي ج ٣ ص ٨٤٢ .

جلوب : الفتوحات العربية الكبرى

عاش (جون جلبرت جلوب) ثلاثين عاما يجوب الصحارى العربية مختلطا بأهلها ، وتعلم اللغة العربية ولا سيما لهجات البدو فأجادها وعاش مع العرب فى خيالهم ، عاد إلى بلاده عام ١٩٥٦ وكان قائداً للفيلق العربى فى الأردن وله تاريخ لايشرف فى مقاومة الوحدة العربية ومهاجمة الاسلام والعروبة ، وقد كتب بحثا فى تاريخ العرب من الزاوية العسكرية . أطلق عليه اسم (الفتوحات العربية الكبرى) وقد استمد الكتاب من سيرة ابن هشام وتواريخ الطبرى والبلازرى .

وقد كتب « خيرى حماد » مترجم الكتاب إلى اللغة العربية تعليقات ضافية على الأخطاء والانحرافات ورد على الشبهات التى وردت فيه فقال : « أن أهم ما فى الكتاب هى المحاولة البارزة فى كل ناحية من نواحيه للتشويه والتضليل ورسم الصور الزائفة التى تشكك القارىء فى الشخصيات العربية العظيمة ابتداء من النبى (ص) وانتهاء بصغار القادة ، عبوراً بأبى بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية وخالد وأبى عبيده وعمرو بن العاص وسعد بن أبى وقاص .

وقال أن المؤلف قد استند فى عملية التشويه على ذكاء نادر ، وعلى روايات ابتكرها من خياله أو وجدا أثراً منها فى بعض الكتب الصفراء التى وضعها الشعوبيون فى مختلف العصور .

وقال أنه اتضح لنا من قراءة الكتاب ، تشيعه لليهود والصهيونية تشيعا كاملا لاشك فيه . وكانت هذه الناحية خفية على الجميع ذلك أن جلوب كان يتظاهر بحب العرب حبا شخصيا قويا جعل الكثيرين يخدعون به .

فهو يظهر فى كتابه مؤيدا لليهود كل التأييد وأن لم يعلن تأييده هذا صراحة . فهو يروى قصص إجلاء النبى لليهود من يثرب ومن خيبر كبنى النضير وبنى قريظه وبنى قينقاع ، دون أن يذكر الأسباب التى دفعت النبى إلى اتخاذ هذه الخطوات ، ومنها ، نقضهم لعهودهم معه وخياناتهم لاتفاقاتهم ومحاولتهم طعن المسلمين فى ظهورهم إبان غزوة الأحزاب وحصار

المدينة أو أثناء معركة أحد ، على الرغم من وجود اتفاقات معقودة بينهم وبين النبي أو سعيهم إلى اغتيال الرسول .

* تصوير النزاع فى فلسطين على أنه نزاع دينى بين العرب واليهود . وهى الصورة التى ضللت العرب مدة طويلة وخدمت مصالح الاستعمار ومكنته من أن يقيم قاعدته اسرائيل فى قلب الوطن العربى مع أن مشكلة فلسطين مشـكلة استعمارية لا طائفية .

* تعبير « الشعوب الناطقة بالعربية » تعتبر إستعمارى ماكر يقصد منه تجزئة الأمة العربية الواحدة إلى مجموعة من الشعوب تشترك فى لغة واحدة .

* ما يقوم من الجزيرة العربيه والشمال الأفريقى من فروق أو تباينات فهو يصفها بأنها كبيرة للغاية ، ولـكننا لا نرى أنها تزيد بأية حال على الفروق التى تقوم بين أهل اسكوتلنده مثلا وأهل وايلز ، فاللغة واحدة والعادات واحدة تقريبا . والتاريخ واحد إلى حد كبير .

* أراد أن يظهر أن كل من اعتنق الاسلام إنما كان بدافع الانتهاز والتقرب من الحاكين والتساوى بهم وهوقول خطأ كل الخطأ إذ لو صح دافع الانتهاز لانقلب المسلمون على دينهم فى البلاد التى خضعت لهذا الإسلام .

* محاولة التفرقة بين العرب والبربر فى المغرب الغربى ، وهى تفرقة غذاها الاستعمار الفرنسى طيلة وجوده فى المغرب ، إذ حاول أن يجعل من البربر أقلية مميزة .

* يصر جلوب على اخفاء الدور الذى لعبه الشعوبيون وفى مقدمتهم اليهودى عبد الله ابن سبأ واتباعه فى المؤامرة ضد الإسلام .

* * *

وقد علق الباحث العربى : محمد عبد الغنى حسن على هذه الدراسة فقال : أن جلوب قد حمل على المؤرخين العرب فى تواريخهم واتهمهم بسوء التقدير ، ونسى أن تواريخ اليونان والرومان القديمة فيها كثير من هذا الذى عابه على العرب وقال أن جلوب قصد إلى رسم صورة فيها تشـكيك وتضليل ورسم الصورة الزائفة التى تشكك فى النبى وقادة الاسلام .

جولد تسيهر

أثار جولد تسيهر عدة شبهات وشكوك حول السنة والفقه والتشريع الإسلامى فقد حاول التشكيك فى قيمة الأحاديث النبوية وذلك بالقول بأن السنة بدأ تدوينها بعد وفاة النبى بتسعين عاما ، وقوله فى كتاب العقيدة والشريعة أن التوحيد الإسلامى ينطوى على غموض فى حين أن التثليث واضح فى فهم الألوهية ومن ذلك قوله من أن الشريعة الإسلامية تأثرت بالقانون الرومانى فى بداية عهد تكوينها .

وجولد تسيهر مستشرق يهودى ولد ١٨٥٠ وتوفى ١٩٢١ ، ودرس فى مدارس اللغات الشرقية ببرلين وليبزج وفينا ورحل إلى سوريا ١٨٧٣ وتتلمذ على الشيخ طاهر الجزائرى ، ونزح إلى مصر وتضلع فى الدين على شيوخ الأزهر ، وبدأ حياته بالتأليف عن الظاهرية ومذهبهم وتاريخهم وله فى ذلك دراسات اسلامية ومحاضرات ، وقد اشتهر بكتابه (العقيدة والشريعة فى الإسلام) الذى ترجمته له دار الكاتب المصرى التى أشرف عليها الدكتور طه حسين ، ولم يعن مترجمو هذا الكتاب بالرد على الشبهات التى أثارها المستشرق على نحو يعصم قارئها من الخطأ ، وله كتاب « مذهب المسلمين فى تفسير القرآن » .

وقد واجهت كتاباته المتعصبة كثيرا من المجاراة من كتاب وأساتذة الجامعات المدنية والأزهرية ، كما وجدت تفنيداً من كثير من الكتاب اليقظين فى مقدمتهم : مصطفى السباعى ، ومحمد الغزالى ، وسليمان الندوى .

وقد تابع جولد تسيهر كثير من المستشرقين فى آرائه المتعصبة فى مقدمتهم المستشرق اليهودى شاخت (جامعة ليدن) بهولندا وقد التقى به الدكتور مصطفى السباعى وباحثه طويلا فى تعمده تحريف النصوص التى ينقلها من كتب المسلمين وقد حاول شاخت أن ينكر ذلك فكشف له الدكتور السباعى عن بعض الأمثلة فى هذا التحريف الذى تورط فيه .

وجولد تسيهر يحاول فى مجمل رأيه أن يصور الفقه الاسلامى بأنه من صنع الصحابة والتابعين ، ولا شك أن أى رأى مصدره الخطأ الناتج عن قصور الاستقصاء ، أو العجز عن فهم أصول الاسلام أمرها يسير ، ويمكن المراجعة فيه والنظر ، إذا كان صاحبه حريصا على بلوغ الحق ، أما حين يكون الاتهام صادراً عن التعصب أو الخصومة المغرقة ، فان المراجعة لا قيمة لها . وإذا كانت عبارات جولد تسيهر فى مجموعها ترفض صلاحية الاسلام الفقهية لكى يشرع للأمم والأجناس ، فليس معنى هذا هو عجز الرجل عن الفهم ، وإلافان أمامه ذلك الفيض الضخم من ثقافة الإسلام وهو قادر على أن يرده عن هذا الرأى ، لو كان منصفا ولكنه هو أساساً ليس قابلا للوصول عن طريق البحث العلمى الى الحقيقة لأنه يفترض أساساً أن القرآن من وضع محمد نقلا عن غيره ، وأن السنة من وضع الصحابة والتابعين نقلا عن الشريعة الرومانية . ومن هنا فهو يسد الطريق على كل سلامة فى تقدير ، أو بلوغ وجه الصدق او تقبله .

ولقد واجه اخطاء جولد تسيهر عالم غربى منصف هو العلامة « فتزجيرالد » فى كتاب عنوانه « الدين المزعوم للقانون الرومانى على القانون الاسلامى » فعرض آراء جولد تسيهر ومن جرى مجراه فقال أنه كان مدفوعا فى كتاباته بغرض سياسى خاص هو إظهار أن التشريع الاسلامى كان قابلا للمؤثرات الغربية ، وقال أنه إذا أخذت فكرة عند شعب إلى شعب آخر ، ظهر فى لغة وكتابات الشعب الآخر أثر لهذه الفكرة . وهذا واضح مثلا فيما أخذ عن اليونانى فى القانون الرومانى ، كما هو واضح كذلك فى شريعة « التلمود » اليهودية المملوءة بالكلمات والمصطلحات اليونانية واللاتينية .

أما فى الاسلام[1] فانه لا يوجد لفظ واحد مستعار من اللغة اللاتينية أو اليونانية فى القاموس الضخم للفقه الاسلامى وتشريعه ، كما لا يوجد فى جميع المؤلفات الفقهية

---

(١) عن الدكتور محمد يوسف موسى (كتابه التشريع الاسلامى) عن مجلة انجليزية صدرت عام ١٩٥١ ولم يذكر اسمها.

الاسلامية أدنى ذكر لمصدر رومانى علمى ، وهذا أيضاً وحده مما ينفى فكرة كل استمدادة من القانون الرومانى . لذلك كله نرى أنه لا داعى مطلقا الافتراض أن مصادر هذا التشريع كانت شيئا آخر غير ما قاله الكتاب المسلمون أنفسهم ، والقول بغير هذا يعد افتراضا لاحقيقة له ، وقولا بغير علم ولا دليل ، ومن ثم يجب رفضه وعدم الاعتداد به . والتشريع الاسلامى يختلف أساساً فى طابعه ومقصده عن القانون الرومانى ، هذا القانون الذى هو من وضع رجال حذقوا لغة القانون ومصطلحاته ، أما الشريعة الاسلامية فهى نظام من المسائل الفقهية الدقيقة ، وقد نظر إليها من حيث علاقة الانسان بالله أولا ، ولهذا تشمل مايسمى به « العبادات » من صلاة وصوم وزكاة وحج ، وغير ذلك ، وحتى عند ما تعالج المسائل المدنية ، كالبيع والرهن مثلا ، نجد فيها أثر الدين واضحاً . » ا . ه

الكتاب الرابع

شبهات التغريب

جرت محاولات التشكيك وإثارت الشبهات فى خمس مجالات كبرى :

(١) رسول الإسلام . (٢) الإسلام . (٣) الفكر الإسلامى العربى . (٤) القرآن واللغة العربية (٥) التاريخ العربى الاسلامى .

وقد ترددت هذه الشبهات فى محاولة لتمييع القيم الأساسية للفكر العربى الإسلامى واتهامها : (١) بأنها قيم دينية صرفه قاصرة فى مجال العقيدة . (٢) قيم تاريخية قاصرة فى مجال الزمن . (٣) إتهام الحضارة العربية الاسلامية بأنها حضارة غير أصيلة وذلك فى محاولة لإسقاطها من مجال تطور الحضارة الإنسانية وتجاهل فترة الألف عام الاسلامية بين الحضارتين الرومانية والحديثة . (٤) ترديد الاتهامات التى تنقض أصالة الفلسفة الاسلامية على أنها فلسفة يونانية مكتوبة باللغة العربية . (٥) إتهام مفهوم الاسلام بأنه لم يعد قوة محركة تهدى الناس إلى الوجهة الصحيحة . (٦) جحود التراث . (٧) إثارة الشبهات حول الغيبيات . (٨) اتهام الفكر العربى الإسلامى بأنه فكر تجريدى . (٩) الزعم بأن العقلية العربية عقلية سامية قاصرة عن الخلق عاجزة عن استنتاج المعانى المجردة (١٠) القول بأن الفكر العربى الاسلامى يحمل دعوة التزهيد فى العالم الأرضى ويجعل مسألة الموت والتطلع إلى الآخرة مسألة رئيسية . (١١) محاولة خلق الفوارق بين الشيعة والسنة وبين العرب والبربر كوسيلة لخلق خلاف جذرى فى العالم الإسلامى والأمة العربية . (١٢) اتهام القرآن بأنه موضوع وليس وحيا من الله وأن القرآن مرآة لأفق خاص من الحياة ، أفق عقيدة صحراوية فى الجزيرة العربية (١٣) القول بأن شرائع الإسلام اقتبست من شرائع الأديان السابقة له . (١٤) القول باختلاف مفهوم الإسلام باختلاف الشعوب . (١٥) اتهام اللغة العربية بأنها لغة ميتة ، عاجزة عن التعبير غير قادرة على الاستجابة للحضارة . (١٦) الدعوة إلى اتخاذ اللهجات العامة لغات محلية إقليمية (١٧) تزييف التاريخ العربى الإسلامى وإثارة الشبهات

حوله ، واتهامه بأنه ملىء بالثغرات (١٨) الفصل بين العروبة والاسلام. (١٩) اتهام العرب والمسلمين بأنهم لم يستيقظوا حتى أيقظهم الغرب. (٢٠) القول بأن الاسلام عائق عن التقدم والحضارة . (٢١) إبراز جوانب الانحراف والتأكيد عليها كقضايا الباطنية والشعوبية .والاهتمام فى دراسات التصوف بدعاة الحلول ووحدة الوجود .

* * *

هذا مجمل سريع للشبهات التى أثارها التغريب وأثارتها الشعوبية فى الفكر العربى المعاصر ، وقد حاولنا استعراض هذه الشبهات بالرد عليها ، وقد أثار المستشرقون ودعاة التغريب هذه الشبهات ولا يمنع ذلك من وجود كتاب غربيين منصفين من غير هذه المؤسسات قد دحضوا هذه الشبهات وكشفوا عن ثغرات التغريب واتهاماته وما تستهدفه من آثار .

شبهات حول « نبى الاسلام »

كانت شخصية النبى محمد صلى الله عليه وسلم « نبى الإسلام » موضع هجوم ونقد شديدين ، من كتاب التغريب والاستعمار ، وكثير من المستشرقين ، وقد يفهم أن يكون كذلك على أقلام المبشرين ، فهؤلاء لا يؤخذ رأيهم موضع القدر لأنهم متحيزون بالطبيعة ، أما غيرهم ممن لا صلة لهم بأعمال التبشير فقد كان يمكن أن تكون كتاباتهم موضع نظر لو أنها واجهت شخصية النبى بالنقد على منهج علمى خال من التعصب ، وقائم على الدليل والسند ، ولقد اتفق أن كانت كل الشبهات التى وجهت إلى شخصية النبى صادرة عن نصوص غير معتمدة ، أو وقائع لم تقع أصلا ، وإذا كانت موسوعة لاروس وهى مرجع ضخم فى الفكر الغربى تصور النبى محمد بأنه كردينال لم ينجح فى الوصول إلى كرسى البابوية ، وأن هذا هو مادفعه إلى أن يخترع دينا جديداً لينتقم من زملائه الكرادلة ، فإن أى عقل يستطيع أن يصدق ذلك ، وكل جوانب سيرة النبى مبسوطة ومعروفة وليس هناك شبهة حولها أو حول ولادة هذا النبى وبعثه فى جزيرة العرب .

وهناك محاولات أخرى تجرى حول اتهام الرسول بأنه تأثر بمن عرفهم من المسيحيين فى دعوته ورسالته ، وهؤلاء ينسون أمراً أساسياً لا علاقة له بمن لقيهم ، وأثرهم فيه ، هو أن الإسلام خلاصة الدين الأول ، الذى كان مصدر اليهودية والمسيحية ولذلك فلا عجب أن يكون هناك قدراً من التشابه فى المصادر الأساسية .

ويكفى فى هذا المجال أن نجد عشرات من الباحثين الغربيين المنصفين قد استطاعوا أن يهتدوا إلى حقيقة « محمد » : إنسانا ونبيا وأن يستخلصوا فى كلماتهم جوهر هذه الشخصية الإنسانية ، فهذا كارليل يقول : لقد أصبح من العار على كل فرد متمدن فى هذا العصر أن يصغى إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب وأن محمداً خداع مزور ، فإن الرسالة

التى أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرنا لنحو مائتى مليون من الناس أمثالنا .

وقد وصف بارتلمى سانت هيلر محمد بأنه « أكثر عرب أهل زمانه ذكاء، وأشدهم تدينا وأعظمهم رأفة ، وأنه نال سلطانه الكبير بفضل تفوقه ، وأن دينه الذى دعا الناس إلى اعتقاده كان جزيل النعم على جميع الشعوب التى اعتنقته .

* * *

أما جوستاف لوبون فقد وعى جوهر شخصية محمد حين قال : كان محمد شديد الضبط لنفسه ، كثير التفكير صموتا حازما سليم الطوية ، عظيم العناية بنفسه مواظبا على خدمتها بالذات بعد اغتنائه ، وكان صبوراً قادراً على احتمال المشاق بعين الهمة، لين الطبع وديعا ، وكان مقاتلا ماهرا فكان لا يهرب أمام الأخطار ولا يلقى بيديه إلى التهلكة ، وكان يعمل ما فى الطاقة لإنماء خلق الشجاعة والإقدام فى بنى قومه . ولم أجد فى تواريخ العرب ما يبيح القطع بأن محمد كان مصابا بالصرع ، وكل ما فى الأمر ما رواه معاصروه ، وما روته عائشة من أنه كان إذا نزل عليه الوحى اعتراه احتقان فى الوجه فغطيط ، وإذا عددت حماسة محمد وجدته حصيفا سليم الفكر ، وكان محمد يعتقد أنه مؤيد من الله ، فلا يرتد أمام أى مانع ، وقد جمع محمد قبل وفاته كلمة العرب وخلق منهم أمة واحدة فكانت تلك آيته الكبرى وإذا قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمـــد من أعظم من عرفهم التاريخ .

* * *

ودافعت الدكتورة لورافيشيا فاغليرى عما وجه إلى محمد من شبهات ، فقالت :

لقد حاول أعداء الإسلام أن يرموا نبى الله ببعض التهم المفتراه ، ولقد نسوا أن محمداً كان قبل أن يستهل رسالته موضع الإجلال العظيم من مواطنيه بسبب أمانته وطهارة حياته ، ومن عجب أن هؤلاء الناس لا يجشمون أنفسهم عناء التساؤل كيف جاز أن يقوى محمد على تهديد الكاذبين والمرائين ، فى بعض آيات القرآن اللاسعة بنار الجحيم الأبدية ، لو كان هو قبل ذلك رجلا كذابا ، وكيف استطاع أن يستهل صراعا يبدو يائسا وكيف وفق إلى أن يواصل هذا الصراع أكثر من من عشر سنوات فى مكة فى نجاح قليل جدا ،

وفى أحزان لا تحصى ، إذ لم يكن مؤمنا إيمانا عميقا بصدق رسالته ، كيف جاز أن يؤمن به هذه العدد الكبير من المسلمين النبلاء والأذكياء ، إذا لم يلمسوا فى كلامه حرارة الصدق .

* * *

وقد راع كثير من الباحثين خلق محمد من أمثال لين بول مثلا ، الذى يقول أن محمداً كان يتصف بكثير من الصفات الحميدة كاللطف والشجاعة ومكارم الأخلاق ، حتى أن الإنسان لا يستطيع أن يحكم عليه دون أن يتأثر مما تتركه هذه الصفات فى نفسه من أثر ، ودون أن يكون هذا الحكم صادراً من غير ميل أو هوى ، وكيف لا ، وقد احتمل محمد عداء أهله وعشيرته أعواما فلم يهن له عزم ، ولا ضعفت له قوة وبلغ من نبله أنه لم يكن فى حياته البادىء بسحب يده من يد مصافحة ، حتى ولو كان المصافح طفلا ، وأنه لم يمر بجماعة يوما رجالا كانوا أو أطفالا دون أن يقرئهم السلام ، وعلى شفتيه ابتسامة حلوة ، وفى فيه نغمة جميلة كانت تكفى وحدها لتسحر سامعها وتجذب القلوب إلى صاحبها جذبا .

أما وليم موير فإنه يصف محمد ، بوضوح الكلام ويسر الدين ويقول أنه أتم من الأعمال ما يدهش العقول ، ويصل إلى النتيجة التى يقرر بها : لم يعهد التاريخ مصلحا أيقظ النفوس واحيا الأخلاق ورفع شأن الفضيلة فى زمن قصير كما فعل محمد .

ويرى تولستوى أن النبى محمد — لاريب — كان من عظماء الرجال المصلحين الذين خدموا المجتمع الإنسانى خدمة جليلة ، وأنه يكفيه فخرا أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق ، وجعلها تجنح للسكينة والسلام ، وأنه هو الذى منعها من سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية وفتح لها طريق الرقى والمدنية .

ويقول كازانوفا : إن كل تاريخ النبى العربى يدل على أن خلقه عملى جدى محمود ، أنه حتى حين اعترف الجميع بسلطانه المطلق ، عرف كيف يستمع آراء الغير ، أن محمداً وأصحابه قد أوضحوا بعناية تامة الفرق بين آرائه الخاصة وإدراكاته للحياة الواقعة من جهة وبين تعاليم السماء من جهة أخرى .

ومن هذه النصوص كلها تبدوا اتهامات بعض متعصبى الغرب وهى هباء ، ونحن لم نرد

أن ندفعها بل تركنا لكتاب من الغرب يدفعونها بعد أن استبان لهم الحق ، ولا نرى إزاء هذه الكلمات إلا أن الذين بالغوا فى اتهام محمد بالجنون أو وصفوه السحر أو مريضا بالصرع لا يصدرون عن رغبة صادقة فى معرفة الحقيقة ، بل عن هوى أو تعصب أو لخدمة غرض معين لا يرى أصحابه أن إبلاغ النبى محمد مكانيه الحقة الصادرة عن نصوص موثقة إلا حائلا دون ما يريدون.

* * *

وصف برناردشو النبى محمد بأنه يجب أن يدعى منقذ الإنسانية وقال أنه يعتقد لو أن رجلا مثله تولى زعامة العالم الحديث لنجح فى حل مشكلاته وأحل السلام والسعادة فى العالم .

وقال لامرتين فى كتابه تاريخ تركيا أن محمداً فيلسوف وداع ومشرع وهو فاتح أفكار ومقيم عقائد معقولة وعبادة بلا صور ، وهو مؤسس عشرين دولة دنيوية ودولة واحدة دينية ، ذلكم محمد الذى كان أعظم منه بكل المقاييس التى تقاس بها العظمة الإنسانية .

وقال الدكتور مار دوى المستشرق الفرنسى : أن أكثر الكتاب ارتيابا وشكا قد خضعوا لسلطان تأثير محمد .

وقال جيبون فى كتابه اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها : أن سمو إحساس محمد جعله يحتقر بهرج الملك ، وكان رسول الله يخضع نفسه لما تتطلبه حياة الأسرة من عمل ، فقد أوقد النار وكنس المنزل ، وحلب الشاه . وخصف بيديه نعله ورتق ثوبه ، لقد كان قانعا يأكل كما يأكل العربى .

وقال أميل درمنجم فى مقدمة كتابه « حياة محمد » أنه لا يوجد واحد فى الدنيا أمكنه أن ينكر وجود محمد ولكنه وجد من ينكرون بعض ما جاء فى ترجمة محمد فى الكتب العربية .

وتساءل دوزى : لو صح ما قاله القساوسة من أن محمداً نبى منافق كذاب فكيف نعلل انتصاره ، وما بال فتوحات اتباعه تترى وتتلو إحداها الأخرى ، وما بال انتصاراتهم على الشعوب لا تقف عند حد ، وكيف لا يدل ذلك على معجزة هذا الرسول .

وهاجم رينان فى كتاباته الأخيرة موقف فولتير من الرسول : دلتنى تجربتى العلمية والتاريخية أنه لا صحة مطلقا لما أريد إلصاقه بالنبى محمد من كذب وافتراء مصدرها بعض المباينات العرقية ، والعادات القومية التى أراد بعض المتحاملين كفولتير أن يتوجهوا بها إلى الناحية التى تشفى ستام ذهنيهم الوقحة ، وتعصبهم الذميم ، كقوله أنه يميل إلى التسيد والسيطرة ، مع أن محمداً كما أثبت الوثائق التاريخية وشهادات أكابر علماء التاريخ كان على العكس من ذلك بريئا من روح الكبرياء ، متواضعا صادقا أمينا ، لا يحمل المقت لأحد ، وكانت طباعه نبيلة وقلبه طاهراً رقيق الشعور .

* * *

وقال بارتلمى سانت هيلر فى كتابه تاريخ النبى محمد أنه كان يشك فى صدق النبى فى رسالته حتى قرأ جميع السير أنه لما نزلت آية الحفظ ووعد الله نبيه بأنه سيتولى حراسته « والله يعصمك من الناس » بادر محمد إلى صرف حراسه والمرء لا يكذب على نفسه لا يخدعها فلو كان هذا الوحى من مصدر غير الله لأبقى محمد على حرسه .

وقد أشار المؤرخ الانجليزى : ريوزند باسورث سميت فى كتابه « محمد والمحمدية » إلى الظاهرة الواضحة فى عالم الإسلام وهى وضوح شخصية النبى وتصرفاته ودقائق حياته بينما لا يوجد ذلك فى عوالم أخرى : يقول :

قد لا نعلم كثيراً من سير الأنبياء الأشذرات ، أما الإسلام فأمره واضح كله ليس فيه سر مكتوم عن أحد ، ولا ثمة يبهم أمرها على التاريخ ، ففى أيدى الناس تاريخه الصحيح ، وهم يعلمون من أمر محمد كالذى يعلمونه من أمر لوثر وملتن ، وأنك لا تجد فيما كتبه المؤرخون الأولون أساطير ولا أوهاما ولا تسجيلات ، وإذا عرض لك طرف من ذلك أمكنك تمييزه عن الحقائق التاريخية الراهنة ، فليس لأحد هنا أن يخدع نفسه أو يخدع غيره ، والأمر كله واضح وضوح النهار كأنه الشمس رأد الضحى » يتبين تحت نورها كل شيء .

ويرى بورسورث سميت تعدد جوانب شخصية « محمد » فقد « كان محمد فى وقت واحد موسسا لامه ، ومقيما لأمبراطورية ، وبانيا لدين ، وهو وإن كان أميا فقد أتى بكتاب يحوى

أدبا وقانونا وأخلاقا عاما وكتبا مقدسة فى كتاب يقدسه إلى يومنا هذا سدس مجموع النوع البشرى ، لأنه معجزة فى دقة الأسلوب وسمو الحكمة وجلالة الحق ، وكان يقول عنه محمد أنه « معجزته الخالدة » ثم يرى رؤياه فى الإسلام فى غد الإنسانية ومستقبلها : لم يحرص محمد إلى آخر حياته على شىء إلا على ذلك اللقب الذى تلقب به من أول أمره ، وهو لقب اعتقد أنه سيأتى يوم ترضى به أرقى فلسفة وتسلم له به ، هذا اللقب هو أنه رسول ، رسول الله حقا .

- ٢ -

يقول الكاتب البريطانى ﻫ . ج ولز :

« إذا قيست حياة محمد بالمقاييس الحديثة كانت حياة لا تأخذ بالأبصار »

ويجيب العلامة «فريدوجدى» على هذه الشبهة فيقول : لا مشاحة أنه يريد بهذا القول أن حياته كانت ساذجة ، أى حياة فرد من سواد الناس ليس فيها ما يأخذ بالأبصار . كما فى حياة الأفذاذ من الرجال إذا قدرت بالمعايير الحديثة ، لم يكن بالخطيب المفوه ولا بالشاعر الفحل ولا بالكاتب البدع .

ونقول . أما أن حياة محمد الشخصية قبل النبوة كانت لا تستلفت الأنظار فصحيح ، لأنه عاش أربعين سنة فلم يشتهر بشىء أكثر من أنه كان قويم السيرة أمينا ، وهذا من أقوى أدلة المسلمين على نبوته ، فان رجلا يمضى زهرة الشبيبة وهى عهد التوثب لبلوغ المجد، والتطلع لتحقيق المطامع ساكنا وادعا ، حتى إذا شارف سن الكهولة هب بهمة لا تعرف الملل لجمع البشرية كلها على كلمة جامعة مضحيا فى سبيلها بنفسه وماله وصفاء باله ، واجداً من جرائها الاضطهاد وضروب الأذى ما لا قبل لأحد على احتماله ، فى مدة لا تقل عن ثلاث وعشرين سنة ثم يضطر بعدها لتضحية حياته فى جلاد وجهاد لتحقيق ما رمى إليه قلنا : أن رجلا يكون على هذه الشاكلة لا يعقل أن يكون قد صدر فى التحول الذى حدث فى سيرته عن هوى فى نفسه أو خبث فى طويته ، ولكن عن أمر جلل لا يكون أقل من النبوة .

ولو كان نشأ محمد على حال يلفت الأنظار من المواهب ، خطيبا مصقعا ، أو شاعرا مفلقا أو عالما محققاً ، لكان المستر ويلز أول من يشك فى نبوته ، فما أعجب مستر ويلز وهو يدّعى أن محمداً كان مجرداً من كل مايلفت النظر إليه ، أن يسرد أعماله — إن كان مؤرخا جديراً بهذا اللقب — من تأليف أمه ، ووضع ديانه ، وسن قانون وتحطيم وثنية ، ووضع أسس اجتماعية تصلح لإيصال أمة إلى خلافة الله فى الأرض فى سنين معددة . ايه ، مستر ويلز ، أين تثبت المؤرخ الناقد ، أين تدقيق الاجتماعى المحمص ، أين تحقيق البسكيولوجى المطلع ، أن نسبة كل هذه الشئون الجسام التى حققها محمد صلى الله عليه وسلم فى ثلاثة وعشرين سنة ، وعجز عن تحقيق واحد منها فى مثل درجة الكمال التى هى عليه فى الدين الإسلامى أكبر عباقرة الأرض ، لا يعتبر عملا تاريخيا يوجب الاحترام ، ولكنه يعتبر ثمرة لتعصب دينى ذميم أو لجهل فاضح لا يصح أن يدرج فى صلب التاريخ .

لعل المستر ويلز يتمثل محمداً رجلا دفعته وساوسة فى سن الكهولة إلى أن يقوم بتأسيس دين ليعد فى زمرة القديسين فألف مجموعة من عقائد خرافية وآداب سطحية وقام بنشرها بين ظهرانى قومه فاتبعه رجال منهم ، وغاب عنه والهوى يصمى ويصم ، أن الدين الذى أتى به محمد كله مثل عليا لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وأن هذا الدين نفسه قد أودع فيه كل ما يصلح لتطوير المجتمع الذى يقوم فيه ولم يزل به حتى يوصله لزعماء الأرض فى سنين معدودة .

شبهات حول : الإسلام والفكر العربي الإسلامي

١ — الإسلام والمدنية

لعل اتهام الإسلام بأنه مضاد للمدنية ، أو معوق لها كان من بين الاتهامات الضخمة الواسعة المدى ، التي ترددت على أقلام كتاب التغريب وحاولت أن تثير شبهة قوية وتؤكدها ، بأن الإسلام كان ضد المدنية ومن أجل هذا تأخر أهله وتقدم غيرهم ، ومن هنا فإن الوسيلة لتقدم المسلمين وغيرهم من أهل الشرق هو التحرر من الإسلام وقد جرى هذا الاتهام في دائرة واسعة : شملت العلم والفلسفة وشملت الحضارة وأثارت الشبهات حول التعصب وحاولت أن تربط ذلك بحريق مكتبة الإسكندرية وغيرها من المواقف التاريخية .

وقد أورد كتاب التغريب والمستشرقين أقوالا كثيرة في هذا الصدد . ومن ذلك قول رينان أن الحضارة العربية الإسلامية حضارة سطحية ظاهرية ، أنتجتها عقول آرية ومنابع يونانية فارسية هندية غوطية ، وأن كل ظواهر الحضارة في البلاد العربية يمكن إرجاعها إلى عقلية آرية وانتاج غير سامي ، وقال غيره أن الحضارة الإسلامية كانت حضارة مستغلة لا منتجة ، آخذة لا معطية ومقلدة لا مجتهدة ، نقلت إليها الحضارة اليونانية أو التراث اليوناني ووصف الفكر العربي الإسلامي بأنه فكر ديني ، وقيل أنه ميال إلى الجزئيات وأنه فكر تجريدي ، وأن مدنية العرب وفكرهم قاما بعناصر غير عربية وأن العقلية العربية عقلية سامية قاصرة عن الخلق عاجزة عن استنتاج المعاني المجردة ، غير قادرة على تجاوز الجزئيات المحسوسة .

ولا شك أن البحث المنصف والنظر العلمي الدقيق يدحض كل هذه الاتهامات الصادرة عن التعصب أو الهوى الجنسي أو الرغبة في تحطيم مقومات الفكر العربي الإسلامي في نفوس أهله . وليس أدل على كذب هذه الإدعاءات من نمو الإسلام وانتشاره

الواسع المذهل ، ونقاء فكره وتعمقه ، وتوسع نطاقه عمقا وعرضا ، فقد امتد الإسلام أربعة عشر قرنا ، ولو كان فى قيمه ما وصفه به خصومة لعجز عن هذا الامتداد الزمنى فلقد اتسع نطاقه من الجزيرة العربية حتى سعى بين الصين والأندلس ، ثم ما زال يزداد إمعانا فى الإتساع حتى وصل إلى أعماق القارة الأفريقية وجنوب شرق آسيا وزاد أهله زيادة مذهلة بالرغم من كل عوامل إيقافه ومحاولات القضاء عليه وإثارة الشبهات حوله واندفاع قوى التبشير المضادة له مؤيدة بالمال ونفوذ الحكومات المحتلة وقوة السلطة ، ولا يمكن أن ينجح فكر ما هذا النجاح ، مع قدرة على البقاء والامتداد والتعمق ، على امتداد الزمن وامتداد الأرض ألا وهو يحمل فى أعماقه قوة ديناميكية إيجابية حية قادرة على البقاء والتلقى والتطور والحركة .

وقد أشار إلى هذا « رينيه ميليه » فى بحثه الذى جعل عنوانه : هل يتفق الإسلام مع المدنية الحديثة فقال . أن خطأ المستغلين منا بالإسلام هو درس هذا الدين مستقلا عن الظروف التى كانت تحيط بظهوره ، فلو عرفنا كيف كانت حالة العالم حين ظهر لوقفنا على أسباب انتشاره المدهش .

وصور « رينيه ميليه » كيف استخدم أباطرة الرومان السيف لنشر الدين مما أدى إلى تضعضع ملكهم وانقراضه ، فضلا عن الدماء التى أهرقت فى سبيل ذلك ثم قال : أما الإسلام فقد استعاض عن تعدد درجات الإدارة بسلطة واحدة يرجع إليها الحل والعقد فى كل الأمور ، ولم يقرر شيئا من الوساطة بين الله والشعب ، ولم يسن نظام الصوامع ، وقضى على عادة العزوبة الشاملة والتنسك والخروج من الدنيا فقرر الاشتغال بالدنيا والآخرة معاً وبالجملة . فان الإسلام أتى بنظام ملائم لحاجات الناس وكان ذلك سر غلبته . ثم أن الإسلام أرجع الدين إلى بساطته الطبيعية ولم يأت بشىء من العقائد الفلسفية . بل قال بكل وضوح « لا إله إلا الله » وبذلك خلا الإسلام من الاعتقاد الذى قسم الدول الأوربية والذى جعل أهل مصر وآسيا الصغرى فى حالة استياء من تسلط الدولة البيزنطية ، وكيف لا تميل هذه الشعوب الساخطة إلى أهل الإسلام ، وهم يعلنون أنهم أهل التسامح مع مخالفيهم فى الدين .

وصور « اتيان دينيه » تجربته فى الجامعة حين كان يدرّس لهم تاريخ الإسلام فقال : أن الأساتذة كانوا يقررون سرعة انتشاره من غير إيقافنا على أسبابه ، وغاية ما كانوا يذكرونه هو أن طبيعة العرب طبيعة حربية وأن خيولهم جيدة تكاد تسابق ظلالها ، ولكنه تبين الحقيقة فما بعد حين قال : أن الحقيقة هى ، أن الفتوحات العربية كانت على البغال ، إلا أن العرب أتو بعقيدة سهلة التناول لا تثقل الجندى المجاهد ، ثم أنهم كانوا متشبعين بروح التسامح وهذا هو سر الانقلاب العظيم الذى أعطاهم ملك آسيا وأفريقيا ونصف أسبانيا . لقد أتى العرب بعقائد خفيفة الحمل ، بسيطة المبنى ، وأعطوا الحياة قسطها من الاعتبار فترقت العلوم والفنون والآداب ، باجتهادهم الذى عجز عنه غيرهم من معاصرهم . وجاء المسلمون بمبدأ فى البحث هو مبدأ يتفرع من الدين نفسه ؛ وهو مبدأ التأمل والتنقيب . وقد مالوا إلى الاشتغال بعلوم الطبيعة وبرعوا فيها ، وهم الذين وضعوا أساس علم الكيمياء وقد وجد منهم كبار الأطباء ، ولفرط تقديرهم للحياة الدنيا نبع منهم الشعراء المجيدون الذين قالوا شعراً إذا وصفناه بأنه أرضى ، فذلك لأنه قريب من العقول يغذيها . ونذكر من أشعار العرب فى أسبانيا مايدل على درجة إدراكهم للحياة الدنيوية الحقة . ولقد كان الأمراء الفرنجة يستشيرون أطباء المسلمين إذا أصابهم مرض وقد لزم مسلمو الأندلس التسامح مع النصارى ومودتهم حتى فى الدور الذى اضمحلت فيه دولتهم . وفى الفترة التى تعارف فيها المسلمون والمسيحيون من انتهاء الحروب الصليبية إلى فتح القسطنطينية كان الإسلام هو العنصر المؤثر والعالم الأوربى هو العنصر المتأثر .

وقد لبثت أوربا ثلاثمائة سنة تقتبس من الإسلام : اللغة والعلوم ، والحق أن المسلمون الأولون لم يعرفوا الاستسلام للحوادث ، ولا شك أن الصبغة العامة اللينة التى اتصف بها الإسلام هى التى جعلته يقبل ضروب المدنية ولا يتنافى معها .

يقولون لماذا لا يفنى الإسلام فى جسم المدنية الغربية ما دام المسلمون يأخذون عنا العلوم ، والعلوم أساس كل مدنية وأنى لا أوافق أصحاب هذا الرأى فى رأيهم ، أن للعلم دائرة محدودة ، لا يتعداها ، وما وراء هذه الدائرة توجد أفكار ومعتقدات لها تأثير كبير

على أحوال الشعب ، وهذه المعتقدات هي دائرة الدين . أنه لا يمكن للعلم أن يمحو سلطان الأديان على النفوس ، مادام عالم ماوراء المـادة مكتنفا بالمدهشات ، ولا أرى حداً لبقاء الدين الإسلامي ، ذلك الدين الذي أتى بأحسن العقائد وأطهرها وأبسطها والذي كان من سعد حظه أن امتد ظله على ضفاف البحر الأبيض تحت سماء صافية الأديم فظل نوره متلألأ في تلك البلاد المتنائية الأطراف ولم تقدر الحوادث على إطفاء ذلك النور .

إن قدرة الإسلام هي في التفريق بين عالم المـادة وعالم ما وراء المادة وقد تبينه المسلمون لجملهم يقبلون على علومنا ولا يرون فيها ما يناقض دينهم المشهور بالتسامح .

ويكشف جولد زيهر عن حقيقة الموقف في العلاقة بين ركود المسلمين الحالي وبين الإسلام فيقول : إن كثيرين يردون ركود المسلمين الحالي إلى الدين نفسه وهي فكرة خاطئة ، فقد درسنا شئون المسلمين في أنحاء العالم وفي كل العصور فثبت لدينا أن الإسلام براء من كل عناصر التأخر والركود ، وأن سبب الاضمحلال راجع إلى أمور خارجية عن الدين نفسه ، أهمها طبيعة الشعوب التي انتحلته ووراثاتها السابقة فإنها لم تتغير ولم يتبدل وبقيت على فطرتها ومنها الترف والرفاهية والرخاوة التي اندفع بعض الأمراء في تيارها فأهملوا الشعوب والعدل وا كتفوا بالراحة الذاتية وكفوا عن الجهاد والنضال والمكافحة . ومنها هجوم أوربا على الشعوب الإسلامية بحجج مختلفة واهية منطوية على المصالح .

٢ — هل الإسلام عائق من الثقافة

يتساءل رينيه ميايه : هل الإسلام عائق عن الثقافة ؟ ويقول :

لقد رفع « محمد » قدر العلم إلى أعظم الدرجات وأعلى المراتب وجعله من أول واجبات المسلم وفى ذلك يقول : « اطلبوا العلم ولو فى الصين ، يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدماء الشهداء » وقد نظر المسيو (كازانوفا) أحد كبار أساتذة كوليج دى فرانس بباريس فى هذه الكلمات الغاليات كيف يقولها أحد أصحاب الديانات وعلق على ذلك بقوله :

يعتقد الكثيرون منا أن المسلمين لا يستطيعون تمثل آرائنا وهضم أفكارنا ، يعتقدون ذلك وينسون أن نبى الإسلام هو القائل بأن فضل العلم خير من فضل العبادة ، فأى رئيس دينى كبير كانت له الجرأة فى أن يقول مثل هذا القول القوى الفاصل المبين . هذا القول الذى هو نفسه عنوان حياتنا الفكرية الحاضرة ، كما أنه سوف يقال إنه أوضح مبادىء الحرية الفكرية ، قد كشفها أمثال (لوثير) و (كالفين) وعاد الفضل فيها إلى رجل عربى من رجال القرن السابع . ذلك هو صاحب شريعة الإسلام[1] .

× وعن نفس السؤال أجابت الدكتورة لورا فيشتا فاغليرى :

كيف نستطيع أن نقول أن الإسلام عاق نمو الثقافة فى القرون السالفة ، ونحن نعلم أن بلاطات الإسلام ومدارسه كانت آنذاك منارات ثقافة للأودية الغارقة فى ظلمات القرون الوسطى ، وأن أفكار فلاسفة العرب بلغت آنذاك منزلة رفيعة جعلت العلماء الغربيين يقتفون آثارهم . وأن هارون الرشيد أصدر أمره آنذاك بأن يلحق بكل مسجد مدرسة يتلقى فيها الطلاب مختلف العلوم ، وأن المكتبات الحافلة بمئات الألاف من الكتب كانت مشرعة الأبواب فى وجه العلماء والدارسين فى طول العالم الإسلامى وعرضه ؟ ألم يكن العرب أول من اصطنعوا الطرائق التجريبية قبل أزمان « بيكون » ضرورتها بزمن طويل وتطور الكيمياء وعلم الفلك ونشر العلم الإغريقى . وتعزيز دراسة الطب ؟ واكتشاف مختلف القوانين الفيزيائية .

---

(١) كازانوفا : مقدمة كتاب تعلم اللغة العربية بالفرنسية .

إذا كان ذلك كذلك فمندئذ لا نستطيع أن نقول أن من طبيعة دينهم أن يخلق عقبات فى طريق تقدم العلم فلنقل بدلا من ذلك ، أن الحنكة السياسية اضطرت فى بعض الأحيان من أجل الحفاظ على الأمن فى بعض المناطق ، إلى كبت تيارات الفكر التى قد تصبح خطرة على النظام العام ، وأن المنازعات السياسية ، وفى بعض الأحيان الشخصية لا الأسباب الدينية ، هى التى قررت فى الماضى مسالك الفقهاء والمتشرعين والمحدثين والفلاسفة . أن من غير الانصاف إتهام روح الاسلام بالتصلب والجمود لمجرد بعض الأحوال المحلية التى ترجع اليوم إلى ظروف تاريخية بعينها أو لمجرد التهجم الذى تنكشف عنه عقلية بعض الجماعات الإسلامية . ومن أسف أن الدين الإسلامى ، بعد أن كان كنزا عربيا وبعد أن عرّب العلم اليونانى ، سقط فى أيدى من اتخذوا من فكرة الجبرية الإلهية وسيلة لحرمان رعاياهم من التفكير ولوضع أنفسهم فى مركز منيع يمكنهم من الدفاع عن الفكرة القائلة بأن أبواب النعم الآلية أمست منذ اليوم موصدة فى وجه الوافدين الجدد ، وكيف يمكن أن يكون هذا منسجما مع أصول الإسلام .

وعلى هذا النحو حرم المؤمنون من التفكير ، وأكرهوا على اتباع آراء اسلافهم .

ومن حسن الطالع أن الجمود مرض لابد أن يزول ، بل أنه فى الواقع شر يزول فالى الكتاب العزيز الذى لم يحرفه قط لا أصدقاؤه ولا أعداؤه · ولا المثقفون ولا الأميون ذلك الكتاب الذى لا يبليه الزمان والذى لا يزال كذلك منذ أوحى الله به إلى الرسول الأمى البسيط ، آخر الأنبياء حملة الشرائع ، إلى هذا المصدر الصافى دون غيره سوف يرجع المسلمون . حتى إذا نهلوا مباشرة من معين هذا الكتاب المقدس فمندئذ يستعيدون قوتهم السابقة من غير ريب وثمة بينات قوية على أن هذه العملية قد بدأت فعلا .

٣ — الاسلام والتقدم

أما جورج سارطون فانه يكشف دور الاسلام فى التقدم فيقول : لقد حمل المسلمون أعباء البشرية العلمية والفكرية ، فأعظم الفلاسفة : الفارابى كان مسلما ، وأعظم الرياضيين أبو كامل وابراهيم بن سنان كانا مسلمين وأعظم الجغرافيين وعلماء الموسوعات العامة : المسعودى ، كان مسلما وأعظم المؤرخين : الطبرى كان مسلما وتعلم أن أصول العلم الغربى (لا أصول الدين والفن فحسب) شرقية مصرية وبابليه وايرانية ، وقد ثبت أن ماوصل إليه المسلمون والعرب من التقدم فى العصور الوسطى كان على غاية من الأهمية . وابن رشد أكبر فلاسفة الاسلام بلا منازع هو أحد كبار فلاسفة العالم على الإطلاق .

وأن ابن النفيس قد اكتشف الدورة الدموية الصغرى قبل أن يعرف ذلك (ميخائيل سرفيت) الأسبانى بمائتين وخمسه وستين عاما . ولقد عرف العرب لابن النفيس فضله فى ذلك بينما أحرق سرفيت الأسبانى علنا فى جنيف فى سويسره عام ١٥٥٣ بأمر المصلح الدينى كلفن، حيث كانت المسيحية تحظر على رجالها الاشتغال بالطب لأن الطب صناعة ألمانية لا تتفق مع مقام رجال الدين . أما التشريح فقد كان فى أوربا ممنوعا البتة . فاذا جئنا إلى الإسلام رأينا أن صناعة التشريح قد بلغت فيه الذروة وخصوصا فى المغرب . وما يقال عن التشريح والطب عامة يقال عن أمراض العين خاصة فان المسلمين كانوا لا يزالون حتى القرن الثالث عشر قادة العالم فى أمراض العيون .

وقد كانت اللغة العربية حتى القرن الرابع عشر تحتل مكانا مرموقا فى عالم التأليف العلمى إذ كانت اللغة الثانية بعد اللغة اللاتينية من حيث الاتساع. أما من حيث التأليف فقد وجب أن يكون بلا ريب أرقى من اللاتينية ؛ يدلنا على ذلك كثرة ما نقل من كتب العلم والفلسفة على العصور الوسطى من اللغة العربية إلى اللغتين اللاتينية والعبرية .

ومع أن دانتى اللجيرى شاعر إيطاليا العظيم لم يكن يعرف اللغة العربية فإن كتابه الخالد الكوميديا الإلهية متأثر بالاسلام إلى حد بعيد بسورة الاسراء والمعراج وبقصة المعراج.

وقد استمر أثر الفيلسوف ابن رشد بارزاً فى القرن الرابع عشر وكان أبرز أتباع ابن رشد فى باريس فى النصف الأول من القرن الرابع عشر الفيلسوف الفرنسى جان جاندوف .

وأنك لن تدرك عظمة العرب العلمية حتى تدرك الروح التى كافحوا بها فى سبيل العلم لقد عد بعضهم المعارك التى خاضها العرب ضد الفرنجة فى الأندلس وحدها منذ عام ٧١٠ إلى عام ١٤٩٢ م وهو عام مغادرة العرب للأندلس نهائيا، فكانت نحو ٣٧٠٠ معركة وأن أمة تكون أيديها مغلولة بثلاثة آلاف وسبعمائة معركة تنتهى بزوالها عن أرضها وديارها وأموالها ثم لاتنسى رسالة العلم المقدسة بل تبلغ بالعلم والتفكير ذروة الرقى والتقدم لأمة عظيمة حقا .

٤ — الإسلام وحرية الفكر

ويتساءل ايتان دينية عن موقف الاسلام من حرية الفكر ثم يجيب أن العقيدة المحمدية لا تقف عقبة فى سبيل التفكير فقد يكون المرء صحيح الاسلام ، وفى الوقت نفسه حر الفكر (hibre pensur) ولا تقتضى حرية الفكر أن يكون المرء منكراً .

وكما أن الاسلام قد صلح منذ نشأته لجميع الشعوب والأجناس فهو صالح كذلك لكل أنواع العقليات وجميع درجات المدنيات . وأن تعاليم المعتزلة ذات القرابة المستترة والصلة الخفية بتعاليم الصوفية تجد مكانا رحبا وقبولا حسنا ، ورضاء سهلا سواء عند العالم العربى أو عند الزنجى الأفريقى وهو الذى يصعب على المرء تخليصه من معتقداته الخرافية ومن معبوداته وأصنامه . وبينما تجد الاسلام يهيج من نفس الرجل العملى فى أسواق لندن حيث يقوم مبدأ القوم (الوقت من ذهب) إذ هو يأخذ بلب ذلك الفيلسوف الروحانى ، وكما يتقبله عن رضا ذلك الشرقى ذو التأملات ورب الخيال ، إذ يهواه ذلك الغربى الذى أفناه الفن وتملكه الشعر . وللاسلام على النفوس طابع لا يمحى ، حتى أن الكونت دى كاسترى وهو مسيحى متعصب ، أيقن هذه الحقيقة وقال تلك الكلمة الكبيرة فى كتابه الاسلام : « إن الاسلام هو الدين الوحيد الذى ليس فيه مرتدون » .

وفى الحق لا يقام وزن لأولئك الذين ارتدوا عنه تحت تأثير أنواع العذاب التى كانت تقوم بها محاكم التفتيش الأسبانيولية ولا أولئك الذين تركوه لأغراض مادية .

وأن الذين يعتنقون الإسلام فى وقتنا هذا إنما هم الخاصة سواء من الهيئات الاجتماعية الأوربية أو الأمريكية ، كما أن إخلاصهم فى ذلك لا شك فيه لأنهم أبعد ما يكونون عن الأغراض المادية .

٥ — الاسلام والعالم

وليس هذا وحده هو جوهر الدفاع عن إيجابة الفكر العربى الاسلامى وسلامة العلاقة بين الإسلام والمدنية ، بل يرى تريتون فى كتابه الاسلام : معتقداته وطقوسه « أن الاسلام يكبر من شأن العلم اكباراً لا شائبة فيه فهو فريضة على كل مسلم ، وهناك شبه إجماع على أن العقيدة الإسلامية لا يقف عقبة فى سبيل الفكر يقول : إتيان دينه « أن العقيدة المحمدية لاتقف عقبة فى سبيل الفكر ، فقد يكون المرأ صحيح الاسلام وفى الوقت نفسه حر الفكر ، وكما صلح الإسلام منذ نشأنه لجميع الشعوب والأجناس فهو صالح كذلك لكل أنواع العقليات وجميع درجات المدنيات .

وعند كريستيان سنوك جرونجيه : أن الاسلام سيشكل نفسه حسب حاجات العصر الحديث، ولن يدع الفكر الغربى يغلبه ويسلبه أبنائه الذين كسبهم منذ مئات الأجيال ، وقد طبعوا بطابعه وصاروا جزءاً منه ، وعنده أن المسلمون يستمرون فى دينهم مهما اتخذوا من الثقافة والمدنية الغربية وسيظل مجرى عقولهم إسلاميا .

ويكذب بول كازنوفا (الأستاذ بالكولفج دى فرانس) مايقال عن عجز الفكر الاسلامى العربى عن تمثل الفكر الغربى الحديث فيقول : أن الذين يقولون ذلك ينسون أن نبى الإسلام هو القائل بأن فضل العلم خير من فضل العبادة ، فأى رئيس دينى كبير وأى قس من القساوسة العظام كانت له الجرأة فى أن يقول مثل هذا القول الفاصل البين .

ويقول الدكتور هورن فى كتابه : استعداد الاسلام لقبول الثقافة الروحية : يتميز الإسلام باتحاد الدين والعلم ، وهو الدين الوحيد الذى يوّحد بين هذين ، ونحن نجد أن الاسلام موضوع بدائرة العلم ونرى وجهة الفيلسوف ووجهة الفقية متماشيين معا وهما واحدة، ووافقتان كتفا لكتف دون نزاع .

٦ — الاسلام والعلم

وتتردد شبهة كبرى حول الاسلام والعلم تقول بالنص « أن العلم العربى لا يعدو ما ترجمه السوريون العرب ترجمة مشوهه إنخدع بها المؤرخون ونسبوها للعرب زوراً » .

ويرد (وليم درابر) فى كتابه المنازعة بين العلم والدين . فيقول أما تفوقهم (أى العرب) فى العلوم فكان ناشئا من الأسلوب الذين توخوه فى المباحث . لقد تحقق العرب أن الأسلوب العقلى النظرى لا يؤدى إلى التقدم ، وأن الأمل فى وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقوداً بمشاهدة الحوادث ذاتها ومن هنا كان شمارهم فى أبحاثهم : الأسلوب التجريبى والدستور العلمى الحسى . وإننا لندهش حين نرى فى مؤلفات العرب من الآراء العلمية وما كنا نعلمه من ثمرات العلم فى هذا العصر ، ومن ذلك أن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية التى تعتبر مذهبا حديثا . وقد شاء العرب إلى أن يكونوا أول الواضعين لعلم الكيمياء والمستكشفين لعدة آلات للتقطير والتصعيد والإسالة . وهذا بعينه هو الذى جعلهم يستعملون فى بحوثهم الفلكية الآلات المدرجة والسطوح المعلمة والاسطرلابات . وهو الذى هم بهم لإكتشاف علم الجبر ودعاهم لاستعمال الأرقام الهندية .

ويقول وليم دربير : لقد[1] قال محمد فى حجة الوداع : « أنا لست إلا رجلا منكم ويذكر الناس بأنه قال فى وقت مضى لرجل أدركه الوجل من القرب منه : مم تخاف ؟ إنى لست بملك ، إنى ابن امرأة عربية كانت تأكل اللحم المجفف فى الشمس ، ثم رجع إلى المدينة وقد توفى فيها فكان مما قاله فى وداع شعبه : « كل شىء يحدث على ما قضت به الإرادة الإلهية وفى اليوم المعين لحدوثه ، فلا يستطيع الإنسان أن يؤخر ذلك اليوم ولا أن يقدمه ، وإنى عائد إلى الذى أرسلنى » .

---

(١) وليم دربير — فى كتابه المنازعات بين العلم والدين Les conflites de la science et de la religion

وكان رأسه فى الأونة الأخيرة من دور النزاع الذى وقع فيه مستندا على ركبة عائشة وكان يغمس أصابعه بين آن وآخر فى إناء فيه ماء بارد فيرطب به وجهه ، ثم أقلع عن ذلك وحدق بعينيه إلى السماء وقال بصوت خافت : إلهى ؛ لبكن ما أردت فاغفر لى ذنوبى إنى عائد إليك .

فهل يصح أن نتكلم بغير احترام عن رجل من هذا الطراز ، رجل يسترشد بتعاليمه الدينية اليوم ثلث العالم الإسلامى ؟

إن العالم لم ير دينا ينتشر بمثل السمة والسرعة اللتين إنتشر بهما الإسلام فهو يسود الآن على البقاع الواقعة بين جبال التابى إلى شواطى المحيط الأطلنطى ، ومن وسط القارة الآسيوية إلى حدود أفريقيا الغربية ، وبذلك تكون قد ولدت أقوى امبراطورية لم ير العالم مثلها ، ولادة فجائية ، ناهيك أنها تمتد من المحيط الأطلنطى إلى أسوار البلاد الصينية ، ولم تكن قد بلغت غاية إمتدادها ، فقد حدث بعد هذه المفاجأة أنها طردت خلفاء القياصرة ، واستولت على البلاد الإغريقية ، ونازعت الديانة المسلمة السلطان على القارة الأوربية نفسها ، وبسطت سلطان عقائدها خلال الصحارى البربرية حتى الغابات الوبيئة ، وأرسختها من شواطى البحر المتوسط إلى خط الاستواء وليس الذى نجى أوربا من سلطان الإسلام هو سيف (شارل مارتل) ولكن الذى نجاها هو ماحدث فى باطن الإمبراطورية الإسلامية من الخلافات الداخلية ، هذا الملك العظيم كله كان يغص بالمدارس والجامعات ، فكان يوجد منها فى منغوليا وبلاد التتار ومراكش وفارس والأندلس ، وفى أحد أطراف هذه الإمبراطورية الضخمة التى كانت تبز فى السمة الامبراطورية الرومانية إلى مدى بعيد ، كان يقوم مرصد فى سمرقند وآخر فى جيرالدا بالأندلس .

وقد تفوق المسلمون فى العلوم ، وكان تفوقها ناشئا من الأسلوب الذى توخوه فى البحث ، وهو الأسلوب التجريبى العملى ، ويلاحظ المطالع لكتبهم القدرة فى الميكانيكا وعلم توازن السوائل ونظريات الضوء والأبصار أنهم قد اهتدوا إلى حلول مسائلهم من طريق التجربة والنظر بواسطة الآلات .

هذا الأسلوب أداهم أن يكونوا أول الواضعين لعلم الكيمياء والمكتشفين لعدة آلات

للتقطير والتصنيع والأماعة (إسالة الجوامد) والتصفية ، وهذا بعينه جعلهم يستعملون فى أبحاثهم الفلكية الآلات المدرجة والسطوح المعلمة والأسطرلابات وهو أيضا الذى دفعهم لاستخدام الميزان فى الأبحاث الكيميائية وهو الذى هداهم لعمل الجداول عن الأوزان النوعية للأجسام ، والأزياج الفلكية وهو أيضا الذى أوجد لهم هذا الترقى الباهر فى الهندسة وحساب المثلثات وهو الذى هم بهم لاكتشاف علم الجبر .

ولو أردنا أن نستقصى نتائج هذه الحركة العلمية لخرجنا عن حدود هذا الكتاب ، فإنهم رقوا العلوم ترقية كثيرة جدا وأوجدوا علوما لم تكن معروفة من قبلهم .

٧ — عقائد الإسلام

ويردد أندريه هيرفيه شبهة تقول : أن عقائد الإسلام جامدة تتحكم فى كل ناحية من نواحى حياة المسلم اليومية .

ويرد فريد وجدى : كيف يمكن أن يكون جامده هذه العقائد وقد وصلت بالمسلمين إلى هذه الآفاق ، وأقامت إمبراطورية عظيمة ، وكيف أمكن تأسيسها وحفظها قرونا عديدة وهم يدينون بعقائد جامدة توجب على الآخذين بها الموت والشلل .

وهل يمكن أن يكون دخول مئات الملايين فى هذا الدين وتوالى انتشاره فى جميع قارات الأرض متغلبا دون دعوة على جميع الملل المنافسة له ذات الدعاة الذين ينفقون عشرات الملايين من الجنيهات كل سنة ، هل كل هذا نتيجة تعاليم جامدة لا تدع لأصحابها متنفسا فى الحياة . وفى هذا قول العلامة هورد : « أثرت الديانة الإسلامية مع المسلمين تأثيراً بدرجة جعلت الأمم الإسلامية أشبه بأمة واحدة مؤلفة من أقطار متنوعة صهرت فى بقعة واحدة عند المسلمين وتصوراتهم الفلسفية كذلك واحدة ، وهم ممسكون تمسكا شديداً باعتقادهم القوى فى سمو العقائد الإسلامية .

٨ — الإسلام والفكر العربي القديم

يقول : أندريه هرفيه :

أن التعاليم الإسلامية ليست بشيء سوى عصارة فكر العرب القديم .

ويرد (فريد وجدى) فيقول : كان العرب وثنيين يعبدون آلهة كثيرة ، وكانوا يجعلون الحق للقوة ، وكانوا لا يعرفون للعدل حدوداً إلا ما تقرره التقاليد المبنية على أصول مناسبة للحالة القبلية التى كانوا عليها وكانوا لا يقيمون للمساواة وزنا بين الأقوياء والضعفاء ولكن بين البيوتات والجماعات .

فلما جاء الإسلام أمر بتوحيد الله وتنزيهه واسقط الوسطاء واخلى ما بينه وبين خلقه ، ونهى عن التقليد دون نظر ولا دليل ، ودعا إلى التفرقة بين الحق والباطل وإلى العلم والفكر ، وإلى التقيد بنواميس الأخلاق ، وإلى تجريد العمل لله فى جميع المقاصد ، وحرم الفواحش ماظهر منها وما بطن ، وأهاب بالناس إلى لزوم النظام فى كل شيء ، والاجتماع والألفة تحقيقا للوحدة الإنسانية ، وإلى الحياة الحضرية الفاضلة وما تقتضيه من تعاطف وإحسان ، وإلى محو فوارق الجنس واللون واللغة مقرراً أن الكل أبوهم آدم وأمهم حواء ، وأنه لا فضل لأبيض على أسود ولا لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، ودعا إلى العلم والحكمة بأقصى ما تستطيع القدرة البشرية ، وإلى العدل المطلق بين الناس كافة ، وإلى القيام بالقسط والشهادة لله وإلى المساواة بين الخلق مهما كانت نحلهم وبيئاتهم وإلى تطلب الرقى الصورى والمعنوى فى جميع مظانهما ، وعدم الجمود على حال واحدة . ثم دعا الناس إلى وحدة عالمية وديانة فطرية .

٩ — اضطهاد الفكر

يردد كتاب التعريب هذه الشبهة : « إن طبيعة الإسلام تأبى التسامح مع العلم » .

وقد أجاب الأستاذ الإمام محمد عبده عن هذا الاتهام فقال : يقول آخرون إن التاريخ يروى لنا أن بعض أرباب الأفكار قد أخذه السيف لغلوه فى فكره فلم يترك له من الحرية ما يتمتع به إلى منتهى ما يبلغ به وليس يصح أن يفكر ما صنع الخليفة المنصور وغيره بالزنادقة .

وأقول أن كثيرا من الغلو إذا إنتشر بين العامة أفسد نظامها وأضر بأمنها كما كان من آراء الحلاج وأمثاله فتضطر السياسة للدخول فى الأمر لحفظ أمن العامة فتأخذ صاحب الفكر لا لأنه يفكر ولكن لأنه لم يرد أن يقصر حق الحرية على شخصيته بل أراد أن يقيد غيره بما رآه من الحرية لنفسه مع أن غيره فى غنى عما يراه هو حقا ، وتخشى الفتنة إذا استمر مدعى الحرية فى غلوائه . فلهذا يرى حفاظ النظام أن أمثال هؤلاء يجب أن ينفى منهم المجتمع صونا له عما يزعزع أركانه .

وقد ذكر أمام الحرمين فى كتابه (الشامل فى أصول الدين) إن كان بين الحلاج والجبائى رئيس القرامطة اتفاق سرى على قلب الدولة وأن هذا هو السبب الحقيقى فى قتل الحلاج . وإذا عد عاد بعض رجال العلم الذين أخذتهم القسوة فى الإسلام وقتلتهم حماقة الملوك باغراء الفقهاء وأهل الغلو فى الدين فما عليه إلا أن ينظر فى أحوالهم فيقف لأول وهلة على أن الذى أثار أولئك عليهم ليس مجردة العصبية للدين وأن ليست الغيرة عليه هى الباعث لهم على الوشاية بهم وطلب تنكيلهم ، وإنما تجد «الحسد» هو العامل الأول فى ذلك كله والدين آلة فيه . ولهذا لا ترى مثل ذلك الأذى يقع إلا على قاضى قضاة (كابن رشد) ورجوع الحاكم إلى العفو عنه وإنزاله منزلته دليل ذلك ، أو وزير أو جليس خليفة أو سلطان أو ذى نفوذ عظيم بين العامة وهذا كما يقع من الفقهاء مثلا لإيذاء

الفلاسفة يقع من الفقهاء بعضهم مع بعض لا هلاك بعضهم بعضا كما يشهد به العيان ويحكي لنا التاريخ ، فليس هذا كذلك معدوداً من معنى اضطهاد الدين للفلسفة لأن التحاسد أكثر ما يقع بين من لا دين لهم على الحقيقة وأن لبسوا لباسه ، وإنما ذلك الاضطهاد وهو الذى يحمل عليه محض الاختلاف فى العقيدة أو ظن المخالفة للدين فى شىء من العلم أو العمل لضيق الدين عن أن يسع المخالف بجانبه وهذا مالم يقع فى الإسلام ، اللهم إلا أن يكون حادثا لم يصل إلينا .

١٠ — الاسلام والفروسية

يردد كثير من كتاب التغريب شبهات حول موقف الاسلام من الفروسية ، وحول نقل الغرب لها، ويرد (إتيان دينية) على هذه الشبهة فيقول : هذب الإسلام فروسية العرب وطهرها وأدخل مبادئها إلى أوربا ولم يبق أحد اليوم ينكر نسبة هذه المبادىء إلى العرب وقد أشار إلى هذه الحقيقة العالم المسيحى بارتلمى سان هيلار فى كتابه عن القرآن الكريم ، وقد ذكر واصف بطرس غالى الشيء الكثير عن تلك الفروسية فى كتابه « فروسية العرب المتوارثة » وجاءت أقوال هذا القبطى المصرى خير رد على ما أبداه بيرون من أوجه التعصب .

والاسلام لم يتمرد على أحكام الطبيعة بل سايرها وعمل على تهذيبها ولذلك لم يوص بالرهبنه بل حرمها ، ولم يشجع على تحريم الزواج بل بلغ به التساهل حد الترخيص بتعدد الزوجات ، ولا يستطيع إنسان إنكار فضل الاقتصار على زوجة واحدة ، ولكن ما العمل وهذا التحديد يصادم الحقائق ويعارض الطبيعة فى بعض الظروف ، بل أثبتت التجارب استحالة تنفيذه أحيانا ، ولا شك أن تحريم تحديد الزوجات لم يحقق الغرض المقصود منه بل انعكست الآية عندما اصطدمت بضرورات الطبيعة فحققت ثلاث نتائج خطيرة : الدعارة والعوانس من النساء والأبناء غير الشرعيين .

ولا تقف العقيدة الاسلامية عقبة فى سبيل التفكير ، فقد يكون المرء صحيح الإسلام وفى نفس الوقت حر الفكر ، وكما صلح الاسلام منذ نشأته لجميع الشعوب والأجناس فهو صالح كذلك لكل العقليات وجميع درجات المدنية ، وللاسلام على النفوس طابع لا يمحى ، وقد أيقن هذه الحقيقة الكونت دى كاسترى وهو الرجل المتعصب فى كتابه الاسلام حيث قال : أن الاسلام هو الدين الوحيد الذى ليس فيه مرتدون وينبغى أن لا يقام وزن للذين أرغموا على الارتداد عن الاسلام تحت تأثير العذاب كما فعلت محاكم التفتيش الأسبانية كما ينبغى ألا يقام وزن لما تفعله بعض الإرساليات الدينية من شراء ولدان العبيد وسلب الأطفال اليتامى عقائدهم منذ الصغر .

وعلينا أن نغض النظر عما يقال من أن الاسلام من عمل إنسان ونحن نقول لهم أن جميع الأنبياء والرسل إن هم إلا بشر يوحى اليهم من الله ، ومهما بالغنا فى احترامهم فلا يصح لنا أن ترفعهم إلى مراتب الألوهية .

* * *

قال إتيان دينيه : أن الفروسية ونبالة قصدها ، لم يكن يعرفها الأقدمون من اليونان والرومان ، ولكنها كانت معروفة عند العرب أيام جاهليتهم ثم هذبها الاسلام وطهرها تطهيراً ، وعلى يده دخلت أوربا ووصلت الينا نحن الغربيين ولم يبق أحد اليوم يفكر بنسبتها إلى العرب وأشار العالم بارتلمى سان هيلار فى سياق حديثة عن القرآن فقال : أن العرب هم الذين يرجع إليهم الفضل على سادات أوربا وفرسانها فى القرون الوسطى فى تعديل عاداتهم الخشنة وتلطيفها . ثم تعليمهم رقة العاطفة وتهذيب نفوسهم والرفعة بها إلى حيث الانسانية والنبالة . وكل ذلك دون أن يصيبهم ضعف يفقد من فروسيتهم وشجاعتهم شيئا ، ويخطىء من يظن أن هذا راجع إلى المسيحية وحدها رغم ما فيها من المزايا والفضائل .

ويقول ايتان دينيه : وقد حفظ لنا التاريخ فى سجلاته عن فروسية العرب وروحها العالية جميع أدلة العظمة الموشاة بالرقة والتهذيب .

* * *

ويصور واصف غالى موقف الغرب من الفروسية الاسلامية[1] العربية فى كتابه فروسية العرب المتوارثة ويرد على ما ردده الشاعر : بيرون من الادعاءات والتعصب .

يقول واصف غالى «كان محمد يحب النساء ويفهمن ، وقد عمل جهد طاقته لتحريرين وربما كان ذلك بالقدرة الحسنة التى اسقنها فوق ما هو بالقواعد والتعاليم التى وضعها .

وهو يعد بحق من أكبر أنصار المرأة العمليين إن لم يكن أولهم . فلقد كان بهن رحيما

(١) من كتابه فروسية العرب المتوارثة :
LaTradition Chenalrsque des Arabes.

وعليهن حليما ، وكان لين الجانب كثير العطف عليهن ، عظيم الاحترام والتكريم لهن ، ولم يكن ذلك خاصا بزوجاته ، بل ذلك كان شأنه مع جميع النساء على السواء .

فهل تستطيع أن نقول شيئا من هذا عن الكثيرين من رجال الأديان الأخرى وقد كان أحدهم (سان بونا فنتور) يقول إلى تلاميذه : إذا رأيتم امرأة فلا تحسبوا أنكم ترون كائنا بشريا بل ولا كائنا وحشيا ، وانما الذى ترون هو الشيطان بذاته والذى تسمعون هو صفير الثعبان » .

هذا وعند العرب أحسن قصص الفروسية والنموذج الطيب لها . تلك قصة « عنترة ابن شداد » والنبى هو صاحب الفضل بالاشارة بها ، ولولاه لذهب العفاة على قصته .

وأن محمداً وقد جمل ابن شداد بطلا للفرسان وضرب به مثلا عاليا للفروسية ، ومما لاشك أن قصة عنترة هى قصة إسلامية فقد وضعها كتاب مسلمون ومثلوا حوادثها وصاغوا أشخاصها فى حلة باهرة أوحت لهم بها الفضائل الإسلامية العالية .

ومن ذلك يتبين الخطأ الذى وقع فيه (بيرون) وريتان من اعتبارهما أن ما جاء فى هذه القصة هو للعرب قبل الاسلام وأنه ليس من عادات المسلمين ولا من أخلاقهم .

على أن من كتاب الأفرنج من أخذت منهم القصة كل الإعجاب وهذا أحدهم (لامارتين) الشاعر الفرنسى الشهير وهو من ساح فى الشرق وعاش زمانا فى تركيا وسوريا .

وقد أشار راشد رستم إلى ماذكر عن النبى من أنه قال : ما وصف لى أعرابى وأحببت أن أراه إلا عنترة وذلك عندما سمع قول عنترة :

ولقـــد أبيت على الطوى وأظـــله   حتى أنال به كريم المطعم

١١ — الإسلام والتصوير والرسم

تقول الشبهة : أن تحريم الرسم أدى إلى عرقلة العلوم جميعا وتحريم الرسم كان فى الأصل مقصوراً ، على رسم البشر ولكنه الرسم باعتباره فنا ، كل لا يتجزأ ، فاذا حرمنا رسم البشر وحرمنا رسم أعضاء الجسم للحيوان أو النبات وهذا عرقلة للعلم .

وقد أجاب على ذلك العلامة : محمد جميل بيهم : لم يرد أى نص فى الاسلام على تحريم الاسلام تصوير النبات وأعضاء الحيوان ، ولم يثبت أن الإسلام حرم الرسم والتصوير على إطلاقه وعلى إفراض ثبوته فما كان ذلك من شأنه أن يؤثر فى عرقلة العلم بمقدار ما توهم ، وأبرز دليل على أن الاسلام لم يحرم التصوير هى النقود المصورة الموجودة فى المتاحف .

وتحريم الاسلام للصور إنما قصد مكافحة الوثنية التى كانت لا تزال فاشية فى عصره فما لاشك فيه أن المسلمين لم يتقيدوا بهذا التحريم بعد أن زال خطر الردة إلى عبادة الأوثان وذلك استناداً إلى ما قررته الشريعة من تبدل الأحكام بتبدل الزمان .

وترد شبهه تحريم الاسلام للتشريح فتقول : ويعزى تأخر العلم عند العرب إلى عقبات نشأت فى الحضارة الإسلامية وعاقت التجربة العلمية مثل ذلك مثل تحريم الرسم وتحريم التشريح (تاريخ العرب المطول ج ٢ ص ٥٠٧) .

ويرد محمد جميل بيهم فيقول : لا يوجد فى الإسلام نص فى صدد تحريم التشريح وما لا نص بتحريمه داخل بالشرع فى نطاق المباح ، على أنه إذا ثبت أن فريقا من الجراحين المسلمين تورعوا عن تشريح الجسم البشرى أسوة بغيرهم احتراما للانسانية فالتبعة فى ذلك تقع عليهم وحدهم دون الشرع .

وقد أورد الجاحظ فى كتاب الحيوان تجارب كثيرة كان يقوم بها « النظّام » فى تشريح أجسام الحيوانات . وكتاب الزهراوى فى الجراحة يتضمن صورا ورسوما تتعلق بالتشريح .

وقد عرفت عناية العرب بعلم التشريح وبمعرفة نتائج اختبارات غيرهم إلى حد أن حبيش الأعثم ترجم وحده كل التآليف التى ألفها جالينوس فى هذا الموضوع .

وكان « الكتاب الملوكى » الذى ألفه أبو بكر الرازى مرجعا لأوربا حتى ظهر « القانون » لابن سينا يتحولون إليه وبقى يدرس عندهم إلى القرن التاسع عشر .

١٢ — الاسلام ونفسيات الشباب

كان روم لاندو قد زار القاهرة (١٩٣٧) وتحدث إلى طائفة من الباحثين وكان من آرائه : أن الاسلام قد انفصل عن حياة الشباب ولم يعد مؤثرا فيها وقد شاركه طه حسين فى هذا الرأى فقال إنه يرتاب أشد الارتياب فى تأثير الاسلام فى نفوس الشباب تأثيرا عمليا . وقد واجه هذه الشبهة العلامة فريد وجدى فقال : ولا نرى محلا لهذا الارتياب بعد ما تبين للخاص والعام أن الاسلام مجموعة أصول ومبادىء خالدة هى المثل العليا ، فاذا كانت هذه الشبيبة لا تستطيع تكوين عقائد لها فى رعاية المثل العليا وهى تحت ظلال هذه الحرية فى رعاية آية فلسفة قابلة للتحجر تستطيع ذلك وإذا كانت تعجز عن تكوين معتقدات لها تحت ضوء المثل العليا فتحت أى ضوء ينتظر أن لا تعجز إذن .

لم يقل الإسلام منذ وجد إلى اليوم وقد مضى عليه نحو أربعة عشر سنة ، وان مذهبا بعينه يجب الأخذ به دون غيره ، فترك للعقول حريتها تصل إلى أرق مما يمكن أن تصل إليه فى حدود الأصول الخالدة ، وفى كل زمان ما يناسبه .

والاسلام لا يفرض على الناس فلسفة كلامية غير قابلة للتطور تتحجر وتنحل بمرور الزمان وتغير الأحوال ، ولم يمين لوضع هذه الفلسفة طائفة تستأثر بالسلطان الروحى على النفوس وتجمع بينه وبين السلطان المادى . أو تتنازل عنه لبعض المتغلبين ، ولكن الاسلام فرض على الناس أصولا خلقية وآدابا نفسية ومبادىء حيوية ، وهو أقصى ما يمكن أن يتخيله العقل من الاطلاق والسمو مثلا عليا لا يأتيها الباطل . تؤدى الآخذين بها إلى السمو المادى والأدبى معا ، تاركا لهم حرية تكييف أحوالهم على موجبها .

ولو كان للاسلام فلسفة معينة غير قابلة للتطور على مثال ما هو موجود منها فى كل الأديان المعروفة لبقيت جماعته الأولية على ما كانت عليه فى عهد مؤسسها الأول ولبادت تلك الجماعة تحت تأثير الصروف المختلفة . ولا نرى محلا للارتياب فى تأثير الاسلام فى نفوس الشباب تأثيراً عمليا ، بعد ما تبين للخاص والعام أن الاسلام مجموعة أصول ومبادىء خالدة هى المثل العليا للايصال إلى الحسنين .

لا أنه فلسفة معينة أو مذهب مقرر يفرض على الناس فرضا ولا يجوز لأحد أن
تتخطاه إلى غيره . فاذا كانت هذه الشبيبة لا تستطيع تكوين عقائد لها فى رعاية المثل العليا
وتحت ظلال هذه الحرية ففى رعاية أى فلسفة قابلة للتحجر تستطيع ذلك .

لم يقل أحد فى الاسلام منذ وجد ، إلى اليوم ، وقد مضى عليه نحو أربعة عشر قرناً
أن مذهبا بعينه يجب الأخذ به دون غيره ، أو أن ما عمله الأوائل لا يمكن أن يعمل أكمل منه
فتركت للعقول حريتها تصل إلى أرقى ما يمكن أن تصل إليه فى حدود الأصول الخالدة .
وفى كل زمان ما يناسبه ، إننى منذ أكثر من ثلاثين سنة أعلنت موافقة الأصول الإسلامية
لأرقى أصول الفلسفة الأورباوية . فما وجدت من شيوخ الأزهر إلا تشجيعا وإعجابا .

وبعد فيرى المستر روم لاندو أن الإسلام لا يصلح مقوما للنفوس إلا بعد إحداث إصلاح
عظيم فيه ، وهو لم يذكر كلمة إصلاح إلا لأنه يتخيل أن الإسلام كسائر الأديان يقوم على
فلسفة مؤلفة من أراء القدماء ومذاهبهم وشروحهم وتأويلاتهم ، فرضت على عقول أهله فرضا،
وحرم عليهم النظر فى أدلتها ، وفى مبلغ مناسبتها لأحوال الزمان والمكان ، وفى تعديلها كما
احتاجت إلى تعديل ، ولو كان المستر روم يعلم أن الإسلام يقوم على أصول ومبادىء هى نواميس
الحياة الإنسانية الكاملة التى لا تتبدل ، وأن المسلمين الأولين بنوا آراءهم ومذاهبهم
فى حدودها ، وأنهم (ولا أقول لم يحرموا نقدها وتعديلها فحسب) بل حرموا على الناس أن
يأخذوا بها تقليدا بغير نظر ، وأن يعتبروها نهايات ليس بعدها مذهب ، قات ، لو كان المستر
روم يعلم هذا لما ذكر كلمة (إصلاح) لأنه لا موجب له مع وجود عنصر رئيسى فى تركيب
هذا الدين ومعترف به من جميع المسلمين ويعدل عن كلمة إصلاح إلى كلمة (عمل) فنصح
للمسلمين بأن يعملوا بدينهم .

تردد اتهامات كثيرة حول العقلية العربية والنفسية العربية ، وقد إتسع نطاق هذه الاتهامات إلى أبعد حد ، ووجدت من دعوات الأقليمية الضيقة فى مصر فى الأربعينات تشجيعاً لها ، حيث كان المفكرون يحاولون الفصل بين المصريين والعرب عقليا . وقد وسع دعاة التغريب والشعوبيون هذا المجال ، ورددوا شبهات متعددة حول نفى صفة الأمة عن العرب ، واتهام العقل العربى ، بأنه يقسم الكل إلى أجزاء ولا يضم الأجزاء فى كل واحد ، وأنه لا يجمع الحقائق المجردة بل يميل تلقائيا إلى تجميع الحقائق التى ترضيه عاطفياً ، وأن الجنس السامى ضيق العطن قصير النظر ، ضعيف الخيال ، راكد الهمة .

وقد ردد هذه الاتهامات طه حسين وأحمد أمين ومحمود عزمى وحسين مؤنس وسلامة موسى وأورد توفيق الحكيم فى هذا المعنى مقالا مطولا فى ذلك نشره فى الرسالة (ايونية ١٩٣٣) والحق أن هذه الاتهامات لا تصمد للحقيقة المجردة ، التى تكشف عنها الثقافة الإسلامية العربية ذات الفاعلية الحية القوية التى ماتزال أساساً للثقافة العصرية فى العالم الإسلامى ، ولا شك أن استمرار هذه الثقافة دليل أكبر دليل على دحض كل ما وجه إليهامن اتهامات انتقاضها ، ولسنا وحدنا الذين نقول هذا أو ندعيه بل إن كبار كتاب الغرب المنصفين قد قالوه ورددوه وفى مقدمتهم جوستياف لوبون ودوزى وكاودفارير وسوبرترام توماس .

ويكفى أن ننقل هنا ما قاله اسكندر باول فى كتابه (عرش الطواويس) حين يكشف مدى تعصب الغرب فى الحديث عن العقل العربى : إن الأكاذيب والأضاليل والدعايات التى قيلت عن العرب ظلما وعدوانا لم تكتب عن أى شعب آخر فنحن فى الغرب نطبع العربى بطابع هو منه برىء ، فالنفسية العربية البدوية هى أحق النفسيات بالدراسة ، ليس لطرافتها فقط بل للخير الذى يتدفق منها وللجرأة والإقدام .

وهذا بروترام توماس : الرحالة الإنجليزى الذى قام برحلات متعددة فى شبه الجزيرة

العربية ، اعتمد على رحلاته فى تصحيح الآراء عن ماضى بلاد العرب فى كتابه (العرب) يقول :

ليس فى العالم أمة تفوق العرب فى الكرم المطبوع ، فإنهم ليعطون باليدين ، ويعطون عطاء القلب المفعم بأريحية العطاء ، لا يشحون ولا يحسبون حساب المثوبة المنتظرة ، وإنما يجودون عفو السليقة المطبوعة عن هذه الخصال .

ولقد هزنى الإعجاب عشرين مرة ، لا مرة واحدة أو مرات قليلة بما شهدت من الدلائل الصغيرة العارضة التى كشف عما جبل عليه رفقائى البدو من السجايا الإنسانية ، فقد كنت بعد ساعات العطش والركوب المضنى أخف ، ومعى واحد أو اثنان منهم — إلى ماء طال بعا إرتقابه لنسبق إلى وروده ، فكان السابقون معى يرقبوننى وعلى وجوههم أمارات الرضى والغبطة إذ أنا مقبل على الماء أطفىء غلتى فى شوق ولهفة ، بيد أن واحدا منهم لا يبيح لنفسه قطرة من الماء يبل بها شفتيه قبل أن يصل رفاقه المتخلفون ، ولعلهم لا يصلون إلا بعد ساعة طويلة ليشربوا معا مجتمعين ، ولاحظت مرة أن أحدهم قد ادخر كسرة خبز أعطيته إياها ليقاسمها رفيقه .

وندر جدا أن عبرنا بخيمة كائنة ما كانت من الضعة والشظف — دون أن يعدو إلينا صاحبها ، ملحا علينا فى مقاسمته قعب اللبن والتمرات التى عنده ، وربما كان فى أشد الحاجة إليها ، هذا وأنت غريب وماراك من قبل ، ولن يراك بعد ارتحالك . ولكن مع هذا يؤثرك على نفسه ويعطيك ما هو فى أمس الحاجة إليه ، وقد كنت آمنا على حياتى مع أنى كنت أحمل المال الكثير ويعلم رفاقى بما أحمل .

وقال(١) : بروترام توماس إن المسلمين كانوا أصحاب الفضل الأول فى تعليم الأوربيين ضبط الآلات على حساب النسب الرياضية بعد أن كانوا يضبطونها بالمرانة والسماع ، وإن فلسفة ابن رشد كان لها أثر فى تطور المذاهب المسيحية فوق الأثر المعروف لها

(١) الهلال ٤٥ ص ١٠٣٣ .

فى تطور العلم والتفكير ، وإن شعر الأندلسيين كان له أثر فى الشعر الفرنسى ومن ثم فى معظم الأشعار الأوربية .

ويقول رينهارت روزى المستشرق الهولندى فى كتابه (تاريخ مسلمى الأندلس) .

لم يرث أحد على سطح الغبراء نصيبا أوفر عن نصيب العربى فى الحرية ولا قسطا أعظم من قسطه ، فهو يفخر دائما قائلا : « لا إله إلا الله » والحرية التى يرتع فى بحبوحتها لا تغلها سوى قيود قليلة ، حتى إن مبادىء متطرفى الأحرار تظهر إلى جانبهـــا كمبادىء استبدادية .

* * *

وفى هذا المجال تتحدث الرحالة الانجليزية : روزينا فوربس التى قامت برحلة فى صحراء ليبيا سنة ١٩٢٦ تقريباً ، والتى اشتهرت برحلاتها فى الحبشة واليمن والحجاز والتى حاولت أن تدخل مكة متنكرة فى ثياب سيدة مصرية مسلمة ، تقول : فى وسعى أن أؤكد دون أن أتهم بالمبالغة أو الإعجاب بنفسى ، أنه ليس بين بنات الشمال من تستطيع أن تتكلم عن العرب كما استطيع أنا ، ولا أدرى ماذا كان هذا من حسن حظ أصدقائى العرب أو من سوء حظهم ، وإذا ذكرت الشهامة مع المرأة وجب أن نحنى رؤوسنا تحية وإجلالا أمام أقل بدوى يقود الجمال فى الصحراء . لقد وقع لى أكثر من مرة ، إن عشت وحيدة الشهور الطوال مع هؤلاء الرجال الأشداء سمر الوجوه براق العيون رومانى الأنف ، يهتاجنى كما يهتاجهم دفء الصحراء ويملأنا نشوة نسيم الليل الجاف ، ويغمرنا القمر بغلالة بيضاء من أشعته السحرية ، ومع ذلك لم يحاول منهم عربى واحد ، منتصب القامة مفتول العضل ، مطبوعة على وجهه البرنزى اللامع كبرياء الصحراء والقرون ، أن يتحبب إلىّ أو يهمس فى أذنى شعر المجانين وأقول لهم : إلا تشتهون المرأة يا عبد الله ، ويقول : نعم ، ولكننا لا نشتهى إلا ما ملكت أيدينا » .

وفى هذا رد ، ليس فقط على الذين لا يعرفون هذه الحقائق من كتاب الغرب وهم معذورون حين لا يعرفونها لقلة التجربة ، ولكنها لكتابنا الذين يعرفون ذلك جيداً ومع ذلك يرددون ما يقوله خصوم العرب والمسلمين .

١٤ — الفكر العربى الإسلامى فكر تجريدى

أثار روم لاندو ماردده كثير من الغربيين الذين يزعمون أن فكر العرب فكر تجريدى فقال : « الفكر التجريدى غير مجار للحوادث لأنه يتناول كل حادثة كما تعرض له فى حينها وهو من ثم يفرض الفروض النظرية والمباحث الجدلية . .

وقد رد على هذه الشبهة لطفى السيد فقال : بل إن الفكر العربى أشد إيغالا فى الواقعيات من الفكر الأوربى ، وهذه شريعتنا الدينية التى استشهدت بها على نزعته التجريدية تتناول شؤون الحياة اليومية ولا تقتصر على مسائل اللاهوت والأخلاق ، كما هو الحال فى الشريعة المسيحية . وإن ثمرات الفقه والتشريع الإسلامى تكذب هذه النظرية ، فإن هذه الأصول ترينا واقعية الفكر العربى وكيف أنه كان يتناول كل حادث يقع فى حينه ثم يضع له الحل » .

وقد كشف هذه الشبهة ودحضها عشرات من الباحثين ، وهذا بارتلمى سانتهلير يقول : إن الدين الإسلامى قد أحدث رقيا عظيما جداً فى تدرج العاطفة الدينية ، فقد أطلق العقل الإنسانى من قيوده التى كانت تأسره حول المعابد وبين أيدى الكهنة ذوى الأديان المختلفة فارتفع إلى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة ، ثم إن محمداً بتحريمه الصور فى المساجد وكل ما يمثل الله قد خلص الفكر الإنسانى من وثنية القرون الأولى ، واضطر العالم إن يرجع إلى نفسه وأن يبحث عن خالقه فى صميم روحه .

* * *

١٥ — مدنية الإسلام والعناصر غير العربية

ذكر البارون كراوى دى فو فى كتابه « مفكرو الإسلام » أن معظم الفضل فى مدنية الإسلام لغير المسلمين من الشعوب أو لمن تظاهروا بالدخول فيه . وقال إن مدنيه الإسلام قامت بعناصر غير عربية وقد رد عليه « كرد على » فقال : أنه أخطأ فى قوله إن مدنية المسلمين قامت بعناصر غير عربية ، وفاته أن الذين دخلوا فى الإسلام من الفرس والقبط والسريان والروم

درسوا فى مدرسة العرب وأخذوا لغتهم وثقافتهم ودينهم وعاداتهم ، وإذا كان ابن سينا والغزالى والبيرونى والرازى مثلا أعاجم بأصولهم فهم عرب بتربيتهم وثقافتهم ، وإذا كان الجاحظ وابن رشد وابن خلدون عربا بأصولهم وثقافتهم فهم لا يزيدون شيئاً عمن تقدم ذكرهم من الغناء والمنزلة ولا ينقصون ، وليس فى الغرب اليوم أمم خالصة بمنصرها ، والإنسان ابن تربيته ومحيطه على الدوام . وقد أشار أحد المفكرين الفرنسيين هذا المعنى حين قال : نحن مدينون بجزء عظيم من تاريخنا وآدابنا وفنوننا لمن كانوا غرباء عنا وليسوا فى الأصل من عنصرنا .

١٦ — جوهر الفكر العربى الإسلامى

وقد ترددت عشرات الشبهات حول جوهر الفكر العربى الإسلامى فى محاولة انتقاصه ومرجع هذه الشبهات فى الأغلب إلى عجز الباحثين المتصدين لهذه القضية عن فهم جوهر هذا الفكر نتيجة لتأثرهم بفهم كلمة « دين » religion والترجمة اللفظية لكلمة إسلام ، والعلاقة بين الدين والعلم التى عرف الغرب تاريخها ومواقفها ، ومحاولة فهم الإسلام على أنه «دين» فحسب . بينما هو دين ومدنية وفكر ، غير أن بعض الباحثين المنصفين حاولوا تعمق هذه المسائل ، فالفريد كابتول سميت يقول « ما من دين استطاع أن يوحى إلى المتدين به شعوراً بالعزة كالشعور الذى يخامر المسلم من غير تكلف ولا اصطناع ، وإن العربى لا يفهم الإسلام حق الفهم إلا إذا أدرك أنه « أسلوب حياة » تصطبغ به معيشة المسلم ظاهراً وباطناً ، وليس مجرد أفكار وعقائد يناقشها بفكره » .

وفى مجال دعوى وقوف (الإسلام) عقبة فى سبيل حرية الفكر يقول اتيان دينيه : أن العقيدة المحمدية لا تقف عقبة فى سبيل الفكر ، وقد يكون المرء صحيح الإسلام وفى نفس الوقت حرالفكر ، وكما أن الإسلام قد صلح منذ نشأته لجميع الشعوب والأجناس فهو صالح كذلك لكل أنواع العقليات وجميع درجات المدنيات .

وفى نفس المعنى يتحدث الجنرال بوهرر : الإسلام يبقى قابلا للتطور حتى فى ظل الدولة المدنية ، أن كل إصلاح يفرض على المسلمين فرضا لا بد له من أن ينهار عاجلا أو آجلا .

ويكذب فيلكس فالى المجرى شبهة جمود الإسلام فيقول . إن هذه الدعوى لا دليل عليها ، لقد كان الإسلام فى كل عصوره مثاراً للحركة الفكرية فى التاريخ » أما الدكتور بول دى ركلا فيرى سعة الفكر الإسلامى وقدرته على استيعاب أرقى نظريات الفكر وتطورات الحضارة فيقول: « لست بغال إذا صرحت وقلت إن الإسلام مفتوح بابه على مصراعيه ، وهو واسع الأرجاء ليتلقى الرقى الحديث الذى أنتجته الأجيال الطويلة ، وليس كما يزعم البعض بجدود الأطراف وضيق المدخل ، لأن التعاليم الرفيعة وضعت لكرور الدهور ، وستبقى خالدة وضاءة الأنوار تكشف كل مدنية تتمخض عنها العصور » .

ويرى جب أن الفكر الإسلامي العربي « قد استطاع أن ينشيء خلال السنين الطويلة توازنا اجتماعيا يدعو إلى الاعجاب من جميع الوجوه » .

أما مصدر تأخر المسلمين فانه كان موضع النظر الصائب ، وفي رأى جوستاف لوبون « أن تأخر المسلم يرجع إلى تركه روح الدين وتشبثه بالعقائد الباطلة فان الدين قوة أدبية لا يستهان بها ، أن الشعب الذي يريد الرقي لا يقطع الصلة التي تربطه بماضيه » ويرى جوستاف لوبون . أن العلوم العصرية لا تفيد المسلمين إلا إذا قرنت بتربيتهم الدينية ، وسارت جنبا إلى جنب مع أوضاعهم وعقائدهم ، وأن تهذيب المسلمين بالمعارف العصرية الأوربية خارجا عن دائرة تقاليدهم وعقائدهم يزيدهم انحطاطاً وفساد أخلاق ، ولن تنفعهم هذه العلوم إلا إذا كانت ضمن دائرة عقيدتهم وقوميتهم .

بل إن جب يرى أن الإسلام كان دائماً مصدر النهضة في العالم العربي فيقول : « لم تقم حركة وطنية في العالم العربي إلا وكانت الروح الإسلامية أساسها ، فالعرب يتمسكون بلغتهم وأدبهم ويتغنون بمجد الإسلام . ويرد على شبهات القول بابدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية فيقول : « هل يفكر العرب في إبدال حروف لغتهم بالحروف اللاتينية أو أن يتنحوا عن لغة القرآن التي تربطهم بالعالم الإسلامي كافة . هذا مستحيل ، وستبقى الروح الاسلامية تسود بلادهم ، ويتقدم أبداً بلا كلل ولا ملل ، ولن يطرأ عليها أى ضعف أو أى وهن . أما انصاف الفكر العربي الإسلامي وسماحته وانفساح آفاقه ، فليس أقوى دليلا عليه ورداً على ما وجهه إليه من شبهات من كلمة « جب » :

أن العرب أكثر إنصافاً في دراسة الأديان ، فقد نشروا كتبا كثيرة في فلسفات الأمم الكبرى في موضوع الأديان البشرية ، فالعرب أول من ألفوا في الملل والنحل لأنهم كانوا واسعي الصدر تجاه العقائد الأخرى ، وحاولوا أن يفهموها ويدحضوها بالبرهان والحجة ، ثم إنهم اعترفوا بما أتى قبل الإسلام من ديانات توحيدية ، ويخص ابن حزم بالنصيب الأوفر . وقال : إن البيروني كتب في أديان الهند في القرن الخامس من الهجرة ، ولم يمس عاطفة أحد من أهلها ، وكان إذا كتب في نحلة يوهمك أنه هو أحد أبناء تلك النحلة لتلطفه في وصف شعائرها » والواقع أن العرب قد ترجموا لجميع مخالفيهم بتسامح شديد ،

للنصارى واليهود والسامريين والمجوس ، وفى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة وطبقات الحكماء لابن القفطى الأدباء لياقوت ، وفى الوافى بالوفيات ، وفى تاريخ حكماء الإسلام للبيهقى أمثلة واضحة لهذا التسامح .

وليس أدل على رحابه آفاق الفكر الإسلامى من إهتمام العرب بالشعر ، يقول جب : إنه يعطى صورة النفس المتطلعة أبداً إلى الآفاق البعيدة . وكان لسانا للجماعة العربية التى انصهرت فى عملية بناء وإنشاء .

أما إنصاف الإسلام فواضح فى نظرته إلى أتباع الأديان الأخرى :

يقول تريتون : الاسلام ينظر إلى اتباع الأديان الأخرى نظرة تسامح ورفق،وفى العصور الوسطى ،كان اليهود سعداء بالعيش بين المسلمين أكثر مما كانوا بين المسيحيين ، أما سماحة حكم العرب فقد اعترف بها كل باحث غير متعصب . يقول ستانلى لين بول : إن سماحة حكم العرب بالأندلس وجمال مدنيتهم واتساع مدى ثقافتهم اسمى من أن يصل إليه إنكار منكر ، أو جحود جاحد، وإن فى آثار قرطبة وأشبيليه وغرناطه التى لا تزال ماثلة إلى اليوم من معجزات البناء والهندسة ما يخجل كل من يدعى أن أمة العرب أمة خراب أو تدمير .

١٧ — شبهة التعصب

١ — كانت تهمة التعصب من أقسى الاتهامات التى وجهت للاسلام، ومن أكبر شبهات التغريب للفكر العربى الاسلامى ، وعندنا إن كل الاتهامات التى وجهت إلى الإسلام والثقافة العربية الإسلامية بأنها مدعاة التعصب لم تصدر من أقلام منصفة ، وإنما جرت على لسان دعاة الاستعمار أو المبشرين أو كتاب التغريب والشعوبية ، تدحض هذه الشبهة كلمات المثقفين المسيحيين أنفسهم ، وبعض كتاب الغرب المنصفين : فهذا الدكتور نبيه أمين فارس يرى « أن الإسلام بعد العربية أعظم عامل مشترك بين العرب فى جميع أقطارهم ، ولقد أظهر الإسلام فى الماضى من رحابه الصدر وسعة النفس ما يسر المسلم وغير المسلم ، وإذا ما استعرضنا التفكير الإسلامى فى العقود الثلاثة الأخيرة ومحاولات الأكثرية الإسلامية فى العالم للتقرب من إخوانهم غير المسلمين من العرب نرى فيها مدعاة للطمأنينة إلى أن الإسلام وهو دين الأكثرية العربية لن يكون فى المستقبل أداة للتفريق بل للتأليف .

ومن القضايا الكبرى التى جرى اتهام الاسلام والفكر العربى الاسلامى فيها بالتعصب فتنة الدروز والموارنة سنة ١٨٦٠ ، وما تزال كتب التاريخ الحديث والبحث الأدبى مشحونة بالاتهامات حول هذه الواقعة بالذات ، ولسنا نحاول أن ندفعها إلا بما دفعها به دبلوماسى انجليزى هو السير ريتشاردوود قنصل دولة انجلترا ووكيلها السياسى فى الشام فى هذه الفترة وقد كشف فى تقريره وجه الحقيقة فى هذه القضية ، فهو يكشف عن سماحة الإسلام والمسلمين على هذا النحو الذى تضمه كلماته الواضحة الصريحة :

« من أوهام الناس أن الإسلام يمنع مساواة أهل الذمة بالمسلمين فيما لهم وما عليهم وينبو عن الأخذ بأسباب التقدم والحضارة لأنه لا يجيز انتشار المعارف والتحلى بالعلوم ، وأنا اعتمد فى رد هذه الأوهام الباطلة على فتوى صدرت من شيخ الاسلام فى المملكة التونسية أتى فيها على بيان ماجاء به الكتاب (القرآن) وأوضحه المفسرون فى حقوق الذمى وحقوق المسلم ، وما يجب على الأمير لرعاياه من غير تفريق بين مذاهبهم وأجناسهم ، وما للرعايا الذميين من حق الاشتراك بالرأى فى كل ما يتعلق بمصالح الوطن .

وهو (احمد بن الخوجة) شيخ الإسلام فى تونس ، وله سعة علمه بأصول الفقه ، وبعد نظر بمقتضى أحوال الزمان . قال : إن الأصل فى « الاسلام » قاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومن آكد الواجبات على الخلق التعاون والتآزر على حفظ المصالح وتأييد الحق وكف النفوس عن شهواتها ، والقرآن يتضمن أحكام الدين ، وفى الوقت نفسه يشمل الأمور الدنية والأصول السياسية .

إن الشريعة تقيد أوامر الإمام بقيد المصلحة العامة وكل تصرف يصدر عن الإمام ويكون منافيا للمصلحة العامة فهو لاغ بحكم الشرع الإسلامى ، ولا يبنى عليه عمل ، ومن هذا يستنتج أن الانتقاد جائز ، والحاجة إلى المشورة ثابتة ، يؤكد ذلك قول الله تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » والمراد بالأمة هنا الطائفة أو الجماعة تهدى بقية القوم وترشدهم إلى أنفع الوسائل للمحافظة على حقوق الوطن وأحكام الدين ، ومع ذلك فإنه لامانع يمنع الإمام — إذا رأى فى أهل الذمة من يثق بهم ويعتمد على معرفتهم وأمانتهم وأخلاصهم لخدمة للوطن أن يدخلهم فى مستشارى دولته .

ومعلوم أن أهل الذمة لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم إذا ثبت أن غايتهم الوطنية موافقة لغاية المسلمين وأنهم مثلهم فى إيثار مصالح الوطن والخير العام ، فإذا ما اتفقت كلمة الشعب فى كل المذاهب واتحدت غاياتهم وقع الاتحاد الوطنى الذى هو الوسيلة الوحيدة لسعادة الأمة وراحتها . إن الحرية التى نحن ملزمون بها لمن هم ليسوا على ديننا توجب علينا أن نستمع لشكواهم وأن نتدارك كل ما يضر بمصالحهم ، وقد نص القرآن وابن حزم على أن من حق حماية أهل ذمتنا ، إذا تعرض الحربيون لبلادنا وقصدوهم فى جوارنا — أن نموت فى الدفاع عنهم ولا يخفى على المتأمل فى هذه الفتوى أنها تفتح أمرين مهمين : (الأول) أن الإسلام يجيز استشارة أهل الذمة فيما يتعلق بالنظامات الدنيوية والثانى أن الاسلام لا يمنع من إستخدام النصارى واليهود يؤيد ذلك ماقاله العلامة (الماوردى) فى كتابه المترجم إلى اللغة اللاتينية : لامانع فى الشرع يمنع من أن يكون اليهودى عاملا فى منصب ولو كان منصب الوزارة ، وللعالمين الشهيرين ابن العربى وسعد الدين التفتازانى كلام فى ذلك ومثل هذا منقول عن كثير من العلماء مثل صلاح الدين وعبد الحليم وحجة الاسلام الغزالى وكلهم متفقون على أن اشتراك رأى الأمة فى شئون المملكة ليس جائزاً فقط بل هو القاعدة الأساسية فى الإسلام .

وما حدث فى عهود متأخرة فى الإسلام .. يخالف الإسلام وان تبادر أنه من الإسلام لمن لا يعرفونه . والراسخون فى العلم من المسلمين لا ينكرون أن الفوضى والاختلال فى الممالك الاسلامية ناشىء عن تسهيل العلماء على السلاطين المستبدين ما تشاؤه أهواؤهم ، ومن إغضائهم عن أعمالهم مهما كانت .

والشيخ محمد بيرم ينسب الفساد الواقع إلى جهل أدعياء العلم أو تجاهلهم ، لا إلى نقص فى الشريعة فيما يتعلق بمقتضيات الأحوال ، لأن الشرع مداره العدل والإنصاف بين الناس، وأن جهل هؤلاء هو الذى جعل العامة يتوهمون أن الإصلاح والحرية والمساواة والحضارة ونحوها مخالف للشرع . وان الذى يدرس نصوص الشريعة الإسلامية ويختبر مقاصدها الحقيقية يجدها بعيدة بمراحل مما ينسبه إليها ذوو الأغراض ، وحاشا أن يكون الاسلام غير واف بما تستدعيه الظروف والأحوال من الإصلاح ، وكبار العلماء متفقون على أن ما يتعلق بالعبادات من أحكام الدين هو الذى لا يقبل التغيير بوجه ، أما ما يتعلق بالسياسة والإدارة فليس كذلك ، وقد روى عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يقول : تحدث للناس أقضية بحسب ما يحدثونه من الفجور . ومثل ذلك ما ينقل عن ابن عقيل من أن للحكومة أن توسع مجال نظرها السياسى فيما ليس منصوصا عليه ، وأن لا تتوقف فيما لم تقيد الشريعة حكمه .

على أن كثيرا من مؤلفى الأفرنج يزعمون أن المسلمين لا يتسنى لهم التقدم والارتقاء فى تاريخ الحضارة ماداموا مقيدين بنصوص القرآن التى يقولون انها لا تلائم المعارف واكتساب الفنون ، وهذا أيضا وهم باطل نشأ عن الجهل بمقاصد القرآن ، ويكفى برهانا على بطلانه (تاريخ صدر الإسلام) وعناية علماء العرب بالمعارف والفنون،ودرسهم كتب الحكماء الأقدمين مثل أرسطو وإقليدس وأبقراط وبطليموس وغيرهم ، بعد أن نقلوها إلى العربية وليس فى نصوص الدين ما يمنع من تدريسها ، وهذا حجة على أن الاسلام لا يقيد للعلم حدوداً .

وأكبر بواعث سوء التفاهم هو انتشار الظن فى أوربا بأن الاسلام دين القوة والسيف، ولكن هذا الظن مخالف للواقع ، ومناف لطبيعة الإسلام « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » .

الذي يبحث بحثا دقيقا عن أسباب الفتن التي سفكت فيها الدماء في المشرق يعلم أن الباعث الوحيد على حدوثها هو إصبع السياسية الأجنبية التي تنتهز الفرص لإيقاد نار الفتنة بين ذوي الأحقاد ، ومن هذا القبيل واقعة الدروز والموارنة وواقعة الصقالبة والبلغاريين وقد تبين أن الاعتداء انما كان يبتدىء من جانب النصارى (كان ريشارد ود قنصلا لدولته في دمشق ١٨٦٠) وليس مرادنا أن نبرىء المباشرين لتلك الفظائع ، ولكننا نريد أن نقول إن الاسلام لا يجيز القتال إلا في مواقف الدفاع بدليل قوله تعالى (فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) ومن الخطأ توهم أن المغالاة جاءتهم من تلاوة القرآن ، إذ الحقيقة أن كل المسلمين العثمانيين — إلا العرب — سواء كانوا أكرادا أوصقالبة أو روما أو أتراكا لايعرفون العربية أصلا . وبالتالي لا يتيسر لهم أن يقرءوا القرآن أو يفهموه ، ويؤيد قولنا هذا أفاضل علماء الأفرنج الذين سعوا في بلاد المشرق ، وهم يشهدون بأن سكان هذه البلاد ميالون إلى العناية بالصنائع وإكرام الضيف والطاعة للنظام وملاطفة أهل ذمتهم وحسن معاملتهم .

ولكني أقتصر على ماذكرت في رد قول القائلين بأن القرآن مانع للاصلاح الذي تقتضيه الأحوال أو ينهى عن تلقي العلوم والأخذ بالفنون النافعة أو يبيح الفظائع والاعتداء على أهل الذمة بل هو قد سمح للذميين بحرية الدين والتقاليد وأوجب مساواتهم مع سائر الأهالي ولم يمنع استشارتهم في مصالح الوطن .

٣ — وأشار غير واحد إلى تسامح الاسلام ونفى عنه شبهة التعصب ، وقد أشار سير توماس أرنولد إلى تسامح الإسلام في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) فقال . لما كانت نظرية العقيدة الإسلامية تلتزم التسامح وحرية الحياة الدينية لجميع أتباع الديانات الأخرى فقد كان ذلك أقوى منفذ إلى القلوب ، وقد ظل أصحاب الأديان الأخرى يعمون بدرجة من التسامح في ظل الحكم الإسلامي لم نجد لها مثيلا في أوربا حتى عصور حديثة جدا . إن التحويل عن طريق الإكراه إلى الاسلام محرم طبقا لتعاليم الاسلام « لا إكراه في الدين » وقوله «أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » وإن مجرد وجود كثير من الفرق والجماعات المختلفة التي ظلت قرونا في ظل الحكم الاسلامي لدليل ثابت على ذلك التسامح ، كما يدل على أن

الاضطهادات التى كانوا يدعون إلى معاناتها بأيدى الطغاة والمتعصبين إنما كانت ناتجة من بعض ظروف خاصة وإقليمية ، أكثر من أن تكون منبعثة من مبدأ مقرر من التعصب . وإن ما حدث من التعسف فى بعض المواقف لم يكن بموافقة الشرع الإسلامى فى شىء ، وقد ورد عديد من الآيات القرآنية التى تنهى عن الإكراه فى الدين ، وتوحى باعتبارها الوسيلة الشرعية الوحيدة لنشر العقيدة وقد أعلن كبير وزراء صلاح الدين « القاضى الفاضل » عبد الرحمن بن على « أن رجلا قد أرغم على الدخول فى الإسلام ، لا يصح شرعا أن يعد مسلما » .

ولم يفعل أى حاكم من حكام الاسلام الأقوياء ما فعله الأسبان بالعرب ،والإنجليز باليهود من استئصال شأفة الرعايا من أصحاب الأديان الأخرى أو نفيهم من بلادهم ، وكان هؤلاء الرعايا فى الأغلب عزلا من أى سلاح وأن الذين لم يفعلوا ذلك إنما تحروا تسامح الإسلام وأقوال الشريعة السمحاء . ويقول مسيو جوتيه (Gautiet) الأستاذ بجامعة الجزائر فى كتابه أخلاق المسلمين وعاداتهم : لقد ثبت أن الفاتحين من العرب كانوا على غاية من فضيلة السماحة التى لم تكن تتوقع من أناس يحملون دينا جديداً ، وما فكر العربى قط فى أشد أدوار تحمسه لدينه الجديد أن يطفىء بالدماء دينا منافسا لدينه .

وليس شىء أدل على التعصب من عبارة مونتسكيو فى كتابه « روح القوانين » : إذا طلب منى أن أدافع عن حقنا المكتسب لاتخاذ الزنوج عبيدا فإنى أقول إن شعوب أوربا بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين لم تر بدا من أن تستعبد شعوب أفريقيا لكى تستخدمها فى استغلال كل هذه الأقطار الفسيحة . والشعوب المذكورة ما هى إلا جماعات سوداء البشرة لا يمكن للمرء أن يتصور أن الله (وهو ذو الحكمة السامية) قد خلق روحا طيبة داخل جسم حالك السواد .

٤ — والأمر بعد ذلك فى « التعصب » هو أمر الغرب ، فإن هذا الاتهام يعود إليه هو ، واضحا مؤيداً بالدليل والتاريخ فى كل المواقف . هذا التعصب الواضح بالنسبة للمسلمين من

الإصرار على إخراجهم من أوربا إخراجا كاملا . وما عرف من التعصب بالنسبة لحرق كتبهم وتنصيرهم وما عرف من محاكم التفتيش من صور تزرى بالكرامة الإنسانية.

ولم تقم حرب دينية قط بين المسلمين ولا فى العالم الاسلامى وكان هدفها إبادة فرقة لأعداء الأخرى ، وذكر ابن عساكر فى سيرة ابن فاتك الذى شهد فتح دمشق أنه تولى قسمة الأماكن بين أهلها بعد الفتح ، فكان يترك الرومى فى العلو ، ويترك المسلم فى أسفل لكيلا يضر بالذمى ، وروى البلاذرى فى كتاب فتوح البلدان أنه لما جمع هرقل صاحب الروم جموعه للمسلمين رد المسلمون ما كانوا قد أخذوه من أهل حمص من الخراج ، وقالوا لهم : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم . فقال أهل حمص : إن ولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم. وأشار إتيان دينيه إلى تعصب الغرب فقال : مما يؤسف له أن أوربا متمسكة بتقاليد سياسية يرجع تاريخها إلى عهد الحروب الصليبية ولم تحد عنها إلى الآن ، وكلما همت بنسيانها قام فى الحال أعداء الاسلام أمثال غلادستون وكرومر وبلفور ومطران كنتربرى والمبشرون فى جميع المذاهب فى وجهها لصدها والعودة بها إلى تلك التقاليد العدائية .

٥ — أما معاملة المسلمين للطوائف المختلفة التى تعيش فى أفق العالم الاسلامى فهذا كابتن غوردون كانتج يصورها عن دراية وفهم ومشاهدة . «إن الأقليات[١] المسيحية واليهودية كانت تعامل على الدوام خير معاملة فى البلدان الإسلامية إلى ان تأتى دولة أوربية وتستخدم هذه الأقليات لقلب الحالة كما حدث فى مسألة الأرمن والأتراك . أن زعماء العرب فى هذا العصر وفى العصور السابقة كانوا دائما يعملون على تلافى هذا التنافر وإصلاح ذات البين ، فإذا كان التعصب الدينى قد أخذ مجراه فى زمن من الأزمنة فقد كان المسلمون الذين هم على غير مذهب الحاكم ينالهم من الاضطهاد ما ينال المسيحيين ، ومن الواجب أن نتخذ مبادىء نجران كالمثل الأعلى للزعيم المسلم . « إن دم الذمى كدم المسلم » .

وفى إشارة لمستر جب إن التعصب لم يعرف فى محيط الدولة الاسلامية إلا فى العهود التى تولى الأعاجم الحكم فيها ونقول هذا فى الماضى وكذلك كان فى الفترات التى سيطر فيها النفوذ الأجنبى وتولى زمام الأمور فى العالم العربى بعد الاحتلال الغربى للعالم الاسلامى.

---

(١) الأهرام : ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٢٩ .

٦ — وتبقى بعد ذلك وثائق تدين الغرب بالتعصب تتمثل فى عبارة أحد الباحثين حيث قال« لقد أهلك تور كادا الدومنيكي الأسبانى ستة آلاف بالنار ، وأهلكت الإمبراطورة تيودورا وحدها نحو مائة ألف من المانويين ، وأهلك الكاثوليك من البروتستانت فى مذبحة سانت بارتلمى مئة ألف أيضا ، أما ديوان التحقيق فى أسبانيا فقتل وحده نحو مائة ألف كما يقول ربناخ فى كتابه تاريخ الأدباء وفى حرب الكاثوليك على البروتستانت المعرضين عن طلب الاصلاح قتل ١٦١ ألفاً .

وفى إشارة أخرى أن الأرواح التى أزهقتها محكمة التفتيش (١٤٨١ — ١٤٩٩) فى خلال ثمانية عشر عاما هى عشرة آلاف ومائتان وعشرون شخصا أحرقوا أحياء و ٦٨٦٠ أعدموا شنقاً بعد التشهير و٩٧٠٢٣ حكم عليهم بعقوبات مختلفة .

شبهات حول « السنة »

جرى كثير من المستشرقين وكتاب التغريب حول شبهة التشكيك فى صحة السنة « أحاديث النبى » : وحاول وليم موير ، وجولدتسيهر أن يزعما بأن تدوين السنة بدأ بعد وفاة النبى بتسعين سنة ، وأن السنة إمتداد للاسلام وزيادة عليه وتطور له ، فى محاولة للقول بأن الإسلام لم يتم فى حياة النبى ، وإنما أضيف إليه من بعده . وقد جرى فريق من كتابنا وراء هذه الشبهات .

وكان « أحمد أمين » من أبرز الكتاب المعاصرين الذين رددوا هذا القول ، وسلكوا هذا السبيل على نهج دقيق من المواربة والإخفاء وإثاره الشبهة ويبدو ذلك واضحا فى فجر الإسلام صفحات ٢١٢ ، ٣٠٤ ، ٣٣٣ ، ٣٣٦ ، ٣٣٩ ، ٢٤٢ .

وفى الرد على هذه الشبهات توجد ثلاثة مؤلفات أساسية يمكن الرجوع إليها :

(١) السنة ومكانها فى التشريع الاسلامى للدكتور مصطفى السباعى .

(٢) الرسالة المحمدية : لسليمان الندوى .

(٣) دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين : محمد الغزالى

وقد عرف تسيهر فى رسالته المترجمة « العقيدة والشريعة » بهذا التحامل الواضح ، والتحريف الصريح للنصوص فى محاولة دعم شبهاته . ومن هذه الأمثلة أنه صرف قول الزهرى « إن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة الأحاديث » إلى لفظ (على كتابة أحاديث) فضلا عن اتهامه الزهرى بأنه واضع حديث فضل المسجد الأقصى إرضاء لعبد الملك بن مروان ضد ابن الزبير ، مع أن الزهرى لم يلق عبد الملك إلا بعد سبع سنوات من مقتل ابن الزبير .

وقد أشار الدكتور مصطفى السباعى إلى أن هناك ممن رددوا شبهات المستشرقين من

اعتمدوا على كتب الحكايات لمناقشة السنة والفقه ، وهذه الكتب لم تؤلف لتاريخ الرجال ولم تصنف للتحقيق فى سيرتهم وأحوالهم ، وإنما ألفت لجمع النوادر والحكايات التى يتفكه بها الناس فى مجالسهم ، ويتزيدون بها ما شاءت لهم أهواءهم وخيالاتهم ، ولا يمكن أن يؤخذ منها الأدلة والشواهد لدعوى خطيرة عن السنة ، ومن ذلك أن بعضهم يكذب « موطأ مالك » ويؤيد كلاما فى كتاب حياة الحيوان للدميرى . وقال الدكتور السباعى إن علم الحديث لا يؤخذ من كتب الفقه ، وعلم التفسير لا يؤخذ من كتب اللغة ، لأن لكل علم مصادره التى تعرف منها حقائقه وقضاياه ، وكذلك علم التاريخ لا يؤخذ إلا من مصادره الموثوقة . وإنه من الخطأ فى دراسه السنة الاعتماد على ثمار القلوب للثعالبى ، ومقامات بديع الزمان . وأشار إلى أن الاستعمار قد جند بعض المستشرقين لتسميم هذا المنبع الروحى فنصبوا الفخ باسم البحث العلمى والتفكير الحر ، فجاء نفر فوقعوا فى الفخ ، وراحوا يرجون بضاعة الغزاة إما عن جهل بحقيقة التراث الإسلامى ، وأما عن انخداع بالأسلوب العلمى المزعوم ، وإما عن رغبة فى الظهور بالتحرر العقلى وشجاعة الرأى وإما عن انحراف فكرى ووجدانى بتأثير الاستهواء . وقد كانت محاولة التشكيك فى الحديث النبوى من أحط الشبهات التى حاول التغريب توجيهها إلى الفكر العربى الإسلامى ، وقد جرى فى هذا المجرى بعض الباحثين متأثرين بمنهج البحث العلمى وهو منهج يجهله الفكر الإسلامى العربى لأنه نشأ فى حضانته وكان أول من دعا إليه ونادى به . غير أنه أريد أن يصطنع فى سبيل إثارة الشبهات حول الحديث بصفة عامة ، بغية وصمه بالاضطراب ، ومن هنا يمكن أن يتخلى عنه المسلمون ويلجأون إلى المصدر الأساسى الذى كان فوق الشبهات وهو القرآن وربما بدا هذا الكلام منطقياً فى مظهره ، ولكن حملة هذه الدعوة إنما يطمعون فى زلزلة قواعد الإسلام نفسه ذلك أن الحديث والسنة من الإسلام هى العامود الثانى من أعمدته أو هى المذكرة التفسيرية له ، بل هى التطبيق الفعلى للاسلام ممثلا فى الصورة الأولى التى تحراها رسول الإسلام فى حياته لتكون أنموذجاً للمجتمع الإسلامى .

١ — رأى ليوبولد فايس(١)

يقول العلامة المجرى المسلم : محمد أسد « ليوبولد فايس » فى تصوير موضع السنة من الفكر الإسلامى العربى :

«لقد كانت السنة مفتاحاً لفهم النهضة الإسلامية منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً فلماذا لا تكون مفتاحاً لفهم انحلالهم الحاضر ، أن العمل بسنة رسول الله هو عمل على حفظ كيان الإسلام وعلى تقدمه ، وان ترك السنة هى إنحلال الإسلام . لقد كانت السنة هى الهيكل الحديدى الذى قام عليه صرح الإسلام ، وإنك إذا أزلت هيكل بناء ما ، أفيدهشك بعدئذ أن يتقوض ذلك البناء كأنه بيت من ورق .

انفا نستعمل هنا كلة السنة بأوسع معانيها ، على أنها المثال الذى أقامه لنا الرسول من أعماله وأقواله ، ان حياته العجيبة كانت تمثيلا حياً وتفسيراً لما جاء فى القرآن الكريم . ولا يمكننا أن ننصف القرآن الكريم بأكثر من أن نتبع الذى قد بلغ الوحى . لقد أتى الإسلام بالرسالة الجديدة التى لا تجعل احتقار الدنيا شرطاً للنجاة فى الآخرة ، تلك الخاصة الظاهرة فى الإسلام تجلو الحقيقة الدالة على أن نبينا ، الذى كان فى رسالته الدليل الهادى للانسانية ، كان شديد الاهتمام بالحياة الإنسانية فى كلا اتجاهيها : فى المظهر الروحى والمظهر المادى ، وانه لمن الجهل بالإسلام أن يحاول أحدنا أن يوفق بين أوامر للرسول تتعلق بأمور تعبدية روحية خاصة ، وبين غيرها من التى تتصل بقضايا المجتمع وقضايا حياتنا اليومية ، وأن القول بأننا مجبرون على اتباع الأوامر المتعلقة بالنوع الأول ولكننا لسنا مجبرين على أن نتبع الأوامر المتعلقة بالنوع الثانى إنما هى نظر سطحى ، وهو فوق ذلك مناهض فى روحه للاسلام مثل الفكرة القائلة بأن بعض أوامر القرآن الكريم قد

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق : ليوبولد فايس ، ترجمة الدكتور عمر فروخ (١٩٤٦) .

قصد بها العرب الذين عاصروا نزول الوحى لا النتيجة من الأكياس (الجنتلمان) الذين يعيشون فى القرن العشرين . فسنة الرسول إذن تالية للقرآن ، وهى المصدر الثانى للشرع الإسلامى وللسلوك الشخصى والاجتماعى ، وفى الحقيقة يجب علينا أن نعتبر أن السنة إنما هى التفسير الوحيد لتعاليم القرآن الكريم ، والوسيلة الوحيدة لاجتناب الخلاف فى تأويل تلك التعاليم وتطبيقها على الحياة العملية . إن التعبير الذى يتردد على مسامعنا اليوم كثيرا « لنرجع إلى القرآن الكريم ولكن يجب ألا نحمل من أنفسنا مستعبدين للسنة » ؛ هذا التعبير يكشف بكل بساطة عن جهل للاسلام ، ان الذين يقولون هذا القول يشبهون رجلا يريد أن يدخل قصراً ولكنه لا يريد أن يستعمل المفتاح الأصلى الذى يستطيع به وحده أن يفتح الباب . ولقد أصبح من قبيل الزى فى أيامنا هذه أن ينكر المرء مبدئياً صحة الحديث ، ثم هو من أجل ذلك ينكر نظام السنة كله . هل هناك أساس علمى لهذا الاتجاه ، أم هل هناك مبرر علمى لرفض الحديث على أنه مصدر يستند إليه الشرع الإسلامى ، ؟ انه على الرغم من جميع الجهود التى بذلت فى سبيل تحدى الحديث على أنه نظام ما ، فإن أولئك النقاد المصريين من الشرقيين والغربيين لم يستطيعوا أن يدعموا انتقادهم العاطفى الخالص بنتائج من البحث العلمى ، وأنه من الصعب أن يفعل أحد ذلك ، لأن الجامعين لكتب الحديث الأول ، خصوصاً الإمامين البخارى ومسلما ، وقد قاموا بكل ما فى طاقة البشر عند عرض صحة كل حديث على قواعد التحديث عرضاً أشد كثيراً من الذى يلجأ إليه المؤرخون الأوربيون عادة عند النظر فى مصادر التاريخ القديم . ويكفى أن نقول انه نشأ من ذلك « علم تام » : الفروع غايته الوحيدة البحث فى معانى أحاديث الرسول وشكلها وطريقة روايتها . وان رفض الأحاديث الصحيحة جملة واحدة أو أقساماً ليس حتى اليوم إلا قضية ذوق ، وان السبب الذى يحمل على مثل هذا الموقف من المعارضة بين كثيرين من المسلمين المعاصرين يمكن تتبعه إلى مصدره ، ان السبب يرجع إلى استحالة الجمع بين طريقة حياتنا وتفكيرنا الحاضرة المتقهقرة ، وبين روح الإسلام

الصحيح ، ولكي يستطيع نقدة الحديث المزيفون أن يبرروا قصورهم وقصور بيئتهم فإنهم يحاولون أن يزيلوا ضرورة اتباع السنة ، لأنهم إذا فعلوا ذلك كان بإمكانهم حينئذ أن يتأولوا تعاليم القرآن الكريم كما يشاؤون على أوجه من التفكير السطحي أي حسب ميول كل واحد منهم وطريقة تفكيره هو ، ولكن تلك المنزلة الممتازة التي للاسلام على أنه نظام خلق وعملي ونظام شخصي وإجتماعي تنتهي بهذه الطريقة إلى التهافت والاندثار ، وان الذين خلبتهم المدنية الغربية لا يجدون مخرجا من مأزقهم إلا برفض السنة على أنها غير واجبة الاتباع على المسلمين ، ذلك لأنها قائمة على أحاديث لا يوثق بها وبذلك يصح تحريف تعاليم القرآن الكريم لكي تظهر موافقته لروح المدنية الغربية أكثر سهولة .

٢ — أبو الحسن على الحسنى الندوى[1] :

« إن الحديث ميزان عادل يستطيع المصلحون في كل عصر أن يزنوا فيه أعمال هذه الأمة واتجاهاتها ، ويعرفوا الإنحراف الواقع في سير هذه الأمة ، ولا يتأتى الاعتدال الكامل في الأخلاق والأعمال إلا في الجمع بين القرآن وبين الحديث .

٢ — لقد اعتادت الأمم القديمة والديانات أن تصور أنبيائها وأن تنحت لهم تماثيل وأصناماً تمثلهم للأجيال القديمة ، وتجدد ذكراهم ونشأت عن ذلك الوثنية وعبادة التماثيل ، أما الإسلام فقد استبدل هذا بالحديث النبوى الذى هو مجموع صور ناطقة يتعرف بها الإنسان نبيه ويسمع كلامه ويشاهد فعله ويدرس سيرته .

٣ — الحديث يمثل هذه الحياة المعتدلة الكاملة المتزنة ، ولولاه لوقعت الأمة في إفراط وفقد المثال العملي الذي حث الله على الامتداد به . والذي يطلبه الإنسان ويستمد منه الثقة والقوة في الحياة .

---

(١) من كتابه : رجال الفكر والدعوة في الإسلام .

٤ — الحديث ذاخر بالحياة والقوة والتأثير الذى لم يزل يبعث على الإصلاح ، ومحاربة الفساد والبدع وحسبة المجتمع . والدعوة إلى الدين الخالص وقد سمع الصحابة وحفظوا وشاهدوا ، وبدأوا يكتبون الحديث فى عهد النبى ومنهم من كانت له مجموعة خاصة اشتهرت عنه « الصادقة = لعبد الله بن عمرو بن العاص » ولعلى بن أبى طالب صحيفة . وأنس ، وعبد الله بن عباس وعبد الله بن منصور وجابر بن عبد الله . وصحيفة همام ابن منبه فإذا جمعت هذه الصحف والمجاميع كونت العدد الأكبر من الأحاديث التى جمعت فى الجوامع والمسانيد والسنن فى القرن الثالث . وقد تحقق أن المجموع الأكبر من الأحاديث سبق تدوينه ونسخه من غير نظام وترتيب فى عصر الرسول وفى عصر الصحابة .

وقد شاع فى الناس حتى المثقفين والمؤلفين أن الحديث لم يكتب ولم يسجل إلا فى القرن الثالث الهجرى وأحسنهم حالا من يرى أنه قد كتب ودون فى القرن الثانى ، وما نشأ هذا الغلط إلا عن طريقين :

الأولى : إن عامة المؤرخين يضطرون على ذكر مدونى الحديث فى القرن الثانى ولا يعنون بذكر هذه الصحف والمجاميع التى كتبت فى القرن الأول لأن عامتها فقدت وضاعت ، مع انها اندمجت وذابت فى المؤلفات المتأخرة .

الثانى : إن المحدثين يذكرون عدد الأحاديث الضخم الهائل الذى لا يتصور أن يكون فى هذه المجاميع الصغيرة التى كتبت فى القرن الأول ، مع أن عدد الأحاديث الصحاح غير المتكررة المتحررة من المتابعات لا يزال قليلا ، فحديث إنما الأعمال بالنيات مثلا يروى من سبع مائة طريق فلو جردنا مجاميع الأحاديث من هذه المتابعات والشوهد لبقى عدد قليل من الأحاديث ، فالجامع الصحيح للبخارى لا تزيد الأحاديث التى رويت بالسند الصحيح فيه على ألفين وستمائة وحديثين . وأحاديث مسلم يبلغ عددها أربعة آلاف حديث .

ومعظم هذه الثروة الحديثية قد كتب ودون بأقلام رواة العصر الأول وقد يزيد

ما حفظ فى الكتب والدفاتر كتابة وتحريراً فى العصر النبوى وفى عصر الصحابة على عشرة آلاف حديث إذا جمعت صحف ومجاميع أبى هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وأنس بن مالك وجابر بن عبد الله وعلى ، وابن عباس ، وبذلك يمكن أن يقال أن ما ثبت من الأحاديث الصحاح وما احتوت عليه مجاميعها ومسانيدها قد كتب ودون فى عصر الصحابة قبل أن يدون الموطأ والصحاح بكثير (نقلها عن مناظر أحمد الكيلانى فى كتابه تدوين الحديث) . وقد قام المحدثون فنقبوا فى البلاد فى البحث عن الروايات المختلفة والأسانيد الصحيحة ، وكان لهم فى ذلك هيام وغرام لم يعرف عن أمة من الأمم للعلم فى التاريخ ، يدل على ذلك بعض الدلالة ما يروى عن المحدثين من التجول فى البلاد والسفر فى العالم الإسلامى من من أقصاه إلى أقصاه . ولم يقتصروا على جمع الحديث وتدوينه بل تمدت عنايتهم إلى الوسائط التى وقمت فى رواية الحديث وهم الرواة الذين رووا هذه الأحاديث فعنوا بمعرفتهم ومعرفة أسمائهم وأسماء آبائهم وحوادث حياتهم وأخلاقهم ومكانتهم فى الأمانة والصدق والحفظ ، وهكذا ظهر علم أسماء الرجال إلى عالم الوجود ، وكان من مفاخر هذه الأمة التى لا يشاركها فيها أمة من الأمم ، كما قال الدكتور اسبرنجر فى مقدمته على كتاب الإصابة . وكان هؤلاء المحدثون أقوياء وعلى جانب عظيم من الصبر والجلد واحتمال المشاق وقوة الذاكرة وكانت عندهم نهامة للعلم وحرص زائد على اقتباسه والتقاطه من موضعه .

٢ — المستشرقون والسنة : مصطفى السباعى

تعرضت السنة فى القديم لهجمات بعض الطرق الإسلامية الخارجة على سنن الحق لشبهات طارئة لم تجد فى نفوس أتباعها ما يدفعها ، كما تعرضت فى العصر الحاضر لهجمات بعض المستشرقين المتعصبين ، من دعاة التبشير والاستعمار ، ابتغاء الفتنة ، وابتغاء هدم هذا الركن المتين من أركان التشريع الإسلامى وتابعهم على ذلك بعض المؤلفين من أبناء أمتنا اندفاعاً وراء ميول نفسية وشبهات فكرية . والهجوم على السنة الذى يقوم به فريق من المسلمين الذين تعلموا على المستشرقين هو هجوم لا يبدو سافراً واضحاً كما بدت آراء المستشرقين من قبل، بل مقنعاً بستار العلم والبحث،متجنباً المصارحة مفضلا المواربة والمخاتلة.

ومن أبرز من سلكوا هذا السبيل أحمد أمين خريج القضاء الشرعى وعميد كلية الآداب ومؤلف فجر الإسلام وضحاه وظهره ، وقد تحدث فى فجر الإسلام عن الحديث فمزج سمه بالدسم وخلط الحق بالباطل ، وكان إسماعيل أدهم قد نشر رسالة عام ١٣٥٣ هـ عن تاريخ السنة أعلن فيها أن هذه الثروة الغالية من الأحاديث الموجودة بين أيدينا والتى تضمنتها كتب الصحاح ليست ثابتة الأصول والدعائم بل هى مشكوك فيها وتغلب عليها صفة الوضع[1] » .

ويمضى الدكتور مصطفى السباعى فى تصوير بواعث هذا الاتجاه ودوافعه فيقول :

لما هاجمت الجيوش الصليبية بلاد الإسلام كانت مدفوعة إلى ذلك بدافعين : الأول دافع الدين والعصبية التى أثارها رجال الكنيسة فى شعوب أوربا ، والثانى دافع سياسى استعمارى ، فقد سمعوا عن ثروتها وأرضها الخصبة . فجاءوا يقودون جيوشهم باسم المسيح وما فى نفوسهم فى الحق إلا الرغبة فى الاستعمار والفتح والاستئثار بخيرات المسلمين

---

(١) عرض أحمد أمين لهذا اللون من الكتاب فى حديث جرى بين الدكتور مصطفى السباعى والدكتور على حسن عبد القادر ص ١٧٨ من كتاب السنة : قال أحمد أمين للدكتور عبد القادر : خير طريقة لبث ما تراه مناسباً من أقوال المستشرقين ألا تنسب إليهم صراحة ، ولكن ادفعها إليهم على أنها بحث منك، وألبسها ثوباً رقيقا لا يزعجهم مسها ، كما فعلت فى فجر الإسلام وضحى الإسلام) .

وثرواتهم . وشاء الله أن ترتد هذه الحملات الصليبية كلها مدحورة مهزومة ، بعد حروب دامت مائتي سنة كاملة . وأن يقضى على الإمارات التي استولوا عليها . وقد عادت هذه الحملات تحمل فى قلوبها الحسرة ، ولكنها كانت تحمل فى عقولها شيئاً من نور الإسلام ، ورأوا بعد الإخفاق فى الاستيلاء عليها عسكرياً أن يتجهوا إلى دراسة شئونها وعقائدها تمهيداً لغزوها ثقافيا وفكرياً، ومن هنا كانت النواة الأولى لجميات المستشرقين .

وقد عمدوا إلى محاولة تصوير المجتمع الإسلامى فى مختلف العصور وخاصة العصر الأول بأنه مجتمع متفكك تقتل الأنانية رجاله وعظماءه ، وتصوير الحضارة الإسلامية تصويراً سيئاً تهويناً بشأنها واحتقاراً لآثارها ، مع إخضاع النصوص للفكرة التى يفرضونها حسب أهوائهم ، والتحكم فيما يرفضونه ويقبلونه من النصوص ، وتحريف النصوص تحريفاً مقصوداً وإساءتهم فهم العبارات .

يقول جولد تسيهر : إن القسم الأكبر من المدنية ليس إلا نتيجة للتطور الدينى والسياسى والاجتماعى فى الإسلام فى القرنين الأول والثانى ، ولا ندرى كيف يجرؤ على مثل هذه الدعوة ، مع أن النقول الثابتة تكذبه ، ومع أن رسول الله لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا وقد وضع الأسس الكاملة لبنيان الإسلام الشامخ ، بما أنزل الله عليه فى كتابه ، وبما سنه عليه الصلاة والسلام من سنن وشرائع وقوانين شاملة وافية ، حتى قال النبى قبل وفاته « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنتى . وقال لقد تركتكم على الحنيفية السمحة ليلها كنهارها » ومن المعلوم أن من أواخر ما نزل على النبى من كتاب الله « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » .

وذلك يعنى كمال الإسلام وتمامه فما توفى رسول الله إلا وقد كان الإسلام ناضجاً تاماً لا طفلا يافعاً كما يدعى هذا المستشرق ، نعم لقد كان من آثار الفتوحات الأسلامية أن واجه المتشرعين المسلمين جزئيات وحوادث لم ينص على بعضها فى القرآن والسنة، فأعملوا آراءهم فيها قياساً واستنباطاً ، حتى وضعوا لها الأحكام ، وهم فى ذلك لم يخرجوا عن دائرة الإسلام وتعاليمه .

على أن الباحث المنصف يجد أن المسلمين فى مختلف بقاع الأرض التى وصلوا إليها

كانوا يتعبدون عبادة واحدة ، ويتعاملون بأحكام واحدة، ويقيمون أسس أسرهم وبيوتهم على أساس واحد ، وهكذا كانوا متحدين فى العبادات والمعاملات والعادات غالباً ، ولا يمكن أن يكون ذلك لو لم يكن من قبل مغادرتهم جزيرة العرب نظام تام ناضج وضع لهم أسس حياتهم فى مختلف نواحيها ، ولو كان الحديث أو القسم الأكبر منه نتيجة للتطور الدينى فى القرنين الأولين للزم حتماً أن تتحد عبادة المسلم فى شمال أفريقيا مع عبادة المسلمين فى جنوب الصين ، إذ أن البيئة فى كل منهما مختلفة عن الأخرى تمام الاختلاف فكيف اتحدا فى العبادة والشريعة والآداب وبينهما من البعد ما بينهما .

أما قيام المذاهب بعد القرن الأول وتعددها فذلك لاشك أثر للكتاب والسنة والصحابة فى فهم كتاب الله والسنة ، أما الكتاب فقد كان محفوظاً متواتراً بينهم ، أما السنة فلا نرى قولا لإمام من أئمة المذاهب فى القرنين الثانى والثالث إلا وقد سبقه إليها صحابى أو تابعى ، وذلك قبل أن يتطور الدين — كما زعم هذا المستشرق — تطوراً بالغ الأثر ، وهذا ما يقضى على الشبهة من أساسها .

ولا يخفى مكانة السنن النبوية والحديث فى الشريعة الإسلامية وأثرها فى الفقه الإسلامى منذ عصر النبى والصحابة حتى عصور الاجتهاد واستقرار المذاهب الاجتهادية مما جعل الفقه الإسلامى ثروة لشريعة لامثيل لها فى الثروات التشريعية لدى الأمم جميعاً فى الحاضر والماضى ، ومن يطلع على القرآن والسنة يجد أن للسنة الأثر الأكبر فى اتساع دائرة التشريع الإسلامى وعظمته وخلوده . وهذا التشريع العظيم الذى بهر أنظار علماء القانون فى جميع أنحاء العالم هو ما حمل ويحمل أعداء الإسلام فى الماضى والحاضر على مهاجمة السنة والتشكيك فى صحتها وصدق جامعيها ورواتها من أعلام الصحابة والتابعين ، وعلى هذا الغرض التقى أعداء الإسلام من زنادقة الفرس وغيرهم فى عصور الحضارة الإسلامية الزاهرة مع أعداء الإسلام اليوم من المستشرقين ومن لف لفهم .

ومن المؤسف أن يسير وراء أعداء الإسلام فى الحاضر فئة لاشك فى صدق إسلامهم من العلماء والكتاب ولكنهم منخدعون بمظاهر التحقيق العلمى الكاذب الذى يلبسه هؤلاء الأعداء من المستشرقين والمؤرخين الغربيين لإخفاء حقيقة أهدافهم ومقاصدهم والغاية هى أشاعة الشك فى الدين الإسلامى وحملته .

٣ — شبهات حول الشريعة الإسلامية والفقه الرومانى

ردد جولد تسيهر ، ومن بعده شاخت وهم من غلاة المستشرقين،شبهة تقول إن الشريعة الإسلامية تأثرت بالقانون الرومانى فى بداية عهد تكوينها،وقبل نشوء المدارس الفقهية الكبرى ، أشار إلى ذلك جولد تسيهر فى كتابه « العقيدة والشريعة » ، وردده شاخت فى محاضرة ألقاها (يولية ١٩٥٦) فى الأكاديمية الإيطالية للعلوم بعنوان (القانون البيزنطى والشريعة الإسلامية) .

وقد واجه الدكتور عبد الرزاق السنهورى هذه الشبهة فقال : لم تسلك الشريعة الإسلامية فى نموها الطريق الذى سلكه القانون الرومانى فإن هذا القانون قد بدا عادات ونما وازدهر عن طريق الدعوى والإجراءات الشكلية ، أما الشريعة الإسلامية فقد بدأت كتاباً منزلا ووحياً من عند الله ونمت وازدهرت عن طريق القياس المنطق والأحكام الموضوعه ، إلا أن فقهاء المسلمين امتازوا على فقهاء العالم بعلم أصول الفقه .

ويقول العلامة القانونى محمد الشافعى اللبان : إن ما بين التشريعين الإسلامى والرومانى القديم من اتفاق لا يكاد يذكر فى بعض الجزئيات ، يجب ألا ينسيناء مدى التباين والاختلاف القائم بينهما ، ويظهر ذلك فى مسائل الأحوال الشخصية، وفى احكام الملكية ، وفى مبادىء العقود ، وقواعد تعويض الضرر ، وقد اشتملت الشريعة الإسلامية فتاوى لم تسد حتى ذلك الوقت ولم تتقيد فى القوانين الغربية إلا بعد أن تطورت وتقدم بها العهد . ولم يتضح التلاق فى بعض الأحكام إلا بعد أن تطور القانون الرومانى وتحرر من الشكلية،وبعد أن التقى فى تطوره بعوائد وتقاليد شعوب وأجناس مختلفة . فإذا قامت المقارنة بين الشريعة والقانون الرومانى الحديث فربما وجدت أحياناً فى أحكام هــذا القانون مايلتقى بما جاءت به الشريعة من أحكام . ولكن إن صح القول هنا بالاقتباس ، فالأولى أن يسند ذلك إلى القانون المتبع فى القارة الأوربية لتأخره فى التاريخ . بل إن البعض قد وصف القانون الرومانى لذلك السبب بأنه «فقه إسلامى أخذ من الأندلس » .

يقول «فارس الخوري» إن المقايسة بين الشرع الإسلامي والشرع الروماني لا نراها مستقيمة لنا بالنظر لاختلاف الهدف والسنن بين الشرعين ، الأول منهما قائم على قواعد العدل المطلق ، ومقتضيات العقول ، والثاني : على المصالح والمنافع الدنيوية . فينبني على هذا التخالف أن الشرع الإسلامي يمثل مصلحة الفرد في الدنيا والآخرة ، وفي الشرع الروماني مصلحة الجماعة فقط .

مثال ذلك مرور الزمان ، إما أن يسقط الحق أو تسقط الدعوى ، أما الشرع الإسلامي فلا يمكن أن يقول بسقوط الحق ، لأن الحق يبقى في الذمة ، والفرد لا تبرأ ذمته إلا بالوفاء أو بالإبراء مهما مر من الزمان على الحق ، فلم يكتف الشارع الإسلامي بتأمين مصلحة الدنيا بل استهدف مصلحة الآخرة أيضاً في حين أن الشارع الروماني قد اتخذ الجانب الآخر وقال إن الحق المتروك يسقط والساقط لا يعود ، لذلك نرى أنه ليس من السلامة القول بأن أحد هذين الشرعين مأخوذ عن الآخر .

وقال فارس الخوري : في الإسلام كثير من الأمور التي تستوقف نظر المطلع فتعجب عدها من فكرة العدل المجرد الراسخ في نفوس زعماء العرب ، وحرصهم على المنهج القويم والصراط المستقيم في أفعالهم وصلاتهم مع محاربيهم ومماهديهم . ومن ذلك الأصول التي وضعت (للنبذ) عند جوازه ، فإذا فسخوا الصلح وأصبحوا في حالة حرب لا يناجزون خصومهم إلا بعد إعلامهم بالفسخ ومضي الوقت الكافي ، حتى إذا هاجمهم هؤلاء لا يكونون مأخوذين على غرة وغفلة . وهذه درجة من الإنصاف قصر عنها أهل زماننا ، مع ما عندهم من حقوق الدول وقواعد الحرب ، فإن دول العصر الحاضر تبدأ بالهجوم وسائر أعمال الاعتداء حالما تعلن الحرب ، حتى إن بعضها تهاجم قبل إعلان الحرب بصفة رسمية .

ومن هذا القبيل قاعدة عدم أخذ العامة بجرائر الخاصة ، وهو مستند للآية الكريمة ، « ولا تزر وازرة وزر أخرى » فنهوا عن تحميل المغارم أهل القرى بالجملة لأجل الجرائم التي يقترفها أفراد منهم ، وأنت ترى أن حكومات هذا العصر تفرض الغرامات على القرى وتأخذ الطائعين بجريرة العاصين ، إن البون شاسع بين شريعتي موسى ومحمد عليهما السلام ، فالأولى تأمر بالتقتيل بلا إنذار ولا عهد ولا صلح ولا دعوة لإيمان والثانية تأمر بدعوتهم

إلى الإسلام فإن قبلوا الدعوة عصموا دماءهم وأعراضهم وأموالهم وإن أبوا فالجزية .

٢ — ويقول صالح بن علي الحامد العلوي : جاء الإسلام خارقاً لقاعدة البيئة والثقافة ، إذ قام النبي ، وهو الأمي الذي نشأ من أبعد الناس عن أن يطلع على قانون روماني أو حكمة معقولة ، وأتى بهذا الدين الأقدس مناقضاً كل التناقض ما كان عليه قومه ، مباينا لهم في عاداتهم وعقائدهم . إن الشريعة الإسلامية وجدت كاملة دفعة ، لم يزد فيها الفقهاء بعده شيئاً قط إلا تصنيفه ونقله ـ أي الفقه ـ والنصوص الفقهية كلها صريحة ، واضحة المرمى ، والفقه غير التفسير ، والاختلاف في التفسير هو ما يراه الكاتب من تأثير البيئات ، والفقه الروماني حديث ، لم يعمل به إلا في القرن الثاني عشر أو الثالث عشر بعد الميلاد ، أما قبل القرن الحادي عشر فإنه لم يكن معروفا حتى عند الرومان أنفسهم .

ولا شك أن الفقه الإسلامي قد قرر وصنف قبل ظهور الفقه الروماني بقرون ، فكيف يكون متأثراً بشيء لم يوجد بعد ، وما قيمة هذا الزعم بالتأثر بالفقه الروماني إذا كان مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأبو حنيفة والثوري والأوزاعي درسوا وألفوا وصنفوا قبل أن توجد القوانين الرومانية للرومان أنفسهم . بل إن الأصح أن الفقه الروماني هو المأخوذ من الفقه الإسلامي .

إن الفقه الروماني القديم، كما يورده تاريخ الدولة الرومانية للعلامة جيبون (ج٤ص٥٢٧) وقد ذكر أمثلة من معاملاتهم، يمثل المحاكات القاسية . وقد كانت تجرى هذه الأحكام لغاية القرن الحادي عشر ، ولم تتبدل إلا في القرن الثاني عشر ، ودعوى اختفاء الفقه الروماني ثم ظهوره بعد ستة قرون أكذوبة لا مرية فيها ؛ وقد كذبها القانوني الشهير سافينيه حين قال : إن القوانين الرومانية لم تختف لأنها ظلت معمولا بها إلى اليوم من غير انقطاع .

ويتضح من هذا أن القوانين الحديثة ليست إلا حديثة الوضع ، وضعها بعض علمائهم مقتبسة من الفقه الإسلامي ، والدليل هو أن الفقه الإسلامي قد ألف وصنف قبل أن تبرز القوانين الرومانية الحديثة من احتفائها المزعوم ، وقد أشار أبو العباس الكركري من تلامذة بهمنيار وهو تلميذ الشيخ الرئيس ابن سينا في رسالته إلى مفتي مرو (أحمد بن عبد الله السرخسي) أن أبا الوليد محمد بن عبد الله بن خيرة نقل في تعليقاته : أن طلبة العلم من

«الإفرنج الذين كانوا يسافرون إلى غرناطة لطلب العلم قد اهتموا كثيراً بنقل الفقه الإسلامى إلى لغتهم لعلمهم يستعملونه فى بلادهم لرداءة الأحكام فيها، خصوصاً فى المائة الرابعة والخامسة من الهجرة،وقد برعوا فى اللغة العربية، ومنهم غربرت ، وألبرت فإنهما طلبا مساعدة العلماء لإبراز مقصودهما، وقد ساعدوهما حتى دونوا الفقه كاملا،وحوروه إلى ما يوافق بلادهما» .

وتجمع الآراء التى تداولت هذا البحث على أنه لم يقم أى دليل علمى على أن الفقه الإسلامى مأخوذ من الفقه الرومانى ، وأن الفقه الرومانى المعروف اليوم هو المقتبس من الفقه الإسلامى،والدليل أن الفقه الرومانى الحاضر جديد ،لفقه طائفة من العلماء بعد أن اندثر الفقه الرومانى القديم[1] .

٣ — وقد أشار الدكتور معروف الدواليبى إلى ادعاءات المستشرقين بأن للحقوق الرومانية تأثيراً عظيما فى الحقوق الإسلامية ،وأن لهم فى ذلك مزاعم منها : زعمهم أن الحقوق الرومانية تأثيراً عظيما فى الشرق ، وأن الحقوق الرومانية تركت عن طريق تطبيقها فى الشرق تعاملا حقوقياً أصبح من أعراف هذه البلاد وتقاليدها . وبهذا الرأى يقول « دافيد سانتيلانا » الذى قال : إن الإسلام عندفتوح البلدان التى كانت تابعة لدولة الرومان كالشام ومصر وأفريقيـة والجزائر ومراكش وجد الشرع الرومانى سائداً فيها فنسخ منـه ما نسخ وأيد ما أيد ، ولذا كان أغلب قواعد الفقه الإسلامى موافقاً لقواعد الفقه العبرى والرومانى فى مسائل المعاملات الدنيوية المعبر عنها بالمسائل المدنية والتجارية والعقوبات .

ودحض هذه الشبهة هو أن الحقوق الرومانية الأصلية كانت مقصورة على طائفة من الوطنيين من سكان روما ، ثم على جميع اللاتين من سكان إيطاليا دون غيرهم من أبناء الإمبراطورية الأجانب ، وأن الحقوق الرومانية اللاحقة لم تطبق فى البلاد ذات التقاليد الحقوقية الراجحة ، وأن سوريا والعراق ومصر كانت تحت أحكام وتقاليد حقوقية شرقية راقية : كلدانية ومصرية ، وأن الحقوق الرومانية اللاحقة هى حقوق ذات طابع شرقى تأثرت بتقاليد الشرق دون أن تؤثر فيها . فإذا نظرنا إلى هذه الوقائع التاريخية وجدنا عندئذ دعوى المستشرقين عبارة عن فرضية مجردةمن كل دليل ومتنافية مع الوقائع التاريخية.

---

(١) مجلة الرسالة سنة ١٩٤٦ .

ومن هذه الشبهات : الإدعاء بأن العرب بعد الفتح الإسلامى لسورية والعراق قد اتصلوا بمعاهد الحقوق المسيحية الموجودة فى هذه البلاد وعنها تحقق تأثير الحقوق الرومانية فيهم وفى الحقوق الإسلامية ، غير أن هذا الادعاء يتنافى مع الوقائع التاريخية الصريحة ذلك لأن فتح العرب للعراق وسوريا إنما وقع حول سنة ٦٣٥ الميلاد ، وقبل ذلك بأكثر من عصر تقريباً لم يكن فى العالم الرومانى كله غير ثلاثة معاهد للحقوق فى رومه والقسطنطينية وبيروت ، أما مدرسة بيروت فقد قضى عليها فى ١٦ تموز من سنة ٥٥١ ميلادية ، وذلك على أثر زلزال أرضى هدم مدينة بيروت وذهب ضحيته ثلاثون ألف شخص فيهم عدد كبير من الطلاب الأجانب، وذلك قبل ميلاد الرسول عليه الصلاة والسلام (٥٧٠) بعشرين سنة .

وقال الأستاذ كوللنيه إن مدينة بيروت حتى عام ٦٠٠ كانت خراباً ، وقد سقطت بين أيدى العرب بسهولة سنة ٦٣٥ م دون أن تكون مدرسة بيروت قد عادت إلى الحياة » ومن هذه النصوص التاريخية يتضح أن حجة تأثير الحقوق الرومانية فى الحقوق الإسلامية عن طريق معاهد الحقوق التى أوجدها العرب بعد الفتح الإسلامى فى العراق وسورية هى فرضية أيضاً غير قائمة على أساس ، وتتنافى مع الحقائق التاريخية .

٤ — وقال الدكتور صليب سامى : من البديهيات القول بأن الشريعة الاسلامية نظام مستقل عن التشريع الرومانى ، لأن القانون الرومانى قائم على أساس سلطة رب الأسرة الذى أنزله القانون منزلة الآلهة فجعل له على أعضاء أسرته من زوج وأولاد ومن انتسب إلى أسرته من نساء بالزواج ومن رزق بهم من حفدة السلطان الكامل بما فيه حق الموت كما جعل له على أموال هؤلاء جميعا الحق المطلق بحيث يصبح المالك وحده لأموالهم يتصرف فيها كما يشاء .

أما الشريعة الإسلامية فأساسها حرية الفرد ، فالابن إذا ما بلغ سن الرشد أصبح مستقلا بشخصيته وماله عن سلطة الأب . وإذا كان الابن لا يزال قاصراً فماله وديعة لدى وليه . والمرأة إذا ما تزوجت لا تفقد حقها فى مالها الخاص ولا يمنع زواجها حق الارث

على أهلها ، وليس لزوجها سلطان على مالها ، بل يظل ملزماً بالانفاق عليها ولو كان لها مال ، وليس لزوجها سلطان عليها سوى ما له عليها من الحقوق المترتبة على الزواج .

وبدهى لو أن الشريعة الإسلامية قد أخذت أحكامها من الشريع الرومانى لكان نظام سلطة رب الأسرة أول ما تأخذه منه ، ألا ترى أن القانون الفرنسى الذى نقل أحكامه من الشريع الرومانى لا يزال متأثرا بهذا التشريع . فالزوجة فى حكم القانون الفرنسى لا تزال ناقصة الأهلية لزوجها على أموالها فالولى أو الوصى على أموال القاصر من الحقوق ، وليس لها حق التقاضى مدعية أو مدعى عليها إلا بإذن زوجها .

فدعوى البعض أن القانون الرومانى مصدر الشريعه الإسلامية دعوى غير مقبولة أصلا . ويحضر فى هذا المقام مناقشة دارت بينى وبين أحد العلماء الفرنسيين فى هذا الموضوع ، وقد يطرق بنا الكلام إلى دعواى بأن بعض العبارات القانونية اللاتينية قد أخذت عن العرب أنفسهم ، ومن هذه العبارة قول الرومان بداية والفرنسيين فى أثرهم عن الخطأ فى التفسير Lapsus calami فقلت له أن اللفظ الأول مأخوذ لفظا ومعنى من كلمة « لبس » العربية ، واللفظ الثانى مأخوذ لفظا ومعنى من كلمة « قلم » العربية ولكن محدثى لم يقتنع بصحة دعواى بحجة أن اللغة اللاتينية أقدم من العربية ، والذى أريد أقوله اليوم أن الشريعة الإسلامية كانت مصدراً لأهم فائدة من القواعد الأساسية للقانون الدولى الخاص ، التى تعد فى القوانين العربية ، من أحدث ما وضعه التشريع الأجنبى الحديث فأقول :

لما فتح العرب الأمصار فى صدر الإسلام كان فى وسعهم أن يخضعوا أهلها جميعاً فى أقضيتهم لأحكام الشريعة الإسلامية سواء فى ذلك من اعتنق منهم دين الإسلام ومن بقى على دينه ، لأن من حق الغالب أن يخضع المغلوب لحكمه ، ومن حق كل دولة أن تجعل قوانينها سارية على جميع رعاياها .

ولكن دين الإسلام يأبى التحكم فى عقائد الناس ، ويأمر بتركهم وما يدينون

يحتكمون فى أقضيتهم لقاضى دينهم ، ليحكم بينهم بحكم دينهم ، فقد جاء فى القرآن الكريم فى شأن الذميين ما يأتى « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين » وقال : « ليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه » .

هذه هى السياسة التى جرى عليها الاسلام فى حكم البلاد التى خضعت لسلطانه وقد كانت هذه السياسة الحكيمة التى سار عليها العرب فى فتوحاتهم المصدر الفقهى لاحدى القواعد الأساسية للقانون الدولى الخاص وهى قاعدة «شخصية قوانين الأحوال الشخصية» Personnalite des lois du Statut personnel التى تقررت فى بلاد الغرب لأول مرة فى مجمع أكسفورد سنة ١٨٨٢ وفى مؤتمر لاهاى سنة ١٩٠٤ وأخيرا فى اتفاقية مونترو ١٩٣١ . وعلى هذا فحكم الاسلام يقضى :

أولا : بأن القاضى الشرعى يختص بنظر قضايا غير المسلمين ، إذا تراضوا على حكمه ، وبذلك يصبح اختصاصاً اختيارياً » . أما إذا لم يتراضوا فيكون الفصل فى قضاياهم لقاضى دينهم ، ويصبح اختصاصه بها اجبارياً » . ثانياً : إن حكم هذه القاعدة مقصورة على المسائل التى لها علاقة بالدين ، وهى المسائل التى نص عليها فى التوراة والانجيل . ثالثاً : إن علة هذا الاختصاص وجوب الحكم فى هذه المسائل ، بحكم دين الخصوم ، لأن القاضى الشرعى لا يحكم إلا بدين الاسلام .

٥ — شهادات للشريعة الإسلامية

وقد وجهت للشريعة الإسلامية اتهامات كثيرة من ذلك ما ردده هربرت توفين فى كتابه «تاريخ آسيا» من أنها حفظت فى تضاعيفها شروراً اجتماعية،غيرأنهناك عشرات من نصوص كتابات المنصفين من علماء القانون تقول بتقدير الشريعة الأسلاميةوتشيد بها .

من ذلك قول العلامة سانتيلانا فى كتابه :

Avant - projet du Gade vivil et Commercial Tunisien.

الصادر فى سنة ١٨٩٩ حيث يقول : إن فى الفقه الإسلامى ما يكفى المسلمين فى تشريعهم المدنى إن لم نقل أن فيــه ما يكفى للانسانية كلها . ومن ذلك قول العلامة (فبرى) : إن فقهـكم الإسلامى واسع جداً إلى درجة أننى أقضى العجب كلما فـكرت فى أنكم لم تستنبطوا منه الأنظمة والأحكام الموافقة لزمانـكم وبلادكم .

ويقول سليم باز القانونى المسيحى اللبنانى : أعتقد بكل اطمئنان أن فى الفقه الإسلامى كل حاجة البشر من عقود ومعاملات وأقضية والتزامات ، وليس الشاهد على ذلك ما هو ماثل للأنظار فى دار الـكتب المصرية وخزائن الـكتب فى البلاد الإسلامية فحسب ، بل فى خزائن دور الـكتب الأوربية أيضاً ، من لندن وهولندا إلى روما وبرلين وباريس والمتحف البريطانى ، بل إلى المـكتبة البابوية فى قصر الفاتيكان ، فإن ما فى هذه المـكاتب من الـكتب الفقهية الإسلامية إنما هو ثمرة جهود الألوف الـكثيرة من فحول العلماء ، وهى الشاهد الأكبر على أنه لا يوجد معنى من معانى الأحكام المنشود فيها العدل ، إلا وتقدم لفقيه مسلم قول فيه حاجة من حاجات البشر فى التشريع .

ويقول العلامة (كهلر) الإلمانى : أن الألمان كانوا يتيهون عجباً على غيرهم فى ابتـكار نظرية الاعتساف والتشريع لها فى القانون المدنى الألمانى الذى وضع ١٧٨٧ أما وقد ظهر كتاب الدكتور محمود فتحى ، وأفاض فى شرح هذا المبدأ عن رجال الشريعة الإسلامية وأبان أن رجال الفقه الإسلامى تـكلموا عنه طويلا ابتداء من القرن الثامن للميلاد فإنه

يجدر بالعلم القانونى الألمانى أن يترك مجد العمل بهذا المبدأ لأهله الذين عرفوه قبل أن يعرفه الألمان بعشرة قرون وأهله هم حملة الشريعة الإسلامية .

ويقول هوكتنج أستاذ القانون بجامعة هارفارد فى مقال مستفيض تحت عنوان : مصير الثقافة الإسلامية مع كتابه (روح السياسية العالمية) عام ١٩٣٢ ، بعد أن تكلم عن أصول الفقه الإسلامى والمذاهب الأربعة . قال : إن سبيل تقدم الممالك الإسلامية ليس فى اتخاذ الأساليب الغربية التى تدعى أن الدين ليس له أن يقول شيئاً فى حياة الفرد اليومية وعن القانون والنظم السماوية وإنما يجب أن يجد المرء فى الدين مصدراً للنمو والتقدم ، وأحياناً يتساءل البعض عما إذا كان نظام الإسلام يستطيع توليد أحكام جديدة وإصدار أحكام مستقلة تتفق وما تتطلبه الحياة العصرية فالجواب عن هذه المسألة هو أن فى نظام الإسلام كل استعداد داخلى للنمو لا بل أنه من حيث قابليته للتطور يفضل كثيراً من النظم المماثلة ، والصعوبة لم تكن فى انعدام وسائل النمو والنهضة فى الشرع الإسلامى وإنما فى انعدام الميل إلى استخدامها وإنى أشعر بكونى على حق حين أقرر أن الشريعة الإسلامية تحتوى بوفرة على جميع المبادىء اللازمة للنهوض .

وقال الأستاذ شيرل : عميد كلية حقوق جامعة فينا فى مؤتمر الحقوقيين سنة ١٩٢٧ أن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد لها إذ أنه رغم أميته استطاع قبـــل بضعة عشر قرناً أن يأتى بتشريع سنكون نحن الأوربيين أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفى سنه .

وقال (فاندنبرغ) : لقد وضع للرقيق فى الإسلام قواعد كثيرة تدل على ما انطوى عليه الإسلام من الشعور الإنسانى النبيل ففيها نجد من محامد الإسلام ، ما يناقض كل المناقضة الأساليب التى تتخذها إلى عهد قريب شعوب تدعى أنها تمشى فى طليعة الحضارة .

* * *

ويقول الدكتور صبحى محمصانى فى كتابه « مقدمة فى إحياء علوم الشريعة » :

من المعلوم أن الشريعة — وأقصد قسم المعاملات منها — ليست للمسلمين فحسب ، بل هى شريعة العرب ، لهم ولغيرهم أيضاً ، لأنها فى معظم البلاد العربية تؤلف جزءاً

لا يتجزأ من تشريعنا الحالى ولا سيما فى باب الأحوال الشخصية . ويقول : إن الازدهار الفقهى قدتبعه انحطاط تدريجى أدى منذ أوائل القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى) إلى شبه إجماع ضمنى بين فقهاء أهل السنن على سد باب الاجتهاد تخوفاً من الجهل والاضطهاد دون الاكتفاء بالمذاهب الأربعة المعروفة ، أما أهل الشيعة فقد أصابوا بإبقاء باب الاجتهاد مفتوحاً .

ثم بدأت النهضة الفكرية الشرعية المصرية فى القرنين السابع والثامن للهجرة أى الثالث عشر والرابع عشر الميلادى ، ومن أشهر من قام بها الفقيه الغرناطى المالكى ابراهيم ابن موسى اللخمى المعروف بالإمام أبى اسحاق الشاطبى مؤلف كتاب الموافقات فى أصول الشريعة ، ومؤلف كتاب الاعتصام والمصالح المرسلة .

وقد جمل مؤلفها مقاصد الشريعة والمصالح التى بنيت عليها أحكامها بصورة لم تصل إليها كثير من الشرائع الغربية الحالية . وتوصل المؤلف إلى منع استعمال الفعل المأذون فيه شرعاً إذا لم يقصد منه فاعله إلا الإضرار بالغير ، وهذا هو عين نظرية التعسف فى استعمال الحقوق La thèorie de L'abus des droits التى لم تعرف فى الغرب بمعناها التحليلى الواسع إلا مؤخراً جداً . وتوضيح ذلك : اننا عند ما نقول أن فعلا من الأفعال مأذون فيه شرعاً فهذا معناه أن الشرع سمح لنا فى استعماله ، وأن الشرع يحمينا فى هذا الاستعمال ، ولذا قال الفقهاء « الجواز الشرعى ينافى الضمان » بمعنى أنه لا مسؤولية على من يستعمل حقه المأذون فيه شرعاً ، ولـكن هذا الحق أعطى لمقاصدمعينة ، فلا يجوز أن يستعمل بقصد الإضرار بالناس ، فقاعدة « لا ضرر ولا ضرار » الواردة فى الحديث الشريف تقيد هذا الإذن الشرعى وتمنعه عند ما ينجم عنه ضرر للغير هذا ما شرحه الشاطبى ، بوجه لم تقرأ مثله فى الـكتب الغربية فى زمانه على الإطلاق . ومن أشهر أعلام هذه النهضة : « ابن تيمية » صاحب الفتاوى المشهورة ومن أقواله : تحريم عادات التعجل والحلف بالطلاق دون سبب شرعى فأفتى بتحريم هذه العادة المستهجنة ، أى الحلف بالطلاق والتعجل فى إيقاعه :

وقال ابن تيمية بتحكيم العقل فى درس نصوص الشرع بعبارته المأثورة : « إن صحيح المنقول فى الشرع الإسلامى موافق دائماً بصريح المعقول » ، ومعناها أن يمتنع أبداً أن يكون كلام الله تعالى ، فى كتابه العزيز غير معقول ، فهذه القاعدة موافقة صحيح المنقول للمعقول ، قاعدة أولية أصولية صحيحة .

ومن هؤلاء : ابن القيم الجوزية ، فهو مؤلف غزير المادة ، أذكر من كتبه : كتاب « أعلام الموقعين عن رب العالمين » والنظريات الفقهية التى جاهر بها ابن القيم نظريات عديدة ، فقد حمل ابن القيم على التقليد والجمود ، وحارب ذلك ونادى بوجوب الاجتهاد ، وتكلم ابن القيم عن مبدأ « سد الذرائع » التى نسميه اليوم بمنع الإحتيال على القانون ، فالذرائع جمع ذريعة ، وهى الوسيلة التى تستعمل للتهرب من أحكام الشرع وهى لا تجوز فى عرف ابن القيم ، وقد أفتى ابن القيم بمنع المخارج للهرب من تطبيق أحكام الشرع ومنع الوسائل التحليلية والإحتيالية جميعاً بما أسماه مبدأ « سد الذرائع » وهو مبدأ موافق لحكم التشريع الإسلامى وبعد اليوم من أشهر وأرق المبادىء القانونية المصرية .

* * *

وقد عقدت خمسة مؤتمرات غربية من (١٩٣٢ — ١٩٥١) الرأى على استقلالية الشريعة الإسلامية وصلاحيتها الكاملة :

(١) مؤتمر القانون الدولى المقارن فى لاهاى (أغسطس ١٩٣٢) :

أعلن الأستاذ لامبير تقديره للشريعة الإسلامية من الناحية الفقهية .

(٢) مؤتمر القانون الدولى فى لاهاى (أغسطس ١٩٣٧) :

أعلن المؤتمر (١) اعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر التشريع العام (٢) اعتبار التشريع الإسلامى قائماً بذاته ومستقل غير مأخوذ من التشريع الرومانى .

(٣) مؤتمر المحامين الدولى فى لاهاى (١٩٤٨) :

التوصية بدراسة الشريعة الإسلامية دراسة مقارنة .

(٤) جمية القانون الدولى العام .

اعتبار محمد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة الرائد الأول للقانون الدولى العام .

(٥) أسبوع الفقه الاسلامى فى باريس ١٩٥١ .

قال نقيب المحامين : لا أدرى كيف أوفق بين ما كان يصور لنا من جمود الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامى وعدم صلاحيتها كأساس لتشريعات متطورة وبين ما سمعته مما يثبت من غير شك ما عليه الشريعة الإسلامية من عمق وإصالة ودقة وكثرة تفريع وصلاحية لمقابلة جميع الأحداث .

وقد قرر المؤتمر : (١) اعتبار مبادى الفقه الاسلامى ذات قيمة تشريعية لا يمارى فيها (٢) اختلاف المذاهب يحوى ثروة تشريعية هى مناط الاعجاب ، ومنها يستجيب الفقه الإسلامى لجميع مطالب الحياة[1] .

---

(١) نقلنا قرارات هذه المؤتمرات من أبحاث العلامة المستشار على على منصور أحد مراجع الشريعة الإسلامية والقانون فى العالم العربى .

١٩ — شبهات التمدن ، وما قبل الإسلام ، ومفهوم الفرق

من الشبهات التى ترددت كثيراً فى هذا المجال ثلاث شبهات :

(١) ما يثار من الشبهات حول التمدن الإسلامى وذلك فى محاولة للانتقاص من أثر الحضارة العربية الإسلامية ، أو اتهامها بالعصبية ، أو إيراد المثالب التى عرضت لها الشعوبية أو الاعتماد على بعض الأحاديث الضعيفة أو الاستشهاد بكتب المحاضرات والفكاهات : أو نسبة حريق الإسكندرية إلى عمر بن الخطاب ، وقدجرى هذا فى كتابات جرجى زيدان وأحمد أمين وحسين مؤنس وتوفيق الحكيم وغيرهم وقد رد « رشيد رضا » هذا الهدف إلى ما ظهر بعد الانقلاب العثمانى ١٩٠٩ من نزعة جديدة تقدمتها نزعة عدت إحياءاً لمذهب الشعوبية ، وكانوا قد اجتذبوا بعض الكتاب فسافر إليها جرجى زيدان ولقى فيها بعض زعماء جمعية الاتحاد والترقى ، ثم عاد مشبعاً بذلك ، وقد كتب فى الهلال ما يشعر بهذه النزعة ، وقد ترجمت جريدة أقدام التركية كتابة « التمدن الإسلامى » ونشرته بالتتابع وقد حوى هذا الكتاب كثيراً من هذه الشبهات . وقد وصف العلامة شبلى النعمانى الذى نقد هذا الكتاب أوفند خطائه وكشف عن الغاية التى توخاها فقال إنها:« ليست إلا تحقير الأمة العربية وإبداء مساويها وقال أن معظم ما نقله المؤلف فى إثبات عصبية العرب هى أقوال ذكرها صاحب العقد الفريد فى هذا الباب ، ولكن صاحب العقد حينما ذكر هذه الأقوال صدرها بقوله : قال أصحاب العصبية من العرب وفى العقد حجج كلا الطرفين المتعصبون للعرب ورأى من نقد أرائهم ، أما جرجى زيدان فقد اكتفى بإيراد خصوم العرب ، وأوردها على أنها حقائق وربما نسب قول رجل معين إلى العرب عامة .

كما أخذ عليه رفيق العظم الإجمال فى الموضوعات التى تقتضى التبسط وأهمها الكلام عن العلوم التى اشتغل بها العرب أبان مدنيتهم مبيناً ما كان لهم من اليد الطولى فى الترقى ، وقال فيما قال : أن آرائك فى بنى أمية مهدت للظن بأنك منحاز لغير العرب لذا أطريت الدولة العباسية لأنها أعجمية أكثر منها عربية وذهبت إلى أن الفضل فى رقيها العلمى والمدنى

راجع إلى غير العرب ، وعندنا أن حملته على بنى أمية قد استمدها من المستشرق المتعصب : « لامنس » اليسوعى[1] .

٢ — عرف عن المستشرقين الاهتمام بالحضارات القديمة وبتاريخ العرب قبل الإسلام وتزعم آراء المستشرقين ومن لف لفهم أن العرب قبل الإسلام كانوا قد بلغوا درجة كبرى من الحضارة أصبحت تؤهلهم لما بلغ بهم الإسلام من نهضة . وفى هذا القول محاولة للانتقاص من أثر الإسلام ، وقد واجه هذا الرأى العلامة فريد وجدى رداً على ما ردده زكى مبارك من قوله « أن العرب قبل البعثة المحمدية كانت أمة وصلت بعد تطورات عديدة إلى الصلاحية للملك فلما جاء النبى عليه السلام نهض بهم فنهضوا ووجههم إلى الفتح والسيطرة فوصلوا بعد زمن قليل إلى ما كان النبى يريد » .

يقول فريد وجدى : إن قريشاً وهى أرق القبائل لغة وفهماً ومكانة لم تقبل دعوة النبى إلا رجالا ونساء لا يربو عددهم على بضع عشرات وأن أتباع النبى الأولين اضطهدوا اضطهاداً شديداً حتى هاجروا إلى بلاد الحبشة ، وأن النبى لبث على هذه الحالة من الاضطهاد، ثلاثة عشر سنة ، فلما أنست قريش من النبى الهجرة اعتزمت قتله وأرصدت له ، ولما علم أهل مكة بإفلاته اقتفوا أثره ، كل هذا ينطق بلسان فصيح أن قريشاً وهى مظلة النجابة والفهم من العرب ، فى ذلك العهد ، لم تكن قد استعدت للملك ، فإن المجتمع الذى يقاتل الداعى للتجديد والنهوض بهذا النفوذ ويصر عليه ثلاث عشرة سنة لا يزداد بعدها إلا عناداً وتشدداً ، هذا المجتمع الذى يقاتل الداعى بهذا النفور العظيم وينتهى أمره معه إلى الخضوع له كرها ، لا يعتبر إنه استعد لاقامة دولة ، فلو ترك وشأنه لبقى على ما كان عليه ولو أن قريشاً وهى أقرب العرب إلى الحضارة قابلت دعوة محمد بصدر رحب وأحلتها المكان اللائق بها ونهضت تحت قيادته لجمع كلمة القبائل وأبطال وثنيتهم لساغ أن تقول : إن محمداً لم يعمل أكثر مما يعمله البناء ، وجد أحجاراً منحوتة ومواد جاهزة ، فأقام بها قصراً ضخماً » .

---

(١) اقرأ فصل لامنس فى أول هذا الكتاب ورد العلامة كرد على على آرائه .

٣ — ويشير الدكتور م . محمد حسين إلى أحاديث المستشرقين عن النبى ووصفه بالزعامة . ويقول: من المهم إدراك الفرق بين النبوة والزعامة ، والخطورة التى ينطوى عليها القول بزعامته صلى الله عليه وسلم أو عبقريته أو براعته السياسية مما يفرح به السذج من المسلمين ، ففى ذلك كله نفى للنبوة ، وإقرار بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يصدر عن الفكر والروية ومقتضيات الحال ، لا عن الوحى ، وليس فى الأمر معجزة ، فالأمر فيما يزعمون طبيعى ومساير لنواميس التطور ، ومألوف ما يحدث فى عصور النهضة الاجتماعيه أو الثورة السياسية .

وهناك شبهة أخرى هى القول : أن الإسلام مشابه فى أصوله لليهودية والمسيحية والرد على هذا عند الدكتور محمد حسين : إن ما أقره الإسلام مما بقى صحيحاً من ملة أبينا إبراهيم عليه السلام هو فى نظرهم دليل على أن الإسلام امتداد طبيعى للحياة الجاهلية ، وما جاء به الإسلام من تصورات دينية هو امتداد لما يحويه الشعر الجاهلى من تأثر باليهودية والنصرانية ، وحقيقة الأمر فى ذلك كله أن فضائل العرب فى جاهليتهم هى البقية الصالحة من ملة إبراهيم عليه السلام ، وما يشترك فيه الإسلام مع اليهودية والنصرانية بل مع أساطير الأولين فى الجاهليات الأولى البائدة ، هو البقية الصالحة الصحيحة فى هذه الأساطير الأولى من الوحى الإلهى ، لأن هذه الأساطير فى حقيقة أمرها أديان صحيحة محرفة .

ويقول الدكتور محمد حسين أن عناية المستشرقين ودعاة التغريب بالحضارة السابقة على الإسلام — ومنها الجاهلية العربية — فرع من دراسة العصور الجاهلية الأولى كوسيلة لخلق عصبية قومية عنصرية تباهى بهذا القديم لتحله محل مفهوم الفكر الإسلامى ووحدة العالم الإسلامى به ، وتستهدف هذه الدرسات تمجيد العرب فى جاهليتهم ورفض القول بأن الإسلام هو سبب مجدهم وأساس حضارتهم ، وقد بدت طلائع هذه الحركة فى كتابات بلنت ولورنس ر آثارها باقية واضحة فى كتابات الشعوبيين .

٤ — أما مفهوم « الشرق » فى نظر كتاب الغرب فقد كان الأغلب يتمثل فى صورة البخور وألف ليلة وقد احتفى هؤلاء الكتاب برباعيات الخيام وألف ليلة وترجموها

واعتبروها مصدراً أساسيا لدراسة المجتمع العربى وحاولوا أن يرسموا من « هارون الرشيد » شخصية خيالية تختلف كل الاختلاف عن شخصيته الحقيقة ، كما رسموا شخصية مهزوزة للقائد « عطيل » تتنافى مع طابع ذلك المغربى المقدام الحاد الطبع الغيور .

ودوافع هذه الصور المغرضة معروفة ، فإنها جاءت بعد هزيمة الحروب الصليبية ، فى مظهر الحقد والتهوين ومحاولة اسباغ صورة مزرية للشرق من خلال بعض السهرات ومجالس الغناء والخمر والجوارى .

ولا ندعى أنه لم تكن هناك مثل هذه الصور فى بعض قصور السراة والأمراء ، ولكن أحداً لا يستطيع أن يعتبر أن مثل هذه السهرات أو المجتمعات هى صورة المجتمع كله أو غالبه. وقد كانت كتابات دعاة التغريب فى هذا الصدد مغرضة أساساً ، ومستمدة من عقلية مادية صرفة لا ترى فى الشرق إلا طابع اللذة والمتعة وإرضاء الغريزة ، وكانت تحاول برسم هذه الصورة أن تمسخ حقيقة الواقع فى المجتمع الإسلامى العربى الذى ظل متماسكا حتى فى عصور الضعف والتأخر .

ولا يستطيع أى كاتب منصف أن يعتبر كتب ألف ليلة ورباعيات الخيام وقصص المسامرات وكتب المحاضرات وكتاب الأغانى مصدراً أساسياً علمياً لرسم صورة للمجتمع ، فإن هذه الصور قد رسمت للظرفاء وأرباب الفكاهة والانحلال ، وهى فى مجموعها كانت قاصرة على طبقة قليلة جداً من أهل الشرق ، ولا تنسحب أبداً على المجتمع كله الذى كان غنياً غاية الغنى وثرياً كل الثراء ومتفاعلا غاية التفاعل بجوانب العلم وحلقاته ، والعباد والزهاد ، والمفكرين والباحثين والعلماء والأسوياء من الرجال والنساء .

شبهات حول « القرآن الكريم »

واجه « القرآن » الكريم حملة من أعنف الحملات وأثيرت حوله شبهات متعددة . كانت تهدف فى مجموعها إلى القول بأن (١) القرآن من نظم النبى محمد ، وأنه موضوع وليس منزلا من عند الله (٢) إنه كتاب مضطرب وغير متماسك وفيه تمارض (٣) أنه صعب الفهم وركيك . (٤) انه غير منظم أو مبوب (٥) انه العقبه الكؤود فى سبيل إرتقاء الأمم الإسلامية والمسئول عن تقهقرها (٦) أن القرآن مقتبس من التوراة والإنجيل . (٧) القرآن مرآة لافق خاص من الحياة (٨) كتاب مواعظ وحكم وإنذارات .

فهذا (رينولد نيلكسون) يقرر أن مؤلف القرآن مضطرب غير متماسك فى معالجة كبار المعضلات وإنه نفسه لم يكن عالما بوجود هذا الاضطراب والتمارض ، وأن بيان صحابة الرسول الساذج قد دفعهم إلى الإيمان بأن القرآن كلام الله . وإن الفرق الإسلامية قامت بسبب التمارض الذى يحتويه القرآن .

ويقول (هنرى جونستون) : القرآن ليس سوى مجموعة أقول مقيتسة من التوراة والإنجيل وبعض تماليم المجوس ، وأنه يحتقر المرآة ، وقد اشتهر الإسلام بكونه غير قابل للتكيف لما يطابق أحوال الزمان والمكان .

وقد أشار مستر جب كبير المشرفين الإنجليز فى كتاب « الأدب العربى » الذى أصدره عام ١٩٦٣ إن القرآن من صياغة محمد .

وقد ردد هذه الشبهات كثير من كتاب التغريب والشعوبية ، ونشرها بيننا عدد ممن يكتبون باللغة العربية فى صحف مشبوهة تصدر فى بعض عواصم العالم العربى كما حاول آخرون أن يزجوا بهذه الشبهات فى بعض الرسائل والاطروحات والمؤلفات .

وقد كان مصدر هذه الحملة على القرآن الكريم أساساً هو الإيمان الأكيد بأن القرآن هو المصدر الأول والأساسى لمقومات الفكر العربى الإسلامى وأن إثارة الشبهات حوله إنما هو هدف كبير

---

(١) للمؤلف دراسة خاصة عن [القرآن واللغة العربية والإسلام] يمكن الرجوع إليها للتوسع فى هذا البحث.

فى سبيل القضاء على هذه المقومات ، وقد بدأ ذلك فى عبارات الاستعماريين أمثال «غلاستون» رئيس وزراء بريطانيا الذى حمل المصحف أمام أعضاء مجلس العموم البريطانى وقال : مادام هذا الكتاب باقيا فى الأرض فلا أمل فى إخضاع المسلمين . ويتصل بهذا ما ذكره كرومر من اتهامات للقرآن من إنه هو المصدر الأول لتأخر المسلمين ، غير أن هذه الشبهات لم تكن صادرة إلا عن تعصب أو خصومه أو دوافع استعمارية، فأنه قد وجد عشرات من المفكرين الذين قالوا فى القرآن كلمة منصفة :

قال (جوستاف لوبون) : أن هذا الكتاب قانون دينى وسياسى واجتماعى وأحكامه نافذة منذ عشرة قرون .

وقال (جان جان روسو) : من الناس منا من يتعلم قليلا من العربية ثم يقرأ القرآن ويضحك منه ولو أنه سمع محمد يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة ، وذلك الصوت المقنع المطرب المؤثر فى شغاف القلوب ورآه يؤيد أحكامه بقوة البيان لخر ساجداً على الأرض وناداه : أيها النبى رسول الله : خذ بأيدينا إلى مواقف الشرف والفخار فنحن من أجلك نود الموت أو الانتصار .

وقال (توماس كارليل) : إن القرآن كتاب لا ريب فيه ، وإن الإحساسات الصادقة الشريفة والنيات الكريمة تظهر لى بفضل القرآن ، الفضل الذى هو أول وآخر فضل وجد فى كتاب تبحث عنه جميع الفضائل على اختلافها ، لا بل هو الكتاب الذى يقال عنه « الختام » .

وقال « جيبون » : القرآن مسلم به من حدود الأقيانوس الأطلانتيكى إلى نهر الجانجس بأنه الدستور الأساسى ، ليس لأصول الدين فقط ، بل لأحكام الجنائية والمدنية والشرائع التى عليها مدار نظام حياة النوع الإسلامى وترتيب شؤونه .

وفى حديث للكاتب الأشهر : هـ . ج . ولز مع أمين الريحانى[1] قال : فى القرآن أشياء كثيرة حسنة تكاد تهمل فحبذا تجديد الحياة فيها ، ناهيك أن القرآن هو عروة الإسلام الوثقى أو هو

---

(١) م ٣١/١ الهلال ص ٢٨ سنة ١٩٢٢ .

على الأقل وسيلة يحسن إستخدامها فى تأكيد الرابطة الإسلامية ، ولو لم يكن لدى المسلمين من واسطة إلى اتحاد لوجب عليهم اختراعها ولكن كتابهم خير واسطة ، إننى أدعو إلى القرآن لتتخذ منه شارة جنسية وعلمـا وطنيا وعروة شاملة فى الوحدة القومية . ومن رأيى أن يتمسك المسلمون بالقرآن ويتعلموا العلوم الطبيعية . .

ويقول أميل درمنجم : أنه لأجل بعث حضارة إسلامية جديدة تضاهى حضارة السلف بل تفوقها ، يكون بالرجوع إلى القرآن والحديث فما تزال هذه التعاليم السامية حية نابضة متدفقة قوة وحكمة ، فإذا ما استخدمها المفكرون فأنهم يقيمون بدورهم صرحا يبعث من جديد حضارة إسلامية تتبوأ مكانها بين حضارات القافلة البشرية .

وقال فولتير فى كتابه معجم الفلسفة : نحن لا نجهل أن القرآن يميز الرجل تلك الميزة المطلقة المعطاه له من الطبيعه عن المرأة ، ولكن القرآن يختلف عن التوراة فى أنه لا يحمل ضعف المرأة عقابا إلهيا كما ورد فى سفر التكوين (٣ : ١٦) ومن الخلط أن ينسب إلى شارع عظيم كمحمد ، مثل تلك المعاملة المنكرة للنساء ، والحقيقة أن القرآن يقول : فأن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ، ويقول : ومن آياته إن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها .

ويقول « أتيان دينية » لقد حقق القرآن معجزة لا تستطيع أعظم المجامع العلمية أن تقوم بها . ذلك أنه مكن للغة العربية فى الأرض بحيث لوعاد أحد أصحاب رسول الله إلينا اليوم لكان ميسورا له أن يتفاهم تمام التفاهم مع المتعلمين من أهل اللغه العربية . بل لما وجد صعوبة تذكر للتخاطب مع الشعوب الناطقة بالضاد ، وهذا عكس ما يجده مثلا أحد معاصرى « رابيليه » من أهل القرن الخامس عشر الذى هو أقرب إلينا من عصر القرآن ، فمن الصعوبة مخاطبه العديد الأكبر من فرنسى اليوم ، وان لغة القرآن وإن كانت تمت فى أصولها إلى عصور بعيدة قديمة فهى مرنة طيعة تسع التعبير عن كل ما يجدّ من المستكشفات والمخترعات الحديثة دون أن تفقد شيئا من رونقها وسلامتها .

وتقول الدكتورة لورا فيشيا فاغليرى : أن معجزة الإسلام العظمى هى «القرآن» الذى ينقل إلينا الرواية الراسخة غير المنقطعة من خلال أنباء تتصف بيقين مطلق ، أنه كتاب لا سبيل

إلى محاكاته ، إن كلا من تعبيراته شامل جامع ، ومع ذلك فهو ليس بالطويل أكثر مما ينبغى وليس بالقصير ، أما أسلوبه فأصيل فريد وليس ثمة أيما نمط لهذا الأسلوب فى الأدب العربى الذى ينحدر ألينا من العصور التى سبقته ، إن آياته كلها على مستوى واحد من البلاغة وهو ينتقل من موضوع إلى موضوع من غير أن يفقد قوته ، إننا نقع هنا على العمق والعذوبة معاً ، وهما صفتان لا يجتمعان عادة ، فكيف يمكن أن يكون هذا الكتاب المعجز من عمل محمد ، وهو العربى الأمى ، وعلى الرغم من أن محمداً دعا خصوم الإسلام إلى أن يأتوا بكتاب من مثل كتابه ، أو على الأقل بسورة من مثل سوره ، فإن أحداً لم يتمكن من أن يأتى بأى أثر يضاهى القرآن . لقد قاتلوا النبى بالأسلحة ، ولكنهم عجزوا عن مضاهاة السمو القرآنى ، ذلك أن الكتاب إلى جانب كماله من حيث الشكل والطريقة قد أثبت أنه ممتنع عن التقليد والمحاكاة حتى فى مادته ، فنحن نقرأ فيه ونقع على ثمة ذخائر واسعة من المعرفة تعجز أكثر الناس ذكاء ، وأعظم الفلاسفة ، وأقدر رجال السياسة .

ولا يزال لدينا برهان آخر على مصدر القرآن الإلهى فى هذه الحقيقة ، هو أن نصه ظل صافياً غير محرف طوال القرون التى تراخت ما بين تنزيله ويوم الناس هذا ، وأن نصه سوف يظل على حاله تلك من الصفاء وعدم التحريف ، بإذن الله ما دام الكون ، إن هذا الكتاب الذى يتلى كل يوم فى طول العالم الإسلامى وعرضه ، لا يوقع فى نفس المؤمن أى حس بالملل ، على العكس ، إنه فى طريق التلاوة المكرورة يحبب نفسه إلى المؤمنين أكثر فأكثر يوما بعد يوم ، إنه يوقع فى نفس من يتلوه أو يصغى إليه حساً عميقاً من المهابة والخشية ، إن فى إمكان المرء أن يستظهره فى غير عسر ، إن انتشار الإسلام السريع لم يتم عن طريق القوة ، إن الذى أدى إلى ذلك الانتشار كون « الكتاب » الذى قدمه المسلمون إلى الشعوب المغلوبة مع تخييرها بين قبوله ورفضه ، كتاب الله ، كلمة الحق ، أعظم معجزة كان فى ميسور محمد أن يقدمها إلى المترددين فى هذه الأرض .

١ — ترجمة القرآن : ادوار مونتيه

قام الأستاذ ادوار مونتيه الأستاذ بمدرسة الألسن الشرقية بجنيف بترجمة القرآن وقدم له بدراسة صور فيها مفهومة للقرآن[١] فقال :

القرآن فى الحقيقة هو ذو قيمة خارقة للعادة ، فهو بين الكتب الدينية أعظمها شأناً وهو يشتمل على الحياة الروحية لقسم من النوع الإنسانى ، والعقيدة القرآنية ذات علاقة وثيقة مع العقيدة اليهودية والعقيدة المسيحية ، والآثار النصرانية المتعلقة بالمسيح ، هى موضوع صفحات عديدة من القرآن ، على أنه لا ينبغى أن يفهم من هذا الاتحاد فى أصلى الإسلام والنصرانية أن الإسلام القرآنى فاقد الاستقلال وأنه ليس ذا صفة خاصة أصيلة ، فالأمر بالعكس ، والإسلام دين لا يمكن خلطه مع دين آخر من الأديان السامية فهو دين سامى تحت صورة عربية خاصة تتجلى فيه روح اللغة العربية . تجد فى القرآن صفحات غاية فى الإبداع سواء من جهة الفكر أو من جهة القالب الذى وضع فيه الفكر ، وكذلك تجد فيه لآلىء فريدة فى علم الروح معروضة فى آيات هى أعلى ما يمكن من الأسلوب الشعرى وهو أسلوب قائم بذاته ، وفى القرآن منازع دينية ذات سمة مدهشة لا سيما بالنسبة إلى العصر الذى عاش فيه ذلك المصلح العربى ، ومما يجمل للقرآن هذه الأهمية أنه الكتاب الدينى للأمم الإسلامية التى تمثل فى شرق أوربا وفى العالم الآسيوى وفى مالزيا وفى أفريقيا دوراً ليس مهماً وحسب ، بل دوراً ذا صلة شديدة بالأمم الغربية المسيحية . والذى يجمل للقرآن هذه الأهمية هو المستقبل المدخر للشعوب الإسلامية ، إذ لا ينكر أن مستقبلا فخماً ينتظر هذه الشعوب .

أما «محمد» فكان كريم الأخلاق حسن العشرة عذب الحديث صحيح الحكم صادق اللفظ

---

(١) ترجمة الأمير شكيب أرسلان : المنار ج ٥ م ٣٠ .

وقد كانت الصفات الغالبة عليه هي صحة الحكم وصراحة اللفظ والاقتناع التام بما يعمله ويقوله . وان طبيعة محمد الدينية تدهش كل باحث مدقق نزيه القصد بما يستجلي فيها من شدة الإخلاص ، فقد كان مصلحاً دينياً ذا عقيدة راسخة ، ولم يقم — إلا بعد أن تأمل كثيراً وبلغ سن الكمال — بهاتيك الدعوة العظيمة التي جعلته من أسطع أنوار الإنسانية في الدين .

ولقد جهل كثير من الناس محمد وبخسوه حقه . ولقد منح القرآن الذبائح البشرية والخمر والميسر ، وكان لهذه الاصلاحات تأثير غير مباشر متناه في الخلق ، بحيث ينبغي أن يعد محمد في صف أعاظم المحسنين للبشرية ؛ ان حكمة الصلاة خمس مرات في اليوم هي إبقاء الإنسان من الصباح إلى المساء تحت تأثير الديانة ليكون دائماً بعيداً عن الشر ، وحكمة الصيام تعويد المؤمن غلبته على شهوات الجسم ، وزيادة القوة الروحية في الإنسان ، وحكمة الحج هي توطيد الإخاء بين المؤمنين وتمكين الوحدة العربية ، فهذا هو البناء العظيم الذي وضع محمد أساسه وثبته وما زال ثابتاً بازاء عواصف الدهور[1] .

* * *

كما ذكر العلامة ليبي في مقدمة ترجمة القرآن لادوار مونتيه قوله : كان محمد (ص) أميناً وأعدل رجل ، وأن مرشد المسلمين هو القرآن وحده ، والقرآن ليس بكتاب ديني فقط ، بل كتاب علم وأدب ، وتجد فيه بيان الحياة السياسية والاجتماعية حتى انه يرشد الإنسان إلى وظائفه اليومية ، والأحكام الأساسية التي لا توجد في القرآن يوجد في السنة ، والتي لا تكون واضحة لا بالقرآن ولا بالسنة توجد في الفقه الواسع الذي هو علم الحقوق .

---

(١) جريدة لانفوس (باري) ١٧ أبريل سنة ١٩٢٧ .

٢ — القرآن : مارسيل كابل

القرآن كتاب موحى به وهو يفوق ما عرف من هذا النوع كثيراً ، فإن العقيدة الروحية التى بيّنها تصلح أن ينعكس نورها على الحياة الاجتماعية ، وهذا سر قوة الإسلام وسماحته ووحدته . والقرآن يحمل إلى الناس بدون سفسطات بيانية ولا إحتيالات غير طبيعية أصول العدالة والنظام الاجتماعى الذى يخضع كل فرد لمراعاة أدب الاجتماع وتعرضه على الجماعة حماية الأفراد . وليس فى الإسلام قسوس ولا ورهبان ولكن فيه شراحا ومفسرين لكتابه ، وكتابه قد نظم حدود حياة كل فرد وحياة المجموع . والقرآن لا يعنى كثيرا بالدعوة إلى التحاب لأن الحب عاطفة مستقبلة ، ولكنه يدعو إلى الحق والواجب ويحتفظ بالحب لله وحده ، وهو يعرض على الجماعة البشرية روحا اجتماعية ونظاما سليما من العلل ، ولا يوجد نظام اجتماعى سليم إلا بقدر ما يتعادل فيه حقوق الفرد على الجماعة وحقوق الجماعة على الفرد وفى نظر القرآن أن وجود طائفة موضوعة فوق الواجبات فى المجتمع وأخرى ملفوظة خارج دائرة الحقوق يعتبر إنكاراً صحيحا للعقد الاجتماعى المقرر(١) .

فلننظر إلى الروح الاجتماعية التى فرضها القرآن على أهله .

تأمل فى هذا كذا مليونا من الأنفس تدعى كل خمس مرات فى اليوم لأداء الصلاة فيجيبون داعيها ويتوجهون جميعا صوب مكة ويقرءون جميعا عبارات واحدة ويركعون ويسجدون جميعا على نحو واحد ، ويدينون جميعا بعقيدة واحدة وشريعة واحدة ، معترفين طرا بالعقد الاجتماعى الذى يربطهم ، وفى وسط هذه الوحدة اليومية الهائلة يشعر كل واحد بأنه تحت نظر الجميع لأن حارس العقيدة والشريعة والعقد الاجتماعى هو الرأى العام فى الإسلام والإسلام ليس بمملكة ولم يكنها قط حتى فى عهد عظمه الأولى ولكنه عقيدة وشريعة ووحدة اجتماعية .

---

(١) جريدة لأفليس أيارى ١٢ إبريل سنة ١٩٣٧ .

٣ — الدكتور شبلي شميل : القرآن والعمران

كتب اللورد كرومر فى كتابه « مصر الحديثة » أن القرآن هو العقبة الكؤود فى سبيل ارتقاء الأمم الإسلامية والمسئول عن تقهقرها .

وقد تصدى للرد على هذا الرأى كثيرون منهم فريد وجدى ومصطفى الغلاييني وقد اخترنا هنا رد الدكتور شبلي شميل أول داع إلى المذهب المادى فى العالم العربى ومصر .

قال الدكتور شميل : إن اللورد لم ينظر إلى القرآن إلا من خلال الذين وقفوا دونه ، ووقفوا به حيث أرادوا ، اللورد أخطأ والخطأ تسرب حكمه حيث قال أن شريعة القرآن لاتوافق الناس فى كل عصر ، وإن وافقته فى بعض العصور ونفس قوله هذا حجة عليه ، لأن العمران لا يتسامح مع شرائعه ، هل يعقل أن القرآن الطامح إلى أبعد المرامى الاجتماعية يكون قد أراد بمثل هذه القضايا أن يجعلها غلا فى عنق العمران ، وكيف لا يجوز حملها على محمل المجاز والاستعارة ولاسيما القرآن . أليس قيام نساء المسلمين فى أول عهد الإسلام يخطبن فى القوم حاسرات الوجوه أقوى دليل على أن مسألة الحجاب ليست من المسائل الجوهرية فى الدين ، أما مسألة تعدد الزوجات فهى ليست بالاعتراض الوجيه على القرآن ، لأنه منهى عنها صريحا فيه بفرض العدل فيها ، وهى والطلاق ليست فى الإسلام من المسائل الدينية التى يعقد بها الإجماع ولذلك لا يقيد بها حجة على القرآن ولا على سواه إذا تصرف الإنسان فيهما بحيث لاتوافقان مصلحة العمران .

مما تقدم نرى أن الدين نفسه ليس العقبة الحقيقية فى سبيل العمران ، والمنصف لا يسعه أن يلقى على القرآن تبعة تقهقر الأمم الإسلامية ، فإذا أرادت الأمم الإسلامية أن تجارى الأمم المتمدنة فى ارتقائها فالقرآن لا يحول دونها . ولا ينكر أن الدين يؤثر فى أخلاق الأمم التى تدين به ولكن هذا التأثير يجب أن يكون واحداً فى الجوهر لأنها جميعاً تصبو

إلى غاية واحدة هي إصلاح حال الإنسان في العمران ؛ ثم إن في القرآن أصولا اجتماعية عامة فيها من المرونة ما يجعلها صالحة للأخذ بها في كل زمان ومكان ، حتى في أمر النساء وأن القرآن فتح أمام البشر أبواب العمل للدنيا والآخرة ، ولترقية الروح والجسد بعد أن أوصد غيره من الأديان تلك الأبواب فقصر وطبقه البشرية على الزهد والتخلي عن هذا العالم الفاني .

٤ — رد شبهات ويلز عن القرآن

يقول مستر ويلز في كتابه : مختصر تاريخ العالم :

« وقد أملى محمد كتابا في الأوامر والقصص إسمه القرآن ، زاعما أنه أوحى به إليه من عند الله وإذا نظرنا إلى هذا القرآن من الناحية الأدبية والفلسفة كان غير جدير بنسبته إلى الإله .

ورد فريد وجدى على ذلك فقال :

إن أول ما يجب على مستر ويلز أن يدرس ما كان بين العرب من الأحوال الاجتماعية على ما طرأ عليهم بسبب هذا الدين ، وأن يدقق في معرفة الغايات التي قام عليها هذا الإجماع وما يحتمل أن تنادى إليه الجماعة بالاتجاه إليها ، مع عدم إغفال عوامل التطور المودعة في هذه التعاليم ، وما عسى أن توصل إليه ، وقيمة ما فيه من الآداب والوصايا وما يتوقع أن يفضى إليه بالسير عليها ، كل هذا أغفله مستر ويلز ، ولذلك لم يتبين له من أمر القرآن إلا ما تلقاه في المدرسة الأولية في أول حياته وهو أنه كتاب لاقيمة له وضعه رجل عربي لتقوم عليه قبائل بدوية . وهذا الضرب من التسرع في إصدار الأحكام ليس من الآداب العلمية في شيء ، إذا كان القرآن متى نظر إليه من الناحية الأدبية والفلسفية يظهر إنه غير جدير بنسبيته إلى الله ، فلا يوجد كتاب في العالم يستحق هذه التسمية ، ولو أنصف ويلز لقال : إن الإنسان ما كان ليستطيع أن يدرك الفوارق السببية المحسوسة بين الكلام

الإلهى فى روعته وسموه وروحانيته وبين الكلام البشرى فى نسبته وماديته إلا بعد نزول القرآن

ويدعى المستر ويلز أن القرآن من الناحية الأدبية والفلسفية غير جدير بنسبيته إلى الله ، وإنما يصح هذا لو كانت آدابه وفلسفته تنم عن قصور لا تتنزه عنه البشرية ، وقصر نظر ملازم لها . وخاصة فى عهد نزوله . فى بيئة لا عهد لها بعلم ولا فلسفة .

ماذا عسى أن يتخيل أرفع الناس خيالا من السمو الأدبى فوق قوله تعالى « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » وقوله « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » . فأنت ترى أن الإسلام يعنى كل العناية بقلب الإنسان ويوجه إليه كل اهتماماته ، وهل يستطيع مستمد أن يأتى فى باب العدل بما هو فى درجة قوله تعالى « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » .

ولو شئت استيعاب كل أمهات الآداب التى وردت فى القرآن ، وأريد منها نهاياتها البعيدة التى لم يصل لادراكها الإنسان إلا بعد أن بلغ من التطور العلمى والأدبى إلى الحد الذى وصل إليه فى هذه القرون الأخيرة لاستدعى ذلك سفراً كبيراً ، فإذا كانت هذه الأصول قد جاءت منثورة فى القرآن ، وكل منها مظهراً لعبقرية أدبية أو فلسفية أو علمية ، ليست فى رأى المستر ويلز ذات شأن يذكر فليس يوجد فى الكون كله شىء يذكر .

• — فريد وجدى : رد شبهات على القرآن الكريم

ردد المستشرقون عدداً من الشبهات حول الزيادة والنقص والتحريف فى القرآن وقد واجه فريد وجدى هذه الشبهات فقال :

إن مسألة الزيادة فى كتاب أو النقص منه لا يعقل أن يحصل فى كتاب كالقرآن تتعبد أمة برمتها بتلاوته وتصلى بآياته وتفصل فى جميع شئونها بأحكامه ومقرراته ، وليس لديها كتاب غيره ، ولم يوكل أمره إلى جماعة أو طبقة من الناس تتحكم فيه برأيها ، ولكنه كان حقا مشاعا للناس كافة يتولونه بالحفظ والرعاية ، فثل هذا الكتاب إن اعتراه تبديل أو تحريف كانت تتفرد نسخه أو تتخالف آياته ، ولا تستطيع أية حكومة مستبدة أن تبيد جميع ما يخالف هواها من صوره . وقد تداول الخلافة فى صدر الإسلام أربعة رجال أقروا كلهم صورة واحدة من القرآن ولم يرد عنهم أن بعضهم أبطل نسخ بعض ولا ورد عن آلاف الصحابة أن واحد منهم أبرز صورة زعم أنها أصح من غيرها . فهل تآمرت الأمة الإسلامية كلها على التسامح فى تحريف كتابها إلى هذا الحد ومكانه فيها كما عرفت .

وإذا وقع التحريف فى كتاب سماوى فلا يمكن أن يكون ذلك إلا بأربعة أسباب :

(١) ضياع أصل الكتاب ويمتنع هنا السبب ، فإن أصل القرآن كان مكتوبا ومحفوظاً فى دار النبى ، وكان مئات الناس يحفظونه فلما أريد جمعه أتوا بهذه المحفوظات وقابلها الكتاب بما حفظوه فى صدورهم وجعلوا ما كتبوه مصحفا .

(٢) أما امتناع السبب الثانى لتحريف القرآن وهو الغلو فى الدين فلا يحتاج لدليل فإن نصوص الكتاب تنطق صراحة بالنهى عن الغلو فى الدين .

(٣) السبب الثالث للتحريف هو النص على حصر السلطان الروحى فى طائفة معينة

من الأمة أو جعل الحكومة أوتوقراطية تحت تصرف رجال الدين ، وهذا السبب لا ظل له في الإسلام لأن الكتاب نص على خلافه في غير موضع منه ، فجاءت حكومة المسلمين ديمقراطية حرة ، وقال النبي : اسمع واطيع ولو لعبد حبشي في رأسه زبيبه — والإسلام لا يعترف بوجود طائفة من الأمة يجب أن يودع السلطان الروحي دون سائر الطوائف بل ليس في الإسلام سلطان روحي إلا للكتاب والسنة .

(٤) أما السبب الرابع لتحريف الكتب السماوية فهو تعمد إفساد الدين بالنقص في كتابه والزيادة فيه ، فهذا أكثر إمتناعا بالنسبة للقرآن الكريم من كل الأسباب السابقة فإن الذين جمعوه من المخطوطات وقابلوه على مخطوطاتهم كلهم من المشهود لهم بالتقوى والصلابة في الدين .

شبهات حول اللغة العربية

أثيرت حملات[1] ضخمة حول اللغة العربية ، وردد كثير من المبشرين والمستشرقين ودعاة التغريب شبهات كثيرة أبرزها :

(١) إن اللغة العربية غير وافية بحاجات العصر .

(٢) انها لغة ميتة كاللغة اللاتينية .

(٣) إنها لغة دينية .

وقد أثبت كثيرون فى أنحاء العالم العربى منهم المهندس ويلكوكس وولهلم سبتا والقاضى ويلمور ، فى مصر . وماسينون وكولان فى المغرب وجرت عن طريقهم الدعوة إلى اللهجات العامية ومحاولة إحلالها محل اللغه العربية ، واستبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية ، وإثارة الشبهات والغبار فى وجه اللغة العربية وتاريخها ومكانها وقدرتها على التطور واستيعاب ألفاظ الحضارة . وجرت فى العالم العربى وفى مصر محاولات متعدده للدعوة إلى العامية كتب بها بعض الفصول والقصص ، وكان معروفاً أن الهدف من حملات التغريب حول اللغة العربية هو القضاء عليها باعتبارها الرابطة الإسلامية بين الأمة العربية ولغة الثقافة العربية الإسلامية فى العالم الإسلامى كله باعتبار القرآن هو المقوم الأول لهذا الفكر .

وقد انكشفت هذه الغاية ، وبدت واضحة تماماً ، ولم تعد تخفى بعد المؤامرة الخفية التى من وراء هده الحملة على أحد . ويكاد ينعقد الإجماع حول أثر القرآن والإسلام على اللغة العربية ، يقول الدكتور عبد الكريم جرمانوس : ان فى الإسلام سنداً هاماً للغة العربية أبقى على روعتها وخلودها فلم تنل منها الأجيال المتعاقبة والعصور المتباينة واللهجات المختلفة

---

(١) اقرأ كتابنا (اللغة العربية بين حماتها وخصومها) وانظر كتابنا (القرآن واللغة العربية والإسلام) .

على نقيض ما حدث للغة القديمة المماثلة «اللاتينية» حيث انزوت تماماً بين جدران المعابد.

ويقول نولدكه : إن اللغة العربية لم تصر حقاً عالميا إلا بسبب القرآن والإسلام ، وقد وضع أمامنا علماء اللغه العرب باجتهادهم أبنية اللغة الكلاسيكية وكذلك مفرداتها فى حالة كمال تام ، وانه لا بد أن يزداد تعجب المرء من وفرة مفردات اللغة العربية ، عند ما يعرف أن علاقات المعيشة لدى العرب بسيطة جداً ، ولكنهم فى داخل هذه الدائرة يرمزون للفرق الدقيق فى المعنى بكلمة خاصة ، والعربية الكلاسيكية ليست غنية فقط بالمفردات ولكنها غنية أيضا بالصيغ النحوية ، وتهتم العربية بربط الجمل ببعضها ، ومن ميزة العربية الكبرى انه لا يغمص فيها أبداً على وجه التقريب ، أين تبدأ جملة الجواب ، ومحاولة التحديد الدقيق للزمن بإضافة ظروف أو أفعال مساعدة ، وهكذا أصبحت اللغة البدوية لغة للدين والمنتديات وشئون الحياة الرفيعة وفى شوارع المدينة ، ثم أصبحت لغة المعاملات والعلوم ، وإن كل مؤمن غالباً جداً ما يتلو يومياً فى الصلاة بعض أجزاء من القرآن ومعظم المسلمين العرب يفهمون بالطبع بعض ما يتلون أو يسمعون ، وهكذا كان لا بد أن يكون لهذا الكتاب من التأثير على لغة المنطقة المتسعة ما يكن لم لأى كتاب سواه فى العالم ، وكذلك يقابل لغة الدين ولغة العلماء ، الرجل العادى بكثرة ، ويؤدى إلى تغيير كثير من الكلمات والتعابير فى اللغة الشعبية إلى الصحة .

ويقول فيشجو : أن على العرب أن يقاوموا الدعايه المؤلمة التى تطالبهم بالتخلى عن شرفهم وتقاليدهم وآبائهم ، وأن لا يستسلموا إلى القوى المستعمرة ، وعلى العرب أن يتمسكوا بلغتهم ، تلك الأداة الخالصة من كل شائبة والتى نقلت الإنتاج الفكرى العالمى .

ويصف أرنست رينان عظمة اللغة العربية فى عبارة خلابة : فيقول :

إن أغرب ما وقع فى تاريخ البشر وصعب حل سره ، انتشار اللغة العربية ، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادىء ذى بدىء ؛ فبدأت فجأة فى غاية الكمال ، سلسة أى سلاسة ، غنية أى غنى ، كاملة بحيث لم يدخل عليها منذ يومنا هذا أى تعديل مهم ، فليس لها

طفولة ولا شيخوخة ، ظهرت لأول أمرها تامة مستحكمة ولم يمض على فتح الأندلس أكثر من خمسين سنة حتى اضطر رجال الكنيسة أن يترجموا صلواتهم باللغة العربية ليفهمها النصارى ، ومن أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القومية وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحارى ، عبر أمة من الرحل ، تلك اللغة التى فاقت اخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها ، وحسن نظام مبانيها ، وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم ومن يوم علمت ظهرت لنا فى حلل الكمال إلى درجة أنها لم تتغير أى تغيير يذكر ، حتى أنه لم يعرف لها فى كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة — » .

* * *

والواقع أنه فى مواجهة الاتهامات والشبهات التى توجه إلى اللغة العربية نستطيع أن نقول أن العربية بوصفها لغة عالمية ، ليست هى لغة الأمة العربية وحدها ولكنها لغة العالم الإسلامى ليس هذا مجرد تصور ، بل هو حقيقة قائمة ، قادرة على أن تدخل مرحلة التحقيق ، وفى ضوء القدرة البالغة ، والحيوية الدافقة ، لهذه اللغة ، وقدرتها فى مجال الفكر والثقافة العربية الإسلامية الواحدة الأساس ، تبدو هذه اللغة وهى عامل ضخم من عوامل الوحدة والتوحيد والالتقاء . وهذه الغاية قديمة متجددة منذ أخذ العالم الإسلامى (والأمة العربية جزء منه) تدخل فى مرحلة الوعى إلى بيانها ، وتعرف الوسيلة الكفيلة بدفع الروابط فيما بينها ، فالفكر فى قاعدته الأساسية هو اللغة . وليس هذا الهدف منبعث من العالم العربى ، بل من مختلف أجزاء العالم الإسلامى بوصفه عودة إلى الأصل قبل تمزق وحدتها قبيل الاستعمار الغربى ، وخاصة بالنسبة لمسلمى أفريقيا وآسيا وهم الذين كانت اللغة العربية قبل مستهل هذا القرن هى اللغة الأولى والأساسية لهم ، ثم استطاع الاستعمار والنفوذ الأجنبى إقصائها والتغلب عليها وإيقاف نموها ،

وتغليب لغته الأجنبية عليها من ناحية ،وتغليب اللهجات الاقليمية وإنمائها لتصبح «لغات محلية» ومع ذلك فقد ظلت « اللغة العربية » بوصفها لغة الفكر والدين والثقافة ، هى اللغة الأساسية الضرورية التى لا سبيل إلى التخلص منها .

ولقد كانت مختلف فنون الفكر العربى الإسلامى فى أجزاء العالم الإسلامى مكتوبة أساساً باللغة العربية ، وما تزال مؤلفات هذا الفكر التى تصدر حتى اليوم تكتب باللغة العربية . وما تزال اللغة العربية ذات فاعلية ضخمة فى مختلف لغات العالم الإسلامى على الإطلاق ، وهى وإن أصبحت لغة العالم العربى أساساً فهى بالحق مؤثرة ومتفاعلة مع مختلف اللغات فى العالم الإسلامى ذلك أن اللغة العربية سارت مع الدعوة الإسلامية منذ اليوم الأول إلى كل مكان بلغه الإسلام ، ثم لم تلبث بعض اللغات القومية ان استردت مكانتها فتوقفت فتوحات اللغة بينما ظل الإسلام ينتشر ومع ذلك فقد كان انتشار الإسلام انتشارا للغة العربية فى كل مكان وصل إليه باعتبارها لغة القرآن والثقافة . ومنذ بدأ الغزو الاستعمارى الغربى على العالم الإسلامى كان من أهم مقرراته ، إيقاف نمو اللغة العربية ووضع القيود والسدود أمامها وذلك بتغليب لغته على مختلف مناهج التعليم والبنوك والمحاكم ومختلف المعاملات ، ومن هنا قامت الثقافات القومية فى أغلب الأقطار على اللغات الوافدة ، كما حدث فى الهند وجنوب شرق آسيا وأفريقيا .

وقد دارت معركة مقاومة ضخمة فى هذه الأقطار دون الاستسلام للغة الغازية ، ولكن المعركة لم تلبث بفعل الاستعمار أن تحولت إلى الصراع بين لغة المستعمر وبين إيجاد لغة قومية وكان الغرم كله إلى اللغة العربية ذات النفوذ الأول والأساسى فهى التى تقهقرت .

ومن هنا توقف نمو اللغة العربية فى مختلف أقطار آسيا وأفريقيا غير العربية وزاد نفوذ اللغتين الانجليزية والفرنسية ، بل إن نفوذ اللغة الانجليزية قد زاد زيادة كبرى عما كان عليه فى أوائل هذا القرن وذلك نتيجة تجميد اللغة العربية واقصائها عن مجال التعليم .

ومن هنا كان نمو الإسلام واتساعه فى القرن التاسع عشر (الثالث عشر الهجرى) فى أفريقيا وآسيا وكسبه عدداً ضخماً من الملايين ، كان هذا النمو قاصراً على الإسلام وحده دون اللغة العربية التى لم تمد إلا لغة الخاصة ، الذين يعملون فى مجال الثقافة ، وان ظلت العربية بوصفها لغة القرآن مؤثرة كل التأثير فى ثقافات هذه الأمم ، ومعنى هذا انه إذا كان الاستعمار قد قطع الطريق على توسع اللغة العربية فإن الإسلام نفسه قد دعم هذه اللغة وحافظ عليها ، وفى ثلاث مجموعات كبيرة فى العالم الإسلامى اليوم تبدو اللغة العربية ضرورة أساسية لأن تكون اللغة الأولى وهى المجموعات المسلمة فى شبه القارة الهندية وجنوب شرق آسيا ووسط أفريقيا وغربيها . وإذا كانت اللغة العربية هى اللغة القومية لمائة مليون عربى ، فإنها لغة الفكر والدين، والثقافة لستمائة مليون ونصف مليون مسلم حسب آخر تعداد للمسلمين بحسبانها لسان القرآن والإسلام .

* * *

ويصور المستشرق « برون » أهمية اللغة العربية بالنسبة للمسلم حين يقول : نحن نختلف مع المسلمين فى كوننا نعتبر الانجيل انجيلا سواء أقرأناه فى اللغات الأصلية التى يكتب بها أم فى لغتنا الحالية ، أما المسلمون فيعتبرون «القرآن كلمة الله » وأنه تنزيل من رب العالمين ، وان الله هو الذى يخاطبهم منه وليس النبى محمد ، لذلك فإن القرآن لا يمكن ترجمته إلى لغة أخرى لأن المترجم مضطر أن يورد فى ترجمته قدراً من التفسير يستعين به على إظهار معانيه بالإضافة إلى ذلك فإن المسلم سواء أكان فارسياً أم تركياً أم هندياً أم أفغانياً ، أم من أهل الملايو فإنه يؤدى القرآن باللغة العربية ، يضاف إلى ذلك أننا نجد أن لغات الشعوب التى اعتنقت الإسلام قد غمرها منذ البداية سيل من الألفاظ العربية يتكون من العبارات الفنية المتعلقة بالدين والفقه .

ولو أن أحداً أراد أن يكتب شيئاً بالفارسية بحيث تكون كتابته خلواً من الألفاظ العربية لتعسر عليه الأمر ، كما يتعسر على الذى يريد أن يكتب شيئاً بالانجليزية بحيث تكون كتابته خالية من كل كلمة يرجع اشتقاقها إلى أصل يونانى أو لاتينى ، وقد حاول الأمير جلال مثل هذه المحاولة ولكنه باء بالفشل ، عندما كتب كتابه المسمى (خسروان نامه)

أى كتاب الملوك سنة ١٨٨٠ م والشاهنامة نفسها وقد ألفها الفردوسى منذ ألف سنة تقريبا وقصد متعمداً — كما تدلنا على ذلك المقارنة بينها وبين الشعر المعاصر لها — أن يصوغها فى أقدم العبارات والأساليب ، لا يستطيع أن يدعى أنها خالية من الألفاظ العربية كما يظن ذلك بعض الناس ممن لا قدرة لهم على التحقيق والتمحيص . . » .

وعلى هذا الضوء نرى كيف كان توقيف الاستعمار للغة العربية عن الانتشار فى أى مكان حل فيه ، إنما كان هادفا إلى الفصل بين العرب والمسلمين وبين العروبة والإسلام ، وبين لغة القرآن من أن تكون مصدرا أساسيا للثقافة العربية الإسلامية ومحاولة إقامة حدود بين هذه الثقافة الشاملة للعالم الإسلامى كله وبين الثقافات المحلية والقومية ، فضلا عن تعميق ثقافته الغربية بنشر لغته وبذلك يستطيع أن يفرض مفاهيمه الغربية على القيم الإنسانية الأساسية التى لها مفاهيمها الأصلية فى فكرنا العربى الإسلامى .

وفى عام ١٩٠٠ تقريبا كتب المبشر «زويمر» كبير دعاة التغريب فى كتابه «جزيرة العرب مهد الإسلام» يقول «يوجد لسانان لهما النصيب الأوفر فى ميدان الاستعمار المادى ومجال الدعوة إلى الله ، وهما الإنجليزى والعربى ، وهما الآن فى مسابقة وعناد لا نهاية لهما لفتح القارة السوداء مستودع النفوذ والمال ، يريد أن يلتهم كل منهما الآخر . وهما المضادان للقوتين المتنافستين فى طلب السيادة على العالم البشرى : أعنى الغرب والإسلام » .

ومفهوم هذا الكلام أن دعوة التغريب التى كان التبشير بعض طلائعها كانت تضع فى مخططها أساسا عن هدفين كبيرين :

الأول : توقيف اللغة العربية عن النمو فى العالم الإسلامى ، وأيضا توقيف نمو الإسلام نفسه . :

الثانى : القضاء على اللغة العربية فى العالم العربى وإحلال اللغات الأجنبية واللهجات العامية والحروف اللاتينية مكانها وعلينا أن نعرف إلى حد استطاع التغريب والنفوذ الاستعمارى أن يصل .

من خلال نافذة الأدب العربى حاول التغريب أن يلقى مزيداً من الشبهات ، والحق أن « الأدب » قطاع خطير ، واسع الآفاق ، منطلق غير مقيد ، ومن هنا استطاعت الشعوبية والتغريب أن تجدا فيه مجالا لكثير من الشبهات . ولقد كانت ألف ليلة والرباعيات وكتاب الأغانى من أبرز هذه الجوانب .

والواقع أن تحديد قطاع «الأدب» بالنسبة لدائرة «الفكر» أمر كان اهتمام كثير من الباحثين وذلك دفعاً لما أطلق عليه (فريد وجدى) : «خطر التداخل بين دوائر النشاط العقلى المختلفة . وكف عدوان بعضها عن بعض» يقول العلامة فريد وجدى فى هذا الصدد : للأدب إمتياز خطير منحه إياه العرف البشرى منذ نشأته ، ولا يزال يعترف له به إلى اليوم ، وهو تركه حراً يجول حيث شاء ويجرى وراء الخيال فى أية ناحية أراد ، فبينما نرى الناس واقفين بالمرصاد للفلاسفة والعلماء يحاسبونهم على الفتيل والقطمير فيما يقولون ويكتبون ، تراهم إزاء الأدباء على أتم ما يكونون من التسامح ، فهم يسيغون منهم كل المتناقضات ، جدهم وهزلهم ، تصوتهم وتهتكهم ، إعتدالهم وغلوهم ، حتى إلحادهم وكفرهم ، ولسنا نميل إلى الحد من هذه الحرية ، فإن هذا الضرب من الفن لا يمكنه أن يؤتى ثمراته إلا فى جو من الإطلاق المحض ، متحللا من جميع القيود الفلسفية والعلمية ، لأن من عناصره الخيال ، والخيال إن حد بحد ضاقت عليه المنادح ، وفقد أخص مزاياه فارتج على الأديب ولم يعد قادراً على الانتاج :

غير أن التواضع على بذل هذه الحرية للأدباء حشر إلى زمرتهم كل ثرثارة مغمور ، وكل متكلف مغرور ، وكل إباحى ومغرور ومتهور وعاهر ممن جعلوا الأدب مسرحاً لأخس الرعونات النفسية ، وداعياً إلى أحط الميول الشهوانية ، ولكن هذه الحرية نفسها كفيلة على مر الأيام بتهذيب الأدب وتنزيهه وإيصاله إلى كماله فى مقتبل الزمان .

ولما كانت الثمرات الأدبية لأنها مظهراً أعلى لما يتطلبه سحر البيان ، وفن الخيال ،

وحديث الحياة من الثمرات الشهية الخطرة التي يجب أن تتناول بحذر، وأى شىء من ثمرات الأفكار غير الأدب تجد نفسك مضطراً لأن تقف حياله ، تنظر ما يسمح به منه لأهلك وولدك ، وأى مؤلفات الخيال غير الأدب تستطيع أن تخرج ثلاثة أرباعه بضاعة زائفة ، ظاهرها أنيق وفى باطنها السم الذى لا يبقى ولا يذر ، دفع كاتبيه إلى تصيد الرزق بالتحلق لأخس شهوات النفس وتناسى التبعة الملقاة على عاتق كل لعوب بالقلم ، وإذا كان كلام لا يجوز أن يقرأ إلا بشىء من التحفظ ومراعاة جانب الخيـال والتلاعب بالألفاظ فيه فهو الأدب ..

وفى رأيى ورأى كل غيور أن الأدب يجب أن يخضع لقانون الأخلاق القائم على حراسة الإجتماع ، ولسنا ننسى ما جره تدخل الأدباء فى ما ليس من اختصاصهم فى السنوات [١] العشر الأخيرة فى المباحث الدينية،فقد تناولوها على طريقة الماديين وأثاروا فيها شكوكا لا محل لها منها ، ولو كانوا عنوا بدراستها دراسة علمية لما كان من أثر ذلك أن هاجوا الناس عليهم هياجاً مشروعاً،ومعنى ذلك إن الأدب لو تجاوز دائرة اختصاصه كان أداة شر فى أيدى محترفيه .

فما للأدباء وتحليل عاطفة الدين ، وكيف يرجى من أديب كل همه مصروف إلى تحليل عاطفة الهوى ، ودرس ثارات الجوى ، وتصوير وقع الوعود الكاذبة وفضول العذال واللاحين ، وعدوان المنافسين والماكسين ، أن يتناول بالبحث أعلى عواطف النفس ، وهى عاطفة الدين ، يمثل أسلوبه الذى مرن به عليه واستولى على شعوره ، وهى تستدعى أسلوباً يجافى ذلك الأسـلوب ، ولا يمت إليه بصلة من درس النفس فى حالة عزوفها عن الشهوات وترفعها عن الغرائز ، رأيناهم يثيرون شـكوكا لا تتجه إلى الدين الذى بين أيديهم ويجرون فى مبـاحثهم التاريخية والاجتماعية على غير الأسـلوب العلمى من التحقيق والتمحيص ، ولو أنهم تركوا هذه المباحث للاخصائيين فيها لـكان خيراً لهم ، ولـكن الوهم السائد اليوم من أن الأديب له أن يتناول بالبحث كل شىء ، هو الذى يورطهم فى بحوث لو وجدت نقاداً أقوياء لألحقوا بمكانتهم الأدبية ضرراً بليغاً ، ومن الأمثلة الغريبـة على ذلك ، إن واحداً [٢] من الأدباء انتدب لالقاء محاضرات عن الأدب فى العصر الأموى

---

(١) كتب هذا البحث عام ١٩٣٢ (الأهرام) .

(٢) يقصد الدكتور طه حسين .

فكان مما قاله أن الخليفة الوليد بن يزيد إنما قتل لأنه كان يود أن يعيش على ما يقتضيه فن الحضارة ، فكان جزاؤه أن لقى حتفه ، فإيراد التاريخ على هذا الوجه جناية على التاريخ وعلى حقائق الاجتماع ، ويشين الدين الذى ينتمى هذا الخليفة إليه ، ويسىء سمعة الشعب الذى ينزل هذا العقاب الوحشى برجل لا جناح عليه إلا أنه يريد أن يعيش عيشة حضرية ، فالذين لم يدرسوا تاريخ بنى أمية دراسة علمية يصدقون هذا الحديث ويستنكرون ما حدث له ويحكمون على شعبه بأنه وحشى جاهل ، وعلى الدين الذى يأخذ به على أنه خشن قاس ، والحقيقة أن الوليد كان متجرداً للهو والبطالة ، شغوفاً بالفسوق والإباحة ، مستخفاً بالدين مجاهراً بالكفر .

فهل هذه السيرة المعوجة من إهمال الرعية والانقطاع للهو والقصف والفجور ، تعتبر من مقتضيات الحضارة ، وقد استطرد إلى ذكر الأمين بن هارون الرشيد فقرنه إلى الوليد فى أنه ذهب هو أيضاً شهيداً لإيثاره الحياة الحضرية ، والواقع أن الأمين هذا كان على مثال الوليد من التجرد للهو والفجور وتعطيل مهام الخلافة ، فهل فى حياة الحضارة أن يهمل الخليفة واجبات الحكومة وينغمس فى حمأة الرذائل ، ويذهب فى الاستخفاف بالأمة هذا المذهب . إن التاريخ الاجتماعى لأمة كالأمة الإسلامية بلغت إلى أوج العظمة الاجتماعية فى جميع ضروب الحياة الفاضلة ، وحفظت تراث العالم من العلم والحكمة والمدنية قروناً متوالية حتى أصبحت معلمة العالم لا يصح أن يورد على أسلوب قصصى من هذا النوع ، فهذا الكلام ، إن لم يكن قد سبق به على هذا الوجه بقصد الإساءة لتاريخ المسلمين الاجتماعى فهو يدل على خلو من روح التحقيق العلمى ويقيم دليلا محسوساً على صحة ما نقول من أن الأدب لا يجوز له أن يعدو طوره وأن يتدخل فيما ليس من اختصاصه من المباحث الاجتماعية والدينية. » ا . ه

* * *

٢ — وقد حاول كثير من الأدباء الدفاع عن الإباحية فى الأدب بوصفها منهجاً من مناهج الأدب ، ومن هنا استطاعت الشعوبية والتغريب أن تنسل باسم المذاهب العلمية لترويج الدعوة إلى المفاهيم المتصلة بالجنس والمجون والإباحة وظهرت ألوان من القصص تكشف خفايا العورات ، وتغض من شأن الخلق والفضيلة وتصفها بأنها تورث الكبت ، ومن هنا وجد الأدب الهدام طريقة تحت اسم مذاهب فنية أو دراسات علمية ، ومن هنا اهتزت مقاييس الخير والشر ودعى إلى وصفها بالفردية ، وبدأت نظرة إلى إعادة الرأى فى المواريث الخليقة والاجتماعية .

وقد واجه هذه الشبهات كثير من الكتاب والباحثين ، من هؤلاء أحمد خاكى الذى يقول ان للجماعة أصولا عامة يجب أن يكون الفن إحدى دعائمها ، والفن يجمع نواحيه دعوة عامة للخلق ، وقد ثار تولستوى بآيات الفن التى تحدرت من ثقافة أوربا ، وكل فكرة فنية لا تستقيم مع الشعور الدينى فهى عند تولستوى . ليست فناً أصيلا .

١ — نماذج من الشبهات

كتابان يعتمد عليهم الأساتذة والباحثون والكتاب وخاصة أساتذة الجامعات فى العالم العربى هما :

(١) تاريخ الأدب العربى لنيكلسون .

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان .

بينما يضم كل من هذين الكتابين الكثير من الشبهات وقد حاول غير واحد من الباحثين التصدى لأخطاء هذين الكتابين وغيرهما .

(١) يقول نيكلسون : فى كتابه تاريخ الأدب العربى[1] « وقد حدث كثير من التغيير فى الشعر الجاهلى بسبب الاسلام ، خذ مثلا كلمة « الله » فإنها حلت فى كثير من الأحيان بدل كلمة « اللات » المعبود الوثنى » .

---

(١) ص ١٣٤ طبعة عام ١٩٥٦ .

وقد رد عليه الأستاذ عمر الدسوقي[1] فقال : معنى هذا فى رأيه أن عرب الجاهلية لم يعرفوا كلمة الله . وأنها دخلت الشعر الجاهلى بتأثير الاسلام ، وهذا لعمرى من الزالق الخطيرة التى وقع فيها نيكلسون ، ولقد رد على نفسه بعد أسطار قليلة حيث قال : ولم يكن للدين سوى أثر ضئيل فى حياة عرب الجاهلية ولا ينتظر أن تجد له أثراً كبيراً فى الشعر الجاهلى ، لقد كانوا يعتقدون اعتقادا غامضا فى إله عظيم هو الله وبناته الثلاث : اللات ومناة والعزى التى ساد تقديسها كل الجزيرة العربية والتى كانت شفاعتها مقبولة لدى الله .

* * *

ومن الزالق التى وقع فيها نيكلسون ما ورد من قوله : ومن المؤكد أنه قد شارك قومه قبل الرسالة عبادة الأصنام وقد اعترف هو بذلك (ووجدك ضالا فهدى) أما كيف ومتى ارتد عن عبادة الأوثان فسؤال لا يمكن الإجابة عليه . ولكن من الطبيعى الظن إن أمر نتيجة قد سبقتها فترة طويلة من القلق وعدم النضج .

ولا شك أن هذا القول من أخطاء القصور فى الفهم والتحقيق ، فان الوثائق والأسانيد والأدلة كلها تؤكد أن الرسول لم يشارك أهل مكة فى هذه العبادات الوثنية ، وأن معنى « ووجدك ضالا فهدى » الآية القرآنية فمعنى اتجاه النبى إلى دين ابراهيم وأنه كان فى هذه الفترة يتطلع إلى هداية الله وتدحض هذا الخطأ الحقيقة المؤكدة من أن النبى أقام سنوات يعتكف فى غار حراء قبل أن يتلقى الرسالة .

(٢) يقول مسيو مرسيه وبعض المستشرقين : إن العرب لم يعرفوا النثر الفنى معرفة معرفة ذاتية وإنما نقلوا طرائقه عن الفرس واليونان ، ويرى مرسيه أن ابن المقفع هو أول كاتب فى اللغة العربية ، ويذهب إلى أن العرب لم يكونوا يعرفون من النثر غير الخطب وأسجاع الكهان ويعلل ذلك بأنهم كانوا يحيون حياة أولية بدائية وهى لا تقتضى نثراً فنيا ، لأن النثر الفنى لغة العقل والثقافة ، وإنما يلائمها الشعر لأنه لغة العاطفة والخيال ، وقد تابعه فى هذا الدكتور زكى مبارك فى كتابه النثر الفنى .

ويواجه الدكتور أحمد الحوفى هذه القصة فيقول : إن القرآن الكريم هو المعجزة العظمى فى البيان العربى ، حتى أن الذين لم يسلموا آمنوا بأن القرآن طراز من البلاغة

(١) الرسالة — ١١ فبراير ١٩٦٥ .

لا طاقة لهم بمثله . وإذ كان القرآن ذروة البيان العربى ونزل بلسان عربى مبين فإنه من الطبيعى ن يكون العرب مثل الاسلام قد مارسوا النثر الفنى ممارسة أعدتهم لأن يخاطبوا بالقرآن الكريم ، ثم أن الله تحداهم فى عبارات قارعة مجرحة أن يأتوا بسورة من مثله . فعجزوا ، ولو لم يكن القرآن من جنس بيانهم الذى عرفوه والقوة ما تحداهم هذا التحدى

(٣) يقول كارل بركلمان فى مجرى حديثه عن الرسول :

(١) ولكنه على ما يظهر اعترف فى السنوات الأولى بآلهة الكعبة الثلاث اللواتى كان مواطنوه يعتبرونها بنات الله . وقد أشار إليهم فى إحدى الآيات الموحاة إليه تلك الغرانيق العلى وأن شفاعتهن لترتجى .

(تاريخ الشعوب الإسلامية الجزء الأول ص ٣٧)

(٢) وليس شك أن معرفة عادة الكتاب المقدس كانت سطحية إلى أبعد الحدود وحافلة بالأخطاء ، وقد يكون مدينا ببعض هذه الأخطاء للأساطير اليهودية التى يحفل بها القصص التلمودى ولكنه مدين بذلك دينا أكبر المعلمين المسيحيين الذين عرفوه بإنجيل الطفولة وحديث أهل الكهف السبعة وحديث الإسكندر وغيرها .

(ج ٢ ص ٤٣ من نفس المصدر)

يعتبر النبى مشركا ، فى السنوات الأولى من تعبه والقرآن من تأليفه وجماعة آخرين من جزيرة العرب وخارجها ، وسجل فى القرآن آية لم يعرفها النبى (الرد)

* * *

ولا شك أن هذه الشبهات قد رددها أغلب المستشرقين والمبشرين والشعوبيين وهى شبهات لا دليل عليها ، أما قصة الغرانيق فهى باطلة أصلا ومن دسائس الاسرائيليات ، أما أن يكون فى القرآن مايشابه ،مافى التوراةفهذا طبيعى ، فان الاسلام صادر واليهودية عن أصل واحد ، هو دين ابراهيم ، وأن مصدر القرآنهو نفس مصدر التوراة « الأصلية » أىأنه من عند الله ، أما أن القرآن من تأليفه أو تأليف غيره فهذا من الاتهامات المكذوبة وعليها عشرات الادلة التى تدحضها ، ولا شك أن اعتماد هذه المؤلفات فى بعض الجامعات والمعاهد كمصادر لدراسة الاسلام يلجأ إليها الأساتذة والباحثين هى من أخطر ما يواجه الفكر العربى الاسلامى .

٧ — ألف ليلة ، الأغانى ، الرباعيات

ردد المستشرقون كثيراً من الشبهات حول كتاب ألف ليلة وحاولوا اعتباره ممثلا لحياة العالم الإسلامى ، وقد ثبت أن بعض المرسلين الأجانب فى بيروت هم الذين أعادوا طبعه عام ١٨٨٨ وحفلوا بنشره ، وتوالت نشره أعمال عن طريق دور النشر الموجهة من الاستعمار والنفوذ الغربى . ثم جرت أبحاث متعددة محاولة تصوير القصص الذى يضمه ألف ليلة بأنه يصور حياة العرب أو المسلمين بصفة عامة ، بينما أن أقل مراجعه لمصادر ألف ليلة تكشف عن أن قصصها مأخوذة من المراجع الإيرانية قبل الإسلام وأنها لا تمثل بحال مفاهيم الفكر العربى الإسلامى ، وأنها قد نقلت إلى العربية للتسلية ، وقد تأثر الإيرانيون فيها بأساليب الهنود القدماء ، وأنها فى الأغلب مجموعة أساطير هندية بدأت بحكايات السباع الضوارى ، والمرجع الأول لها « هزار أفسانه » بالفارسية ومعناه ألف رواية ، وقيل أن الجشهارى هو الذى ترجمها إلى العربية ، وقد حكى المؤرخ الكبير المسعودى المتوفى ٩٥٦ م (القرن الثالث الهجرى) فى كتابه « مروج الذهب » عن وجود كتاب قديم بالفارسية أو بالبهلوية يحكى عن ملك وعن بنت وزيره «شهرزاد » « وخادمتها » دين زاد ، وكذلك أشار النديم مؤلف الفهرست المتوفى ٩٠٥ م عن كتاب ألف ليلة مجملا ، وقال أنه كتاب الحماقة والسيئات . وأشار إليه المؤرخ القرطبى وقد كانت كل إشارات الكتاب والمؤرخين العرب والمسلمين إليه إشارات مقبحة وعلى أنه مصدر ساقط فى أنظار الهيئات وعلماء العرب على حد عبارة الدكتور سنيتى كارجترجى[1] .

ومعنى هذا أن كتاب ألف ليلة أصلا كان سابقاً للاسلام وأن مصدره أساطير هندية وفارسية ، وقد ظل العرب يتناقلونه بعد ترجمته كوسيلة من وسائل التسلية ، ويضيفوا إليه حكايات جديدة ، كما أضيفت إليه فى العهود المختلفة وآخرها عهد دولة المماليك مسامرات أهل بغداد والقاهرة ، فهو مجموعة من أساطير فارسية وتركية وهندية ، ومن هنا يمكن تقدير الموقف حين يراد به أن يكون مرجعاً من مراجع دراسة حياة المجتمع الإسلامى ، بل المرجع الوحيد الذى اعتمد عليه كثير من المستشرقين والباحثين من تلاميذهم فى محاولة لرسم صورة غير حقيقية .

(١) مجلة ثقافة الهند (يناير ١٩٦٢) .

وقد أشار الدكتور ستيني كارجرجي إلى أن الحكايات الأصلية الواردة فى كتاب ألف ليلة هى التى تكون فى منزلتها أساسية ، هذه الحكايات كانت مستعارة من الهند بواسطة الفرس » .

وعندنا أنه مهما تكن صورة الحياة التى ترسمها ألف ليلة فهى ليست الصورة التى رسمها المجتمع الإسلامى ، والمرأة التى تصورها ألف ليلة ليست قطعاً المرأة العربية أو المسلمة ، فقد غيّر الإسلام نظرة المرأة إلى الحياة ووافعها تماماً ، فلم تكن أداة جنس ، أو مصدر غايات حسية إلا فى مفاهيم المجتمع الجاهلى أو الوثنى ، وحتى بعد أن اضطربت الحياة السياسية فى العالم الإسلامى فقد ظل هناك فارق واضح وحاجز كبير بين ما كانوا يسمونه « الثانية » وبنت الأصول .

والواقع أن الأدب العربى يحوى عدداً من مثل كتاب ألف ليلة كالأغانى وكتب المحاضرات والمسامرات ، وهذه كلها كتب لم تكتب أساساً للتاريخ وإنما لجمع الأسمار وقصص الظرفاء والقدماء .

ولذلك لا يمكن أن تصبح مصدراً تاريخياً ، بل مصدراً تاريخياً وحيداً كما يحاول الشعوبيون ودعاة التغريب ، ولا مانع من أن نعين الباحث على استخلاص صورة قطاع من المجتمع هو قطاع المترفين وأصحاب القصور وهم طائفة قليلة لا يمثلون المجتمع كله ، ولا شك قد أثيرت حول الرواة والقصاص شبهات كثيرة تتعلق بأخلاقهم وضمائرهم وبإضافاتهم التى تتجاوز الحق .

وأعتقد أنه قد صار فى اعتبار الباحثين منذ وقت بعيد أن كتب الأدب التى يقصد بها عادة إلى الفكاهة والسمر وكتب المحاضرات لا يجرؤ باحث وعالم على أن يعتبرها ميزاناً يوزن به رجال التاريخ أو يؤخذ منه تراجم العظماء ، أو ترسم منه صورة الحياة الاجتماعية للأمم . وإذا كان مفهوم التاريخ فى أحدث مذاهبه هو إعتبار الوثائق مشكوك فيها وباطلة أساساً حتى يثبت صحتها ، فما القول فى هذه الصور الأدبية المروية بغير توثيق أكيد ومن خلال أسماء كلها موضع التجريح والاتهام فى سلامة خلقها أو إيمانها بالتحقيق العلمى أو اتصالها بالشعوبيين أو الباطنية أو الزنادقة .

وإذا كان كتاب الأغانى يقصر حياة الترف والمجون على طبقة معينة أو مجموعات

من الناس فإنه أقل خطراً من كتاب ألف ليلة الذى يصور المجتمع كله على هذا النحو من الانحراف والتحلل . وقد كان لألف ليلة أثر جد مرير فى رسم صورة مشوهة عن المجتمع العربى الإسلامى ، وقد أضاف المترجمون الغربيون إلى بشاعة الصورة التى يحملها الكتاب إضافات زادته فساداً فقد أشار (غالان) المستشرق الفرنسى الذى ترجم ألف ليلة لأول مرة عام ١٧٠٤م بأنه « فرنج » الكتاب ليلائم ذوق قرائه ، وأنه ركز صوره على رفاهية الشرق وترفه ، ورسم صورة الشرق الحيوانى .

وكان من نتيجة ذلك أن كتب كثيرون فى مقدمتهم المشرق (اين) كتاباً عن المجتمع الإسلامى اعتماداً على ألف ليلة ، وأشار ريتشرد بيرتون (الإنجليزى) فى مقدمة ترجمته أنها ترجمة تهدف إلى أن يتعرف أهل موطنه بما فيه الكفاية على طباع المسلمين وعاداتهم وأخلاقهم ليكون لديهم الحنكة الضرورية ليحكموا المسلمين الواقعين ضمن امبراطوريتهم[١] .

* * *

وقد تابعت بالبحث تطور إعادة ألف ليلة منذ أوائل هـذا القرن فوجدت أن اليسوعيين فى بيروت هم أول من أعادوا طبعها وتابعتهم فى ذلك دار الهلال فى مصر ١٩٠١ ومن عجب أن مجلة الهلال (يونيو ١٩٠٣) تذكر أن ألف ليلة « تمثل أحوال العصور الإسلامية الوسطى وتمثل عادات أهلها على اختلاف طبقاتهم مع بيان أخلاقهم ، وأدبهم فى مجالسهم ، وأحاديثهم » ولا شك أن جرجى زيدان كان جارياً فى هذه الشبهة مع دعوة التغريب كما عرف عنه فى مختلف كتاباته فى أدب العرب ، والتمدن الإسلامى ، وقد أشار الدكتور صروف إلى مدى إهتمام المرسلين به فقال (يوليو ١٨٨٨ ـ المقتطف) هذا الكتاب أشهر من نار على علم ، ولذلك طبع فى مطابع مصر والشام وراجت بضاعته ولم يدر فى خلدنا أن الخزويت يزاحمون أبناء البلاد على طبعه واكتساب أرباحه وهم يدعون أنهم إنما أتوا البلاد لتطوير أهلها وتحسين أحوالهم ، ألم يكن الأولى بهم أن يطبعوا لهم كتاباً فى الطبيعيات أو الكيمياء أو الصناعة أو الفلاحة ، أو نحو ذلك من العلوم والفنون .

ولا يقف الدكتور صروف عند هذا الحد ، ويعلم أنه ليس اكتساب الربح وحده هو هدف طبع هذا الكتاب ونشره ، بل يقول « ولو أننا نحب أن يظن الناس خيراً لقلنا

(١) اقرأ فصلا عن ألف ليلة فى كتابنا (الثقافة العربية المعاصرة فى معركة التغريب والشعوبية) .

أن هذا الكتاب وأمثاله من كتب الأدب ما اعتنى أولئك الأدباء بنشرها إلا ليزاحموا أبناء البلاد عليها ويسبقوهم إلى الربح منها ويلهو بها القراء من أهل الوطن عن طلب ما ينفعهم نفعاً حقيقياً، كما أدلى المرسلون فى بيروت اهتمامهم بالأغانى فقد عنى الأب أنطون صالحانى فى ديسمبر ١٩٠٩ باستخراج ما فى روايات الأغانى وعلق عليها حواشى . وأصدرها فى كتاب باسم « رنات المثالث والمثانى فى روايات الأغانى » .

• • •

أما رباعيات الخيام[1] فقد تردد أنها مدخولة على عمر الخيام فلقد أعطيت هذه الرباعيات أهمية غير عادية ، وحمل الإنجليز لواءها، فنشروا هذه الرباعيات إلى أوسع، وترجموها، وخلقوا جوا من التنافس بين الأدباء فى ترجمتها والحق إنه لم يعرف فى ترجمة الخيام أنه شاعر، بل عرف فى تاريخه المدون بأنه رجل رياضى عالمى ، برز فى الفلك والرياضيات والجبر ، ويبدو أن هذه الرباعيات المنسوبة إليه لم تظهر إلا بعد أن انقضى أكثر من قرنين على وفاته ، بدت قليلة ، ثم أخذ حجمها يتزايد مع الزمن على حد قول الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده ، الذى قال أنه ليس لدينا ما يثبت نسبتها للخيام إثباتاً يقيناً .

وقال الدكتور أبو ريده: « أنه نظراً لأن المؤرخين المعاصرين لم يذكروا للخيام رباعيات فان من العلماء من يشك بحق فى نسبة الرباعيات إليه، ولا أحد منهم أشهر غلواً فى حكمه من المشرق الألمانى (هـ.شيدر) فى بحث ألقاه فى مؤتمر المشرقين بمدينة (بن) بألمانيا عام ١٩٤٣ ويعتمد شيدر على رأى معاصرى الخيام فيه وصمتهم عن إمر الرباعيات وعلى التراجم التى كتبت عنه فى تتابعها التاريخى ، ويستند فوق ذلك إلى ما مؤلفات الخيام العلمية المعروفة من روح اليقين العلمى ، فيرى ذلك معارضا كل المعارضة لما فى الرباعيات ويذكر بذلك كل علاقة بين الرباعيات وبين الخيام . ويعد الخيام من كبار المتمكنين فى العلم الإسلامى ومن ممثلى العلم الحر ، ويلاحظ أن الهجوم على الخيام بدأ من دوائر الصوفية فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى والسابع الهجرى . . . وقال أن ما ذكر من وسم الخيام بالإلحاد والزندقة ليست من ترجمة الخيام فى شىء ويصل القول بأن الخيام التاريخى يجب أن يمحى إسمه من الشعر الفارسى .

---

(١) اقرأ فصلا كاملا عنها فى كتابنا (الثقافة العربية المعاصرة) .

٣ — القصة

القصة فن من فنون الأدب الانسانى ، وهى ليست حديثة فى الأدب العربى ؛ بل قديمة وتتمثل فى عشرات من القصص العربية القديمة . وفى العصر الحديث عند ما بدأ الأدب العربى يقظته ، كان لا بد أن تبرز فن القصة مترجماً أول الأمر من اللغات الأوربية ، ثم مؤلفاً .وقد بدأت الترجمة بمنذوقت باكر ، فى ظل المؤثرات والضغوط التى فرضها نفوذ الفكر الغربى على الأدب العربى الحديث ، ومن هنا فقد تطورت الترجمة من الاتجاه العلمى الذى بدأه « رفاعة الطهطاوى » إلى ترجمـة القصص الفرنسية المكشوفة ، وشارك فى هذا الاتجاه كثير من الصحفيين السوريين ، ثم شارك فيها الدكتور طه حسين حيث عنى بالقصص المكشوف ونشر فصولا متوالية فى جريدة السياسـة سنة ١٩٢٣ .

وقد شهد مستر «جب» بأن القصص التى ترجمت إلى اللغة العربية فى هذه الفترةلم يراع فى اختبارها حالة مصر الاجتماعية ولا حالة الثقافة العامة ولا الذوق الأدبى للبلاد [١] . وقد أشار المازنى إلى مدى خطر اتجاه طه حسين فى ترجمة القصة الفرنسية المكشوفة حين قال : إنما كان همه مدح الخيانه والاعتذار للخونة وتصوير الخلاعة والمجون فى صورة جذابة ليقضى بهذه الترجمة حق الاباحة لاحق اللغة ولا حق الفضيلة ، وكان شعار طه حسين فى هذه القصص أنه يقدمها إلى « من خلـق الله لهم عقولا تجد فى الشك لذة والقلق والاضطراب رضا » .

بذلك تحول هدف ترجمة القصة من الثقافة إلى التسلية ، وبذلك قدم نجيب الحداد ونقولا الحداد والياس فياض وطانيوس عبده والياس فيـاض وخليل بيدس وغيرهم قصصاً

---

(١) يراجع كتابينا (الفكر العربى المعاصر) و (والثقافة العربية المعاصرة فى معركة التغريب والشعوب) .

اختاروها مليئة بروح الإثارة للطبقات المتوسطة وكان نوع القصص نازلا وأسلوبها ركيكا ، وكان هدف التغريب من وراءها الإثارة ، وتعمد تدمير القيم فى النفس العربية ، وقد عجز هؤلاء عن ترجمة الروايات العالمية الممتازة لضعفهم فى الترجمة ، ولرغبتهم فى إرضاء غرائز الجماهير ، ثم كانت صيحات جب وغيره الداعية إلى إنشاء القصة المصرية أو العربية الحديثة التى لم يكن فى أول أمرها إلا قصصاً غربية مترجمة ، غيرت فيها الأسماء والأماكن وبقيت كما هى تصور مجتمعا غريباً عن مجتمعنا . ومن عجب أن هذا الاتجاه ما زال مستمرا . وقد أشار جب إلى خطر بعيد المدى فى طريق القصة المصرية ذلك هو :

« إن المجتمع متى بقى تطوره وتقدمه محصوراً فى المبادىء الإسلامية أو فى التقاليد التى كانت أثراً لهذه المبادىء فإن ذلك سيحول دون ظهور القصة الحديثة » ومعنى هذا هو أن القصة لا توجد إلا فى مجتمع مختلط ، تقع فيه الأزمات وعمليات الصراع بين الرجل والمرأة . فقد كانت القصة فى عرف الفكر الغربى هى علاقة ما بين الرجل والمرأة ، تتم فى ظل الغرائز ودوافع العاطفة وتجرى إلى نهايتها دون أن تقف فى وجهها حدود أو قيم . ويبدو هذا واضحاً فى طابع القصة الحديثة المكتوبة باللغةالعربيه على العموم ، حيث لا ترى فى الأغلب مشاعر نابعة أساساً من مجتمعنا ، وإنما تجد مشاعر غربية ، فكل المشاكل والأزمات والقضايا التى تعرضها القصة العربية الحديثة بعيدة جداً فى التماس حلولها فى مقومات فكرنا العربى الإسلامى الأصيل ، وإنما تستمد حلولها من طبائع أخرى مختلفة كل الاختلاف عن طبيعة النفس العربية الأصيلة . فالحياة الإنسانية لها فى عالمنا العربى الإسلامى طابع يختلف اختلافاً بيناً عن الحياة فى الغرب ، فالعقلية العربية الإسلامية عقلية توحيدية لا تسرف فى الفلسفة ولا تسرف فى التصوف ولا تسرف فى الإباحة ، وليست الخيانة فيه طابعاً ولاظاهرة ، ومن هنا كانت مصادمتها للواقع حين تعرض القضايا التى ليست من مجتمعنا أو الحلول التى ليست من طوابع فكرنا ، فضلا عن أن رغبة التسلية وإزجاء الفراغ قد

حالت بينها وبين هدف التسامى . ويرجع ذلك فى الأغلب إلى أن هذه القصص تترجم أولا ثم تحول إلى قصص عربية بتغيير الأسماء والأماكن ووضع بعض التوابل .

ومن الخطأ — على حد تعبير زكى مبارك — أن يقاس أدبنا على أدب الانجليز والفرنسيس أو الألمان ، وإنما يقاس الأدب على مزاج الأمم التى تصدر عنها يقول : «وملاك الأمر أن يعبر الأدب عن عقول أهله وأحلامهم وشهواتهم وما يجرى فى خواطرهم ، ونحن أحفاد العرب وأسباطهم ، من واجبنا أن ننظر إلى ماضيهم حين نفكر فى حاضرنا ، وقد كان العرب تكفيهم اللمحة والإشارة فى أشعارهم ورسائلهم حتى عرفوا بين الأمم بقوة الإيحاء » .

ولا شك يختلف طابع القصة العربية عن القصة الغربية التى استمدت مصدرها الاول من الفن الوثنى ، وأدب الثلوج وتمجيد الأبطال الخرافيين ، وفى المناطق الباردة كان طابع الكشف والجنس أكثر بروزاً ، بينما لا يوجد هذا فى الشرق ، ذى الشمس المشرقة .

ولا توجد فى مجتمعنا مشاكل المجتمع الغربى الفردى ، ولا تستطيع النماذج الذى نقدمها قصص دافيد كوبرفيلد لدكنز ، أو البؤساء لهيجو وتاييس لأناتول فرانس أو غيرها أن توجد فى مجتمعنا ، وما تزال القصة الغربية خلال السنوات المتوالية منذ الحرب العالمية الأولى واقعة تحت عوامل الذعر من الحروب والذرة ، وما يتصل بانهيار روابط الزواج والأسرة وانتشار ثقافات الإباحة . وأعتقد أن مراجعة شاملة للقصة الغربية تكشف عن خلاف جذرى بين صورة المجتمع العربى ومشاكله وحلول القصة لهذه المشاكل ، ولو وضعت هذه الصورة والمشاكل والحلول فى ضوء العقل العربى لأنكرها إنكاراً واضحاً .

وفى أحدث كتاب عن القصة الغربية Ouvale Roman لبودفور يذكر كيف قامت حركة تحرير الأدب من سلطان الأخلاق ، وإعطاء الكاتب الحق فى الاستقلال عن نواميس الأخلاق الشاملة ، مما دفع الأدب إلى إطلاق الوجدانات والعواطف من عقالها وظهر على أثر ذلك الدادا والسريالية ، التى أزالت ألوان الحرام الاجتماعية والأخلاقية ،

وكيف فتح « فرويد » مجالا هائلا من اللاشعور ، وكيف عاش جيل الثلاثين بصور الأشخاص فى صراع مع القدر الاجتماعى ، ثم برز طابع البطل المغامر المتمرد المنشىء ، ثم كانت تجربة اليأس والقلق واللامعقول بعد الحرب العالمية الثانية ، وكيف قاد سارتر وكامى هذا التيار فالإنسان لا فائدة فى حياته ، وما هو إلا ميت تأجل تنفيذ حكم الموت عليه ولا أمل فى إنقاذه ، والعالم لم تعد ثمة ضرورة لوجوده ، إنه لا معقول وأينما وجه المرء نظره ألفى اللامعقول . ومداه عدم اللغة تقديره النفس الإنسانية » .

ولا شك أن هذه الصورة تختلف إختلافاً واضحاً عن صورة النفس العربية وعن القيم الإنسانية للفكر العربى الذى التى تؤمن إيماناً قوياً بالتوحيد وسيادة الإنسان تحت حكم الله وإيجابية النظرة إلى الحياة ، وحيث تجد فى تراث فكرها الغزير الإيجابى الحى القادر على الحركة والواضح التقدمية حلولا لكل ما يواجهها من مشاكل بعيدة عن العدم والضياع واللامعقول .

٤ - الفلسفة الإسلامية فى مواجهة اليونانيات

هناك شبهة ضخمة ودعوى عريضة تقول: أن التراث اليونانى هو الذى نهض بالقصة العربية ولولاه لظل العرب على ما كانوا عليه من بداوة وسذاجة ، وان « الفلسفة الاسلامية فلسفة يونانية مكتوبة باللغة العربية » وأن البيان العربى قد نسجت خطوطة من البلاغتين الفارسية واليونانية وان العرب والمسلمين لم يكونوا منشئى حضارة ، وإنما مجرد نقلة لتراث من سبقهم من الأمم ، وان التراث الاغريقى كان الأساس الذى تشكلت وفقاً لمقتضياته الحضارة العربية الإسلامية ، وهى تدحض هذه الشبهات حقيقة واحدة أساسية مقررة يسيرة قبل أن ندخل فى التفصيلات هى أن الثقافة العربية الإسلامية كانت قد تشكلت وقامت دعائمها ورسمت مقوماتها قبل ترجمة التراث الهلينى ، ومن هنا فقد أخذت هذا التراث على قاعدتها وهى التى ترجمتها بمحض رغبتها .

فلما قامت أسس الثقافة الإسلامية على التوحيد وعبادة الاله الواحد وعلى المزج الدقيق الخصب بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة ، وكان من أقوى دوافع قوتها وحيويتها أن تفتحت على الثقافات المختلفة القديمة والمعاصرة لها ، من تراث الهند وفارس واليونان والرومان . وقد قام الفكر العربى الإسلامى على أساس النظر العقلى أساساً وتوجه إلى النظر للوجود ،وقد أشارت الأصول والجذور الأصلية له إلى فضل العلم على العبادة ولما كان التوحيد هو القوة الفاعلة الأساسية للفكر العربى الإسلامى فقد كان هذا مصدراً أساسياً واضح الدلالة عند ترجمة اليونانيات ، كما كانت آراء الفكر العربى الاسلامى فى التوحيد والنبوة مما لم تعرفه الفلسفة اليونانية . وقد واجه الشيخ مصطفى عبد الرازق هذه الشبهات فقال : للفلسفة الاسلامية كيانا ممتازا عن الفلسفة اليونانية والفلسفة الإسلامية لا يمكن أن يقال انها مجهود العلماء المسلمين فى دائرة التفكير اليونانى ، بل هى هيكل خاص له مميزاته

وخصائصه ، ومهما يكن من أثر الفلسفة اليونانية وغير الفلسفة اليونانية فإن له خطاً عظيماً من الشخصية والابتكار » .

ويقول سيد أمير على « القاضى المهدى » أن الغرض الأكبر الذى ينشده فلاسفة المسلمين هو أن يزودوا العالم بنظرية تامة عن وحدة الكون ترضى (الذهن) كما ترضى (الدين) وحاولوا أن يوفقوا بين الجانب الأخلاقى والروحى للعلم وبين جانبه الفلسفى ، وقال أن أول علامات الفلسفة الإسلامية هى : (التوحيد) و(التنزيه) فالاسلام فى جوهره إقرار لله بالتفرد والوحدانية والهيمنة على الكون . والاسلام لا يعرف إلا مرتبتين من مراتب الوجود فوق الانسان : مرتبة (الألوهية) وهى مرتبة الله تعالى ومرتبة (النبوة) التى يهبها الله لمن يشاء من عباده ، وفيما عدا هاتين المرتبتين يستطيع الانسان أن يبلغ درجة الكمال حسب طاقته دون أن يعوقه عائق . فليس لله شركاء فى حكمه وملكه ، ومن يقول غير ذلك يدعو إلى الوثنية ، والعقيدة التى آمن بها جميع الفلاسفة المسلمين مستوحاة من « القرآن » .

كما يشجع الاسلام الدعوة إلى التوفيق بين الفلسفة والدين ، وأنهما فى المسائل الاسلامية متناصران ، وقد كشف ابن رشد فى كتابه « فصل المقال بين الحكمة والشريعة » ان الاسلام يشجع المسلم على النظر العقلى ويدعوه إلى التأمل الفلسفى ، وان القرآن يحث على طلب المعرفة ، والبحث عن الحقيقة ، ورى ان الفلسفة والدين هدفاً واحداً ، هو توجيه نشاط الانسان إلى بلوغ الكمال فلاسلام دين يخاطب العقل والضمير على السواء » .

وهناك إجماع من الباحثين على أن للفلسفة الاسلامية رسالة هى فهم الكون ومعرفته لذاته بحيث يدع لضميره أمر تدبير سلوكه ويستشعر فى جوانبه ثقة الله وفى ثقة فى نفسه ، عندئذ يستطيع أن يمارس حرية إرادته ممارسة تامة ، فيمضى فى الحياة مطمئن النفس ، تفتح الوعى ، مبتهج القلب وأنها هى النظر العقلى فى الله والانسان والكون ، وقد عارض الفلاسفة المسلمون تلك الثنائية التى ضمنها ارسطو مذهبه التى يتقابل فيها الله والمادة .

الأزلية عنده ،وأعلنوا وحدانية الله وتنزيهه عن ملابسة المادة ، وعلى الجملة لم يكن اتصال الفلسفة الاسلامية بفلسفة أرسطو وحدها ولا بمذاهب اليونان وحدها .

ولم يقف الاسلام أمام حرية الفكر بل أعطاها المدى ،أما أولئك الذين قتلوا فإنما قتلتهم السياسة ولم يقتلهم العلم ، فقد كانوا ينتمون إلى دعوات هدامة للدولة والنظام العام ، ولو اقتصروا على إعلان رأيهم ملحداً أو منحرفا فى مجال الفكر الخالص لما نالهم سوء . وقد أثبتت اللغة العربية فى مجال ترجمة الفكر الإنسانى قدرتها على الشمول والاستيعاب ، وقد استطاع الأسلاف إحراز تقدم واسع فى مجال المصطلحات التى فتحت الطريق اليوم لنقل العلوم الحديثة .

ولا شك كانت ترجمة التراث اليونانى للحضارة الإسلامية من أبرز مفاهيم الحرية والتفتح فى الفكر العربى الاسلامى فقد استدعى هارون الرشيد العلماء الذين يجيدون اللغات ، وكون منهم هيئة علمية مهمتها تقدير التعويضات التى تدفعها الشعوب المغلوبة على أن تكون هذه التعويضات كتباً ، فلما جاء المأمون كون مجمعاً علميا وكل إليه أعمال الترجمة وبرز فيه أبناء موسى بن شاكر الفلكى الثلاثى . وكانوا لا يقدمون على الترجمة إلا بعد الحصول على ثلاث مخطوطات على الأقل من الكتاب المراد ترجمته فيقابل بينها ويقوم نصها وتصحيح .

ويرى العلامة محمد رضا الشبيبى أن الباعث على نقل الفلسفة اليونانية فى أول عصر العباسيين له علاقة بالدين ، فقد عنيت برد الشبهات التى كانت تثار ضد العقيدة الإسلامية على على طريقة الفلاسفة ، وقال أن وجهة نظر المسلمين إلى الفلسفة اليونانية انها كانت آراء نظرية بحتة بينما كانت رسالة الإسلام عملية بعيدة عن المسائل النظرية ، ومن هذا كان أعضاء النقدة المسلمين عن نقل الأدب اليونانى مثل الإلياذة والأوديسا ، لأن ما فيها من أساطير وخرافات كانت تعتبر ولا زالت مبنية على الشرك لذلك .

وقد أشار الشبيبى إلى خطأ القول بأن العرب لم يعنوا بالأدب اليونانى ، وقال ان «الفارابى» بحث عن الشعر اليونانى بجميع أقسامه وهو ينقله بالمصطلحات التى كانت معروفة

في ذلك الوقت ، وقال ان المسلمين كذلك عنوا بنقل كتب كثيرة لها اتصال بالأدب والشعر اليوناني ومنها كتاب الشعر والخطابة لأرسطو .

وقال الشبيبي : ان الآداب اليونانية تحتوى على مسائل صبيانية غير جديرة باهتمام كبار العقول في وقت أقبل فيه رجال العلم على الجديات من العلوم ، أما هذه الصبيانيات من أن ظواهر الطبيعة من مطر وعواصف وبرق ترجع إلى خصام الآلهة مع بعضها ، وإلى انتقام بعضها من بعض ، مع نزول الآلهة إلى الأرض وتزوجها بالانسيات إلى غير ذلك فالذوق العربي يرفض ذلك .

شبهات حول التاريخ العربى الإسلامى

تعرض التاريخ العربى الإسلامى لحملات عنيفة منوعة ، قوامها إثارة الشبهات حول حياة الرسول ، وحياة الخلفاء ، وعديد من الوقائع والمواقف المختلفة ، مستهدفة الغض من قدر تاريخ الإسلام والأمة العربية .

وقد عمل النفوذ الاستعمارى بالاشتراك مع دعاة التغريب والشعوبيين على أثارة الشبهات بغية تشويه التاريخ الوطنى والعربى والإسلامى جميعا ، حتى يروى الدكتور محمد صبرى[1] أن مستر بلنت كان يقول أن المصريين أجهل الناس بتاريخ بلادهم ولهم العذر ، فلقد كان هم الاحتلال منذ عام ١٨٨٢ أى منذ ستين عاما نشأ فيها جيلان أو جيل ونصف محو أثار ذلك التاريخ وشواهده فى الكتب المتداولة ، وماتحدثت إلى أجنبى فى مصر إلا وآلمنى جهله بالتاريخ أن ينسب إلى الانجليز كل ماتتسكون فى شخصية مصر الحديثة .

وأشار لطفى جمعه فى ذكرياته عن التعلم إنهم كانوا يعلمونه تاريخ مصر والإسلام باللغة الانجليزية فى بضع صفحات أولها أن مصر لم تحكم نفسها أبدا ، وأخرها « وقد هزم الجيش المصرى فى التل الكبير وذبح الجنود المصريون فى ليلة ١٤ سبتمبر التى كانت قمرية كما تذبح الخراف الخزان وفرقائدهم عرابى باشا » .

وفى مختلف المدارس والجامعات فى العالم الإسلامى والعواصم العربية كانت الكتب المشهورة فى التاريخ خلال فترة الاحتلال الأجنبى تفرض على الشباب ، تعلم تاريخهم على هذا النحو ، شبهات مثارة حول رسولهم ودينهم وقرآنهم ،واتهام لتاريخهم ووقائعه وبطولاته .

---

(١) الاهرام — ٩ / ١ / ١٩٣٨ .

ىوف التاريخ الوطنى إبهام لشخصية الأمة ووصف الاوطان بأنها عاشت محتله طوال الدهور .

* * *

ومن المغرب العربى نجد صورة أخرى رسمها أحد الباحثين الجزائريين[1] : يقول احتلت قوات الغزو الاستعمارى أرض بلادنا ١٨٣٠ صار تاريخ الجزائر من اختصاص المؤرخين الفرنسيين . فلا نكون مطلعين على ماضينا القومى الامن خلال ما كتبه المؤرخون الأجانب . وقد كانت السلطات الاستعمارية تمنع منعا باتا تدريس العلوم الاجتماعية من تاريخ وجغرافيا ، وكل ماله صلة بتراثنا الفكرى أو الادبى والغرض الكامن من وراء هذا الخطر هو ايهام الجزائريين بأن تاريخهم يبدأ عام ١٨٣٠ فقط ، أى فى السنة التى احتلت فيها القوات الفرنسية بلادنا ، كانت فرنسا تمنعنا من تعلم التاريخ على أيدى الوطنين ولكنها كانت تشجع الدراسات التاريخية التى من نمط معين ، وقد يغتر القارىء بالجهد الذى بذله المؤرخون الفرنسيون فى جمع المعلومات وتتبع الحوادث ، ولكن القارىء الواعى يستطيع بسهولة أن يكتشف وراء هذه المحاولة طريقة ترمى إلى تشويه الحقائق الناصعة ، وطمس معالم التاريخ القومى . إن الهدف الذى يرمى إليه جوليان وغوتيه ولو تورنو وغيرهم من المؤرخين الفرنسين هو خدمة الاغراض الاستعمارية بايجاد مبررات لتركيز قواعد الاستعمار وتصوير الماضى بشكل يجعل القارىء يكره تاريخ امه ويستسلم للحاضر .

ومنذ دخول الفرنسيين إلى الجزائر ، حاولت ابواق الاستعمار أن تطمس معالم حضارتنا وأن تقضى على التراث الفكرى الذى خلفه أجدادنا الاباء ، ومن أجل ذلك رأينا السلطات الفرنسية فى الجزائر تمنع تدريس تاريخ العرب والإسلام لكى تقطع كل صله بين الشعب الجزائرى والشرق العربى . وكانت الكتب الفرنسية تحاول عبثا أن تقنع الجزائرين أنهم احفاد شارلمان وجان إدراك وأن اجدادهم هم الغول وأن فرنسا هى الوطن الام .

وقد صوروا تاريخ المغرب العربي على إنه منازعات دموية تغذيها العصبيات القبلية والمصالح العائلية . وقد أظهر المؤرخون الفرنسيون إهتماما كبيراً بسكان شمال افريقيا الاصليين .

كما ينكر النقاد الفرنسيون على المؤرخين العرب — باستثناء ابن خلدون — قلة تجردهم العلمي ، واتباعهم الخيال ، وتصديقهم للقصص والاساطير ، التي تتنافى مع الحقيقة والتاريخ . ولكن هؤلاء الفرنسيون لا يورعون عن استخدام هذه الأساطير عندما تخدم غرضا استعماريا ، فهم يروون قصة إحراق مكتبة الاسكندرية من قبل العرب وهم يصدقون هذه القصة لأنها تبرهن حسب ادعائهم بأن العرب قوم لا يحبون الثقافة بل يكرهون المدنية والعلم وهم يحاولون أن يصوروا سكان المغرب بأنهم طوائف ، لا يؤلفون في نظرهم مجموعة متجانسة من المواطنين الذين تجمع بينهم التعاليم والعادات واللغة والدين والازمنة ، وكم يحلو المستشرقين أن يفيضوا في القول عن هذه الفروق ، وأن يظهروا جدلهم العقيم في مثل هذه الاسناد التي تخطاها الزمن بمراحل » .

وقد حاول المؤرخون الفرنسيين في دراساتهم عن تاريخ المغرب تشويه سمعة المرابطين وتصويرهم بصور الوحشية والغلظة والبعد عن المدنية ، ذلك لأن المرابطين كانوا أول من أعطوا للمغرب العربي بما فيه الأندلس أول قوة عظيمة رهبها الاعداء واشاعوا الامن والرخاء ، وأتاحوا الفرص ، وقد اشار العلامة عبدالله كنون في دراساته إلى هذه الشبهات وكشف أسباب الطعن فيهم ودافع عنهم دفاعا حاراً وابرز أن المرابطين كانوا كرماء حلماء مع اعدائهم . » ا . هـ

* * *

وان الشبهة الكبرى التي توجه إلى تاريخ العرب والمسلمين هي رميه بالضعف ، وهي فرية باطلة ، فقد عمد المؤرخون العرب إلى منهج علمي دقيق ، أشبه بطريقة المحدثين في

التنقيب والدقة والتحرى ، وحاولوا — على حد قول الدكتور أسد رستم — أن يستفيدوا من قواعد علم الحديث التى وضعها علمائه فى الجرح والتعديل ونقد النص ، ويفاخر الدكتور رستم بسبق المحدثين إلى هذه القواعد الجليلة التى تفوق دقة وضبطاً ما وصل إليه أساطين علم التاريخ ونقدته فى أوربا وأمريكا ، وذلك وفق طريقة جمع الأصول ، ونقدها ، وتبسيطها ، وتفسير النصوص ، والتعليل والإيضاح والعرض .

وقد أشار « نلليفو » إلى مدى دقة العرب فى كتابة التاريخ ، وأنهم اتخذوا لذلك طرقاً بالغة الحيطة (أولاها) ذكر السنين ، سنة فسنة ، ورواية أخرى من الحوادث فى كل منها مهما كانت البلاد التى وقعت فيها كما فعل الطبرى وابن الأثير وأبو الفداء وذلك بخلاف القدماء من اليونان الذين جعلوا غاية التاريخ فى حكاية الحوادث .

(ثانياً) والعناية برواية الحوادث باعتبار سياقها على قدر الاستطاعة كما فعل المسعودى فى مروج الذهب ، وابن خلدون وابن القفطى . وقد حاول (فيليب حتى) إتهام المؤرخين العرب بأن كتابتهم للتاريخ شيدت على أسس الطريقة الفارسية ، غير أن المثقفين من الباحثين أمثال الدكتور عبد العزيز الدروى ، والعلامة محمد عبدالغنى حسن وغيرهم أكدوا بأن هذا العلم عربى النشأة والأصول ، وأن خطوطه الأساسية تحددت قبل الترجمة عن الفارسية ، ولذا[1] فإن قول فيليب حتى بأن المثال الذى احتذاه المؤلفون فارسياً فى الأصل على طريقة (حذا بنامه) مردود ، لأننا نعرف أن كتابة التاريخ على أساس السير ، وعلى أساس الأسر الحاكمة عرف قبل ترجمة (الحدانيامة) وقد بدأ علم التاريخ عن العرب من أصول متصلة بدراسة الحديث (المغازى) من جهة وبمتابعة الاهتمام الموروث من الجاهلية بالأيام كما ظهر لدى الأخباريين .

* * *

ويرجع اضطراب فهم الغربيين للتاريخ الإسلامى — فيما عدا الهوى والتعصب — إلى جوهر الخلاف بين المفاهيم الأساسية بين حضارة الغرب وحضارة الاسلام ، ومن المعتقد أن فهم المؤرخين الغربيين

---

(١) الدكتور عبد العزيز الدورى — م ١٣ مجلة الأبحاث ص ٤٢٤ . ومحمد عبد الغنى حسن فى كتاب « علم التاريخ عند العرب » .

للتاريخ الإسلامى تحتاج إلى نظره تختلف كل الاختلاف عن نظرتهم إلى التاريخ الغربى الذى يمارسونه ، وأن المقاييس التى يتبعونها فى فهم التاريخ الغربى قد تختلف اختلافا واضحا فى التطبيق على التاريخ الإسلامى وتأتى نفتائج فاخرة أو مختلفة تماما ، وأنه لا بد فى دراسة التاريخ الإسلامى من مفاهيم مختلفة ، باعتبار أن التاريخ الإسلامى صورة من النفسية العربية الإسلامية التى صاغته .

وقدتنبه إلى هذا مستر « جب » حين يقول : إن التاريخ الإسلامى سار فى وجهة معاكسة للتاريخ الأوربى ، على نحو يثير الاستغراب ، كلاهما قام على أنقاض الامبراطورية الرومانية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ولكن بينهما فرقا اصيلا ، فبينما خرجت أوربا على نحو مقدرج لا شعورى وبعد عدة قرون من الفوضى الناجمة عن غزوات البرابرة ، انبثق الإسلام انبثاقا مفاجئا فى بلاد العرب وأقام بسرعة تكاد تمز على التصديق فى أقل من قرن من الزمان ، امبراطورية حديثة فى غربى آسيا وشواطىء البحر الأبيض المتوسط » .

٢ — وواجه هذا المعنى الأستاذ تريتيون فى كتابه «الإسلام عقائده وعباداته» حين قال : إذا صح فى المعقول أن التفسير المادى للتاريخ يمكن أن يكون صالحا فى تعليل معظم الظواهر التاريخية الكبرى وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها ، فإن هذا التفسير المادى يفشل فشلا ذريعا حين يرغب أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم وثبات أقدامهم ، فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا فى العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة ، فيروا أنها تقع فى هذا الشىء الجديد وهو الإسلام »

والواقع أن التاريخ العربى الإسلامى لا يؤخذ بالتفسير المادى وحده ولا بالتفسير الجغرافى ، أو المادى أو البيولوجى ولكن بهذا كله جميعا .

٣ — وقد حاول دعاة التغريب أن ينكروا على العرب والمسلمين أن يكونوا قد بلغوا مستوى اليونان وبالتالى مستوى الأوربيين الحديثيين فى إدراك فكرة الإنسانية .

وليس شك أن فكرة الإنسانية ليست واضحة فى أمه ولا حضارة ولا دين وضوحها فى الإسلام ، وقد تنبه لهذا المعنى « ولفرد كانتول سميث » الذى قال أن المسلم يحس إحساساً جاداً بالتاريخ ، أنه يؤمن بتحقيق ملكوت الله فى الأرض ، ويؤمن بأن الله قد وضع نظاما

عمليا واقعيا ، يسير البشر فى الأرض على مقتضاه ، ويحاولون دائما أن يصوغوا واقع الأرض فى إطاره ، ومن ثم فهو دائما يعيش كل عمل فردى أو جماعى ، وكل شعور فردى أو جماعى ، بمقدار قربه أو بعده ، من ذلك النظام الذى وضعه الله ، والذى ينبغى تحقيقه فى واقع الأرض ، لأنه قابل للتحقيق ، والتاريخ فى نظر المسلم سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت الله فى الأرض ، ومن ثم فكل عمل وكل شعور فرديا كان أو إجتماعيا ذو أهمية بالغة وأن الحاضر هو نتيجة الماضى ، والمستقبل متوقف على الحاضر » .

ويرى الدكتور البان واين غراى فى هذا الموقف فى كتابه (تفسيرات التاريخ) إن نظرة المسلمين للتاريخ نظرة بنائة ، فهم يرون أن البشريه إذا اعتنقت تعاليم الوحى (القرآن) فإن إرادتها حينذاك تتطابق وإرادة الله ولا يعود يوجد من يعصى أوامره ، ويعم الاخاء بين البشر ، ومن صفات المؤمن أنه صابر ويعلم أن الأمر لإرادة الله ، وقد قدموا أفضل فيلسوف للتاريخ ممثلا بالفيلسوف أبن خلدون ، وكان أول فيلسوف حلل درجات تأثير المحيط والدوافع النفسية التى تعمل عملها فى الحياة الإنسانية وكسبب كنشوء الحضارات وانقراضها .

ومن الامور التى يضطرب فيها رأى المؤرخين الغربيين « العلاقة بين التاريخ والأسطورة » يقول العلامة محمد فريد وجدى :

كان القائمون بتمحيص التاريخ فى الثلاثة القرون الأخيرة من الملحدين الذين لا يؤمنون بخالق الكون ولا بالنبوات ولا بالوحى ، فانهم نظروا إلى التواريخ المقدسة باسم « الميثولوجيا » أى (علم الأساطير) وذهبوا فى تحضير هذه الميثولوجيا كل مذهب غير مفرقين بين ما يصح أن تطبق عليه هذه الكلمة من العقائد الوثنية والتقاليد الخرافية وبين الحوادث النبوية القيمة .

وجاءت الأجيال الحديثة فرأت بنفسها من أخبار الأمم حيال تاريخ وميثولوجيا ودربت أن تعتبر الأول خلاصة ممحصة من حوادث الشعوب الماضية وأن تعدّ الثانية حكايات خيالية

تدلت من عقول ساذجة إخترعها رجال مدلسون ، فألفوا أنفسهم متحللين من كل ما حمل الأقدمون أنفسهم من تكاليف عقيدية وتقاليدوهمية ، معتبرين كل ما يوجد فى تاريخ الأديان وكتبها المقدسة من أخبار وحوادث وأنقلابات لا يتفق والتاريخ المبتور ، خرافات لا أصل لها فى الواقع وكان أنكار المعجزات التى أيدت المرسلين فى دعواتهم الدينية باعتبار أنها تناقض العلم وتخالف قوانين الطبيعة . وأن تعتبر كل هذه الأمور من الخرافات التى أساس لها فى التاريخ وقد نوه الكتاب الكريم (القرآن) بأمم ماضية ومرسلين وقص من أخبارها وأخبارهم ما فيه موعظة للتالين والسامعين ، فلاحظ بعض المستشرقين وكلهم من غلاة الماديين أن من هذه القصص ما لم يرد فى التاريخ وبعضه يعتبر من الخرافات .

بالجملة فقد بحثوا التاريخ على ضوء المبادىء المادية البحتة ، التى لا ترى وجود الخالق والروح،

فى مجال التاريخ العربى الإسلامى شبهات متعددة ، عرضنا لأكثرها فى الفصول المختلفة ، ونحن هنا نعرض لأهم هذه الشبهات .

(١) مرحلة الضعف والتخلف . (٢) تحامل الغرب على تاريخ العرب والإسلام .
(٣) التاريخ والحضارات . (٤) معركة بلاط الشهداء .
(٥) حريق مكتبة الاسكندرية . (٦) فلسفة التاريخ ونقد كتاب فيليب حتى .

* * *

ولاشك أن من أبرز قضايا التاريخ العربى الإسلامى « مرحلة الضعف والتخلف » وأسبابها وعواملها ، وقد اقتضت هذه القضية بحوثا مسهبة ، وحاول المستشرقون وكتاب الغرب من غير المنصفين أن يعزو هذا التخلف إلى الاسلام والفكر العربى الإسلامى .

وقامت الشبهة فى هذا على وصف الإسلام بما وصفت به المسيحية الغربية التى كانت عائقا للتمدن والنهضة فى الغرب فى عهد النهضة « الرينسانس » ، ومن هنا نقلت نفس عبارات الاتهام إلى الإسلام بوصفه دين وعلى أساس أنه هو مصدر التخلف الذى أصاب المسلمين فى القرون الثلاثة السابقة لهذا القرن ، والواقع أن الإسلام بوصفه دينا ومدنية لم يكن عاملا من عوامل الضعف والتخلف بل كان الانفصال عن مفاهيمه وقيمه ، والجمود عن آفاقه الواسعة الفسيحة هو فى الأغلب مصدر ما أصاب العالم الإسلامى من الاضطرابات .

وقد ذهب بعض الغربيين إلى وصف هذه المرحلة بأسماء كثيرة كان أقساها وأشدها إمعانا فى التعصب ، تسميتها باسم « مرحلة الانحطاط » والواقع أن هذا الوصف لتلك المرحلة ليس منصفا ، وإن كل الأسماء التى يمكن أن تطلق : كالتأخر والانحدار والتخلف والضعف ، ربما كانت كافية لوصف هذه المرحلة ، دون أن توصف بالانحطاط الذى يتمثل فى حالة سقوط النهاية ، والواقع أن الجماعة الإسلامية بالرغم من أزمة الضعف الشديدة التى مرت بها فإنها لم تسقط وكانت أزمتها قد وقعت فى ظل

مؤامرة كبرى استطاع النفوذ الأجنبي أن يحيكها أكثر من ثلاثة قرون ، وإذا كانت الرابطة السياسية الإسلامية ممثلة في السلطة العثمانية قد سقطت ، فإن الفكر العربي الإسلامي لم يسقط وظل حيا قائما متفاعلا مع (عالم الإسلام) الذي لم ينفصل عن جذوره ، ومقوماته ، هذا بالإضافة إلى ما برز في فترة الضعف هذه من مواجهة للتحدي ورد الفعل المتمثل في القدرة على حضانة التراث والفكر والمخطوطات واللغة والعلوم عن ثلاث طرق هامة . (أولها) المعاهد والجامعات الاسلامية الكبرى التي ظلت حية قائمة تؤدي دورها بالرغم مما أصابها من الجمود كالأزهر والزيتونة والقرويين ومعاهد النجف الاشرف والشام والمسجد الأقصى ومكة والمدينة وزوايا صحراء ليبيا وخلاوي السودان . (ثانيهما) هذه الحركة الضخمة لتأليف الموسوعات وضم مختلف فنون الفكر العربي الاسلامي إليها مجمعا من نحو وأدب ولغة وفقه وتشريع وفلسفة ونصوص (ثالثهما) الحركة الصوفية ممثلة في تجمعاتها الواسعة وتحركاتها الضخمة في أفريقيا وهجرات العرب في جنوب شرق آسيا وما كان لهاتين الحركتين من أثر في نشر الإسلام والثقافة العربية إلى أبعد مدى في ظل هذه الفترة التي وصفها بعض كتاب الغرب بفترة الانحطاط ظلما .

* * *

وقد عرض لقضية التأخر والتخلف كثير من الباحثين وأعلام الفكر العربي الاسلامي المعاصر ، وفي مقدمتهم الأمير شكيب ارسلان الذي تلقى في هذا المعنى خطابا من « محمد بسيوني عمران » من مسلمي بورنيو إحدى جزر الهند الشرقية فأجاب عنه في رسالة مطولة نشرت في المنار ثم طبعت من بعد .

وقد أشار الأمير شكيب في رسالته إلى أن في العالم الإسلامي حركة شديدة ومخاضا عظيما شاملا للأمور المادية والمعنوية ، وأن هذه الحركة لم تصل بالمسلمين حتى اليوم — وكان ذلك في الثلاثينات — إلى درجة يساوون بها أمة من الأمم الأوربية أو الأمريكية ، لهذا وجب أن نبحث في الأسباب التي أوجدت هذا التقهقر في العالم الإسلامي بعد أن كان منذ ألف سنة هو الصدر المقدم والسيد المرهوب المطاع بين الأمم شرقا وغربا ، وعنده أن أبرز أسباب الانحطاط هي « التخلي عن أسباب الارتقاء » فقد صير الاسلام أهله إلى العزة والمنعة والثروة ، وأن القرآن قد أنشأ العرب نشأة مستأنفة وخلقهم خلقا جديدا . فقد أتى على

العرب حين من الدهر سادهم الغرباء فى أرضهم ، كالفرس فى اليمن وعمان والحيرة ، وكالحبشة فى اليمن ، وكالروم فى أطراف الحجاز ومشارف الشام ، فلم يستقلوا استقلالا حقيقيا واسما إلا بالإسلام ولم تعرفهم الأمم البعيدة وتخضع لهم الممالك العظام ، ولم يقعدوا من التاريخ المقعد الذى أحلهم فى الصف الأول من الأمم الفاتحة إلا بمحمد ، فهو السبب الذى به نهضوا وشادوا ، وبلغوا هذه المبالغ كلها من المجد والرقى ، وقال الأمير شكيب : إننا إذا فحصنا عن ذلك وجدنا أن السبب الذى ساد به السلف قد أصبح مفقودا بلا نزاع وإن بقى منه شىء . . .

اليوم فقد المسلمون أو أكثرهم هذه الحماسة التى كانت عند آبائهم ، وإنما تخلق بها أعداء الإسلام ، وإن أكثر الأمم الإسلامية تريد حفظ استقلالها دون مفاداة ولا تضحية ولا بيع أنفس ولا مسابقة إلى الموت ولا مجاهدة بالمال ، وتطالب الله بالنصر على غير هذا الشرط الذى اشترطه الله للنصر « ولينصرن الله من ينصره » لقد ظن كثير من المسلمين أنهم مسلمون بمجرد الصلاة والصيام وكل ما لايكلفهم بذل دم ولا مال ، وانتظروا على ذلك النصر من الله ، وليس الأمر كذلك فإن عزائم الإسلام لا تنحصر فى الصلاة والصيام ، ولا فى الدعاء ممن قعدوا وتخلفوا ، وقد كان فى وسعهم أن ينهضوا ويبذلوا ، ولو كانت الآمال تبلغ بالأدعية والأذكار دون الأعمال والآثار لانتقضت سنن الكون وبطل التشريع ولم يقل الله تعالى « وإن ليس للانسان إلا ما سعى » .

والمسلمون يريدون سلطانا يشبه سلطان الأوربين بدون إيثار ولا بذل ولا فقد شىء من لذائذهم .

* * *

ويتعرض الأمير شكيب لأهم أسباب تأخر المسلمين ويلخصها فى العلم الناقص الذى هو أشد خطراً من الجهل ، وفساد الأخلاق بفقد الفضائل التى حث عليها القرآن ، وبنوع خاص فساد أخلاق أمراء المسلمين ، وللعلماء الذين اتخذوا العلم مهنة للعيش وجعلوا الدين مصيدة للدنيا فسوغوا للفاسقين من الأمراء أشنع موبقاتهم .

ومن أعظم عوامل تقهقر المسلمين : الجبن والهلع بعد أن كانوا أشهر الأمم فى الشجاعة

واحتقار الموت ، وقد انضم إلى الجبن والهلع ، اللذين أصابا المسلمين : اليأس والقنوط من رحمة الله . وفقدهم كل ثقة بأنفسهم حتى أصبح المسلمون فى الأعصر الأخيرة يعتقدون أن ما من صراع بين المسلم والأوربى إلا سينتهى بصرع المسلم ولو طال كفاحه ، وقر ذلك فى نفوسهم ، لاسيما هذه الطبقة التى تزعم إنها الطبقة المفكرة العاقلة المولعة بالحقائق الصادقة عن الخيالات زعما . ولم تقتصر هذه الفئة على القول بأن حالة المسلمين الحاضرة هى متردية متدنية ، بل زعمت أن التعب فى مجاراة المسلمين للافرنج من علم أو صناعة أو كسب أو تجارة أو حرب أو مسلم أو أى منحى من مناحى العمران هو ضرب من المحال ، وكأن المسلمون من طينة والأفرنج من طينة أخرى ، ونحن نريد أن نقول أن كل من سار على الدرب وصل وأن المسلمين إذا تعلموا العلوم العصرية إستطاعوا أن يعملوا الأعمال العمرانية التى يقوم بها الأفرنج وأنه ليس هناك فرق بين القابلية البشرية ، ولكن على شرط أن ينفض المسلمون عن أنفسهم غبار الخمول ويلغوا هذه القاعدة التى قد كانت أسباب شقائهم زمنا طويلا وهى أن كل عمل عمرانى فى الشرق لابد أن يستعمار له شركة أوربية لتقوم به وإلا فلا يستطاع عمله .

** *

وتحدث عن البطولات الحربية لأسلافنا ، وقال إنه من السخف أن يقال نعم قد كان ذلك ، لكن قبل أن تخترع آلات القتال الحديثة وقبل أن يصير الأفرنج إلى ما صاروا إليه من القوة المبنية على العلم ، على أنه ليست الدبابات والطيارات هى التى تبعث العزائم ، بل الحمية والعزيمة والنجدة هى التى تأتى بالطيارات والدبابات والقنابل ، يقولون : إن هذا العلم مفقود عند المسلمين والجواب أن العلم الحربى يتوقف على الفكر والعزيمة ، ومتى وجدت هاتان وجد العلم الحديث ، ووجدت الصناعة الحديثة ، وكل أمة من أمم الإسلام تريد أن تنهض وتلحق بالأمم العزيزة ، يمكنها ذلك وتبقى مسلمة متمسكة بدينها ، فلو أن أمة من أمم الإسلام أرادت أن تتسلح لوجدت السلاح الحديث اللازم بأنواعه وأشكاله فى ثانى يوم ، ولكن اقتناء السلاح ينبغى له سخاء الأموال وهم لا يريدون أن يبذلوا ولا أن يقتدوا بالأفرنج فى البذل بل يريدون النصرة بدون سلاح وعتاد أو السلاح والعتاد بدون بذل أموال .

وأشار إلى ضياع الاسلام بين الجامدين والجاحدين ، أما الجاحد فهو الذى يأبى إلا أن يفرنج المسلمين وسائر الشرقيين ويخرجهم من جميع مقوماتهم ومشخصاتهم ويحملهم على إنكار ماضيهم ويجعلهم أشبه بالجزء الكيماوى الذى يدخل فى تركيب جسم آخر كان بعيداً ، فيذوب فيه ويفقد هويته، وتساءل لماذا لا يقال على أوربا المسيحية المفتخرة بمسيحيتها أنها رجعية كما يريد الجاحدون من المسلمين أن يصفوا سائر المسلمين لأنهم لا يريدون أن يتجردوا من دين الاسلام ، وكل قوم يعتصمون بدينهم ومقومات ملتهم ومشخصات قومهم إلا المسلمين، فانهم إذا دعاهم داع إلى الاستمساك بقرآنهم وعقيدتهم ومقوماتهم ومشخصاتهم ، وباللسان العربى وأدابه والحياة الشرقية ومناحيها، قامت قيامة الذين فى قلوبهم مرض وقالوا: كيف تريدون الرق وأنتم متمسكون بأوضاع قديمة باقية من القرون الوسطى .

ثم قال : والمسلم الجامد ليس أخف ضرراً من الجاحد ، وإن كان لا يشركه فى الخبث وسوء النية إنما يعمل ما يعمله عن جهل وتعصب ، فالجامد هو الذى مهد لأعداء الإسلامية الطريق لمحاربة هذه المدنية محتجين بأن التأخر الذى عليه العالم الإسلامى إنما هو ثمرة تعاليمه، والجامد هو سبب الفقر الذى ابتلى به المسلمون لأنه جعل الإسلام دين آخرة فقط ، والحال أن الإسلام هو دين دنيا وآخرة ، وإن هذه مزية له على سائر الأديان ، والجامد هو الذى شهر الحرب على العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية وفنونها وصناعاتها بحجة أنها من علوم الكفار ، وقد تسبب الجامدون بوقفهم من أمور الدنيا فى أن يصف الأفرنج الإسلام بأنه « جبرى » لا يأمر بالعمل لأن ما هو كائن هو كائن ، عمل المخلوق أم لم يعمل ، ولا شىء أدل على فساد هذا الزعم من أن القرآن ملآن بالحث على العمل واستنهاض العزائم ونوط الثواب والعقاب والفوز والفشل بالعمل الذى يعمله المكلف .

وكل آيات العمل فى القرآن ناطقة بأن الإسلام هو دين العمل لا دين الكسل ولا هو دين الاتكال على القدر المجهول للبشر . على أن هذا لا ينفى الاعتماد على الله ، وأن الإسلام فى أصله ثورة على القديم الفاسد وقطع كل العلائق مع غير الحقائق ، وأن الذين يفهمون الإسلام حق الفهم يرحبون بكل جديد لا يعارض العقيدة .

والعالم الإسلامى يمكنه النهوض واللحاق بالأمم الغالبة إذا أراد المسلمون ذلك ووطنوا أنفسهم عليه ولا يزيدهم الإسلام إلا بصيرة وعزماً . ولن يجدوا لأنفسهم حافزاً على العلم والفن خيراً من القرآن « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » وليس العلم هنا هو العلم الدينى وإنما كل ما ورد فى القرآن عن العلم ممـا يقصد إلى السير فى الأرض والنظر والتفكير ويعلم أن المراد هنا هو العلم على إطلاقه متناولا كل شىء .

ومن هنا فان المسلمين ينهضون بما نهض به غيرهم ، ويمكنهم إذا أرادوا بعث العزائم وعملوا بما عرضه عليه كتابهم أن يبلغوا مبالغ الأوربيين من العلم والإرتقاء وأن يبقوا على إسلامهم كما بقى أولئك على أديانهم .

* * *

وجملة رأى الأمير شكيب فى قضية تأخر المسلمين إنما يرجع إلى العوامل الآتية :

* ترك المسلمين عزائم القرآن التى قام بها سلفهم .
* إعراض علماء المسلمين عن العلوم الطبيعية وفقدهم أعظم قوة مادية .
* الاكتفاء من الدين بالرسوم الظاهرة واللهو بالقشور عن اللباب .
* اليأس فى رحمة الله وفقد الثقة فى النفس .
* استخذاء المسلمين أمام الأوربيين وفقد أكثرهم عزة الإسلام القومية .
* مواطأة المسلمين للأوربيين على إخوانهم وخدمتهم إياهم .
* فقد روح التضحية التى سادت بها الأمم الأوربية .
* فساد أخلاق الأمراء والحكام .
* فساد العلماء الذين هم القوة المراقبة للحكومات .
* خصومة دول الغرب للعالم الإسلامى وإصرارها على السيطرة عليه .
* تخييم الجهل على الأمم الإسلامية .
* عدم تجدد برامج التعليم واستيلاء الجمود على الفقهاء .

* كثرة الكلام عن الآخرة مع أن الإسلام دين دنيا وآخرة .

* الدعايات الإستعمارية والتبشيرية .

* تجمع قواعد الاستعمار الغربي على خصومة الإسلام .

ويرى الأستاذ الشيخ محمد عبده أن الإنحطاط الذى أصاب الخلافة زمن العباسيين كان نتيجة لتسرب العناصر الأجنبية إلى جهاز الإمبراطورية الإسلامية ، وأن انحطاط العالم الإسلامى ووهن السلطة السياسية الإسلامية ليسا ناشئين عن فساد الإسلام ذاته بل عن تقاعس المسلمين وإغفالهم لتعاليم دينهم .

وقد دافع « نبيه أمين فارس » وهو من كتاب الإستشراق عن الإتهام الذى رمى به الإسلام والفكر العربى الإسلامى من أنه مصدر التأخر فقال :

إذا حسبنا أن الإسلام هو سبب تأخر الأقطار الإسلامية فبماذا نعلل تأخر أقطار نصرانية فى البلقان وفى أمريكا الوسطى والجنوبية وفى أوربا نفسها وقال : إن ما قدمه المسلمون فى القرون الوسطى من مآثر فى شتى ميادين العلم والفكر يثبت أنه لم يكن فى الإسلام — آنئذ — وليس فيه اليوم شىء أساسى معاد للتقدم ، لا بل إن الأدلة تثبت عكس ذلك ، أى أن الإسلام موآت للتقدم ، هى أكثر عدداً وإقناعاً ولسنا هنا فى موقف الدفاع عن الإسلام أو النيل منه .

لقد حمل المسلمون تحت لواء الإسلام وفى نطاق نظمه أعباء البشرية العلمية والفكرية فى ميادين مختلفة ، وطوال مدة غير يسيرة ، ولم تقم أمامهم أى صعوبة ، إلا عندما ابتدأوا تدريجياً يشعرون بالقناعة بما صنعت أيديهم .

وقال : إن الكتاب المسلمون يصرون على أن الإسلام كان ولا يزال خير وسيلة للتقدم البشرى وأن الأسباب التى دفعت المسلمين إلى التخلف إنما تعود إلى وقوع الأقطار الإسلامية تحت السيطرة الأجنبية .

٢ — التاريخ بين منهجين ونهجين

الرد على ارنولد توينبى

ويراجع بعض الباحثين موقف المؤرخ توينبى من الحضارة الإسلامية وتاريخ الاسلام ، يقول الأستاذ أحمد نصيف الجنابى إن توينبى لم يتناول[1] الحضارة الاسلامية والتاريخ الاسلامى وحدة حضارية متكاملة ، بل عزل حوادث التاريخ الاسلامى عزلا وخالف المنهج العلمى الذى يفسر التاريخ على أساسه . كما أنه انتخب من الحوادث ما يروق له . ويتضمن كلام توينبى (١) إن مبدأ الوحدانية فى الاسلام مأخوذ من الروم (٢) إن مبدأ النظام والقانون نقله محمد عن الدولة الرومانية (٣) إن هجرة النبى وصحابته الكرام كانت خروجاً على مبدأ الاعتكاف والعودة .

أما مبدأ الوحدانية فى الدين فهو بعيد جداً عن روح الحضارة الرومانية التى تميد آلهة متعددة بعيدة عن مبدأ التوحيد . أما القول بأن مبدأ النظام والقانون فى الاسلام منقول عن الدولة الرومانية فإن هـذا الزعم يبدو متهافتاً إذا أثبتنا أن النبى كان أمياً وأن مرد التشريع فى الإسلام إلى الله ، ومن الأمور المسلم بها أن كان النبى أمياً ، لحكمة تتمثل فى سد الطريق أمام المتشككين فى الوحى والظانين أن النبى أخذ من أهل الكتاب . ومن أهم ما ينقض هذا الزعم الطريقة التى ظهرت بها قواعد التشريع الاسلامى ، فقد كان التشريع الاسلامى فى حياة الرسول يعتمد على مصدرين هما : القرآن والسنة . وقد إشتمل القرآن على القواعد الاقتصادية والتشريعية وعلى القواعد المتعلقة بالعقيدة الدينية والأخلاقية .

كما أن القواعد القانونية فى الاسلام تكونت تدريجياً وبمناسبة وقت فعلا ، ولم تكن هناك قواعد قانونية شرعت لحالات افتراضية كما أمكن تبنى بعض التقاليد العرفية التى

---

(١) مجلة الأقلام (العراق) مارس ١٩٦٩

سادت المجتمع العربي ، وتعديل بعضها لتلائم روح التشريع الاسلامى وهذا كله تعبير عن كل تأثر بالقانون الرومانى . أما ما يتصل بأن هجرة النبى وصحابته كانت خروجاً على مبدأ الاعتكاف والعودة فهو زعم متأثر بالنظرة الغربية المسيحية . ولا شك أن وجود توينبى « الانسان المؤرخ » فى مجتمع مسيحى غربى يؤثر فى نظرته إلى الاسلام حتى فى الكلمات التى يستعملها . وبناء على نظرته المسيحية الغربية يرى أن سيرة النبى فى الفترتين « الملكية والمدنية » متناقضة ، لأن النبى شغل فى الفصل الأول برسالته الدينية بطريقة سلمية من الدعوة والتبشير ، وشغل فى المرحلة الثانية ببناء سلطة عسكرية وسياسية . والنظرية المسيحية الغربية هنا واضحة ، إذ أنها ترى أن ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، والصريح فى تعاليم يسوع وحياته نبذ الأخذ بالسيف أو استخدام القوة . وهذه النظرة تختلف عن النظرة الاسلامية أساسا ، إذ أن الدين والدولة لم ينفصلا فى الاسلام وليس فى الإسلام نبذ الأخذ بالقوة .

وخير ما يستشهد به فى هذا المجال ما قاله تورآندريه فى كتابه عن حياة محمد عن ودعوته حيث قال : إننا معشر الكتاب المسيحيين الغربيين نقيس حياة محمد عن شعور وغير شعور بحياة المسيح ووفق المبادىء الموجودة فى الكتاب المقدس وهى نظرة مخالفة على كل حال للنظرة التى رآه أصحابه ومعتنقوا دعوته بها .

ويضيف أحمد نصيف الجبابى أن السر فى عجز المؤرخين الغربيين عن فهم تاريخ الاسلام هو اختلاف وجهة النظر الأساسية بين الثقافتين : يقول إن التاريخ الاسلامى يجب أن يفسر على أساس النظرة الاسلامية للحياة الانسانية ، وكل تفسير يقوم على غير هذا الأساس ضرب من الخطأ العلمى لا يجوز أن يرتكبه باحث جاد أو مؤرخ يبتغى وجه الحق وحده . وأن كل مؤرخ غير مسلم يفسر التاريخ الاسلامى وفق منهج غربى يقع فى أخطاء أصيلة ناتجة عن تطبيق « منهج بحث » وضع فى الأساس لغير التاريخ الإسلامى ، وطبيعة المناهج الإسلامية « تجزئة الكون والطبيعة » أو الفصل بين (الله والطبيعة) و (العلم -

والدين) يبرز ذلك فى مؤلفات مشاهير الغرب (مثلا ، كولن ولسن : سقوط الحضارة) أما روح الثقافة الإسلامية وحضارتها فقائمة على أساس وحدة الكون وانسجام قوى الطبيعة واتساقها ، وأن الإسلام هو النظام الوحيد الذى يحقق هذا الانسجام لأنه يجمع بين الروح والجسد فى نظام الدين ، والسماء والأرض فى نظام الكون ويسلكها فى طريق واحد وهو الطريق إلى الله . وأن الاسلام — الاسلام وحده — هو الذى يجمع بين العلم والدين فى وحدة تامة غير متنافسة ، والتاريخ الاسلامى حافل بأسماء الألوف من الأفذاذ الذين كانوا مناراً فى العقيدة ومرجعاً فى البحث العلمى ولا نجد مثل هذه الكثب فى تاريخ غير المسلمين .

ويكشف الباحث الأوربى : ليوبولد فايس « محمد أسد » عن الفرق بين وجهة النظر الاسلامية والغربية فيقول : إن وجهة النظر الاسلامية مخالفة على كل حال لوجهة النظر الغربية الآلية ، إذ أن الاسلام يعتبر وجود الامكان الروحى لمجموع البشر صفة كامنة ، أى أنه شىء وضع فى بناء الطبيعة البشرية ، ولا يسلم أبداً — كما يفعل الغرب — بأن الطبيعة تخضع لعملية تبدل إرتقائى كالذى يحدث للشجرة فى نموها ، ذلك لأن أساس تلك الطبيعة « أى النفس الانسانية » ليس كية عضوية فحسب ، والخطأ الأساسى فى التفكير الأوربى الحديث ناتج عن إعتبار التزايد من المعرفة المادية ومن الرفاهية مرادفاً للترقى الانسانى الروحى والأدبى ، وذلك يقوم على جحود الغربيين لوجود نفس مفارقة للمادة منفصلة عنها ومخالفة لها . أما الاسلام الذى بنى على أوجه من الادراك المطلق فإنه يعتبر وجود النفس حقيقة لا تقبل النقاش .

والسبب فى هجر الأوربيين للأفكار المطلقة ، إن الفكر الأوربى فى هروبه من الكنيسة ورغبته الخفية والظاهرة فى خلع نيرها قد مال إلى نفى فكرة الثبات على الاطلاق واستعاض عنها بفكرة التطور على الاطلاق ، وفكرة التطور المطلق لكل الأوضاع ولكل القيم ولأصل التصور الذى ترجع إليه القيم فكرة تناقض الأصل الواضح فى بناء

الكون وفى بناء الفطرة الانسانية ، فمادة الكون سواء كانت الذرة أم الاشعاع البسيط المنطلق عند تحطيمها أو أية صورة أخرى ثابتة الماهية تتحرك حول محور ثابت لا يتغير مطلقاً . ولما كانت الأمة المسلمة ذات حضارة خاصة ناتجة عن نظام خاص بحياة المسلمين ومشاعرهم ومعتقداتهم وألوان سلوكهم ، أمة ذات (أيدلوجية) خاصة فى نظرتها إلى الكون والحياة والإنسان ، ولما كان من المستحيل تصور إمكان دراسة الحياة الإسلامية والتاريخ الاسلامى دون ربطهما بالعقيدة الاسلامية ، لأن الحياة الاسلامية والتاريخ الاسلامى انبثقا عن هذه العقيدة أدركنا بعد الشقة بين مناهج البحث الغربية والاسلامية .

ويظهر أهم أوجه الخلاف بين المنهجين فى أبعاد الجانب الروحى عن مفهوم الفكر الغربى ، واختلاف زاوية النظر تبعاً لذلك بالاضافة إلى أن الغربيين يعتبرون أوربا محور العالم فكل ما هو غير غربى فهو غير جدير بالاعتبار وليس بذى قيمة وليس له من « الأصالة » فى شىء وهذه النظرة المتحيزة ذات أثر بعيد فى بحوث الغربيين فى التاريخ .

ولما كان كتاب الغرب ومستشرقوه لا يمكن أن يستوعبوا خصائص التصور الاسلامى ومقوماته الانسانية فهم لا يستطيعون أن ينفذوا إلى أعماق الحياه الاسلامية وبالتالى فهم لا يدركون الأمور ذات الطابع العقائدى التى أثرت فى سلوك المسلمين فيشوهون تفسيرها » ا . هـ .

٣ — تحامل الغرب على تاريخ العرب والاسلام

فى محاولات متعددة لكتابة تاريخ العرب والمسلمين نجد أن المتصدرين لها من غير المتخصصين ، أو من كتاب إتصلوا بدوائر الاستشراق قد حاولوا إثارة الشبهات عن طريق كتب المحاضرات وبعض المؤلفات التى كتبت للترف والتسلية وكتب الأدب وهى جميعها لم تكتب للبحث العلمى الخالص وفى مقدمتها (الأغانى) يبدو ذلك فى كتابات : فيليب حتى ، بروكلمان ، والاس أوليرى وغيرهم ، وهناك من يمر على مرحلة المدنية الاسلامية خلال ألف سنة دون أن يذكرها بكلمة واحدة ، وقد سجل هذا المعنى المؤرخ العربى المصرى « محمد عبد الله عنان » حين قال :

لا تكاد الثقافة الأوربية الحديثة تعرف شيئا عن تاريخ العرب والاسلام فى أوربا ، ولا عن تلك الدول الاسلامية الباذخة التى إزدهرت قرونا فى أسبانيا وايطاليا ، ولا عن تلك الآثار الفكرية والمعنوية التى طبعت الحضارة الأوربية فى جنوب أوربا بطابع عميق ، ما تزال أثره ماثلا فى كثير من نواحى التفكير والآداب والتقاليد الاجتماعية ، بل أن الأمم الأوربية التى قامت فى مهادها تلك الأمم الاسلامية (يقصد أسبانيا الحديثة) لا تكاد تفسح فى تاريخها كبير مجال لتلك المرحلة من التاريخ القومى ، وتؤثر دائما أن تمر عليها بمنتهى الايجاز والأغضاء وقد كانت أسبانيا حتى فاتحة القرن الماضى ما تزال تعتبر تاريخ أسبانيا المسلمة (الأندلسى) وآثارها وذكرياتها رجساً يجب أن يطهر منه تاريخها القومى ، مع أنه ليس فى تاريخ أسبانيا أبهى وأمجد من هذه الصفحة ، بيد أن البحث الحديث استطاع أن يتحرر نوعا من مؤثرات هذه النزعة القومية المغرضة . وأخذ بعض علماء الغرب منذ القرن الماضى يدرسون هذه الناحية من تاريخ أوربا والحضارة الأوربية وينوهون بأهمية الآثار الباقية التى خلفتها الحضارة الاسلامية من تراث الغرب الحديث الفكرى والاجتماعى . وقد يدهش جيلنا المثقف إذا تليت عليه بعض هذه الحقائق والتفاصيل ، ويكاد يحسب

أنه يسمع تاريخ أمة أخرى ، ذلك أن القومية الغربية قد أسبلت منذ بعيد على هذه الحقائق حجابا كثيفا من النسيان والأغضاء فاضحت تبدو فى لون الخيال والقصة . وانقطع بها عهد البحث فى الرواية العربية منذ أحقاب بعيدة . أن العوامل والنزعات الدينية والقومية قد تصوغ (هذه الحقائق التاريخية) فى معظم الأحيان فى صور من التحريف والتحامل تسبغ على قيمتها وأهميتها وأثارها فى سير التاريخ الأوربى وتكوين الحضارة الأوربية سحبا من الريب . أن الرواية الغربية تنتقص فى أحيان كثيرة من قيمة الفتوحات العربية والاسلامية فى أوربا ، وتصورها كما تصور غزوات الدول البربرية ، حملات ناهبة مخربة غير أن البحث الغربى الحديث يبدى بالعكس فى تقدير الحضارة الاسلامية وآثارها فى بناء الحضارة الأوربية كثيرا من الإنصاف والتقدير .

٤ — التاريخ والحضارات

أخطر ما يتعرض له تاريخ العرب والمسلمين « التفسيرات الخاطئة » ، سواء عن عجز عن الاستقصاء أو عن التعصب لوجهة نظر مسبقة ، ويعرض الأستاذ عبد الفتاح عويس[1] ملاحظاته بعد قراءة كتابين عن الجاحظ وابن المقفع لحنا الفاخورى : يقول :

يتعرض تاريخنا فى الأعوام الأخيرة لتفسيرات مريبة تدخل ضمن الإطار الفكرى الذى يحاول سدنته إدخاله على كل مقومات حياتنا وعناصر وجودنا . ويخيل للممعن أن هذه التيارات مهما اختلفت صورها تنطلق عن بؤرة واحدة . وتتحرك فى إطار فلكى واحد ، دفعنى إلى هذا ما قرأته فى كتابين عن الجاحظ وابن المقفع صدرا فى بيروت لمؤلفهما « حنا الفاخورى » .

وفى الكتابين لا تجد أثراً للمنهجية ، وتجد الحضارة الإسلامية وكأنها عالة على الحضارتين الفارسية والرومانية ، وكأن المجتمع الإسلامى ذيل لكل عادات وثقافة الفرس والروم ، والمعايش والقارىء لكتب التاريخ والحضارة لا يملك إلا أن يقف مشدوها أمام هذه الافتراءات التى يطلع بها أصحاب النزعات المتعصبة ويتخذون الأسلوب العلمى وسيلة للوصول إلى أغراضهم المشبوهة .

والسؤال هو : هل حضارتنا الإسلامية ثوب خيوطه من الأغريق والرومان.

وأبدأ قبل الرد على هذا السؤال فأقرر حقيقتين هامتين : أولهما : إن التزاوج والتلاقح بين الحضارات أمر لا محيص عنه وفرق كبير بين التزاوج وبين النقل المباشر ، فإن أية حضارة لا يمكن أن تنهض على فراغ ، وشأن البناء الحقيقى أن تتصل المادة الجديدة فيه بالمادة القديمة ، لا أن ينسف الحاضر الماضى نسفا تاما ، وهذا شأن الحضارات على اختلافها .

ثانيا : أن ثمة حقائق إنسانية عام مشتركة بين الحضارات ، ولا تمتلك أية حضارة أن تغير فيها أو تبدل ، وظهور هذه الحقائق فى حضارات لاحقة لا يعنى أنها مأخوذة من حضارة سابقة بل يعنى أنها حضارات سليمة البناء واكتملت لها عناصر النهوض .

---

(١) مجلة البريد الإسلامى : م ٢٥ ص ٢٢١٣ سنة ١٩٦٦ .

ويقول بعد هذا : أن الحضارة العربية الإسلامية حضارة أصيلة لم تقم على أنقاض غيرها بالمقدار الذى قلناه ، والذى لا بد منه فى كل الحضارات ، بل أن الحضارة الإسلامية على العكس من ذلك قد إبتلعت حضارات شتى وطبعتها بطابعها ، وإذا كانت الحضارات السابقة على الإسلام حضارات ذات سمات خاصة ، مادية — كاليهودية والمانوية — أو روحية كالمسيحية والبوذية ، فإن الإسلام قد أتى بحضارة خاصة لها سماتها الخاصة ، هى مادية وروحية معا . ثم أنها حضارة ذات جذور سماوية تخضع لدين إلهى ، والقول بعدم أصالتها جهل لحقيقة الدين ، وهى كذلك قد أعطت الإنسانية مفهوما جديدا عن الكون والحياة والإنسان وأصول الحضارة الحقة والعقل ومدى قدراته .

وتمتاز الحضارة الإسلامية بالعرض الزمانى والمكانى ، ومن هنا جاءت كل قوانينها عامة وشاملة وباقية ، ومعنى هذا أن هذه الحضارة تنبع من مجرى نقى أصيل ، وأن هذه الحضارة لم تأخذ عن الحضارات التى اندثرت ، وما أخذته كستة من روحها برداء القرآن . وإذا كان القرآن منبعا صافيا ، وإذا كان القرآن هو « أب » الحضارة الاسلامية الشرعى . فذلك باعتباره كتاب دين ودنيا ودستور حياة ، ولنترك المستشرق الفرنسى (جاستون كارمن) يحدثنا فيقول : أن القرآن هو منبع الدين العقلى ودستوره قد احتوى على أسس تستقند إليها حضارة العالم ، فنى إمكاننا أن نقول أن هذه الحضارة نشأت من إمتزاج الأسس التى نشرها الإسلام . إن الحضارة وإن خمدت قليلا ، فإنها لم تمت ولن تموت ، بل أن أقطاب الحضارات الحاضرة يتهيبون يوم يقظتها ويعملون لهذا اليوم ألف حساب وكل الدلائل تشير إلى أن ذلك اليوم قريب ، وقريب جدا .

٥ — معركة بلاط الشهداء

تعد معركة «بلاط الشهداء» من المواقف الحاسمة فى تاريخ الشرق والغرب ، فهى المعركة التى توقف عندها التوسع الإسلامى العربى فى أوربا . وقد رصدت كتب التاريخ الغربية هذا الموقف وحاولت أن تصوره أنه انتصار على العرب والمسلمين الذين حاولوا السيطرة على أوربا وأنه إيقاف لنفوذهم ، وهذه وجهة نظر قومية لها وجاهتها بالنسبة للأوربيين أنفسهم من خلال ثقافتهم ، ولكن ما هو موقف الفكر الإنسانى بهامة فى هذا الموقف . ويحاول العلامة الفرنسى «هنرى دى شامبون» تصوير هذا الموقف كمؤرخ عالمى فيقول :

لولا انتصار جيش (شارل مارتل) الهمجى على تقدم العرب فى فرنسا لما وقعت فرنسا فى ظلمات القرون الوسطى ، ولما أصيبت بفظائعها ولا كابدت المذابح الأهلية الناشئة عن التعصب الدينى والمذهبى ، ولولا ذلك الانتصار البربرى على العرب لنجت أسبانيا من وصمة محاكم التفتيش ، ولولا ذلك لما تأخر سير المدنية ثمانية قرون ، ونحن مدينون للشعوب العربية بكل ضمان حضارتنا فى العلم والفن والصناعة ، مع أننا نزعم اليوم أن لنا حق السيطرة على جميع الشعوب العريقة فى الفضائل . وحسبها أنها كانت مثال الكمال البشرى فى مدة ثمانية قرون بينما كنا يومئذ مثال الهمجية وأنه لكذب وافتراء ماندعيه من أن الزمان قد اختلف وأنهم صاروا يمثلون اليوم ما كنا نمثله نحن فيما مضى » .

ويقول الكاتب الفرنسى كلود فارير مصوراً وجهة نظرة فى معركة بلاط الشهداء :

«أناخت على الانسانية فى السنة الثانية والثلاثين بعد السبعمائة للميلاد كارثة لعلها أسوأ ما شهدته القرون الوسطى ، تخبط من جرائها العالم الغربى — سبعة قرون أو ثمانية قرون بل تزيد — فى لجة من الهمجية ، ثم بدأت النهضة تقشع ظلماتها فمادت حركة (الاصلاح) تزيد من جديد .

هذه الكارثة التى أريد أن يحتقر ذكراها ، هو ذلك النصر الهائل الذى أحرزته غير بعيد عن بواتيه جماعات الهركاس المتوحشين من مقاتلة الفرنك يقودها شارل مارتل على فرق من العرب والبربر وقد فشلت لأن الخليفة عبد الرحمن أخطأ فلم يحشدها أكثر مما كانت عدداً .

فى هذا اليوم المشؤوم تقهقرت الحضارة ثمانى مائة سنة وحسب الانسان أن يكون قد تنزه فى جنائن الأندلس أو خطر بين أطلال لا تزال بعد تبهر الأبصـــار من عواصم اشبيلية وغرناطه وطليطلة ليتراءى له فى شىء من الدوار المعجب ما كان يمكن أن تصل إليه فرنسا لو أن الاسلام النشيط الحكيم الحاذق الرصين المتسامح — إذ الاسلام هو كل هذا — استطاع أن ينتزع وطننا فرنسا من فظائع لا تجد لها اسماء، اجتاحت بعد ذلك الغول القديمة (النال Etanle) استعبدها بادىء الأمر الأوسترازيان، ثم اقتطع القرصان النورماند أول قسم منها ثم تجزأت وتمزقت وغرقت فى بحور من الدماء والدموع، واخلتها الحروب الصليبية من السكان وملأتها الحروب الخارجية والأهلين جثثاء كان ذلك يوم كان العالم الاسلامى يتمتع بلذة السلم من نهر (الوادى الكبير) إلى نهر المعدوس فى كنف الخلافات الاسلامية الأربع. الأموية والعباسية والسلجوقية والعثمانية[1].

ويقول العلامة جيمس بريستد : أن العصر الاسلامى فى أسبانيا كان أكبر عامل من عوامل المدنية فى أوربا وأن إنخذال المسلمين فى أسبانيا كان بمثابة إنهزام المدنية أمام الهمجية. ويقول المؤرخ ماوك سمنوف فى كتابه Histoire de Russie « لو لم يوقف شارل مارتل العرب عن السير فى فتوحهم سنة ١١٠ هـ فان الثقافة العالية التى إمتاز بها من كان يدعوهم الصليبيين بالكفار والوثنيين إحتقاراً لهم، كانت أثرت قبل الوقت فى أوربا الغربية وفى المدنية الافرنجية الرومانية. ويقول : العلامة لافيس : كم من الأحزان والآلام والجفايات كان يمكن إنقاذ الانسانية منها لو لم يقف شارل مارتل العرب عن السير فى فتوحهم سنة ١٩١٠.

° ° °

ومن هذه النصوص وغيرها يكاد ينعقد الاجماع على أن انتصار كارل مارتل على تقدم الاسلام فى فرنسا هو الذى أخر سير المدنية ثمانية قرون وأنه هو الذى أوقع أوربا فى ظلمات القرون الوسطى ومكابدة المذابح الأهلية الناشئة من التعصب الدينى والمذهبى.

---

(١) مجلة الصور الفرنسية (٢٦ أغسطس ١٩٠٩).

٦ – حريق مكتبة الإسكندرية

ما أظن أن هناك قضية إتهام للاسلام والفكر الإسلامى العربى عولجت بعقل التعصب الذى عولجت به قضية حريق مكتبة الإسكندرية فى محاولة لإلصاق هذا العمل بالمسلمين واستخلاص نتائج ذلك من اتهامات لا نهاية لها . ولقد أثار جرجى زيدان هذه القضية فى كتبه واتهم العرب والمسلمين ، كما أثارها المؤرخ إلياس ألايوبى ، وأثارها أيضا الدكتور طه حسين عام ١٩٢٤ فى جريدة السياسة تحت عنوان « خزانة الكتب بالإسكندرية وتحريق العرب إياها » مترجماً رأى أحد المستشرقين ومؤيدا لرأيه فى ذلك بقوله :

« أرى أن تحريق مكتبة الإسكندرية ليس من شأنه أن يقف دورة الفلك ولا أن يغير فى حياة العرب قليلا ولا كثيراً » وقد تصدى له أحمد زكى (باشا) وغيره من الباحثين . وقدوجد الكتاب الغربيين أنفسهم من أنصفوا العرب فى هذه القضية وفى مقدمتهم العلامة جيبون[1] فى كتابه : سقوط الدولة الرومانية حيث قال : إن هذه القرية لفقها على المسلمين « أبو الفرج العبرى » فى كتابه مختصر الدول وقد ترجم إلى اللغة اللاتينية فتلقفها أهل الغرض من الفرنجة فأذاعوها » . وأشار جيبون إلى براءة عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص من التآمر على حرق مكتبة الاسكندرية وأثبت أن الذى أحرقها إنما هم الرومان بمراكبهم الحربية فى حصارهـا لجيوش كليوباترة لقيادة يوليوس قيصر .

قال جيبون : تأكدت أنها أحرقت قبل الإسلام بمائتى عام ، وأن أبو الفرج بن العبرى لفق هـذه الفرية بعد الإسلام بنحو ستمائة سنة ، ولم يتعرض قبل أبى الفرج مؤرخ واحد لذلك ، حتى أن بطريرك الإسكندرية (افتيـكيوس) مع توسعه فى الكلام على إستيلاء المسلمين على ثغر مصر لم يذكر كلمة واحدة عن حريق عمرو بن العاص لهذه الخزانة .

وكان[1] الرحالة البغدادى قد زار مصر فى عهد الملك الكامل فنقل هـذه التهمة ،

(١) توفى جيبون عام ١٧٩٤ م .

وقد طبعت رحلته فى اكسفورد سنة ١٨٠٠ وهى محشوة بالخرافات والأكاذيب ، وقال لطفى جمعه أن كان أفاقيا (eneuturier)نظنه ينتمى إلى حلب ويسمونه « التيس الملتحى » · وقد نقض هذه الرواية وشنطون أرفنج ، وفلبه وغيرهم كما نقضها أرنست رينان الذى قال فى خطاب له فى المجمع العلمى الفرنسى : أنه لا يعتقدان عمر هو الذى أحرق خـزانة الإسكندرية لأنها أحرقت قبله بزمن طويل .

قال رينان : إن هذه الدعوى من الأغلاط التاريخية العظيمة إذ لم يكن لهذه الخزانة التى قيل أنه كان بها نحو ٧٠٠ ألف مجلد عندما فتح العرب مدينة الاسـكندرية عام ٦٤٠ ميلادية فعلى عهد البطالسة قبل الفتح العربى أصبح أمر هذه الخزانة إلى ضعف ، قسمت شطرين ، جعل كل شطر منها فى مكان مستقل لحرق الأول قضاء وقدراً عندما استولى الإمبراطور الرومانى يوليوس قيصر على الاسكندرية عام ٤٧ قبل المسيح ، وذهب القسم الثانى ، وكان جعل فى معبد سيرابيس على يد الأسقف توفيل بعد هـذا التاريخ بأربعمائة سنة بناء على الأمر الصـادر من الإمبراطور الرومانى ثيودسيوس (٣٧٩ -- ٣١٥) بالقضاء على جميع المعابد الوثنية » .

وكتب العلامة آبر سيم (١٤ اب ١٩٠٨) فى خطاب إلى الأستاذ كرد على[2] « لشد ما استحكم الوهم التاريخى زمنا بشأن عمر وخزانه الإسـكندريه ، أما أنا فـكنت من العاملين على مـكافحة هذا الوهم ، وأثبت بالبراهين التى وصلت يدى إليها ، ما أعتقد أنه هو الحقيقة .

وفى كتابه « leLivre »قال: « ولم تحرق خزانة الإسكندرية التى قال بعضهم أنه كان فيها سبعمائة ألف مجلد على يد الإمام عمر ولا بأمره كما جاء فى بعض المصادر، فإن هذه الدعوة من الأغلاط التاريخية العظيمة إذ لم يكن أثر لهذه الخزانة عندمافتحت العرب مدينة الإسـكندرية سنة ٦٤٠ ، وعلى عهد البطالسة أصبح أمر الخزانة إلى ضعف فقسمت شطرين جعل كل منهما فى مـكان مستقل لحرق القسم الأول قضاء وقدراً عندما أستولى يوليوس

---

(١) لطفى جمعة فى البلاغ الأسـبوعى عام (١٩٢٩) . (٢) ص ٢٠ الإسلام والحضارة العربية ج١ .

قيصر على الإسكندرية سنة ٤٧ قبل الميلاد ، وذهب القسم الثانى وكان وضعه فى معبد (سيرابيس) على يد الأسقف تيوفيل بعد ذلك التاريخ بأربعمائة سنة عقيب الأمر الصادر عن ثيودسيوس بالقضاء على جميع المعابد الوثنية وجعل عاليها سافلها وقد شهد بذلك (١) فوت واهلور فى كتابهما خيانات الأوربيين (٢) مسبرك : كتابه الاذعات الكاذبة (٣) استيفونس فى كتابه التفكير والأديان (٤) غر يفتنى من علماء المشرقيات فى إيطاليا (٥) بونه مورى : الإسلام والنصرانية فى أفريقيا . وقد حاول بعض الباحثين عقد المقارنة بين هذه الفريه المنقوضة على العرب والمسلمين وبين الحقيقة التاريخية التى لا تقبل النقض وهى حرق الكردينال (كسيمنس) لكتب العرب والمسلمين فى ساحات غرناطة (فى القرن الخامس عشر) وكانت ثمانين ألف مجلد ، أما الكتاب الأوربيين فيحاولون تبرئة الكردينال ويقللون من شأن خزائن الكتب التى احرقت ويقول : جورج سارطون فى هدا الصدد :

« لا بد لإثبات أن العرب حرقوا هذه المكتبة فى القرن السابع الميلادى من إثبات أولا أنها كانت موجوة فى هذا القرن ، وهذا الوجود فيه شك عظيم ، فأغلب الظن أن المسيحيين أتلفوا على الأقل جانبا كبيرا منها قبل أن يحتلها المسلمون وقبل ذلك بقرون ، فعلى أحسن فرض لا يكون أتى عليها القرن السابع يوم غزاها العرب إلا وهى صغيرة ضئيلة حقيرة بالنسبة لما كانت عليه فى غابر القرون » .

شهادة الدكتور غريفيى أستاذ جامعة فلورنسا

« أسس بطليموس الأول مكتبته فى الإسكندرية وخلفه ابنه بطليموس فلادلفوس بعده فوسع دائرة هذه المكتبة وأكمل نواقصها ، ووكل أمر إدارتها إلى أحد فلاسفة اليونان المسمى « ديمترى الفاليرى » وبقيت هذه المكتبة إلى عام ٤٨ قبل الميلاد المسيحى فأحرقها يوليوس قيصر ، بإيعاز الأسقف (ثيو فيلوس) عملا بأمر الامبراطور (ثيودسيوس) فلما جاء الفتح الإسلامى لم يكن فى الإسكندرية مكتبة تسمى مكتبة الإسكندرية ومن راجع المعاجم الأثرية الخاصة بتاريخ هذه المدينة فى دورى البطالسة والرومان تحقق صدق هذا القول . وبعد إن فتح عمرو بن العاص الإسكندرية (٢١ للهجرة الموافقة ٦٤١ م) مرت ستة قرون كاملة لم يسمع فى خلالها قول لمؤرخ مسلم أو غير مسلم أن يذكر أن عمرو ابن العاص أحرق مكتبة فى الإسكندرية .

ثم إنه بعد ستة قرون من فتح الإسكندرية ، جاء عبد اللطيف البغدادى إلى مصر ، وكتب فى آثارها تاريخه المسمى (الإفادة والاعتبار) وقال فيه : إنه شاهد عمود السوارى ومن حوله أعمدة أخرى . . إلى أن قال : « أرى أنه هو الرواق الذى كان يدرس فيه أرسطوطاليس ، وأنه دار العلم التى بناها الإسكندر وفيها كانت خزانه الكتب التى حرقها عمرو بن العاص بإذن عمر بن الخطاب » .

وكانت وفاة البغدادى سنة ٦٢٩ وبعد نحو عشرين سنة قام المؤرخ (على بن يوسف القفطى) المتوفى سنة ٦٤٦ للهجرة فوضع كتابه المسمى (تاريخ الحكماء) فذكر عبارة البغدادى التى زعم فيها أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية بإذن الخليفة عمر ، لكن عبارة البغدادى كانت كسدى الثوب ، فجاء القفطى وجمّل لها لحمة وذيولا وأهدابا . فذكر أنه كان بعد عمرو بن العاص فى الإسكندرية أسقف اسمه « يحيى النحوى » وأنه كان نصرانيا ثم لما قرأ كتب الحكمة إرتد وأنكر التثليث ، وأنه صار صديقا لعمرو وطلب منه الكتب المخزونة فى مكتبة الإسكندرية لينتفع بها فاستشار عمرو الخليفة فى أمر المكتبة فأمره بإحراقها .

وجاء بعد ذلك مؤرخون آخرون فكان بعضهم يقتبس عبارة البغدادى كالقريزى أو عبارة القفطى كابن العبرى . وأن تهمة عمرو بإحراق مكتبة الإسكندرية يناقضها ما اشتهر به من سياسة التساهل التى جرى عليها وشهد له بها أشهر المؤرخين المسيحيين الذين كانوا فى عهده كيوحنا النيقيوسى فى كتابه (تاريخ مصر) الذى وضعه باللغة الحبشية القديمة وعاش فى خلال ستة القرون بين فتح الإسكندية (٢١ هـ) وبين زمن عبد اللطيف البغدادى (٦٢٩ هـ) مؤرخون كثيرون مسلمين وغير مسلمين ، وما أحد منهم ذكر التهمة ولا أشار إليها فى مصنفه،فمن المؤرخين المسلمين : ابن عبد الحكم ، ابن قتيبة ، البلاذرى ، اليعقوبى ، الطبرى ، محمد بن موسى الكندى ، الصيرفى ، محمد بن يوسف الكندى ، أبو عمر الكندى ، عمر الكندى ، أبن ذولاق المسيحى ، القضاعى ، ابن

الصيرفى ، سعيد ابن البطريق ، المسعودى ، أبو صلاح الأرمنى ، ابن مماتى ، ياقوت الحموى أبو الفرج الأصفهانى ، الواقدى ، عماد الدين الأصفهانى ، محمد أسحق النديم .

أما غير المسلمين فهم يونان وأقباط وسريان وأرمن ويهود وافرنج ، وكل هؤلاء عاشوا قبل عبد اللطيف البغدادى ولم يذكروا فى مؤلفاتهم شيئا عن حريق مكتبة الإسكندرية بإشارة الخليفة عمر . فمن هذا جميعه استنتج المستشرقون إن هذه الرواية لا تقوم على أساس تاريخى . أما يحيى وصداقته لعمرو فهى باطلة ، لأن يحيى المذكور ويسميه اليونان (حنا فيلوبولوس) فقد كان قبل الفتح الإسلامى بقرن ، وهذا ما حققه المستشرق الدكتور يوسف فورلانى أستاذ اللغة العربية فى المدرسة الطليانية ببولاق ، ولهذا نقول أنه لا يمكن أن يكون (يوحنا) عاش كثيرا بعد سنة ٥٥٠ للميلاد . وقد كان فى هذا السن شيخا كبيرا فكيف يعيش إلى فتح الإسكندرية الواقع فى ٦٤١م وبين الحادثين (٩١ سنة) . وربما كان بعض الادلاء من العامة قد أفضى إلى عبد اللطيف البغدادى بهذه العبارات فى زيارته للديار المصرية فتلقفها منه دون تدقيق أو تمحيص . وقد جاز على البغدادى — على علمه فضله — ما ليس صحيحا من الأخبار كزعمه أن أرسطو كان يدرس فى رواق الإسكندرية .

الرد على جرجى زيدان

كتب العلامة شبلى النعمانى يرد على خطأ جرجى زيدان فى اتهامه للعرب بحرق مكتبة الاسكندرية قال : ان فن التاريخ له أصول ، وميعاد وقوعها ، ومالم تكن الرواية مطابقة لهذه الأصول الفنية فلا نلتفت إليها أصلا . منها ان الناقل للرواية لابد ان تكون شهد الواقعة فان لم يشهد فليبين سند الرواية ومصدرها حتى تتصل الرواية إلى من شهدها بنفسه ، ومنها أن يكون رجال السند معروفين بصدقهم وديانتهم، ومنها لا تكون الرواية تخالف الدراية ومجارى الأحوال ، ولذلك اهتم مؤرخو الإسلام قبل كل شىء بضبط أسماء الرجال والبحث عن سيرهم وأحوالهم وديانتهم ومحلهم من الصدق فدونوا كتب أسماء الرجال وكابدوا فى ذلك محنة يضيق عنها النطاق البشرى فعملوا كتبا غير محصورة منها الكامل لابن عدى والثقاة لابن

حبان وتهذيب الكمال للمزى وتهذيب التهذيب لابن حجر وطبقات الصحابة لابن سعد وتهذيب الأسماء للنووى وميزان الاعتدال للذهبى ولسان الميزان لابن حجر وتجد كتب القدماء من مؤرخى الإسلام كلها أو أكثرها كتاريخ البخارى وسيره ابن أسحق وتاريخ الطبرى وابن قتيبة وغيره مسلسلة الأستاذ مبينة الأسماء لتمكين نقد الرواية ومعرفة جيدها من زيفها ، وأول شىء يهمنا فى هذا البحث أن نرى : هل ذكر القفطى والبغدادى هذه الرواية مسندة وذكرا مصدر الرواية وأسماء رواتها أم لا . وأنت تعلم أن البغدادى والقفطى من رجال القرن السادس والسابع فأى عبرة برواية تتعلق بالقرن الأول يذكرانها من غير سند ولا إحالة على كتاب ، أما كتب القدماء الموثوق بها فليس لهذه الرواية فيها أثر ولا عين ، هذا تاريخ الطبرى واليعقوبى والمعارف لابن قتيبة والأخبار الطوال للدينورى وفتوح البلدان للبلازرى والتاريخ الصغير للبخارى وثقاة ابن حبان والطبقات لابن سعد ؛ قد تصفحناها وكررنا النظر فيها ، ومع أن فتح الإسكندرية مذكور فيها بقضها وقضيضها ، فليس لحريق الخزانة فيها ذكر . وعلاوة على ذلك فإن فى فتح مصر كتبا مختصة بذلك مثل خطط مصر للكندى وكشف الماليك لابن شاهين وتاريخ مصر لعبد الرحمن الصوفى ، وتاريخ مصر لابن بركات النحوى وتاريخ مصر لمحمد بن عبدالله وغيرها مما ذكرها صاحب كشف الظنون والمقريزى جمع وأوعى كل ذلك ، ولم يترك رواية ولا حيزا يتعلق بمصر إلا وذكره عند تفصيل الفتح ولم يذكر هذه الواقعة عند ذكر فتح الإسكندرية .

إن مسألة احتراق خزانة الإسكندرية موضوع مهم عند أهل أوروبا ، وقد أطال البحث فيه أثباتا ونفيا ، وممن ألم بهذا البحث إجمالا وتفصيلا المعلم (وايت) والمعلم (دساس) الفرنسى فى ترجمة كتاب الإفادة والأعتبار و (واشنكين أدونك) ودربير الأمريكى صاحب كتاب الجدل بين العلم والدين وكرجين وسيديو الفاضل الشهير الفرنسى فى تاريخ الإسلام والمعلم ريغان الفيلسوف الفرنسى فى خطبته الإسلام والعلم وأتركاين والمعلم كريل

الألمانى رسالة مستقلة فى هذا البحث قدمها فى المؤتمر الشرقى الذى إنعقد سنة ١٩٢٨ أورد فيها كل ما كتب الباحثون فى هذا البحث نفيا وأثباتا وقد طالعت كل هذه المباحثات والمقالات وعملت رسالة فى اللسان الأردى وترجمت إلى الإنكليزية ثم إلى العربية ترجمها أحد أهل الشام وطبع شطر منها فى مجلة ثمرات الفنون ومجلة المقتبس .

والحاصل أن محققى أهل أوربة قضوا بأن الواقعة غير ثابتة أصلا منهم (جيبن) — يقصد جيبون — المؤرخ الشهير الإنجليزى ودربير الأمريكى وسيديو الفرنسى وكريل الألمانى والمعلم رينان الفرنسى ، عمدتهم فى إنكار ذلك أمران (الأول) أن الواقعة ليس لها عين ولا أثر فى كتب التاريخ الموثوق بها كالطبرى وابن الأثير والبلاذرى وغيرهم مما مر ذكرهم ، أول من ذكرها عبد اللطيف البغدادى والقفطى وهما من رجال القرن السادس والسابع ، ولم يذكرا مصدراً للرواية ولا سندا (الثانى) إن الخزانة كانت ضاعت قبل الإسلام ، أثبتوا ذلك بدلائل لا يمكن إنكارها[1] .

(١) مجلة « الزهراء » . . .

٨ — مناقشة الكتب والمؤلفات

١ — آثار جرجي زيدان التاريخية

(تاريخ العرب قبل الاسلام ، تاريخ التمدن الاسلامي)

يعد جرجي زيدان أحد الكتاب الذين تابعوا المستشرقين وكتاب الغرب في الغض من شأن العرب والاسلام والتاريخ العربي الاسلامي والحضارة الاسلامية وقد وجهت إليه نقدات كثيرة وفي مقدمة من تناولوا آثاره العلامة شبلي النعماني يقول :

١ — تاريخ العرب قبل الاسلام

كان هذا الفاضل يؤلف الكتب الروائية ويأتي فيها بالممكن والمستحيل والمستملح والمستنكر ، فكنا لا نتعرض لها بمسخ أو نسخ لعلمنا أن الذي قاده إلى هذه المواقف هو إسترسال الخيال ، وهو قد يفضي بصاحبه في النثر إلى ما يفضي به في الشعر فيكون أعذبه أكذبه . على أن ما من كتاب وضعه بشر إلا وكان فيه لهوى النفس والسخائم الدينية والعصبية الجنسية به والخطأ والغفلة أثر أي أثر ، إلا ماشذ وندر ، كتب صاحب تاريخ العرب قبل الاسلام تمهيداً في مصادر تاريخ العرب قبل الإسلام وهي العربية وغير العربية من اليونانية والرومانية والنقوش الأثرية ، وقد تحامل على العرب ما شاء أن يتحامل مما يظن معه قارئه إبتداء أن أكثر مصادر الكتاب أثرية أو يونانية قديمة أو أوربية حديثة،فاذا هو قرأ الكتاب وجد نحو أربعة أخماسه عربي المصدر ، وأن لا ذكر لهذه الكتب والمعاجم إلا نزراً يسيرا في ذيل الكتاب .

الأمور التي تؤخذ على المؤلف : (١) انكاره بعض الحقائق التاريخية البديهية في موضع وتشبثه بتحقيق بعض الظنون في موضع آخر اعتماداً على أوهام وتخيلات قامت في ذهنه . ومما يؤخذ على المؤلف جسارته في وضع الأسماء والتقسيمات التاريخية مع ضعف الاستظهار كتقسيم أدوار تاريخ العرب وتسميه الأمة التي سماها استرابون اليوناني جرهئين بالقريين نسبة إلى قرية وهي اسم اليمامة قديما .

والأمر الرابع فى الأمور التى تؤخذ عليه ارتياب القارىء فى تهجينه أخبار العرب فى حوادث الفخر والغلبة ، وتصديقه خرافات إسترابون وهيردوت مع أنهما لم يدخلا بلاد العرب ولم يرياها . والأمر الخامس : سوء التعبير من الوجهة الدينية فى عبارات الكتاب كقوله « أقدم المصادر العربية المعروفة عن تاريخ العرب وأقربها إلى الصحة : القرآن » .

الأمر السادس : من الأمور التى تؤخذ على المؤلف أنه أغفل مدة حكم الفرس فى اليمن بعد ذى يزن ، والأمر السابع كثرة شكه وترددة وتناقضه فى أكثر الحوادث حتى لا يرى المطلع على كتابه خبرا مبرهنا على صحته بدليل مقنع ، يظهر ذلك ظهورا بينا فى آرائه الخاصة واجتهاداته التاريخية . الامر الثامن تحريجه الأعلام تخريجا غريبا ، قال أن امرىء القيس يظنه محرفا عن مرقس ، والأمر التاسع إختصاره التاريخ جداً وهو أحد العيوب التى عابها على مؤرخى العرب فلم يسلم هو منها[١] .

٢ — كتاب « تاريخ التمدن الاسلامى »

من إحدى عجائب الدهر أن رجلا من رجال العصر (جورجى زيدان) يؤلف فى تاريخ تمدن الاسلام كتابا يرتكب فيه تحريف الكلم وتمويه الباطل ، وقلب الحكاية ، والخيانة فى النقل ، وتعمد الكذب ، ما يفوق الحد ويتجاوز النهاية ، وانتشر هذا الكتاب فى مصر وهى غرة البلاد وقبة الاسلام ومغرس العلوم ، ثم يزداد انتشاراً فى العرب والعجم ، ومع هذا كله لا يفطن أحد لدسائسه لقد تدرج إلى ذلك شيئا فشيئا ، فإنه أصدر الجزء الثانى من هذا الكتاب وذكر فيه مثالب العرب دسيسة يتطلع بها على أحساس الامة وعواطفها ؛ ولما لم يتنبه لذلك أحد ، أرخى العنان ، وأسرف فى الحكاية فى العرب عموما وخلفاء بنى أمية خصوصا .

إنك قد نوهت بى فى كتابك وجعلتنى موضع الثقة منك واستشهدت بأقوالى وبنصوصى ، ووصفتنى بكونى من أشهر علماء الهند ، مع إنى أقلهم بضاعة ، ولكن مع كل ذلك هل كنت أرضى أن تمدحنى وتهجو العرب ، فتجعلهم عرضا لسهامك

---

(١) اقرأ البحث بتفاصيله وبراهينه م ١١ المنار ص (٨٦٣ — ٧٨٧) .

ودربه لرعك ، وهل كنت أرضى بأن تجمل بنى أمية لكونهم عربا بحتا من أشر خلق الله وأسوئهم[1] .

وهل كنت أرضى أن تنسب حريق الخزانة الاسكندرية إلى عمر الخطاب الذى شهدت بعدله الأرض والسماء ، وهل كنت أرضى بأن تمدح بنى العباس فتعد من مفاخرهم أنهم نزلوا العرب منزلة القلب ، حتى ضرب بذلك المثل ، وأن المنصور بنى القبة الخضراء أرغاما للكعبة ، وقطع الميرة عن الحرمين إستهانة بهما ، وأن المأمون كان ينكر نزول القرآن ، وأن المعتصم بالله أنشأ كعبة فى سامرا وجعل لها مطافا واتخذ منى وعرفات .

وهب أنى افتخرت كصنيع بعض الأجانب بأنى المسنى بحث عادم لكل عاطفة ووجدان، فهل كنت أرضى أن تشوه وجه التاريخ وتدفع الحق ، وتروج الكذب وتفسد الرواية وتقلب الحقيقة ، وتلفق التهم ، وتعود الناس بالخرافة ، أن فى الناس بقايا ، وأن الحق لا يعدم أنصاراً ، أن الغاية التى يتوخاها المؤلف ليست إلا تحقير الأمة العربية ، وإبداء مساويها ، ولكن لما كان يخاف ثورة الفتنة ، غير مجرى القول ، ولبس الباطل بالحق ، وبيان ذلك أنه جعل لعصر الإسلام ثلاثة أدوار : دور الخلفاء الراشدين ، ودور بنى أمية ، ودور بنى العباس؛ فمدح الدور الأولى وكذلك الثالث ، ولما غر الناس بمدحه الخلفاء الراشدين ، وبمدحه لبنى العباس وهم أبناء عم النبى ، وبهم نخارنا فى بث التمدن وأبهة الملك ، ورأى أن بنى أمية ، ليست لهم وجهة دينية ، فلا ناصر لهم ، ولا مدافع عنهم ، تفرغ لهم ، وحمل عليهم حملة شعواء ، فما ترك سيئة إلا وعزاها إليهم وما خلى حسنة إلا وابتزها منهم ، ثم لو كان هذا لأجل أنهم من آل مروان أو لكونهم من سلالة أمية لكنا فى غنى عن الذب عنهم ، والحماية لهم ، ولكن كل ذنبهم « أنهم العرب » على صرافتهم ما شابتهم العجمة مطلقا .والمؤلف على إنفاق باطلة أطواراً شتى ، منها تعمد الكذب وتعميمة لواقعة جزئية والخيانة فى النقل وتحريف الكلم عن موضعه . ومنها الاستشهاد بمصادر غير موثوقة ، مثل كتب المحاضرات والفكاهات .

وغير خاف على من له إلمام بتاريخ الفرس والعرب أن الفرس كانت قبل الإسلام

---

(١) العلامة شبلى النعمانى : المنار سنة ١٩١٣ .

تحتقر العرب ، ثم جاءت الشريعة الإسلامية ماحية لكل فخر ونخوة . وقال الرسول في خطبة الوداع : إن لا فضل للعربي على العجمي ، ولا للعجمي على العربي ، حينئذ ارتفع التمايز وتساوى الناس ، ولكن مع ذلك بقيت في بعض الناس من كلا الطرفين حزازات كامنة في صدورهم سببا لحدوث حزبين متعاملين يسمى أحدهما « الشعوبية » وهي التي تحتقر العرب وترميه بكل معيبة ، حتى أن أبا عبيدة صنف كتبا عديدة يطعن فيها على أنساب كل قبيلة من قبائل العرب ، والثاني المتعصبون للعرب .

وقد عقد العلامة «ابن عبد ربه» في كتابه « العقد الفريد» بابا في حجج كلا الطرفين وأقوالها . ومعظم ما نقله المؤلف (جرجي زيدان) في إثبات عصبية العرب هي أقوال ذكرها صاحب العقد في هذا الباب وإذا صفحت الكتب يظهر لك أن الأقوال التي نسبها إلى العرب عموما إنما هي أقوال شرذمة خاصة موسومة بأصحاب العصبية ، وصاحب العقد حينما ذكر هذه الأقوال صدرها بقوله « قال أصحاب العصبية من العرب » وأنت تعلم ان هذه العصبية ليست كافة العرب ولا أكثرها ، بل ولا عشر معاشرها ، ثم أن المؤلف ما اقتنع بذلك بل ربما نسب قول رجل معين معلوم الاسم إلى العرب عامة[1] .

والمقصد الذي جعله المؤلف نصب عينه ومرمى غايته هو أن الأمة العربية إذا بقيت على صرافتها فهي جامعة لجميع أشتات الشر ، ولكن لما كان لا يقدر على إظهار هذا المقصد تصريحا إحتال في ذلك فغمض المذهب وجمل الكلام طيب الظاهر ، بأن قسم عصر الإسلام إلى ثلاثة أدوار ، فمدح سياسة الخلفاء الراشدين وقال بعد مدحها « على أن سياسة الراشدين ليست على الإجمال مما يلائم طبيعة العمران أو تقتضيه سياسة الملك وإنما هي خلافة دينية توفقت إلى رجال يندر اجتماعهم في عصر ، فأهل العلم بالعمران لا يرون هذه السياسة تصلح لتدبير الممالك في غير ذلك العصر العجيب وأن انقلاب تلك الخلافة الدينية إلى الملك السياسي لم يكن منه بد »[2] فأثبت بذلك أن سياسة الخلفاء الراشدين ليست فيها أسوة للناس ، وأنها من مستثنيات الطبيعة ، أما دور العباسيين فمدحه ، لا لأجل أنها دولة

---

(١) ذكر العلامة شبلي النعماني عديد من الأمثلة . اقرأ للنار ١٥ من ص ٥٨ وما بعدها .
(٢) تاريخ التمدن الإسلامي : الجزء الرابع ص ٢٩ ، ٣٠ .

عربية ، بل لكونها فارسية مادية وقواما ، ومؤتلفا ونظاما وصرح بذلك فقال « دعونا هذا العصر فارسيا ، مع أنه داخل فى عصر الدولة العباسية لأن على كونها « عربية » من حيث خلفائها ولغتها وديانتها فهى فارسية من حيث سياستها وإدارتها ، لأن الفرس نصروها وأيدوها ثم هم نظموا حكومتها ومنهم وزراءها وأمراءها وكتابها وحجابها[1] .

ثم أشار فى غير موضع إلى أن الدول العربية الساذجة إنما هى دول بنى أميه ، فقال: « وجملة القول ان الدولة الأموية دول عربية . . » وظل العرب أيام بنى أمية على بدواتهم وجفائهم ، ولما أثبت أن خلافة الراشدين لم تكن تلائم النظام الطبيعى ، وأن دول بنى العباس دولة فارسية وأن الباقية على صرافتها هى الدولة الأموية ، أخذ يعدد مثالب بنى أمية تحت عنوانات مستقلة منها :

(١) الاستخفاف بالدين وأهله . (٢) الاستهانة بالقرآن والحرمين . (٣) الفتك والبطش . (٤) قتل الأطفال . (٥) خزانة الرءوس ، وأتى فى مطاوى هذه العنوانات من الأفك والاختلاق والتحريف والتبديل بما تجاوز الحد وخرج عن طور القياس .

وبالجملة فإن المؤلف قد تعمد التحريف والكذب لأجل تحقير العرب الكتاب .

نقد تاريخ آداب اللغة العربية للأستاذ أحمد الاسكندرى

المؤلف كثير النقل من مستعربى الافرنج من غير تمحيص لدعواهم ، فيه كثير من صور فلاسفة اليونان ونقله السريان وصور خيالية لخرافات أهل القرون الوسطى من الافرنج[2] وأهم الأمور التى تؤخذ على الكتاب (١) الخطأ فى الحكم الفنى ، أى أنه يقرر غير الحقيقة العلمية سواء كان ذلك بقصد من المؤلف أم بغير قصد . (٢) الخطأ فى الاستنتاج ، وهو ما يعذر فيه المؤلف لأنه إجتهاد من عند نفسه ، فإن أصاب فله الشكر وإن أخطأ فمن الذى ما ساء قط (٣) الدعوى بلا دليل وهو ما يقرره المؤلف من غير التدليل عليه وقد يكون فى ذاته صحيحا ، ولكن فى سوقه ساذجا مجالا للشك . (٤) الخطأ فى النقل فى عبارات المؤلفين بقصد إحضارها أو من يشرعه فى الجمع وقلة مراجعة الأصول . (٥) قلة تحرى الحقيقة

(١) نفس المصدر ص ١٠٦

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية م ١٦ للنار أحمد الاسكندرى .

بمراجعة الكتب المعتبرة ، والتواريخ الصادقة ، ووزن كل عبارة بميزان العقل والانصاف وقياس الأمور باشباهها بل كثيرا ما تروج عند المؤلف أقوال الخصوم من خصومهم وأقوال الكتب الموضوعة لأخبار المجان أو لذكر عجائب الأمور وغرائبها . (٦) الاستدلال بجزئية واحدة على الأمر الكلى وهو كثير الحصول فى جميع كتب المؤلف . (٧) تقليد المستشرقين فى مزاعمهم أو نقلها عنهم عن غير تمحيص . (٨) اضطراب المباحث وصعوبة استخراج فائدة منها لاختلال عبارتها أو لعدم صفاء الموضوع للمؤلف .

* * *

٣ — ونقد « تاريخ التمدن الاسلامى » — العلامة رفيق العظم[1] .

(١) أخذك ببعض الأحاديث الضعيفة معتمدا منها على ما نقله المؤرخون وقلما يعتمد على ما ينقلون من الحديث تنير سند صحيح لتفشى الموضوعات فى كتبهم لندرة من اشتغل منهم برواية الحديث ، على أن عذرك فى هذا واضح ، وهو أنك مؤرخ وأكثر ما تعتمد على كتب المؤرخين واللوم من سبق فى نقل الضعيف أو الموضوع فى الحديث .

(٢) إجمالك فى بعض المواضع التى تقتضى البسط وأهمها[1] اعند كلامك على العلوم التى اشتغل بها العرب فى أبان مدنيتهم وما أخذوه منها عن غيرهم ، فقد كان بودى أن تتبسط فى هذا الباب بأكثر مما تكلمت عليه مبينا ما كان لهم من اليد البيضاء فى ترقى العلم وحل بعض مسائله التى إليهم مرجع حلها ولهم الفضل فى السبق إليها على أسلوب مطول شاف كما فعل المؤرخ سديو عند كلامه على مدنية العرب ، على أنك تفضله بأنك تعزو إلى مآخذك من كتب العرب وأنه لا يعزو فأنت تفضله فى هذا .

(٣) إكثارك من جمع مثالب الأمويين ودولتهم العربية لا سيما فى الجزء الرابع من التاريخ ، حيث يرى القارىء أن القسم المختص منه ببنى امية عار عن مآثر القوم إلا فيما لا يشكرون عليه كأنما هو خاص بمثالبهم فقط ، على أنه أكثر ما جاء فى هذا الباب ، وإن

---

(١) الهلال — اكتوبر ١٩٠٥ .

كانت التبعة فى نقله على من سلف من نعته المؤرخين لا عليك فهو أن صح كله فليس من العدل أن ننسى أن الدولة بدويه لا تخلو من شائبة الغلظة ، وأن الخلق الطبيعى فى الانسان لا يؤاخذ عليه بقدر ما يؤاخذ على الخلق المكتسب ، فغلو بنى أمية بالعصبية للعربية مثلا ، انما هو خلق طبيعى فيهم متأصل فى العرب بتأصلهم فى البداوة ولم يستأصل الاسلام جذوره من نفوس القوم إلا بعد اختلاطهم بالامم اختلاط مصاهرة ونسب . يضاف إلى هذا أن الدولة يومئذ كانت دولة فتح وتأسيس ، وأن آرائك فى بنى أمية مهدت الظن بأنك منحاز لغير العرب ، لذا أطريت الدولة العباسية لأنها أعجمية أكثر منها عربية ، وذهبت إلى أن الفضل فى رقيها العلمى والمدنى راجع إلى غير العرب ، وأمثال هذه الشوائب تأتى متفرقة فى تاريخ الدول والشعوب التى يتخلله كثير من المآثر المشكورة والأعمال الجليلة[1] .

(١) هذه الاراء ستضاف إلى دراستى عن جرجى زيدان اذا ما اعيد طبعها

٢ — نقد كتاب تاريخ العرب « فيليب حتى »

ما زال كتاب تاريخ « العرب » للدكتور فيليب حتى ، مرجعا من المراجع الهامة التى يعتمدعليها الباحثون وأساتذةالجامعاتوالكتاب ، كمصدر سهل ميسور بالرغم مما يحمل فى تضاعيفه من أخطاء وشبهات ، وقد حاول الدكتور عبد العزيز الدورى مواجهة انحرافات هذا الكتاب فى دراسة شاملة فأشار إلى أن تسمية مؤلفه له (تاريخ العرب) تشعر بوجهة نظر مؤلفه الخاصة ، فلم يسمه تاريخ الاسلام مثلا ، وهى تسمية تباين الكتاب فى استعمالها بحسب تقديرهم لطبيعة هذا التاريخ ، ومع أن نظرته لدور العرب الحضارى فيها مجال لإعادة النظر ، إلا أنه يشعرك بأن العرب هم محور هذا التاريخ وقاعدته ، أما مادة الكتاب فلا تشعر بوجهة نظر تاريخية ، ولكنا نشعر أن مؤلفه وقع تحت تأثير مصادره أكثر مما نشعر بوجهة له ، ونحن نرى فى بعض نواحى الكتاب تلخيصا لآراء حديثة لبعض المستشرقين أوردها لبعضهم تبين أنها واهية . لم يحاول المؤلف وضع مفهوم جديد للفتوحات ولم يخرج عن هيكل نظرية « كايتانى » رغم ما تعرضت له من هزات .

وتحدث المؤلف عن مناحى الحياة الفكرية فى العصر[1] الأموى وردد مع غيره أن العرب الفاتحين لم يكن لهم « أى ثقافة أو تراث فكرى » وأنهم تعلقوا بحضارة الأمم التى غلبوها فنقلوا عنها ، وكانوا مهرة فى النقل وأظهروا قابلية للغذاء العقلى . ويرى أن شجرة الفكر (العربى) التى ازدهرت فى العصر العباسى تأصلت جذورها فى ثقافات العهود السابقة فى الاغريق والفرس واليونان . ونحن نعرف النشاط الفكرى فى العصر الأموى كما بان فى عرف المؤلف نفسه — فى الدراسات العربية والاسلامية ، وظهر فى مراكز عربية صرفه وهى المدينة والكوفة والبصرة ، وأن الخطوط العامة لهذه الدراسات وضعت فى العصر الأموى ، أما الأخذ عن الحضارات القديمة فكان فى حقل الادارة (خاصة الضرائب) وإن تسربت بعض الآراء فقد كان ذلك عرضا وبطريق الاتصال الشفوى . ولم يحصل الأخذ المنظم إلا فى زمن العباسيين ، وهذا يصدق على « علوم الأوائل » ولا يمكن تعميمه على نواحى الفكر المختلفة .

---

(١) تاريخ العرب ص ٣٠٨ وما بعدها .

ويتابع (فيليب حتى) نفس الوجهة حين يتحدث عن « الأندلس » فهو يرى أن سبب تأخر أسبانيا فى نشوء فقه اللغة العربية والعلوم الدينية وكتابة التاريخ « لأنه لم يكن عند الأسبان أهل البلاد من العلم والفن ما يفيدون به العرب بخلاف ما كانت عليه الحالة فى الشام والعراق حين دخلهما الفاتحون[1] » ، ونسى المؤلف أن مراكز الدراسات العربية الاسلامية كانت فى المدن العربية الخالصة وليس فى المدن القديمة كدمشق والاسكندرية ، وأنها كانت على يد العرب ولم يشارك فيها غير العرب جدياً إلا بعد أن تعربوا . وبعد هذا يحق لنا أن نتساءل : هل أن العرب خرجوا من الجزيرة وهم دون أى ثقافة أو تراث فكرى ، وماذا حل بعرب المدن فى جنوب الجزيرة وشمالها . إن النقوش تكشف لنا تدريجيا عن نواح حضارية كانت مجهولة لدينا ، كما أننا تحت تأثير مصادرنا — لم نعن بدراسة أثر عرب الجنوب فى الحضارة العربية ، وإذا كانت معلوماتنا الآن محدودة فإن هذا لا يخير لنا الحكم السلبى .

كتابة التاريخ عند العرب

ويذهب (فيليب حتى) إلى أن لكتابة التاريخ عند العرب أصول شيدت على أسس الطريقة الفارسية[1] . ويقول الدكتور الدورى : وقد تبين لى من دراسة نشأة علم التاريخ عن العرب أن هذا العلم عربى النشأة والأصول ، وأن خطوطه الأساسية تحددت قبل الترجمة عن الفارسية ، ولذا فإن قوله بأن قول فيليب حتى بان « المثال » الذى إحتذاه المؤلفون فارسيا فى الأصل على طريقة (خداينامه) مردود ، لأننا نعرف أن كتابة التاريخ على أساس السير وعلى أساس الأسر الحاكمة عرف قبل ترجمة « الخداينامه » وقد بدأ علم التاريخ عند العرب من أصول تتصل بدراسة الحديث (المغازى) من جهة ، ومتابعة الاهتمام الموروث من الجاهلية بالأيام كما ظهر لدى الاخباريين .

---

(١) ص ٦٧١ من المصدر نفسه .

٣ - ويقول الدكتور الدورى أن ما أورده حتى عن المذاهب الفقهية فيه قلق ، ومن الحديث يشعر بأنه لم يدقق ولم يستفد من بعض الباحثين البرزين ، وما كتبه عن الاسماعيليه والقرامطة يعكس ببساطة بعض الروايات الشائعة ، وكأنه لم يستفد من الدراسات الحديثة ، وحديثه عن الشيعة قلق ، وهو أحيانا يلخص بعض المعلومات عن المصادر الأولية دون نقد ، وتفسيره لانتشار الاسلام بأسباب مادية (ص ٤٤١) يحتاج إلى إعادة نظر ، وقد فاته أن انتشار الاسلام فى أدوار ضعفه السياسى كان أوسع من انتشاره قبل ذلك ، ويكفى أن تشير إلى كتاب أرنولد « الدعوة إلى الاسلام » .

وتفسيره للشعوبية (ص ٤٨٨) بعيد كل البعد عن تحليل دوافعها واتجاهاتها ، فهو يراها مجرد دعوة للتسوية فى حين أن الحركة لها جذور عميقة فى الوعى القوى والدينى للشعوب الأخرى ، وخاصة الايرانيين وأنها بدأت بنبرة التسوية فى العصر الأموى فإنها سرعان ما انتقلت إلى تفضيل العجم على العرب وإلى مهاجمة التراث والكيان العربى الاسلامى وكانت وثيقة الصلة بالزندقة . ولكنها برزت فى حركة أدبية فكرية قوية .

كما قبل المؤلف أسطورة العباسة لتفسير نكبة البرامكة دون تمحيص .

(١) ص ٣٨٢ من نفس المصدر .

وجهة النظر التغريبية فى قضايا الفكر العربى

صدرت مجموعة من الدراسات باللغة العربية بأقلام عربية تحاول أن تنقل وجهات النظر التغريبية فى مجال القرآن والاسلام وأصول الدين ومفاهيم الاجتماع . هذه المؤلفات لم تستهدف أكثر من جمع نتف وسطور مختلفة منوعة منثورة هنا وهناك فى عديد من كتب المحاضرات والفكاهات ومجموعات التراث التى ضمت فنونا مختلفة ، والتى جمعت خلال فترة الضعف التى مرت بالعالم الاسلامى دون تحقيق أو كتب الأدب والشعر وفكاهات المجالس وأحاديث الندمان . وقد جرت هذه المحاولة بغرض غير علمى ، وانما وفق هوى خاص ، يستبطن غرضا واضحا ، أو هدفا معينا ، ثم يبحث عن النصوص والأدلة التى تؤيده . وقد كتبت هذه المؤلفات فى ظل ظروف معينة فى خلال فترة سيطرة النفوذ الأجنبى أو بتوجيه من جهات معينة ، أو فى ظل إشراف بعض الأساتذة الأجانب أو دعاة التغريب من تلامبذهم .

هذه الكتب قدواجهها الفكر العربى الاسلامى بالرفض ، وفنّـد ماجاء فيها ، وكشف زيفها ، فلم تستطع الحياة، لأنها خالفت المقومات الأساسية للاسلام للثقافة العربية فى إصالتها ووضوح جوهرها وصفاء مفاهيمها .

فى كتاب «هذى هى الأغلال» يعتبر مؤلفها: «الأديان» هى سبب انحطاط كل من دان بها وأن الاسلام هو الذى أخر أهله عن ملاحقة ركب الحياة . وقد عظم المؤلف الإلحاد والملاحدة ، وروج لآرائهم ، حين ردد ما ذكره أمثال كوجستان من قوله أن الإيمان وحده كان نكبة على البشر ،وأن البشرية لم تخط خطواتها الصحيحة القوية إلا فى عهد الوثنية .

كما طعن المؤلف فى الأخلاق الدينية ، وأنكر أنها سبيل المجد والعزة ، ودعا إلى استبدالها بالأخلاق التجارية والمادية ، وحقر المتمسكين بالدين وأتهمهم بالعجز ، وجرح السلف الصالح واعتبر الاقتداء بهم جهلا فاضحا . وطعن فى كثير من الأحاديث النبوية ،

١ — « الدين والضمير »

وفى كتاب الدين والضمير يرى مؤلفه : أن الدين للعوام ، ولا لزوم له عند المثقفين ، ويرى أن الإنسان متى عنى بإصلاح ضميره فلا عليه بعد ذلك إن هو أهمل العبادات إذ هى فى نظره الأشكال والرسوم ، وهناك من يحاول أن يطبع الاسلام بطابع البوذية ويتخذ من طابع الروحية الخالص عند تولستوى أو غاندى أو من بعض عبارات السيد المسيح السمحة دعوة إلى شجب جزئية من جزئيات الاسلام وسبيلا إلى تجريد الإسلام من مقوم من مقوماته كالطعن فى آيات الجهاد ، أو التشريع أو تعطيلها ، أو إخضاع القصص فى القرآن للفن القصصى واتهامه بالاضطراب التاريخى ، أو وصف الاسلام بأنه دين روحى لاصله له بالمجتمع أو المدنية أو الفكر . وقد ظهرت طوائف من هؤلاء فى تاريخ الإسلام الطويل أطلق عليهم لقب « المعطلة » .

ولم تبق هذه الشبهات قائمة ، بدون تفنيد أو كشف لزيفها .

فى مسألة الدين والضمير يقول « عبد المنعم خلاف » : شاعت فى هذا العصر خاصة الدعوة إلى الاستغناء عن الأديان ذات العقائد المرتبطة بالكون وخالقه والإنسان ووضعه ومصيره وذات الرسوم والشعائر والعبادات ، اكتفاء بالضمير الإنسانى الوازع إلى فعل الخير والبر وحسن المعاملة والتماسك أمام الشهوات . وفى رأى أصحاب هذه الدعوة أنها جديرة إذا اعتنقت أن تمحو كثيرا من أسباب الخلاف والنزاع والحروب التى تنشب بين الناس بسبب إختلاف العقائد والأفكار حول الكون والخالق والنبوة والرسالة وتفسير الحياة والموت . وبيان وضع النفس ومصيرها فى الكون . وقد ذهب أصحاب هذه الدعوة قدماء ومحدثين إلى أن الصفوة الممتازة من ذوى العقل والعلماء المنتهين لا تحتاج إلى الدين ، وإنما تحتاج إليه جماهير الناس من صغار العقول والجهلاء والدهماء ومن يلهيهم السعى لسد حاجات عيشهم المادى فى أدوار حياتهم إلى نهايتها عن التفكير فى مسائل العقائد الدينية ، كما ذهبوا إلى القول بأن الفضيلة ثوابها وقيمتها فى ذاتها لا فى جزائها التى تمد به الأديان ، وأن فعل الخير وترك الشريعة ذاتها بل للجزء عليهما لا يفيد تهذيبا ولا فضيلة .

وأن الاعتقاد فى هذه الرغبات من الخير، ومن الزواجر عن الشر، ليس خرافة ووهما ضاراً فقط، بل هو مفسدة للعقول، وخاصة عقول الأطفال.

ورأى القرآن قاطع فى أصحاب الفضائل والأعمال النافعة ممن لا يؤمنون بالله وحده. فقد قضى أن من يخرج على ذلك تهدر قيمة فضائله الذاتية وأعماله الخيرة.

ويجب التفرقة بين وظيفة العقل ووظيفة الضمير، ومجالات كل منها، فللضمير حساسية بالخير والشر، والمعروف والمنكر، وهو الذى وضع قائمة الأخلاق والفضائل لحل مشكلة التعايش بين الناس هنا فى الدنيا، أما العقل فمجاله البحث عن الأسباب والأسرار لحل مشكلات الفكر والاعتقاد، ومن هنا يثبت القصور والعجز لدى المذاهب المادية الإلحادية المعاصرة التى تحاول حبس التطلع العقلى الانسانى فى البحث عن حلول لمشكلة العيش وحدها بدون نظر لما وراء العيش المادى المرقوت المحدود من مسائل عقلية حول الكون وما وراءه وعلاقة الإنسان به ومبدأ كل منهما ومصيره.

نعم؛ أن حياة الضمير الوازع إلى الخير والزاجر عن الشر هى خلاصة حياة التدين العملى وهى التى تعنى المجتمع، ولكنها ليست كل شىء حياة التدين على اطلاقه، بل ليست أهم شىء فيه، ولا بد لها من إطار عقلى صحيح، صحيح أن الناس تعودوا ألا يفرقوا بين الايمان والعمل عند الحكم على دين الأشخاص، لأن العمل هو جسم الايمان والايمان هو روح العمل، غير أن ذلك لا يبيح لنا أن نقول أن العمل الصالح هو كل الدين، وأنه يغنى صاحبه من اعتناق العقيدة الصحيحة التى تنسجم مع بناء الكون ومنطق العقل، ومن أتباع الشعائر والمراسم التى وضعتها تلك العقيدة للعبادات تنظيما وتنسيقا وعلامات فى حياة المؤمنين وطابعا وشعاراً لمناسكهم وتدريبا لهم على فضائل معينة، وليست الشعائر والمراسم إلا تدريب النفوس على التلاقى فى نظام وتناسق جماعى على مظهر من مظاهر العبادة، وإلا اخضاعها لقواعد عامة لتلك الأفراد وتنتظمها جميعا، كذلك لا يعنى أحداً أن يكون فاضلا صالحا ذا ضمير حى وعمل نافع عن أن يؤدى الشعائر والعبادات التى وضعها ونظمها الدين ليؤديها الأفراد والجماعات. كذلك لا يغنيه عمله الصالح وفضله الذاتى عن أن يقدم الاعتراف بسيد الكون أولا. ورأى القرآن فى هذا وهو الرأى الحاسم. « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء».

٢ — شبهة مفهوم الجهاد والدعوة إلى إيقاف آياته

كانت (آيات الجهاد) فى القرآن تلق من الاستعمار فى فترة إحتلال العالم العربى حرباً عنيفة ، فقد كانت الدعوة إلى جهاد المستعمر عن طريق مفاهيم الإسلام من أخطر الأسلحة التى قاومت بهـا الأمة العربية النفوذ الأجنبى • حتى حرم المحتلون الفرنسيون فى الجزائر تدريس الجهاد فى آيات القرآن أو فى أبواب الفقه .

يقول الدكتور ... عام ١٩٣٣ فى رسالة إلى مجلة الفتح :

إن هؤلاء الأوربيين الفاتحين المتعصبين ، ما زالوا يخوفون عبيدهم من كلمة الجهاد ويعدون ذكره فضلا عن فعله من أعظم الذنوب، وأنه هو آية الهمجية والتعصب الدينى المقوت ، وبلغ ببعضهم الأمر أن حرموا على المسلمين تفسير آيات الجهاد فى كتب الفقه ، وبعينى شاهدت صحيفة الإذن (بالتدريس) « Permoton » التى حصل عليها شيخنا : محمد بن حبيب الله الشنقيطى رحمه الله فى مدينة المشربة من قسم وهران فى الجزائر وفيها « إن الإذن بتدريس علوم الدين مقيد بأن المدرس لا يفسر أى آية أو حديث يدل على الجهاد، وأن لا يدرس شيئاً من أبواب الجهاد فى كتاب الفقه » ولما راجت دعاية هؤلاء فى الشرق صار المسلمون ينفرون من لفظ الجهاد ، مع أن الجهاد موجود فى شريعة موسى ، وهم يدرسون فى كتبهم وقصصهم الدينية الجهاد المحمدى على أنه أرحم جهـاد وقع على وجه الأرض».

وهكذا كان الغربيون ومن تبعهم من كتاب العالم العربى يضيقون بكلمة الجهاد ، الذى كان عنصر مقاومة فعال خلال احتلال أرض العرب والمسلمين بالعدو ، أما بعد أن سقط النفوذ الاستعمارى وأحرزت أمم العالم الإسلامى حريتها وقامت فيها حكومات فان أمر الجهاد قد أصبح موكولا إلى الجيوش الرسمية التى تقوم بسد الثغر وحمايتها من العدو .

وقد اعتبر كثير من الفقهاء « الجهاد » : الركن السادس للاسلام ، فقد أمر الشارع بالجهاد صوناً لكيان الأمة الإسلامية من أن يعتدى عليه ، وحفظاً لحدود الدول الإسلامية

(١) مجلة الفتح م ٧/٣٨٤

من يخترقها العدو ، وقد قام به المجاهدون فى فترة الكفاح الوطنى لمقاومة الاحتلال والاستعمار ثم أصبح بعد موكولا لجيش كل أمة ، ولن تموت كلمة الجهاد فى كل عصر ، فإن العالم العربى اليوم يواجه خطرين كبيرين : (١) خطر الصهيونية (٢) خطر عودة النفوذ الأجنبى ؛ ولذا فإن كلمة الجهاد ستظل باقية قائمة فى حدود هذا المضمون ، فإذا وقع العدوان على الوطن ، كان فرض عين على كل مواطن أن يحمل السلاح ويجاهد فى ظل التنظيم الذى تقيمه الدولة لذلك . وقد عرض الإسلام لهذا المعنى فأشار إلى أن الزوجة تخرج إليه بغير إذن زوجها والعبد بغير إذن سيده ولذلك فإن شبهه الكلام عن توقف الجهاد واستسلام الأوطان باسم الدعوة إلى التولستوية أو غيرها من الدعوات فهو قول مردود . يقول الأستاذ محمد اسماعيل ابراهيم فى كتابه : « الجهاد ركن الإسلام السادس » فى المعنى الفقهى للجهاد : « الجهاد » بمعنى القتال وهو الذى حث عليه الدين لإعلاء كلمة الله والجهاد بمعنى مجاهدة النفس لعلاجها وتقويمها والسمو بها . . . وقد جاء فى حديث النبى صلى الله عليه وسلم إن الجهاد بمعنى القتال هو الجهاد الأصغر وأن جهاد النفس هو الجهاد الأكبر ، وقد اختار الإسلام كلمة «الجهاد» بدلا من القتال والحرب لما فى لفظ «الجهاد» من دلالة على سمو الغاية ونبل القصد من القتال فى سبيل الله ونصره الدين . وتدل كلمة الجهاد على أن الإنسان وهو يعد نفسه للقتال ونزال الأعداء إنما يجاهدها ويروضها دائما على أن يكون قتالا خالصاً لوجه الله .ولا فرق بين الجهاد لحماية الدين وإعلاء كلمته والجهاد لحماية الوطن من مستعمر ومغتصب . فإذا جلا المستعمر ، كان الاستعداد للجهاد فرض كفاية يقوم به رجال الجيش وحدهم ، وفى القرآن الكريم آيات كثيرة وصريحة فى الدعوة إلى الجهاد وإعداد القوة الحربية لصد الأعداء وإرهابهم .

ويجب أن لا يفهم من فرض الجهاد فى سبيل الله أنه من أجل قتال غير المسلمين ظلما وعدواناً ، أو إكراهاً على أن يكونوا مسلمين ، أو من أجل مطامع فى غزو أو توسع ، أو حصول على غنائم ، فذلك أبعد ما يكون عن رسالة الإسلام .

والإسلام قد استبدل لفظ الحرب وغيرها من الكلمات التى تؤدى معنى القتال واستبدل بها كلمة الجهاد التى تؤدى معنى « بذل الجهد والسعى به لأنها أبلغ أثراً .

٣ — شبهة تجزئة مفهوم الإسلام

حاولت النظرية التغريبية أن تفرض على الإسلام مفهوم المسيحية الغربية في الفصل بين الدين والدنية ، أو بين العبادات والمعاملات أو بين الجوانب الروحية والجوانب الاجتماعية والتشريعية . وحاولت ذلك في مناسبة عرضت لذلك ، كانت هذه المناسبة سياسية وتتعلق بالخلافة . ونحن لا نعرض هنا لموضوع الخلافة إلا من حيث أنه حقيقة تاريخية أى من ناحية قيام الخلافة الإسلامية فعلا بعد النبي وامتدادها وتلك حقيقة تاريخية لا سبيل إلى الشك فيها أو إنكارها ، ولقد كانت حركة الخلافة عام ١٩٢٤ فرصة لبروز تيار فكرى يحمل لواء الدعوة إلى تجزئة مفهوم الإسلام كما فعل مؤلف كتاب الخلافة وأصول الحكم . وبعض من جاء بعده من الكتاب العرب والمسلمين وقد كان ذلك من أهداف التغريب التي يسعى إليها ويحاول أن يمكن لها بغية القضاء على وحدة مفهوم الفكر الإسلامي الجامع بين المادة والروح والدين والدنيا والعقل والقلب .

وقد حاول الشيخ على عبد الرازق تجزئة مفهوم الإسلام حين وصف الشريعة الإسلامية بأنها شريعة روحية محضة ، لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ في أمر الدنيا وعبارته (ص ٨٥) إن كل ما جاء به الإسلام من عقائد ومعاملات وآداب وعقوبات فإنما هي شرع ديني خالص لله تعالى ولمصلحة البشر الدينية لا غير .

ثانيا : إن ما جاء به الإسلام إنما هو للمصلحة الأخروية لا غير أما المصلحة الدنية أو المصلحة الدنيوية فذلك مما لا ينظر الشرع السماوي إليه .

ثالثا : الشريعة الإسلامية شريعة روحية محضة جاءت لتنظيم العلاقة بين الإنسان وربه فقط . أما ما بين الإنسان من المعاملات الدنيوية وتدبير الشئون العامة فلا شأن للشريعة به وليس من مقاصدها .

رابعا : إن جهاد النبي كان في سبيل الملك لا في سبيل الدين ولا لإبلاغ الدعوة إلى العالمين .

خامسا : إن نظام الحكم في عهد النبي كان موضع غموض أو إبهام أو اضطراب وأن

ولاية محمد كانت ولاية الرسالة غير مشوبة بشيء من الحكم وأن مهمة النبي كانت بلاغا للبشرية مجردا عن الحكم . (وهذه الدعاوى الخمس باطلة ويعد عرضها بهذه الصورة تحريف لمفهوم الإسلام وتجزئة له) .

وقد دحض السيد رشيد رضا هذه الشبهات فقال : إن الدين الإسلامي بإجماع المسلمين هو ما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وسلم من عقائد وعبادات ومعاملات لإصلاح أمور الدنيا والآخرة والخلافة معناها رئاسة الحكومة الإسلامية الجامعة لمصالح الدين والدنيا ، وقد أشار العلامة السعد التفتازاني في كتابه « متن مقاصد الطالبين في علم أصول عقائد الدين » إن الإمامة هي رئاسة عامة في أمر الدين والدنيا خلافة عن النبي . وقال العلامة الفقيه أبو الحسن الماوردي في كتابه « الأحكام السلطانية » الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا وكلام سائر علماء العقائد والفقهاء من جميع مذاهب أهل السنة لا تخرج عن هذا المعنى ، إلا أن الإمام الرازي زاد قيدا في التعريف : فقال ، هي رئاسة عامة في الدين والدنيا لشخص واحد من الأشخاص .

وواجه العلامة فريد وجدي هذا المفهوم الذي جرى عليه صاحب « الإسلام وأصول الحكم » فقال إن قاعدة فصل الدين عن السياسة هي قاعدة أوربية محضة سبب حدوثها أن الدين في أوربا توصل إلى تكوين سلطة مستبدة قادت العامة والملوك فصبرت الحكومات قرونا تحت نيرها ثم بدأت في إلقائه عنها ، ونشأت من ذلك حروب حتى تغلب الآخرون . وقرروا فصل الدين عن السياسة فهل تنطبق هذه القاعدة على ديانتنا الإسلامية في شكلها الخالص .

ليس في كتابنا « أي القرآن » أن يكون لنا هيئة رئاسة دينية بإزاء هيئة رئاسة دنيوية ، بل أن الإسلام رمى إلى هدم ما كان يسمى بالسلطة الدينية وقوض كل أساس يمكن أن تبني عليه تلك السلطة ، والإسلام قانون عام للأفراد والأمم على مثال القوانين الأخلاقية المعروفة ، ولكن مع هذا الفارق الكبير ، وهو أن الإسلام قانون شامل لجميع مطالب الروح والجسد وقابل للانطباق على كافة الأمم بتوحيد مراميها ومقاصدها . معنى فصل الإسلام عن السياسة فصل الأخلاق العامة عن السياسة ولا يقول بهذا عاقل .

رد الدكتور منير العجلاني على كتاب على عبد الرازق كتاب صدر ١٩٤٩ « عبقرية الإسلام في أصول الحكم » .

جاء به : نشر قاض مصرى منذ سنوات كتاب أسماه « الاسلام وأصول الحكم » زعم فيه أن أصول الحكم ليست من الدين فى كثير ولا قليل ، فللمسلمين أن يختاروا لأنفسهم نوع الحكم الذى يرضى أذواقهم ، والأمر متروك لاجتهادهم الخاص لا يلزمهم فيه الدين بشىء ، ولا يحاسبهم منه على شىء ، فان أصول الحكم كانت أهون عند محمد (ص) من جناح بعوضه .

وقال أن هذه المزاعم واضرابها هى التى حفزتنى إلى الكتابة فى تاريخ الحكم الاسلامى ، ذلك أنى التمست جوابا عليها من الكتب التى تداولتها الأيدى فى هذا الفن فلم أجده ، وإنما وجدته متفرقا فى كتب الأدب والتاريخ والتفسير والحديث والسير .

وقال الأستاذ الإمام محمود شلتوت :

خلاصة الحكم على الكتاب أنه كتاب وضعه صاحبه بحكم العاطفة التى من شأنها أن تسير خلف خيال الشعر وروعة الخطاب لا بحكم العقيدة التى تقتفى قوة الحجة والبرهان ، قال الأستاذ : أن مركز الخلافة منذ ابى بكر إلى يومنا هذا كانت دعامته التى يرتكز عليها القوة وسياجه الذى يصونه القهر والغلبة ، وقد فاته أن يكلف نفسه عناء البحث عن الأمثلة والنظائر فى قريب التاريخ وبعيده وأن يفرق بين أخذ الخلافة بالقوة والقهر وبين إحاطتها بعد تشييدها بالمتابعة الاختبارية . بما يبعث الرهبة فى نفوس الرعية حتى تأمن غائله البغى والخروج عليها وحتى تكون على إستعداد تام لجهاد الأعداء فى حدود الشريعة ولهذا السر وحده وجدت القوة ولم تكن لأخذ الخلافة واعتلاء عرشها . بل كل خلافة ظهرت فى العالم وكانت دعامتها القهر والغلبة لغالب أهل الحل والعقد من الأمة فهى خلافة باطلة شرعا .

وقال حافظ عوض صاحب جريدة كوكب الشرق : نحن فى مقدمة الذين ينصرون حرية الرأى ويدفعون عنها بكل ما يملكون من حجة وقوة ، وإذا كان من حق الإنسان أن يبدى رأيا فى مسألة إجتماعية أو قضائية فليس من حقة أن يعمد إلى هدم عقيدة وأمر أجمع عليه المسلمون منذ ظهور الإسلام ، وإذا كان الشيخ على شجاعا فليست الشجاعة أن يخرج على الاجماع فى مسألة دينية ، وإذا جاز للمجتهد البحث فى المسائل الإجماعية فلا يجوز له أن يخرج عما آمن به أهلوه وسلفاؤهم من عقائد الدين .

* * *

وخلاصة ما ذهب إليه الشيخ على عبد الرازق هو :

« جعل الشريعة الإسلامية شريعة روحية محضة لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ فى أمور الدنيا » والحق إن الدين الإسلامى بإجماع المسلمين هو ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم من عقائد وعبادات ومعاملات لإصلاح أمور الدنيا والآخرة ، وأن كتاب الله وسنة رسوله مشتملة على أحكام كثيرة فى أمور الدنيا وأحكام كثيرة فى أمور الآخرة .

وواضح من وجهة نظره أن الشريعة الإسلامية عنده شريعة روحية محضة جاءت لتنظيم العلاقة بين الإنسان وربه فقط ، أما ما بين الناس من المعاملات الدنيوية وتدبير الشئون العامة فلا شأن للشريعة به وليس من مقاصدها . وبذلك شطر الدين الاسلامى شطرين وألغى منه شطر الأحكام المتعلقة بأمور الدنيا » .

وليس شك أن هذا المفهوم يخالف أساساً لجوهر الإسلام ، أما الخلافة نفسها كنظام حكم فليست موضع النظر فى هذا البحث .

٤ — شبهة تحرير البحث الأدبى من الدين والقومية

من الشبهات التى لقيت رواجا واسعا محاولة فصل البحث الأدبى عن مقومات الدين والقومية يقول طه حسين : نحن حين[1] نستقبل البحث فى الأدب العربى وتاريخه علينا أن ننسى قوميتنا وكل مشخصاتنا وننسى ديننا وكل ما يتصل به، وأن ننسى ما يضاد هذه القومية وما يضاد هذا الدين ، يجب ألا نتقيد بشىء ولا نذعن لشىء إلا مناهج البحث العلمى ، ذلك أننا إذا لم ننس قوميتنا وديننا وما يتصل بهما فسنضطر إلى المحاباة وإرضاء العواطف» ويرد على هذه القضية : ثلاثة من أعلام الرأى والفكر والبحث :

١ — محمد الخضر حسين

كان ينبغى على الباحث أن يقول « وننسى الأديان » لأنه يريد أن يضع فى أذهان القراء أنه أصبح عن الدين فى ناحية والإضافة فى قوله « ديننا » يقتضى أن يكون قد أثبت لنفسه دينا ولا يتجاوز هذا لغة الإضافة فى قوله « قوميتنا » . .

ولو نسى المؤلف قوميته ودينه لما تطوع فى البعد عن الحقائق هذه الغاية ، ولكنه ربط قلبه بعواطف تضاد هذه القومية وهذا الدين ، فاضطر إلى محاباتها وإرضائها .

---

(١) ك / فى الأدب الجاهلى ، ك / فى الشعر الجاهلى : لطه حسين .

لقد كان القدماء يستقبلون البحث بعقولهم ولم يروا أنفسهم فى حاجة إلى التجرد من دينهم لأن حقائقه الناطقة لا يعترضها العلم فى كبير أو صغير ، ولو فرضنا إن اتقان البحث يتوقف على التجرد من الدين وصنعوا ما صنع المؤلف لعـادت بهم أحلامهم الراجحة إلى لباس التقوى ولم يرزأهم العلم من دينهم شيئاً . ولم يرزأهم دينهم من العلم نقيرا .

٢ — محمد فريد وجدى

أصبح يعز على المعاصرين أن يحصلوا للدين أو لما يتصل به سلطاناً على مناهجهم العلمية ، وأضحى من لا يـكون على أقصى حد من حدود الحرية الفـكرية غير جدير بالثقة لتقيده بآراء يعدها مقدسة ، ويحاول أن يخضع كل حقيقة لسلطانها ، ونحن نعذرهم فى هذا الشعور ، لأنهم لا يعرفون الإسلام ، ولا يدرون أنه سن منهاجاً للبحث عن الحقائق ، ليس وراءه مرى ، وإن كان المانع الأنفة من الاتباع ، فالإتباع حاصل لديكارت ، وهل فرق فى التبعية بعد أن يقال هذا قرآنى وهذا ديكارتى .

أما أنا فلا أجد محلا للأنفة من إتباع المذاهب الإصلاحية على الإطلاق ، وإن كنت أجد فرقاً بين إعلان تبعيتى لمذهب ديكارت وتبعيتى لمذهب القران ، أما القرآن فهو كتاب الأمة التى أنا منها وبينى وبينه كل أنواع الصلات المعنوية التى تربط الإنسـان بشىء من الأشياء ، وقد سبق ديـكارت بعشرة قرون ، وأسلوبه أدق من أسلوبه وأجمع لوجوه الإحتياط منه . فالقرآن يؤيده فى مذهبه هذا حين ينعى على المستأثرين بالأهواء ، وفى نسيان قوميته وكل مشخصاتها . ويزيد القرآن على هـذا التوصية بعدم الخوض فيما لا نعلم ، ويقرر بأن الانسان مسئول عن اعمال حواسه وقلبه فى معالجة الباطل ، وقد تجاوز القرآن حدود كل مذهب فلسفى فعد الإنسان مسئولا حتى عن الخواطر ، فإذا كان لديـكارت منهج فى البحث عن الحقائق عرف بالمنهج الديكارتى . فإن للقرآن منهجاً نسميه بالمنهج القرآنى وقد قابلناه بمنهج ديكارت فبزه وزاد عليه ، فيـكون لا محل لطلب الدكتور أن ينسى المسلم دينه فى أثناء البحث عن الحقيقة ، فإن ديناً يخوله كل هذه الحرية فى البحث ويهديه لهذا المنهج من التثبت جدير أن يجعله دستوره فى كل ما يتصدى له من

أنواع العلوم . إنما يخشى من تأثير الدين على مثل هذا البحث وهو « الأدب » إذا كان من الأديان التى تعاكس حرية البحث فى أصول الجماعات وفى درجاتها من الإرتقاء وفى مكانتها بين الأمم وفى تأثيرها العالى وفى مصادر لغاتها وفى قيمة آدابها . ولكن إذا كان الدين الاسلامى ينص على أن الأمم كلها سواء ، وأنه لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح ، وعلى أن الباحث يجب أن يتبع الحق حيث كان ، وعلى أنه يجب أن ينظر فى مصادر المعرفة ليتصيد الحق فى جميع مظانه ، وعلى وجوب الحكم بالعدل ولو على النفس والأقربين ، وعلى أن كل الأمم سواء فى تحمل تبعة أعمالها فلا محاباة ولا استثناء ، وعلى أن الانسان يجب أن يخضع لسلطان الدليل لا للموروثات ولا للأوهام ، قلنا ولكن إذا كان دين كالدين الاسلامى ينص على هذا كله فكيف يجب نسيانه فى أثناء البحث ، وهو أكمل دستور عرف عن الباحثين فى الحقائق إلى اليوم . وبأى مرجح نجعل الأسلوب الديكارتى نصب أعيننا فى أثناء بحث ما نريد بحثه ونفخر بالإنتماء إليه ولا نجعل الأسلوب القرآنى نصب أعيننا فى البحث ونباهى بالجرى عليه . وهل لى وأنا أرى فى كتاب الدكتور طه أخطاء كثيرة ، أن أرفض الجرى على مذهب ديكارت وعلى تناسيه وتجاهله لأن الدكتور أعلن أنه من أخص أشياعه فلم يحسن الجرى عليه باعتماده على حكايات كتب المحاضرات التى لا يقوم على ثبوتها شبه دليل بل التى يقوم ألف دليل على مناقضتها للواقع .

يقول الدكتور طه : لنجتهد فى أن ندرس الأدب العربى غير حافلين بتمجيد العرب أو النض منهم ، ولا مكترثين بنصر الاسلام أو النعى عليه ولا معنيين بالملاءمة بينه وبين نتائج البحث العلمى والأدبى .

نقول أن هذا الكلام لا غبار عليه وهو مذهب كل طالب لتحقيقه إلا قوله « ولا مكترثين لنصر الاسلام أو النعى عليه » فان مثل هذا القول لا يصح إطلاقه على دين لا مرمى له إلا إيصال الإنسان إلى الحقيقة ، وهو لذلك ينهج له مناهج نز بها الفلاسفة وفيهم ديكارت .

والدكتور طه إن كان يعرف مكان الاسلام من هذا المنهج كان الأولى به أن يقول أن المتقدمين ارتكبوا ما ارتكبوه من إفساد الأدب والعلم بعدم جريهم على المنهج الذى يحضهم

عليه القرآن وأنه سيجرى على ذلك المنهج الذى يوافق ماجاء بعده بألف سنة كنهج روجر بيكون وديكارت . وإذا كان لايعرف الاسلام كان يجب عليه إلا يخط حرفا واحداً فى الأدب العربى فان علاقته بآداب هذه الأمة وعقليتها وتأثيره منها مما لا يمكن إنكاره وعدم الاعتداد به على أية حال .

٣ — محمد أحمد الغمراوى

أنه ذهب إلى أن نسيان القومية والدين شرط أساسى من شروط البحث العلمى ، إن كان أراد بذلك أن على الباحث إلا يخفى بعض الحق أو يتراخى فى استيفاء الدليل العلمى محاباة لقوميته ، أو إرضاء لعاطفته الدينية ، فقد أصاب ، أما إذا كان أراد أن الإنسان لا يستطيع أن يكون ذا عاطفة قومية أو دينية قوية من غير أن يحابى أو يداجى فى العلم ، فقد أخطأ ولم يصب . أن الإنسان يستطيع أن يراعى الدقة العلمية التامة فى البحث وهو متذكر لدينه كل التذكر ، ويعتقد بصحته كل الإعتقاد ، غير مجوز على قرآنه خطأ أو على توراته ، بل أن التدين الصحيح يزيد الباحث المخلص أن أمكن حرصا على الحق واستمساكه به إذا وصل إليه ، أن الباحث المتدين بين محبين فى الحق ، دينه وعلمه ومبغضين فى الباطل : دينه وعلمه كذلك، ولا خوف عليه مطلقا أن يخفى بعض الحق ، أو يدلس فى البحث محاباة لدينه إذ ليس الحق يخاف على دينه ولكن الباطل ، وهو يعلم أن دينه حق، يعلم ذلك علم مستيقن ، ويعلم أن العلم قائم على قاعدة إستحالة التنافى بين أجزاء الحق ، فهو لا يخشى أبدا أن يكشف البحث الصحيح عن حقيقة تنافى دينه ، ولذلك يمضى فى أبحاثه مطمئنا متبعا أقوم الطرق فى البحث والتفكير ، لا لأن هذا هو الطريق الوحيد للوصول نتائج صحيحة فحسب ، ولكن لأن هذا فى إعتقاده هو الطريق الوحيد الذى لا يؤدى إلى تخالف بين العلم الذى يبحث فيه والدين الذى يؤمن به . فالتدين الصحيح والتفكير العلمى الصحيح ممكن اجتماعهما إذن ، وكثيرا ما اجتمعا ، كما أن العاطفة العلمية القوية والعاطفة الدينية القوية لا يتعارضان بل يتضافران على خدمة العلم وتبعثان على الاخلاص فى البحث » .

• — شبهة الخلاف بين التاريخ والقصة فى القرآن

قال مؤلف « الفن القصصى فى القرآن » أن قصة موسى فى سورة الكهف[1] لم تعتمد على أصل من واقع الحياة ، بل ابتدعت على غير أساس من التاريخ . وأن ما تمسك به الباحثون من المستشرقين ليس سببه « جهل » محمد بالتاريخ بل قد يكون من عمل الفنان الذى لا يعنيه الواقع التاريخى ، ولا الحرص على الصدق العقلى ، وإنما ينتج من عمله ويبرز صورته بما ملك من الموهبة الفنية والقدرة على الابتكار والاختراع والتغيير والتبديل .

وأشار أحد الدكتور أحمد أمين إلى مفهوم رأى صاحب « الفن القصصى فى القرآن » فقال : أنه يلمح بتكذيب النبى فى أن القرآن موحى به من الله موهما أنه من تأليف محمد ، وأن ما فيه من القصص خاضع لما يخضع له الفن من خلق وابتكار من غير التزام بصدق التاريخ والواقع . وأن محمد فنان بهذا المعنى . وأن الأنبياء أبطال ولدوا فى البيئة وتأدبوا بآدابها وخالطوا الأهل والعشرة ، وزعم أن القرآن متناقص ، ويرى الكاتب أن القصة فى القرآن لا تلتزم الصدق التاريخى ، وأنها تتجه كما يتجه الأدب إلى تصوير الحادثة تصويرا فنيا بدليل التناقض فى رواية الخبر الواحد ، كما أن الاجابة على الأسئلة أن يوجهها المشركون للنبى ليست تاريخية ولا واقعة وإنما هى تصوير لواقع نفسى من أحداث مضت أو أغرقت فى القدم » .

* * *

وقد رد الفكر العربى الاسلامى هذه الاتهامات وكشف دوافعها ، وصحح أخطائها فى عديد من الأبحاث والمقالات التى دحضت هذه الشبهات التى هى أصلا شبهات لكتاب الغرب والمتعصبين نقلتها أقلام عربية وردتها .

(١) أخبار اليوم ٢٠/١٠/١٩٤٧ .

٦ — جذور الشعوبية

كان موضوع الشعوبية من الموضوعات التى اختلفت فيها الآراء وتنوعت واضطربت، وقد عالج كثير من الكتاب «مفهوم» الشعوبية فى الفكر العربى وكشفوا عن جذورها . ومن هؤلاء الدكتور عبد العزيز الدورى ، والعلامة محمد جميل بيهم ، وكثيرون . . . .

١ — يقول الدكتور الدروى أن «الشعوبية» : حركة شاملة وجدت انصارها إذ وجدت دعاتها ، وهى حركة يتضح فيها العداء للعروبة حينا وللاسلام حينا ، ونرى جهدها فى كل حقل لاضعاف الاسلام الذى حمل العرب رسالته قبل غيرهم . ويتميز بنبرة عنصرية ، وبالعودة إلى احياء التراث القديم (قبل الاسلام) للشعوب الأخرى ، فى حين أن حملة الراية العربية الاسلامية انكروا كل نظرة عنصرية .

ولما كانت الأصول الثقافية العربية من لغة وشعر وأمثال وثيقة الصلة بتكون العرب وبحياتهم، فأنهم دافعوا عنها وعنوا بها حين حاولت الشعوبية قطع الجذور .

كما أن حركة الغلو تكون جانبا آخر للنشاط الشعوبى فى الحقل الدينى ، لأن الغلو ينطوى فى أساسه على عقائد وآراء غير أسلامية مزجت ببعض المفاهيم الإسلامية ليتسع المجال لها للظهور أحيانا . وقد نشطت الشعوبية فى دور عز العرب وفى فترة سيادة الخلافة فلما تشقق سلطان العرب ، وتضعضعت الخلافة ، بالحركة الانفصالية، هدأت سورة الشعوبية ، وخففت هجماتها ، ومن الطبيعى أن تنشط الشعوبية فى دور نهضة العرب وتوسع الإسلام .

وسلكت الشعوبية سبلا عديدة من ظاهر ومستور ، وكلها لها أثرها وخطرها فهى تريد أن تربك العقائد وتشوه المفاهيم الاسلامية لتزعزع قاعدة المجتمع وأساسه ، وهى تنفذ باسم العقل والمنطق إلى تحوير معنى النصوص والمفاهيم الاسلامية إذ تنقل إلى التأويل الذى يخرج النصوص عن معانيها الاسلامية إلى مفاهيم غريبة بعيدة عن الاسلام .

ونحن نحس تشدق الكتاب الشعوبيين بالثقافات الاعجمية ، وتمجيدهم لكل ماهو خارج نطاق الثقافة العربية الاسلامية ، ونرى تهكمهم على هذه الثقافة وسخريتهم بأصولها

ونرى أن هذا الموقف يرافقه جهل بأصول الثقافة العربية الاسلامية ، وتعصب أعمى للثقافات الأعجمية وهم يفعلون ذلك باسم الحرية الثقافية وتحت ستار الفكر المتحرر ، والشعوبية تندد بالمثل الخلقية وبالقيم العربية الاسلامية ، وتذهب إلى التحلل وتنزع إلى المجون وتدعو إن نظرات اجتماعية وخلقية تتعارض كليا مع القيم العربية الاسلامية ، والشعوبية تفعل ذلك باسم الظرف والحضارة . وتتبجح به بدعوى الحرية الاجتماعية وهى تدرك أن هذا سبيل فعال لتفكيك الروابط ولإضعاف الكيان الاجتماعى. وتحاول الشعوبية طمس الذات العربية وقطع الجذور تاريخيا وثقافيا ، وتفتيت الوحدة ، وتهجم العرب القدامى وتظهرهم بمظهر التأخر والهمجية وتسخر من ثقافتهم وتشكك فى شعرهم بما تدخله فيه من انتحال ، وتهاجم العربية ، وهى بعد ذلك تهاجم المروءة العربية القديمة بما فيها من فروسية وكرم ووفاء وفصاحة . وتنكر دور العرب فى حمل الرسالة الانسانية وتحاول طمس دورهم الحضارى فتدعى أن الحضارة العربية الاسلامية أن هى ألا اقتباسات من الأعاجم ، وتريد بذلك زعزعة الثقة بالذات ، وصرف الانتباه إلى الثقافات الأعجمية وهى تفعل ذلك فى وقت تحاول فيه إحياء التراث الآعجمى وتمجيد الآثار الأعجمية وتعمل على بثها فى المجتمع العربى الاسلامى وعلى تحويله عن ذاته . وإذا كان لنا من التاريخ خبرة فأنها تشير إلى رسوخ الذات الحضارية العربية وانتصارها وإلى اجتيازها المحنة وهى اقوى جذوراً وأكثر وشمولا . ولكن هذا لا يعنى زوال الشعوبية .

يقول العلامة محمد جميل بيهم : (لقد) وضع الشعوبيون كتبا طافحة فى المثالب ضد العرب ، وتسرع بعضهم إلى المغالاة فى نقدهم وذلك يتشجع من خاصتهم ، والف (علان) الشعوبى كتابافى مثالب العرب . فقد برزت الشعوبيات الحربية على شكل واضح حينما انبرت القومية العربيه باجلى مظاهرها إلى إثبات وجودها من المحيط الاطلسى إلى الخليج العربى ، وإلى الاعراب عن تصميمها على التحرر من الاستعمار .

٧ — دور الشعوبية فى التاريخ

من القضايا التى آثارها بعض الذين يكتبون بالأمة العربية جريا وراء نظريات التغريب ومتابعة لمناهجه، قضية التاريخ العربى فى محاولة إتهامه وانتقاصه، وقد عرض الدكتور عبد العزيز الدورى لهذه القضية قال: ركز الشعوبيون قسطا كبيرا من اهتمامهم على تشويه التاريخ العربى والدس عليه ومهاجمته. ومن هنا قام المؤرخون بدور حيوى فى الرد على الشعوبية رداً مباشراً من جهة وغير مباشر من جهة أخرى ؛ فراحوا يفسرون دور العرب فى التاريخ، وراحوا يتبعون دسائس الشعوبية، ونشطوا بصورة عامة وبروح جديدة فى حقل التاريخ العربى، ليوضحوا أن العرب أمة ذات تاريخ يكون سلسلة متصلة الحلقات قبل الاسلام وبعده وأن العرب حملوا الرسالة الحضارية لغيرهم فى التاريخ.

وللتمثيل على ذلك نذكر أن البلاذرى ألف فتوح البلدان وعبر فيه بوضوح عن دور العرب كأمة فى نشر لواء الاسلام وفى خلق دار الاسلام وفى موقفهم من الشعوب الأولى التى دخلت الدين فيما بعد. وكتب (أنساب الأشراف) ليبين دور الرؤساء والزعماء فى التاريخ العربى وأثرهم فى تكوين الدولة العربية الكبرى، وألف ابن قتيبة (المعارف) ليبين اتصال حلقات التاريخ العربى والثقافة العربية، وليبين أهمية التاريخ لكل مثقف، والأصمعى ألف فى تاريخ العرب قبل الاسلام ليبين أنهم أناس لهم ماض حضارى. أن تاريخنا يلعب دوراً كبيراً فى حياتنا وأن بعض أحداثه لا تزال حية فى تفكيرنا وتصرفاتنا. وأن فهم الأمة لذاتها ومجابهتها المعضلات القائمة والاستعداد للمستقبل الذى تنشده لنفسها يعتمد إلى حد كبير على فهمها لتاريخها فهما صحيحا ويستند إلى دراستها لهذا التاريخ.

٨ — فلسفة التاريخ

حاولت كثيرا من الدراسات الغربية الانتقاص من قدر فلسفة التاريخ العربي الإسلامي والغض من قدره ، ومحاولة إثارة الشبهات حول مواقفه ، ومواقعه وغاياته وهذه محاولة لمواجهة هذه الشبهات :

١ — يقول (البيان وايد غراى) : أما وجهة نظر المسلمين للتاريخ فإنها نظره بناءه ، فهم يرون أن البشرية إذا اعتنقت تعاليم الوحى (القرآن) فإن إرادتها حينئذ تتطابق وإرادة الله ، ولا يعود يوجد من يعصى أوامره ، ويعم الإخاء بين البشر ، ومن صفات المؤمن أنه صابر ويعلم أن الأمر لإرادة الله . وقد قدموا أفضل فيلسوف للتاريخ ، ممثلا بالفيلسوف « ابن خلدون » وكان أول فيلسوف حلل درجات تأثير المحيط والدوافع النفسية التى تعمل عملها فى الحياة الإنسانية وتسبب نشوء الحضارات وانقراضها ، ونشاهد بوجه عام تيارين يتنازعان السيطرة على أفكار فلاسفة التاريخ المسلمين : المفهوم الحركى والمفهوم القدرى ، وكلاهما تظهر بوضوح فى تفسير تقلبات القوى الاجتماعية . وعلى العكس من ذلك كان الفلاسفة الهنود قد قطعوا كل صلتهم بكل ماهو وقتى وفورى وقدموا تعاليم إنهزامية وإنعزالية ، والتاريخ بالنسبة للبوزية والهنود ليس إلا وهما .

٢ — يقول العلامة تريتون : فى كتابه : « الإسلام عقيدته وعبادته » .

« إذا صح فى المقول أن التفسير المادى يمكن أن يكون صالحا فى تعليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى ، وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها ، فإن هذا التفسير المادى يفشل فشلا ذريعا حين يرغب فى أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم ، وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم ، وثبات إقدامهم ، فلم يبق أمام المؤرخون إلا أن ينظروا فى العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة ، فرأو أنها تقع فى هذا الشىء الجديد ألا وهو الإسلام » .

٣ — ويقارن العلامة ولفرد كانتول سميث فى كتابه « الإسلام فى التاريخ الحديث » بين إحساس الهندى والمسيحى والمسلم والماركسى تجاه التاريخ فنقول : إن الرجل الهندى لا يأبه للتاريخ ولا يحس بوجوده ، لأن التاريخ هو ما سجله البشر من أعمال فى عالم المادة وعالم الحس ، والهندى مشغول دائما بعالم الروح ، عالم اللانهائية ، ومن ثم فكل شىء فى عالم الفناء المحدود لا قيمة له عنده ولا وزن . والتاريخ بالنسبة إليه شىء ساقط من الحساب . أما المسيحى فيعيش بشخصية مزدوجة أو فى عالمين منفصلين لا يربط بينهما رباط ، فالمثل الأعلى عنده غير قابل للتطبيق ، والواقع البشرى المطبق فى واقع الأرض منقطع عن المثل الأعلى المنشود ويسير هذان الخطان فى نفسه متجاورين أو متباعدين ولكن بغير اتصال ، والتاريخ فى نظره هو نقط ضعف البشر وهبوطه وانحرافه . أما التاريخ فى نظر الماركسى : فهو الايمان بحتمية التاريخ بمعنى أن كل خطوة تؤدى إلى الخطوة التالية بطريقة حتمية ، ولكن لا يؤمن إلا بهذ العالم المحسوس ، بل لا يؤمن فى هذا العالم إلا بالمذهب الماركسى وحده ، وكل شىء عداه باطل ، والماركسى يتبع عجلة التاريخ ولكن لا يوجهها ، ولا يقيسها بأية مقاييس خارجة عنها ، أما المسلم ، فإنه يحس بالتاريخ إحساساً جاداً ، أنه يؤمن بتحقيق ملكوت الله الأرض ، يؤمن بأن الله قد وضع نظاما عمليا واقعيا ، يسير البشر فى الأرض على مقتضاه ، يحاولون دائما أن يصوغوا واقع الأرض فى إطاره ، ومن ثم فهو دائما يعيش كل عمل فردى أو جماعى ، وكل شعور فردى أو جماعى ، بمقدار قربه أو بعده من واقع الأرض لأنه قابل للتحقيق .

والتاريخ هو فى نظر المسلم سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت الله فى الأرض ، ومن ثم فكل عمل وكل شعور فرديا كان أو جماعيا ذو أهمية بالغة لأن الحاضر هو نتيجة الماضى والمستقبل متوقف على الحاضر . فالمفهوم الإسلامى واضح الايجابية ، فبينما غير المسلم يضحى بنفسه لأنه لا يريد أن تمر عجلة التاريخ الخاطئة وهو حى وسامح لها بالمرور ، فهو يقف فى طريقها حتى تدوسه وتقتله ، ويكون ذلك أعلى قربان يتقدم به إلى الله

فان المسلم حين يضحى بنفسه ، فنى حسه أن هناك نظاما الهيا راد أن يطبق فى واقع الأرض ، وفى حسه وهو يضحى أنه يدفع عجلة هذا النظام خطوة إلى الأمام .

٤ — ويرى هاملتون جب : أن التاريخ الاسلامى سار فى وجهة معاكسه للتاريخ الأوربى على نحو يثير الاستغراب ، كلاهما قام على انقاض الامبراطورية البريطانية وفى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ولـكن بينهما فرقا أصيلا ، فبينما خرجت أوربا على نحو متدرج لا شعورى ، وبعد عدة قرون من الفوضى الناجمة من غزوات البرابرة إنبثق الاسلام إنبثاقا مفاجئا فى بلاد العرب وأقام بسرعة تكاد تمز على التصديق فى أقل من قرن من الزمان إمبراطورية جديدة فى غربى آسيا وشواطىء البحر الأبيض المتوسط الجنوبية والغربية . وقد أقام الاسلام نظاما سياسيا شمل جميع المناطق المقسمة ، ومن بينها فارس ، وواجه مهمة أخرى وهى إدخال هذه المناطق فى نظام ثقافى دينى مشترك قائم على مفهومه العالمى الشامل ، فكان عليه من أجل تحقيق ذلك أن يقاوم تأثير المفهوم العالمى السابق له فى غربى آسيا والنصف الجنوبى من حوض البحر المتوسط ويضعفه إلى أقصى حد ممكن ويحطم الذرادشتيه والديانات الثنوية فى فارس وبين النهرين ويقيم حاجزا فى وجه انتشار البوذية فى أواسط آسيا . » أ . هـ

المراجع والمصادر

- العلامه محمد فريد وجدى : دائرة معارف القرن العشرين
- الدكتور محمد حسين هيكل : حياة محمد ، فى منزل الوحى
- السيد محب الدين الخطيب : مجلدات مجلة الفتح . ومجلة الزهراء
- الدكتور حسين الهراوى : المستشرقون والاسلام
- الدكتور مصطفى السباعى : السنه ومكانها فى الفقه الاسلامى
- العلامة محمد المبارك : الامة الذاتية فى معركة تحقيق الذات
- الأستاذ أحمد حسين : الامة الانسانية
- الدكتور أحمد الحوفى : تحت راية الاسلام
- الدكتور محمد محمد حسين : الاسلام والحضارة الغربية
- الدكتور عمر فروخ : التبشير والاستعمار

وذلك بالإضافة إلى المراجع الواردة فى هوامش الكتاب ولاستكمال البحث فى مجال الفكر العربى الإسلامى وما وجه إليه من اتهامات يمكن مراجعة آثار المؤلف :

× أضواء على الفكر العربى الإسلامى (المكتبة الثقافية)
× صفحات من أمجادنا (سلسلة كتب إسلامية للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية)
× الفكر العربى المعاصر فى معركة التعريب والتبعية الثقافية
× معالم الفكر العربى المعاصر } فى مجلد واحد
× الثقافة العربية فى معركة التعريب والشعوبية } فى مجلد واحد